المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

جون ر. سيرل

بناء الواقع الاجتماعى

من الطبيعة إلى الثقافة

ترجمة وتقديم: حسنة عبد السميع

مراجعة : إسحاق عبيد

1757

بناء الواقع الاجتماعى

من الطبيعة إلى الثقافة

تأليف: جون ر. سيريل

ترجمة وتقديم: حسنة عبد السميع

مراجعة: إسحاق عبيد

2012

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1757
- بناء الواقع الاجتماعى: من الطبيعة إلى الثقافة
- جون ر. سيرل
- حسنة عبد السميع
- إسحاق عبيد
- الطبعة الأولى 2012

هذه ترجمة كتاب:

The Construction of Social Reality
By: John R. Searle

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

سيرل، جون ر .
بناء الواقع الاجتماعى من الطبيعة إلى الثقافة/
تـأليف: جـون ر. سيـرل؛ ترجـمـة وتقـديـم: حـسنة
عبد السميع؛ مراجعة إسحاق عبيد . ـ القـاهرة :
الهيئة المصرية العامة للكتاب٢٠١٢ .
٢٩٦ ص ؛ ٢٤ سم. ـ
تدمك ٢ ٢٦٨ ٢٠٧ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ التغير الاجتماعى.
أ ـ عبد السميع، حسنة. (مترجم ومقدم)
ب ـ عبيد، إسحاق. (مراجع)
ج ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ١٠٠١١/ ٢٠١٢
I. S. B. N 978 - 977 - 207 - 268 - 2
ديوى ٢٤, ٣٠١

المحتويات

تقديم المترجمة

هل اللغة علامة على الأفكار؟ أو هى رمز لوجود مادى تجسده الأشياء؟ وهل تعكس ماهية المعرفة وتعي، إنتاجها؟ العلاقة بين الفكر واللغة والواقع. والسؤال عن المعرفة والإحساس بالوجود، قد استمر طرحها ولا يزال.

لقد ارتبطت المعرفة بالقوة المركزية للدال اللغوى، تلك السلطة التى تشبع الرغبة فى السيطرة والنفوذ، لا سيما حين نتصور أننا "نحن" الذين نصنع الوجود، بما يمنحه لنا الدال اللغوى (فاللغة بيت الوجود) و(لا شىء خارج النص) و(لا وجود إلا من خلال ما ندركه).

أراد سيرل أن يعيد للواقع هيبته مثيرًا السؤال حول وجود واقع خارجنا لا يعبأ بوجودنا ولا بلغتنا، غير أنه لا يتعذر علينا أن نقاربه. بعد أن أزعجته مبالغة أصحاب النزعة المثالية، وخفاء اللاوعى مستعصيًا على الرصد، وأرَّقه التوسع الحداثى فى مفهوم العلامة، واستحالة المعرفة، والتلاعب باللغة، والتأرجح بين الإخفاء والبوح، والانتهاك، وخداع الشكل. أرقته نزعات الشك، كما أزعجه تضييق اللغويين حدود اللغويات،مقللين من شأن "الكلام" لحساب "اللغة" ومن قيمة القصد العقلى لحساب الاستجابات الفطرية. وقد دفع بعض أنصار الحداثة أصحاب "نظرية أفعال الكلام" زاعمين أنه لا مساحة للغة الخيال عندهم ولا اعتراف بالمجاز، زاعمين أن مصدر خطأ جون سيرل يكمن فى أنه لم يفهم الفرق بين الفلسفة الأنجلوأمريكية وفلسفة القارة الأوروبية. مما دفعه لتصور أن اللغة لا تعيش إلا فى وضوح، وفى هذا اجتراء على اللغة وتصور لإمكان السيطرة عليها. ولا ينطبق هذا بحال على لغة الأدب، لأنها تتوهج فى المجاز؛ ويتضاعف معناها بالإزاحة والتكثيف والإعتام. كما أنه لا يتفق مع لغة الفلسفة التى تتناول المجرد، وتخلف وراءها مساحات من الصمت.

ينطلق الفكر الإنسانى فى كل عمل ثقافى بدافع من القلق والسؤال الملح. وفى قراءتنا فى أى عمل ثقافى نبحث عن السؤال الذى أرّق صاحبه، وعن الطريق التى سلكها بحثًا عن الإجابة. وعن الموقف الذى اتخذه، وعن النتيجة التى قاده إليها بحثه، وعن موضعه من حركة الفكر ومساره.

ويدخلنا تأمل المعرفة التى تشكل الوعى، والمفاهيم الخاصة بالوجود، والخبرة، إلى فضاء مباحث اللغة. لأن اللغة أداة المعرفة التى تحدد علاقتنا بالوجود وبالطريقة التى نفكر ونحيا بها. فالكلمات علامات ورموز تتشكل بها وفيها رؤيتنا العالم.

لقد بلغ مجال اهتمام النشاط الفلسفى باللغة عصره الذهبى فى القرن العشرين، فتحول من فلسفة اللغة ـ بوصفها جزءا من القضايا الكلية ـ ومن سحرية الكلمة، ثم قداستها، ثم دورها السياسى والاجتماعى، ومن المطلق للعقلى، إلى بحث لغة الفلسفة بوصفها لغة الفكر والمعرفة لإزالة الالتباس وسوء الفهم[١]؛ من هنا احتلت مشكلة المعنى الفلسفى موضعا هاما من النشاط الفلسفى الذى اهتم بتعريف المعنى ، وتحديد سماته وطبيعته والموقف اللغوى، واهتم المناطقة بعلاقة القضية بالدلالة اللغوية من جانب[٢]. واهتم السؤال المعرفى عن الصلة بين الواقع والفكر واللغة بعلاقة اللغة بالإدراك وبتمثيل الوجود خارج ذواتنا فى أشكال تعبيرنا، وبوضوح العلامة وإعتامها، وبمضاعفة المعنى[٣]. فأدت هذه المباحث إلى ظهور: علم العلاماتSemiology الذى اهتم بأنظمة العلامات بوصفها منظومة تشير لذاتها وتستمد معناها من داخل منظومتها self-referential أوتتجاوز مقاصد العبارة لمقاصد الخطاب الجماعى بناء على نظامه الشفرى والدراسات البنيوية Structuralism التى تعنى بأنماط التراكيب وقوانينها الشكلية التى تبحث صلة العلامة بالبنية وضروراتها والتداولية Pragmatism التى تبحث علاقة الرموز بمستخدميها بناء على السياق وأعرافه.

ونظرية التعلق التى تعنى بالفهم المتبادل بين السامع والمتحدث داخل الجماعة المتحدثة باللغة[٤].

ولم يقتصر الاهتمام باللغة على الفلاسفة واللغويين ونقاد الأدب، بل نجده قد صار أحد شواغل الفلسفة الكبرى ومحوراً من محاور اهتمامها. وقد امتد تأثيره إلى مجالات علم النفس، والاجتماع، والأنثروبولوجيا، والمنطق، والرياضيات، خاصة بعد الثورة الداروينية، ونظرية النسبية، واكتشاف الأليكترون، وغيرها من الثورات العلمية التى

دفعت للاهتمام بالمعرفة وتقنينها، وتقنيح مصلحاتها[٥]. وامتد هذا الطموح إلى مجال المعرفة الإنسانية لا سيما فى مجال علم الاجتماع؛ إذ شهد رغبة فى ضبط معرفته، كى تتسم كذلك بطابع الموضوعية على غرار العلوم الطبيعية كالبيولوجيا والفيزياء[٦]. راود هذا الحلم الفيلسوف البارز جون سيرلJohn R Searle 1932 ، الذى عمل أستاذًا للفلسفة بجامعة باركلى ذ كاليفورنيا[٧].

لقد نشأ سيرل فى ظل تقاليد الفلسفة التحليلية، وتراوحت مباحثه بين مشكلات فلسفة اللغة، وفلسفة العقل، والاهتمام بدراسة الخصائص المميزة لأبنية الواقع الاجتماعى فى مقابل عالم الوقائع الطبيعية المادية، والاهتمام كذلك بالعلل المسببةcauses. وقد أدار حلقات بحثية" سيمنارات" فى مجال فلسفة العقل، والذكاء الاصطناعى، وعلم المعرفة العصبية، وعلم النفس المعرفى، وعلم الأنثروبولجيا المعرفية، ومبحث الإدراك العقلىCognitive Science. واشتهر بمؤلفاته فى مجال فلسفة العقل لا سيما: "القصد العقلى: مقال فى فلسفة العقل" ١٩٨٣م وهوأحد أشهر كتابين له. و"العقل والمخ والعلم" ١٩٨٤م، و"القصد العقلى الجماعى والفعل "١٩٩٠م، و"إعادة اكتشاف العقل" ١٩٩٢م، و"عقلانية الفعل" ٢٠٠١م وغيرها[٨].

وفى هذا المجال طور سيرل وأضاف، وترك بصمة مميزة فى مجال اهتمامه بنشاط العقل، والوعى، وعمليات الفهم، والمعرفة الذاتية. فقد رفض أصحاب النزعة السلوكية behaviorism عنصر الذاتية، وعدُّوا أفعالنا استجابة لمدخلات أو منبهات داخلية تدفعنا للسلوك بنحو تلقائى. ولم يقبل سيرل القول بغريزية الاستجابة وفطريتها (فودرفى اللغة والفكر[٩] وفى الجزء الخاص بالنحو الكلى Universal Grammer ـ تشومسكى)، ورفض كذلك آراء أصحاب النزعة الوظيفية functionalism ونزعة الربط Connection[١٠]، وبعض علماء مبحث الإدراك العقلى، التى تصورت عمل العقل البشرى مبرمجًا على غرار الحاسوب[١١]. وكذلك رفض أراء بعض منظرى الحداثة الذين اتهموا المعرفة فى مجال العلوم الإنسانية بعدم الموضوعية لارتباطها بما هو إنسانى معيارى وجزافى[١٢]. ورد سيرل ما وقعت فيه فلسفة العقل مؤخرًا من تشوش لهيمنة الخلط بين الأنطولوجى الذى يُعنى بالسؤال عن طبيعة الوجود، والإبستمولوجى الذى يعنى بالفهم والحقيقة والمعرفة، وخلط هذا بالعلل المسببة. والخطأ المشترك بين كل هذه المزاعم هو أنها تغفل القصد العقلى؛ فالحاسوب والاستجابات الفطرية ليس لها معنى أو قصد ، ولا لديها أفكار ومواقف[١٣].

يشير هذا المصطلح لأهم إضافات سيرل فى هذا المجال وقد ارتبطت به فلسفته فى اللغة، وفى العقل، وفى الأبنية الاجتماعية. وقد طور هذا المصطلح الذى كانت الظاهراتية Phenomenology قد عرفته من قبل فى قصدها نحو الخارج، بيد أنها تطالع الظواهر فى مرآة الشعور والحضور الذاتى الباطن[١٤]. وقد تجاوز سيرل التحليل الظاهراتى سواء فى شكله المفارق الترانسندنتالى (هوسيرل) أو فى شكله الوجودى (هايدجر)، جامعًا بين التركيب المنطقى والسببى، وموسعًا فيه، ليشمل المعنى والفهم والتفكير والتعبير عنه فى اللغة[١٥]. والقصد العقلى مصطلح لا يتعلق بالنوايا ،إنما يتعلق بخاصية يتوجه فيها العقل إلى العالم خارج ذواتنا: موجوداته entities وموضوعاته objects وأوضاعه status وحالاته states of affairs توجهًا محملاً بما لدينًا من أفكار، واعتقادات، ومخاوف، ورغبات، عن هذا العالم، ومواقفنا منه وتعبيرنا عنه، والأشكال التى نتصوره عليها ونمثل له بها represent[١٦]. وعلى هذا الجسر عبر سيرل من النموذج العقلى، الذاتى وسطوة الذهن، إلى سطوة الواقع، ومن القصد العقلى الفردى، إلى القصد العقلى الجماعى، دون أن تكون اللغة طامسة لصورة الفكر. (كما يرى مثلا فتجنشتين)[١٧]، أو تسىء تمثيل الواقع (كما يتصور مثلا هوايتهيد)، ودون استغراق فى العقل المفكر (كما يستغرق دريدا)[١٨].

فى فسلفة العقل لم يتجاهل سيرل العنصر الذاتى لصالح العنصر المادى، أو ما يطلق عليه الطبيعية البيولوجية biological naturalism فهو يرى العمليات الوظيفية العصبية neurophysiology فى المخ brain أساس النشاط الدماغى الذى يُعدُّ النشاط العقلى أسمى صوره. ويعيد سيرل اكتشاف العقل بإضافته عنصر الدافع motive لخبرات الإدراك perception. وقد رفض سيرل الزعم الحداثى باستحالة المعرفة ورفض نزعات الشك، كما رفض فكرة خفاء اللاوعى فى منطقة عميقة فى أغوار النفس تستعصى على الرصد[١٩]، وأحل محله بطريقة عبقرية فكرة يقول عنها الفلاسفة إنه ضرب نظريتين بمفهوم واحد.

الخلفية[٢٠]

تشتمل الخلفية على قدرات وطاقات capacities تختزن داخل عقولنا رصيدًا من النماذج الناتجة عن الاعتقادات والاعتبارات المعيارية ،وتدرجها داخل شبكة من الإمكانات abilities والمدارك الاستيعابية تعمل على مستوى المقاصد العقلية الواعية/ وغير الواعية ، وتمكننا من معرفة المهارات والكيفيات والفرضيات الضرورية والمستلزمة (والسيناريوهات) أو أنماط السرد الدرامية dramatic categories التى تنظم طريقة تفكيرنا وفق نماذج نفهم بفضلها الواقع والوجود خارج ذواتنا، ونتكيف معه.[٢١] على هذا النحو نجح سيرل فى تخفيف وطأة العبء الميتافيزيقى الذى نتحمله جراء تشابك المنظومات المعرفية (مطورا فكرة فتجنشتين والمصطلح habitus الذى يحمل معنى السياق، المحيط، الاعتياد).

ولأنه لا قصد عقليا بدون لغة، يمكن أن نقول إن القصد العقلى مفهوم لغوى[٢٢]، وهو يسهم فى منح أبنية اللغة فعاليتها ونجاحها satisfaction ولا صلة لهذا المصطلح بمفهوم الرضا، لكنه يقصد به استيفاء شروط التعبير عما نقصد أن نرمى إليه من وراء الدلالة الحرفية للبنية اللغوية من قصد عقلى. على هذا النحو يفرض سيرل القصد العقلى على قصد اللغة، متصورًا المعنى من منظور نفسى أكثر منه معنى يتعلق بدلالة التراكيب الحرفية. ومن ثم شغلت مشكلة المعنى موضعًا محوريًا من فلسفة جون سيرل إذ تأسست على فكرة القصد العقلى محور اهتمام فلسفته فى مجال العقل.

لقد انشغل سيرل بنظريات المعنى فى مقاربة المعنى الواقع ومفارقته له. لاسيما وقد أرّقه توسع اللغويين الحداثيين فى مفهوم العلامة، وتضييق حدود اللغويات، بالاهتمام بالكلام لصالح اللغة، وبالانشغال بالسؤال عن العلة بدلا من الانشغال بالسؤال عن الكيفية. كذلك أرقه تصورات التفكيكيين الخاصة بالدلالة المراوغة، والمعنى المرجأ، والأثر، وما تحت الكشطة[٢٣].

طور سيرل جهود أستاذه "أوستين" – فيلسوف مدرسة أكوسفورد ـ وأحد فلاسفة الاستخدام، الذين يحذرون من استبعاد اللغة من سياق الجماعة اليومى، وصاحب مفهوم الفكرة الرئيسة key concept[٢٤]، وصاحب نظرية شهيرة فى أفعال الكلام ضمنها دفتى كتابه الشهير "كيف نفعل الأشياء بالكلمات" مميزًا بين أفعال الكلام الأدائية performative والتقريرية constative ومقسمًا مفهوم الكلام لثلاثة مستويات:

المستوى الصوتى locutionary ومستوى الكلام الذى يهدف للتأثير فى السامع أو المخاطب بدفعه للقيام بفعل ما (كالوعد، والأمر، والسؤال) ? illocutionary ومستوى كلام المستمع المتأثر بالحدث الكلامى perlocutionary[٢٥] . ولا خلاف على أهمية افعال الكلام بوصفها فرعًا من فروع الأفعال الإنسانية، التى تعبر عن القصد العقلى، والأشكال التى نتمثل بها الوجود ومن ثم فتأسيس نظرية سيرل فى اللغة على نظريته فى العقل له ما يبرره[٢٦].

أسهم سيرل فى مجال فلسفة اللغة بأكثر من مؤلف منها: "أفعال الكلام:مقال "فى فلسفة اللغة" ١٩٦٩ و"التعبير والمعنى: دراسات فى نظرية أفعال الكلام"، ١٩٧٠ و"فلسفة اللغة" ١٩٧١. و"الكلمات المنقلبة رأسا على عقب" ١٩٨٣ .غير أن أهمها على الإطلاق كتابه "فى نظرية أفعال الكلام" Speech Act Theory[٢٧] حيث ناقش تصنيف أوستين أفعال الكلام وإضافته تصنيفًا آخر طور به أنماط أفعال الكلام، وقد وجه عناية كبيرة للقدرة الإنجازية illocutionary force أو ما للكلمات من نفوذ، يدفع السامع للإذعان والاستجابة، طاعة لما يطلب منه القيام به من فعل[٢٨]. ولكى يتحقق مضمون القصد فإن الخلفية، والسياقات التداولية، تضمن نجاح هذه الصيغ فى التعبير عما يرمى إليه القصد العقلى من وراء أفعال اللغة (طور سيرل فكرة كان قد طرحها فريجه من قبل رابطًا بين مضمون القصد العقلى والتفاعل مع مؤثرات البيئة التى تحدد شروط تحققه). فأفعال الكلام الأدائية الطلبية والإلزامية، بحاجة لشروط خارجية تمهيدية :كأن يكون من يعطى الأمر مثلا من مستوى أعلى، أو يملك السلطة أو الحق أو الشرعية، ولشروط داخلية: كالصدق، والإخلاص، ونية الوفاء بالوعد، والشكر الذى يعبر عن عرفان حقيقى مثلا. وافتقاد هذه الشروط يفقد الكلام مصداقيته ويدخله فى باب الكذب والمخادعة (أعطى من لا يملك لمن لا يستحق - لكى تطاع مر بما يستطاع)[٢٩]. ومن أميز إضافات سيرل فى هذا المجال الصيغة التى طرحها لنظرية التطابق- التراسل Correspondence Theory of Truth[٣٠].

التطابق Correspondence

هو علاقة ينسب على أساسها الصدق truth لهذا النوع من العبارات، حين يطابق العالم الخارجى ما ترمى إليه أفعال الكلام، وبناء عليه يقوم السامع بتنفيذ ما طلب منه. غير أن هذا الأمر من الصعب التحقق منه لأنه يتعلق بمستقبل غائب لا يمكن

ملاحظته واختباره تجريبًا، (كالوعد، والأمر، والسؤال، وأسلوب الشرط). ولا يمكننا كذلك التحقق من شرط الإخلاص لأنه داخلى ، كما أن شرط الشرعية سياقى. وفى هذه الحالة يكون (الصدق - الحقيقة) فكرة إبستمولوجية معيارية ،تعنى مقدار الثقة. لذلك فتحويل فعل الكلام الأدائى مثلًا إلى فعل كلام إخبارى تقريرى - بناءً على أن كل أمر يتضمن رغبة، وكل سؤال ينشد معرفة، وكل وعد يتضمن نية ،وكل اعتذار ينطوى على أسف - هذا التحويل لا يساوى بين الصيغتين: (أعتقد أن تغلق النافذة) و(أغلق النافذة)؛ إذ لا تشتركان فى معيار الصدق نفسه؛ لأنه لا سبيل أمامنا للتحقق من صدق مضمون الاعتقاد ومصدره ودرجته، ومن ثم قد يداخلنا الشك فيه. كذلك نجد أن صدق العبارات الطلبية مرهون بقيام السامع بالمطلوب منه (وقد وجد سيرل أنه لم ينجح بينيت Bennett ولا هيبرماس Habermas ولا آبل Apel ولا أليستون Aliston فى فهم ما قد أراده)؛ فغياب القصد العقلى يعنى غياب الشرط النفسى، الذى يميز مضمون القصد، من مضمون البنية اللغوية (فقد يصدر المتحدث أمرًا دون أن يعنى بتنفيذه وهنا يظل الأمر أمرًا وإن كان معيبًا)، وتظل وظيفة التمثيل قائمة حتى لو لم يتحقق ما تمثله[٣١]. وقد أفاد سيرل من تحول التفسير الداروينى من الغائية إلى التاريخية؛ (فالتفسير الغائى يرى أن الكائنات لكى تعيش يجب أن تكون على شاكلة بعينها، أما التفسير التاريخى فيرى أن الكائنات تعيش وتحافظ على بقائها لأنها على شاكلة بعينها)، والعبارة تحمل قصدًا عقليًا، بفضله يتحقق فعل، فاللغة ليست مجرد مؤسسة من المؤسسات، بل تعد اللغة نموذجًا إرشاديًا للجماعة الإنسانية. وبفضل الخلفية، والشبكة، وما تشتملان عليه، يمكن أن يكون للقصد العقلى تفسيرات مختلفة. ذلك أن الخلفية تسبق القصد العقلى، وهى ذاتها ليست أشكال تمثيلنا العالم[٣٢].

أما النوع الثانى من أبنية اللغة الخاص بالعبارات الإخبارية فهى صيغ لغوية تقريرية، تخبرنا بمعرفة عن العالم الخارجى، وتصفه وتمثله وفقًا لأفكارنا وتصوراتنا عنه. وهذه العبارات تستمد صدقها من مطابقتها للعالم الموجود خارجنا، فإذا تطابق ما تخبرنا بها اللغة من معرفة أو اعتقاد مع ما هو موجود بالعالم الخارجى تكون عباراتنا صادقة، بناء على نظرية تطابق الحقيقة.

وقد رفض سيرل - فى هذا السياق - آراء أصحاب نظرية الاختزال Reduction Theory وآراء أصحاب نظرية التحجيم Deflation Theory، وطرح صيغته الخاصة

بالصدق القائمة على "حذف علامات التنصيص" Disqoutation Theory ، وتقوم الصيغة التى طرحها سيرل لنظرية التطابق على:

تعد العبارة بين القوسين صادقة لو طابقت الواقعة التى تكرر العبارة المذكورة على اليمين من الصيغة، بعد حذف القوسين، إشارة للواقعة المطابقة(٣٣). على غرار:

"الثلج أبيض"	تطابق	الثلج أبيض
عبارة صادقة		الواقعة

لقد دافع سيرل عن نظريته ضد من هاجموها واتهموها بالحشو والإطناب re-dundancy، رافضا اختزال العقلى للمادى. وانتقل من التصور الذهنى إلى الفعل الخارجى فى الواقع، مطابقًا بينهما، مفيدًا من آراء ستراوسن فى الإشارة والمعنى. لقد تناول سيرل فكرة المعنى فى إطار استيفاء شروط النجاح واتجاه المطابقة فى حالتى العبارات الأدائية والتقريرية(٣٤). بيد أنه قد فصل بين الفكرة وما تشير إليه فى الخارج، لأن الفكرة والقصد العقلى قد يكونان موجودين على الرغم من عدم وجود مشار إليه خارجى. وتثير أفكار سيرل نقاشًا واسعًا لا سيما فى مجال إثبات صدق العبارة عن طريق التطابق، لاسيما نقاش المناطقة الوضعيين من أمثال فتجنشتين ورسل وما طرحوه من أسئلة عن كيفية إثبات وقوع فعل قد وقع فى الماضى والتحقق منه. أو عن التحقق من صدق عبارة سالبة منفية. وعن التحقق من فعل أو حكم معيارى مادام الصدق ثقة، والثقة معيارًا. ويرفض سيرل برهان التحقق والإثبات Verification Ar-gument ويرد غير قليل من الهجوم عليه للخلط بين أداء الأفعال performances والأفعال الأدائية performative acts التى تشغل مساحة بعينها من أفعال الكلام(٣٥).

اللغة والاستخدام

يعد سيرل أحد فلاسفة استخدام اللغة(٣٦) فى الأفعال اليومية، وتفاعل المتكلم مع السامع داخل الجماعة المتحدثة باللغة. وللوظيفة اللغوية على هذا المستوى بعدان: بعد التمثيل وبعد الاتصال.

التمثيل والاتصال Representation and Communication :

التمثيل هو أحد وظائف اللغة التى يتضاعف من خلالها أشكال تحقق المقاصد العقلية. أما الاتصال فيوجد فى أساس كل استخدام لغوى حتى لو كان هدفه الأبعد التمثيل، لأن القصد الأساسى هو إبلاغ السامع، وعليه يترتب الفهم، ثم التأثر والاقتناع واعتناق رأى المتحدث، أو القيام بفعل نتيجة لطلب إنجاز(٣٧). ويفصل سيرل بين المعنى وقصد الاتصال (ردًا على بينيت وجرايس Grice). فسيرل لا يرى أن الاتصال من اللازم أن يتجاوز حدود الإبلاغ والفهم، فللإبلاغ قصد متميز من القصد المتعلق بمضمون الإبلاغ. وهناك عبارات لا تقصد الإبلاغ، ولا تقصد التأثير فى السامع (كما قال جاليليو "إنها تدور" أو كما قال أرشيمدس "وجدتها"). وقد يقول السامع كلامًا ويقصد به شيئًا آخر، أو يقول كلاما من باب الكذب. ويظل فعل الكلام ولو كان معيبًا فعل كلام. وهذا يتيح لنا فرصة أن ندرس من أين يأتى الخداع اللغوى والكذب، ومن أين تأتى الثقة والاقتناع بالصدق أفعال الكلام الخاصة بالوعد. ومصدر نفوذ أفعال الكلام فى حالة الفرض والإرغام فى أفعال الكلام الخاصة بالأمر، وأنواع الإلزام فى أفعال الكلام الخاصة بأساليب الشرط التى تمارس قوى الإغراء والتحذير "ممثلة فى إن فعل وإن لم يفعل" هل هى أونطولوجية ؟ أم أخلاقية؟ أم اجتماعية؟(٣٨). وهى مباحث قد أفاد منها بالفعل الباحثون فى مجالات تطبيقية حديثة مختلفة ذات منحى لغوى(٣٩).

إن التفاعل الرمزى من المجالات التى تتماس فيها آفاق المباحث اللغوية والدراسات الاجتماعية؛ لأن فهم الواقع الاجتماعى يساعدنا على فهم الطريقة التى تعمل بها اللغة. كما أن فهم نظرية المعنى، وعلاقة اللغة والأفكار بالواقع يوضحان لنا كيف تتأسس الأبنية الاجتماعية على استخدام المعنى، وكيف تؤدى الشروط الاجتماعية إلى توليد المعانى ومضاعفة وظيفة الدوال(٤٠). يتضح لنا بجلاء أن جون سيرل قد أفاد من نشاطه فى مجال فلسفة اللغة، وأسس عليه مبحثه الأحدث فى دراسة الواقع الاجتماعى.

لقد اهتم علماء اللغة – على الرغم من تنوع اتجاهاتهم – بوظائف اللغة ودلالاتها الاجتماعية:

فاهتمت الدراسات البلاغية مثلاً ببحث تأثير كلمات المتحدث على السامع عقليًا وعاطفيًا، لدفعه لاعتناق رأى، أو اتخاذ موقف، أو القيام بفعل ما. وأفادت من أدوات بحثها فى مجالات دراسة " الدعاية" و"السباب والازدراء" و"الشفافية اللغوية" و"القدرة الإنجازية لأفعال الكلام" و"مجالات الخطاب".

واهتمت نظرية "الاتصال" باللغة بوصفها وسيلة الاتصال الجماهيرى الذى يعبر من خلال كيان الجماعة عن نفسه. ويقاس نجاح الاتصال باستجابة السامع للمتحدث فى مجال الحراك الاجتماعى ذ لموقف الكلام؛ فالتأثير فى السامع هو الوحدة الأساسية فى المعنى إذا ما توافرت مطالب الفعالية validity of claims التى طرحها هيبرماس، واستبدلها سيرل باستيفاء شروط نجاح أفعال الكلام فى إصابة مراميها، والتعبير عن القصد العقلى أو الشرط النفسى الذى تقصده الجماعة.

وقد اهتم أصحاب نظرية التداولية Pragmatic Theory بما للاستخدام من أعراف لغوية مستمدة من الأعراف الاجتماعية، ومن الفهم المتبادل بين السامع والمتحدث commonsense يعتمد على مخزون معرفى وأرضية مشتركة commonground تحكم قواعدها الأعراف الاجتماعية. بيد أن سيرل قد رفض فكرة القواعد rules كما رفض صيغة "كما لو كنا نطبق القواعد" لغياب عنصر القصد العقلى، واستبدل بها فكرة الخلفية التى تجعل الآخرين فاعلين مشاركين فى الأنشطة الاجتماعية. فالخلفية تعتمد على بعدين: بعد خارجى مستمد من السياق ومن أنماط السرد الدرامية التى تنظم طرق تفكيرنا (مثلا نظرة فابتسامة فسلام فكلام)، وأنماط الاعتماد على السلوك. وبعد داخلى يصنع ما يشبه شفرة جينية سلوكية وعقلية تمثل شبكة من النماذج تتغرس فى نظام خلايانا العصبية (الفيزيائى). ومن الواضح تأثر سيرل فى هذا المجال بنشاطه وأفكاره فى مجال فلسفة العقل.

كما اهتم علماء اللغة فى مجال أنظمة العلامات كذلك ببحث الدلالات الاجتماعية. مثل بيللر Buhler الذى رأى فى فعل الاتصال مصالحة بين وظيفة فعل اللغة والفعل الاجتماعى. وأكمل ياكوبسون Jakobson ما بدأه بيللر عن الشفرة اللغوية codeوفعل الاتصال، والرسالة، خاصة من ناحية المعنى connotation(٤١) .

واهتم أوستن فى نظريته فى أفعال الكلام بما يمكن أن تفعله الذات المتكلمة عن طريق اللغة؛ ففوق وظيفة الاتصال، والتأثير فى السامع، يقوم التفاعل الاجتماعى. كأنها طبقات ينبنى بعضها فوق بعض. ثم طور سيرل فى كتابه الشهير "نظرية أفعال الكلام" وظائف المنطوقات الكلامية utterances داخل البنية الاجتماعية. ذلك أنه من أفعال الكلام ما يستدعى بالضرورة وجود مؤسسات اجتماعية social institutions

تمنح الدال اللغوى قدرة إنجازية، ووظائف أكثر تعقيدًا، تمنحنا القدرة على استشعار ما بينها من فرق: كالوعد، والتعهد، والضمان، التعاقد، والرهان... إلخ. وبما يتوفر لها من شروط التمهيد الخارجية والداخلية، كالصدق والإخلاص والشرعية، تعزز قوة الإخضاع فى الأمر، والثقة فى الوعد، والقطع أو الجزم فى الإخبار، والالتزام فى الشرط، مما يدفع بالمخاطب السامع للطاعة والخضوع لفعل الكلام والقيام بفعل استجابة له(٤٢). هكذا يصير الكلام أو فلنقل تصير مؤسسة اللغة من أخطر المؤسسات الاجتماعية؛ لأنها تصنع / تزيف أفكارًا تتحكم فينا فتجعلنا أقوى أو أضعف، وتمارس سلطة علينا، وتدفعنا للفعل داخل سياج المؤسسة الاجتماعية. كما أنها تعلن عن قيام الحقائق أو الوقائع المؤسسية Institutional Facts، كالمال، والزواج، والملكية، والمناصب، والحرب، والقضاء، والجامعات بل الحفلات والمباريات كذلك. وتوفر إلى جانب أنظمة اللغة الرمزية، كالتيجان، وخواتم الزواج، والرتب، والعملات، والعقود، والشهادات، والرخص، وكل أنواع الوثائق، وطرز الملابس، والعلامات التى تدل على أوضاع مؤسسية وظيفية تجعلنا ننعم بما لها من سلطة أو نحرم منها(٤٣).

كذلك اتخذ سيرل من مباحثه فى مجال فلسفة العقل أساسًا نظريًا قويًا لاستخدام فكرة القصد العقلى وتطبيقها على الواقع الاجتماعى: قيامه وبنيته. ولهذا أصوله فى فكر همبولت الذى عدَّ اللغة نشاطًا يعبر عن العقل ورؤية العالم، وجعل الحياة الاجتماعية عاملاً مساعدًا له(٤٤). أما جون سيرل فقد جعل القصد العقلى شرطًا للتفاعل الاجتماعى، وجعل أفعال الكلام التى فرض عليها القصد العقلى سبيلاً للتعبير عن حالات عقلية ومجتمعات منظمة ذات أوضاع تاريخية، تحكمها شروط اجتماعية هائلة(٤٥).

لقد انعطف سيرل - بوصفه واحدا من فلاسفة الواقعية Realism - فى مرحلته الأحدث نسبيا، فى كتابه: بناء الواقع الاجتماعى ١٩٩٥م، أحد أهم أربعة كتب لسيرل، انعطف عن مسار من ينكرون وجود واقع يستقل عن العقل. ومكَّنه منطلقه الأنطولونجى من أن ينظر من الداخل ومن الخارج. فمن الفلاسفة من رأى الواقع خارج العقل (لوك Locke)ومنهم من رآه مطابقًا للعقل (باركلى Berkeley) ومنهم من رأى الوجود كله داخل العقل، بيد أن سيرل تصور الواقع على نمطين: واقع يستقل فيه العالم بنفسه mind independent reality عن تصوراتنا وتوقعاتنا ولغتنا، ليس مفارقًا بل يمكننا أن

نبلغه أو لا نبلغه فهذا مرهون بملاحظتنا. وواقع ينبنى فيه العالم على أفكارنا وأساليب لغتنا وأشكالها فى التعبير عنه على نحو ما نفكر فيه ونتصوره، وهو مرهون بملاحظتنا واستخدامنا observer relative reality. وبتطبيق المقاصد العقلية وفرضها على الأبنية الاجتماعية كشف سيرل عن الطريقة التى ننتقل بها من القصد العقلى الفردى إلى القصد العقلى الجماعى بناءً على المشاركة، وكيف نقيم به الأبنية الاجتماعية لاسيما المؤسسية constructions of social reality ونصنع مفاهيم تؤثر فينا وفيها(٤٦).

يوحد سيرل فى هذه الظاهرة كل أنشطته البحثية؛ فيربط بين فلسفة العقل، وفلسفة اللغة، والقواعد المؤسسية، والأونطولوجيا. فالمعنى فى أفعال الكلام يتأسس على القصد العقلى، والأبنية المؤسسية بحاجة إلى أفعال الكلام لوضع القواعد التى يقوم عليها الواقع الاجتماعى constitutive rules، لأننا نفكر باللغة، والواقع الاجتماعى لا يقتصر على اللغة بل يجمع إلى اللغة والفكر الواقعة. والقصد العقلى الجماعى باعترافه وقبوله واستخدامه، يعزز قيام الوقائع المؤسسية ،ويحافظ على استمرارها. كما أن وجود مؤسسة محكمة، يمكننا من أداء أفعال الكلام كذلك. وبالقصد العقلى الجماعى يتحول الواقع المادى الموضوعى الخارجى الذى يتكون من الوقائع العارية أو الوقائع الصريحة brute facts إلى عالم الواقع العقلى الذاتى الداخلى الذى يتكون من الوقائع الاجتماعية لا سيمًا الوقائع المؤسسية ، أى يتحول من الطبيعة للثقافة. ويقوم القصد العقلى الجماعى بهذه الوظيفة عن طريق فرض أوضاع اجتماعية-status functions ذات تشريف أو خزاية على العنصر الطبيعى أو الاجتماعى البسيط، وينتج عن هذا أن ينزله منزلة قيمية أخلاقية deontic بناءً على أحكام معيارية normative يحاول سيرل ضبط معياريتها، كما يقيد جزافية الربط بين العنصر الطبيعى أو الاجتماعى البسيط من جانب والوضع الوظيفى بأول فعل إسناد الوظيفة التى تتحول مع تكرار الاستخدام لجزء من الخلفية. بحيث يمارسها أفراد الجماعة من بعد ذلك عن وعى أو عن غير وعى. والخلفية تشتمل على العرف الاجتماعى المرتبط خارجيًا بنماذج السلوك المستمدة من السياق والمرتبط داخليًا بالشبكة العقلية العصبية.وبموجب هذه الأوضاع الوظيفية، يصير للعنصر الطبيعى، ذى الطاقة الغفل brute force قدرة جديدة ،نتيجة للوظيفة المسندة agentive function تجعله بما يدعمها من قصد عقلى وقبول واعتراف جماعى، وبموجب هذا الوضع الجديد الذى يوفر له منزلة ومكانة

تمنحه سلطات، وتخول له حقوقًا، وتوفر له صلاحيات، وتجعل له قدرات، أو تلقى على عاتقه بمسئوليات، وتفرض عليه واجبات، وتسلبه قدرات، بموجبها يصير قادرا على القيام بالوظيفة، فيصير بمثابة العنصر الموجود الثقافى الجديد. جراء الوضع الثقافى الجديد فى سياق أو بشرط مستمد من شروط تداولية خارجية أو من إتاحة سياق بعينه أو من كفاءات أمده بها الحصول على مؤهلات.ويضع سيرل قاعدة تأسيسية بنيوية لقيام الأبنية المؤسسية تتلخص فى المعادلة:

« **(س) تعد بمثابة (ص) عندما (ع)** »

حيث ترمز (س) للعنصر الطبيعى و(ص) للوضع الثقافى الجديد و(ع) للسياق الذى يوفر له شروطا خارجية أو يمده بمؤهلات. فالورقة (س) يمكن أن تعد ورقة عملة ورقية (ص) من فئة مالية، يصير لها قوة شرائية فى (ع)النظام المالى الذى يعترف ويقبل ويستخدم هذه العملة. ويمكن أن نقيس هذا على ظواهر مؤسسية أخرى فالرجل والمرأة ذ الراشدان العاقلان... إلخ (س) يعدان بمثابة زوجين شرعيين، وليس فى السينما مثلا (ص) عندما (ع) يعقد قرانهما على ملأ شخصية رسمية لها سلطة عقد القران، مأذون شرعى. فإن دخلت قوات دولة دولة أخرى دون الشرط (ع) كأن تكون لم تعلن عن هذا الغزو بشكل دستورى لا تسمى حربا (مثل إطلاق اسم الصراع العربى الإسرائيلى، أو المسألة الكورية بدلا من الاحتلال أو الحرب).

ولكل ثقافة محور اهتمامها الذى يكشف عن طبيعة أبنيتها الاجتماعية؛ فلو حللنا العبارات المكتوبة على الأوراق المالية مثلا لوجدنا أن الثقافة الأمريكية مثلا تركز على العنصر (ص) أى القيام بالوظيفة، لذلك ترى أن أهم ما فى النقود مثلاً أن تقوم بوظيفتها بوصفها وسيطًا للتداول والحفاظ على القيمة بغض النظر عن وظيفتها غير المعلنة المثلة فى قيامها بالحفاظ على موازين القوى فى المجتمع. أما الثقافة الفرنسية والثقافة الإيطالية فتهتمان بالعنصر (س) أى سلامة النقود من التزييف ومعاقبة من يقوم بتهريبها أو تزييفها[٤٧].

ويبنى سيرل على هذه المعادلة معادلات أخرى ترمز لأبنية المؤسسة الاجتماعية، وتوضح دور العامل الأساسى المثل فى القصد العقلى الجماعى فى قيام المؤسسة واستمرارها أو انهيارها. حيث يعتمد قيامها على القبول، الاجتماعى الذى يعترف بقيام العنصر الطبيعى(س) لوظيفة جديدة لم تكن له من قبل ولا يعود الفضل فيها لتركيبه

المادى، أو القبول الاجتماعى الذى يعترف بتضييق صلاحياته للقيام بالوظيفة، ولا يعتمد إبطال هذه الفاعلية على نفى مضمون المعادلة الأساسية:

نحن نقبل أن "(س) تقوم بـ (ص)"

أو

نحن نقبل أن «(س) لا تقوم بـ (ص)»

وإنما ينفى وجود المؤسسة ويبطل فاعليتها واستمرار بقائها نفيًا مضمون القبول نفسه على غرار المعادلة:

نحن لا نقبل أن "(س) تقوم بـ/ أو تحرم من أن تقوم بـ(ص)"(٤٨).

هكذا انتقل سيرل من خطاب الفرد إلى خطاب الجماعة مستعينًا بمؤسسة اللغة والقصد العقلى، على وضع القواعد التأسيسية التى تقوم عليها الأبنية المؤسسية، والإعلان عن اللوائح أو القواعد التنظيمية regulative rules منطلقًا من منظور أنطولوجى - كان مركز الثقل فى فلسفته - باحثًا طبيعة الوجود، وأنواع الوقائع وخصائصها، ثم منتقلاً فى بحثه إلى السؤال المعرفى عن الواقع الذى لا يتكون من لغة صرفٍ بل من فعل ولغة. وانتقل من قصد العقل، إلى قصد للغة، ومن الطبيعة إلى الثقافة، ومن سطوة الذهن إلى قدرة الفعل.

حسنة عبد السميع

هوامش التقديم

(١) قدرية إسماعيل: مشكلة المعنى فى فلسفة اللغة. مخطوط رسالة لنيل الدكتوراه فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة، كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٧٩. مقدمة.

(٢) المرجع السابق، ص ٥١٣.

(٣) Ian Hacking, Why Does Language Matters to Philosophy?, Cambridge University Press, 1997, ch. 13.

(٤) قدرية إسماعيل، ص ١٩١.

(٥) المرجع السابق: ص ٥٠٦ ذ ٥٠٨.

(٦) Ian Hacking, p. 96

(٧) John R. Searle, Philosophers of Language, Wikipedia, the Free En cyclopedia. http://en.wikipedia.org

(٨) phildept?berkeley.edu, University of California, Berkeley, Searle+s homepage at U C Berkeley

(٩) J. Fodor, Representations, MIT Press/Bradford Books: Cambridge Mass., 1981.

(١٠) Wikipedia, the Free Encyclopedia, Correspondence Theory of Truth -Truth Theories.

- Ian Hacking, p. 68.

(١١) J. R. Searle, The Rediscovery of Mind, Cambridge, Mass., 1992. p. 52.

- Nick Fotion, John Searle (Philosophy Now), Intenationality of Mind and Language, Acumn.U.K., 2000, p. 6.

(١٢) جاتريا سبيفاك وكريستوفر نوريس: صور دريدا : ثلاث مقالات عن التفكيك، اختيار وترجمة حسام نايل، مراجعة وتقديم ماهر شفيق. المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ١٦١ - ١٦٤.

(١٣) Ernest Lepore and Robert Van Gulick, eds., John Searle and His Critics, Tayler Burg, U.K., 1993, part 2,

- Internet Dictionary of Philosophy MHTML-Philosophy of Mind-Wikipedia free Encyclopedia, Cognitive science.

(١٤) Stanford Encyclopedia of Philosophy, Phenomenology.

(١٥) Nick Fotion, ch. 5.

(١٦) J. R. Searle, Intentionality, An Essay in the Philosophy of Mind, Cambridge University Press, 1983.

(١٧) Wikipedia, the Free Encyclopedia. Philosophy of Language – Wittgenstein – Philosophers of Language. Problem of Meaning.

(١٨) جاتريا سبيفاك / كريستوفر نوريس، ص ٧٢ - ١١٧.

(١٩) Nick Fotion, ch. 5.

(٢٠) J. R. Searle, the Rediscovery of Mind.

(٢١) Nick Fotion, ch. 7.

(٢٢) J. R. Searle, Intentionality, An Essay in the Philosophy of Mind.

(٢٣) عصام عبد الله: جاك دريدا: ثورة الاختلاف، القاهرة، ٢٠٠٤. وعصام عبد الله: رهان الحداثة وما بعد الحداثة، الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٦.

(٢٤) Ian Hacking, pp. 79 – 80.

(٢٥) J. L. Austin, How to Do Things with Words, Harvard University Press, 1981

(٢٦) Wikipedia, the Free Encyclopedia, Speech Act Theory.

(٢٧) J. R. Searle, Speech Acts: An Essay in the Philosophy of Language. Cambridge University Press, 1969.

- Armin Bukhardt and De Gruyter, ed., Speech Acts, Meaning an Intentions: Critical Approach to the Philosophy of John Searle, Berlin, 1990.

(٢٨) محمد العبد: الحدث اللغوى – مفهومه وأنواعه، القاهرة، ١٩٩٦.

ومحمد نحلة: نحو نظرية عربية للأفعال الكلامية، مجلة الدراسات اللغوية، السعودية، المجلد الأول، ع. ١١٩٩..

(٢٩) Kevin Halion, Deconstruction and Speech Act Theory: A Defence 29 Kevi Halion, Deconstruction and Speech Act Theory: A Defence of the Distinction between Normal and Parasitic Speech Acts. Kevin Jospeh Halion, September 1989,

- Web Dictionary of Cybernetics and Systems Principia Cybernetics Web, 1991.

Wikipedia, the Free Encyclopedia, Stanford Encyclopedia of Philosophy - (٢٠)
Internet
Dictionary of Philosophy, "Theories of Truth", "Correspondence Theory of Truth", "Verification Principle", "Deflationary Theory of Truth", "Reflection Theory of Language", "Causal Relations", "Negative Truth", "Redundancy Theory", "Disquotational Theory", "Frege", "Ramsey", "Ayer", "Quine", "Dummett",

- Michael, Devitt, Realism and Truth, Princeton University Press, 1984.

Ernest Lepore and Robert Van Gulick, eds., pp. 90 – 101. (٢١)

(٢٢) قدرية إسماعيل، ص ٥٠٨.

John R. Searle, The Construction of Social Reality, Penguin, 1995. (٢٣)

Wikipedia, the Free Encyclopedia, Stanford Encyclopedia of Philosophy (٢٤)
Internet
Dictionary of Philosophy, Google, Search Engin.: Strawson, Hagerman, Grice, Austin, pragmatic, semantic, relevance theory, verification principles, semantics, conceptual role semantics.

- John R. Searle, Language and Social Ontology, Seminar in Center of Theoretical Studies, Department of Philosophy, UCLA and Academy of Science, Czech Republic, Prague, 11-10-2007 - (مقابلة وحوار مع جون سيرل)

Ian Hacking, pp. 96-117, p. 123. (٢٥)

(٢٦) قدرية إسماعيل، الفصل الرابع.

Ernest Lepore and Robert Van Gulick, eds., pp. 229-231. (٢٧)

- Ian Hacking, p. 76.

وقدرية إسماعيل، الباب الثانى، ص ٥١١ - ٥٢٠.

- Stanford Encyclopedia of Philosophy - Communication and Representation.

- John R. Searle, "Collective Intentionality and Action", in Intentions in Communications, ed. P. Cohen , in J. Morgan and M. E. Pollack, Cambridge, Mass., 1990, p. 401.

- Katie Wales, A Dictionary of Stylistics, Longman, 1989, - "communication", "representation".
- A. G. Greimas - J. Courtes, Semiotics and Language, An Analytical Dictionary, Indiana University Press, 1982, - "communication", "representation".

(١٨) Wikipedia, the Free Encyclopedia - "Prima Facie Statement Deontic" (1984), "Alethic Modal Logic".

(٢٩) عبد السميع محمود: سيميوطيقا اللغة وتحليل الخطاب ذ الإعلان التيلفزيونى، دار عين، القاهرة، ٢٠٠١.

وحسنة عبد السميع محمود:الترابط النصى فى سورة الكهف، أعمال المؤتمر الدولى الثالث للنقد الأدبى، القاهرة ٢٠٠٣، المجلد ٢، ص ٣٥٣ – ٤١٠.

وسعيد بحيرى: "من أشكال الربط فى القرآن"، من كتاب دراسات لغوية تطبيقية فى العلاقة بين البنية والدلالة، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٩٧.

- Salwa M. El-Awa, Textual Relations in Quran, a Thesis Submitted of PhD Degree, University of London, 2001.

(٤٠) Wikipedia, the Free Encyclopedia - Social Interaction and Language, meaning and social structures, metasemantics.

(٤١) Ian Hacking, p. 76.

قدرية إسماعيل، ص ٢٣٨ – ٢٤٠. 511 - 517

(٤٢) Ernest Lepore and Robert Van Gulick, eds., pp. 90 – 101.

(٤٣) Ibid., part 6,

- Stephen P. Turner, Review:Searle's Social Reality, History and Theory, Vol. 38, No. 2. (May, 1999), pp. 211 – 231.

(٤٤) قدرية إسماعيل، ص٢١٩ – ٢٢٢. 347.

(٤٥) Richard Rorty, What´s it all about? John Searle´s Intentionality, An Essay in the Philosophy of Mind, Cambridge, 1983, London Review of Books, May 17 - June 6 1984, pp. 3 – 4.

(٤٦) J. R. Searle, "How to Derive 'Ought' from 'Is'?", Philosophical Revue, January 1973.

- Earnest Lepore and Robert Van Gulick , eds., part 4.
- Wikipedia, the Free Encyclopedia, Stanford Encyclopedia of Philosophy, Dictionary of Philosophy MHTML - "Realism/Anti Realism", "Reality".
- John R. Searle, The Construction of Social Reality, ch. 9.

(٤٧) Ibid., ch. 4.

(٤٨) Ibid., ch. 5.

المراجع العربية

١ - جاتريا سبيفاك وكريستوفر نوريس: صور دريدا - ثلاث مقالات عن التفكيك، اختيار وترجمة حسام نايل، مراجعة وتقديم ماهر شفيق فريد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢.

٢ - حسنة عبد السميع محمود: الترابط النصى فى سورة الكهف، أعمال المؤتمر الدولى الثالث للنقد الأدبى، القاهرة ٢٠٠٣، المجلد.

٣ - حسنة عبد السميع محمود: سيميوطيقا اللغة وتحليل الخطاب - الإعلان التيلفزيونى، دار عين، القاهرة، ٢٠٠١.

٤ - سعيد بحيرى: "من أشكال الربط فى القرآن"، من كتاب دراسات لغوية تطبيقية فى العلاقة بين البنية والدلالة، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٩٧.

٥ - عصام عبد الله: جاك دريدا - ثورة الاختلاف، القاهرة، ٢٠٠٤.

٦ - عصام عبد الله: رهان الحداثة وما بعد الحداثة، الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٦.

٧ - قدرية إسماعيل: مشكلة المعنى فى فلسفة اللغة. مخطوط رسالة لنيل الدكتوراه فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة، كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٧٩، مقدمة.

٨ - محمد العبد: الحدث اللغوى - مفهومه وأنواعه، القاهرة، ١٩٩٦.

٩ - محمد نحلة: نحو نظرية عربية للأفعال الكلامية، مجلة الدراسات اللغوية، السعودية، المجلد الأول، ع١، ١٩٩٩.

المراجع الأجنبية:

AUSTIN, J. L. 1981. How to Do Things with Words. Harvard University Press.

EL-AWA, Salwa. 2001. Textual Relations in Quran. a Thesis Submitted of PhD Degree, University of London.

BUKHARDT, Armin and DE GRUYTER, ed. 1990. Speech Acts, Meaning an Intentions: Critical Approach to the Philosophy of John Searle, Berlin.

DEVITT, Michael. 1984. Realism and Truth. Princeton University Press.

FODOR, J. 1981. Representations. MIT Press/Bradford Books: Cambridge Mass.

FOTION, Nick. 2000. John Searle (Philosophy Now), Intenationality of Mind and Language, Acumn.U.K.

GREIMAS, A. G. – COURTES, J. 1982. Semiotics and Language, An Analytical Dictionary. Indiana University Press.

HACKING, Ian. 1997. Why Does Language Matters to Philosophy? Cambridge University Press.

HALION, Kevin. 1989. Deconstruction and Speech Act Theory: A Defence of the Distinction between Normal and Parasitic Speech Acts. Kevin Jospeh Halion.

LEPORE, Ernest and VAN GULICK, Robert, eds. John Searle and His Critics, Tayler Burg, U.K.

RORTY, Richard. 1983. What´s it all about? John Searle´s Intentionality, An Essay in the Philosophy of Mind. Cambridge. London Review of Books, May 17 - June 6,1984.

SEARLE, J. R. 1990. "Collective Intenationality and Action", in Intentions in Communications, ed. P. Cohen , in J. Morgan and M. E. Pollack, Cambridge, Mass.

SEARLE, J. R. 1995. The Construction of Social Reality. Penguin.

SEARLE, J. R. 1973. "How to Derive 'Ought' from 'Is'?", Philosophical Revue, January.

SEARLE, J. R. 1983. Intentionality, An Essay in the Philosophy of Mind. Cam-bridgeUniversity Press.

SEARLE, J. R. 2007. Language and Social Ontology. Seminar in Center of Theoretical Studies, Department of Philosophy, UCLA and Academy of Science, Czech Republic, Prague.

SEARLE, J. R. Philosophers of Language, Wikipedia, the Free Encyclopedia.

SEARLE, J. R. 1992. The Rediscovery of Mind, Cambridge, Mass.

SEARLE, J. R. 1969. Speech Acts: An Essay in the Philosophy of Language. Cambridge University Press.

TURNER, Stephen P. 1999. Review:Searle's Social Reality, History and Theory, Vol. 38, No. 2.

WALES, Katie. 1989. A Dictionary of Stylistics. Longman.

Encyclopedies, web dictionaries, websites:

- Stanford Encyclopedia of Philosophy

- Wikipedia, the Free Encyclopedia: Internet Dictionary of Philosophy – MHTML

- Web Dictionary of Cybernetics and Systems Principia Cybernetics Web.

- phildept?berkeley.edu, University of California, Berkeley, Searle´s homepage
at U C Berkeley

المدخل

نحن نعيش تحديدا فى عالم واحد فحسب لا فى عالمين ولا ثلاثة ولا أكثر، وقدر ما نعلم حاليا، فإن علوم الكيمياء والفيزياء والعلوم الطبيعية الأخرى قد وصفت ما لهذا العالم من ملامح أساسية.غير أنه من الواضح أن وجود ظواهر ليست من ضرب الفيزياء ولا الكيمياء ، قد أوقعنا فى الحيرة. فكيف تحتل حالات من الوعى،أو من أفعال الكلام speech acts المفيدة مكانا داخل العالم المادى؟ إن السؤال عن ارتباط أجزاء العالم المتنوعة ؛ كيف تتماسك ويعول بعضها على البعض الآخر؟ أشد ما يستهوينى من القضايا الفلسفية.

تعد نظرية أفعال الكلام بقدر ما محاولة تسعى للكشف عن الكيفية التى ننتقل بها من النطق بالكلام ، إلى أفعال الكلام المفيدة ،التى يؤديها الكتاب والمتحدثون.فنظرية العقل التى حاولت أن أبلورها ،هى بقدر ما، محاولة للإجابة عن السؤال عن الطريقة التى تتسق بها الصورة الذهنية لعالم الواقع - أى عالم العقل والقصدية inter-nationality وغيرها من الظواهر العقلية - داخل عالم يتألف بأكمله من جسيمات مادية مترابطة تدور داخل حقول الطاقة.

يمتد مجال البحث فى هذا الكتاب إلى الواقع الاجتماعى : كيف يمكن أن يوجد واقع موضوعى خاص بالمال، والممتلكات ، والزيجات، والحكومات، والانتخابات ، ومباريات كرة القدم ، وحفلات الكوكتيل، وساحات القضاء. وكيف لهذا العالم أن يتألف من جسيمات مادية داخل مجالات مترابطة، حيث تنتظم بعض هذه الجسيمات المادية داخل أنظمة بيولوجية واعية ، كما هو الحال فى عالم البشر.

ولأن تلك الأسئلة تمس مشكلات تخص ما قد يعد أسسا تنبنى عليها العلوم الاجتماعية، فأكبر الظن أنه كان بإمكان علوم اجتماعية عدة أن تطرح تلك الأسئلة وتجد لها حلا بالفعل ، خاصة على يد كبار مؤسسيها فى القرن التاسع عشر وبواكير القرن العشرين. ولست بالتأكيد خبيرا بما قد خلفته لنا من تراث ، بيد أنه يمكننى إلى حد ما أن أقول إن ما أطرحه من أسئلة فى هذا الكتاب لم يحظ بإجابات شافية فى مجال العلوم الاجتماعية. ولشد ما ندين لكبار فلاسفة علم الاجتماع فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، لا سيما فيبر Weberوزيمل Simmel ودوركايم Durk-heim. غير أنه يبدو لى، قدر اطلاعى على أعمالهم، أنه لم يكن بمقدورهم ، لعدم امتلاكهم الأدوات اللازمة، أن يجيبوا عن الأسئلة التى أثارت حيرتى. وليس من ذنبهم أن افتقروا إلى نظرية وافية فى أفعال الكلام وأفعال الكلام الأدائية performativesأو الإنجازية (التى يسرى مفعولها بمجرد النطق بها) والقصد العقلىintentonality والقصد العقلى الجماعى collective intentonality والسلوك الذى تحكمه القواعد...إلخ.

يعد هذا الكتاب محاولة للإجابة عن مجموعة من الأسئلة التقليدية تستعين بأدوات طورها آخرون من قبل خلال أبحاثهم فى مسائل أخرى غير بعيدة ، وقد قمت بدورى ببلورتها. فإذا أشرنا إلى تنسيق الكتاب نذكر أنه يشتمل فى نصفه الأول - أى من الفصل الأول إلى الفصل الخامس - على المبحث الأساسى ؛ الذى حاولت فيه أن أفصِّل القول فى نظرية عامة فى أونطولوجيا الوقائع الاجتماعية والوقائع المرتبطة بالمؤسسة. والسؤال الرئيس المطروح هنا مداره: كيف نشيد واقعا اجتماعيا له وجود موضوعى ؟ واسمحوا لى أن أعتذر عن قدر من التكرار فى هذه الفصول ، غير أننى كنت مدفوعا - بدافع من طبيعة تلكم القضية - إلى أن أراجع الأسس نفسها المرة تلو المرة، محاولا التأكد من أننى قد تناولتها على الوجه الصحيح. وفى الفصل السادس أحاول أن أحدد ما للمؤسسات الإنسانية من قواعد تأسيسية constitutive rules قادرة على أن تفسر وجود هذه المؤسسات ، وذلك من خلال إدراك أمر عجيب، هو أننا قد لا نكون على وعى كاف بتلك القواعد. ولكى ندرك ذلك علىّ أن أقوم بشرح فكرتى عن الخلفية Background التى تشتمل على القدرات غير الواعية - وليس بمقدورنا أن نصفها ونمثل لها - والإمكانات التى بفضلها يصير بمقدورنا أن نتكيف مع العالم.

فى المسودات الأولى للكتاب وقفت فصلا مبدئيا على الدفاع عن النزعة الواقعية فى الفلسفة - أى عن فكرة وجود عالم حقيقى مستقل يوجد بمعزل عن فكرنا وكلامنا - وكذلك للدفاع عن مفهوم المطابقة بين الصدق أو الواقع ؛ حيث تكتسب عباراتنا حين تكون صادقة معايير صدقها بناء على الكيفية التى توجد عليها الأشياء فى عالم الواقع، اى بمعزل عن عباراتنا. أعتقد أن "النزعة الواقعية" فى الفلسفة، ومفهوم "المطابقة" كليهما من الأمور اللازمة والجوهرية لأية فلسفة صحيحة - ناهيك عن القول لأى علم. لقد أردت أن أوضح بعض ما دفعنى للتفكير على هذا النحو.غير أن ما كنت قد اعتزمت فى الأصل أن أجعله مادة لمدخل قصير فعلا، كان قد استحوذ على مساحة اكبر، كما هو الشأن فى العادة مع مثل تلك المسائل الفلسفية الكبرى.

وعندما ازداد حجم الفصل الأول فبلغ حجم ثلاثة فصول، قررت أن أنقل تلك المادة لموضعها من الكتاب ، لئلا تفقد إشكاليتى الأساسية توازنها. وفى الفصلين السابع والثامن ناقشت النزعة الواقعية فى الفلسفة. وفى الفصل التاسع دافعت عن أحد مفاهيم مطابقة الصدق الواقع.

الفصل الأول

دعائم الواقع الاجتماعى

الواقع الاجتماعى ووطأة العبء الميتافيزيقى

كثيرا ما حيرتنى المشكلة التى يدور حولها هذا الكتاب: فثمة أمور موضوعية فى عالم الواقع تكتسب مصداقيتها من اتفاق الناس عليها.أى إنه ثمة أشياء توجد فقط لأننا نعتقد بوجودها، على غرار: المال، والممتلكات، والحكومات، والزيجات. غير أنه ثمة وقائع موضوعية تتعلق بها تلك الأمور؛ بمعنى أنها ليست أمورًا من باب ما أفضله أنا وتفضله أنت، ولا هى من باب التقييمات، أو النزعات الأخلاقية.إنما تشغلنى مثل هذه الوقائع الاجتماعية من قبيل كونى مواطنا من مواطنى الولايات المتحدة الأمريكية، وكون الورقة التى أحملها فى جيبى ورقة نقدية من فئة خمسة دولارات، وكون أختى الصغرى قد تزوجت فى الرابع عشر من ديسمبر، وكونى أمتلك حصة فى مقاطعة بيركلى، وكون فريق كرة القدم الأمريكية "عمالقة نيويورك" قد فاز بالكأس لعام ١٩٩١. وهذه الوقائع - على خلاف وقائع أخرى -توجد مستقلة، وبمعزل عن الآراء الإنسانية تماما، من مثل أن قمة إفرست يغطيها الثلج، وأن ذرات الهيدروجين ذات إليكترون واحد. فيما مضى أسميت الوقائع التى تعتمد على اتفاق الناس على قبولها " الوقائع المرتبطة بالمؤسسة" وذلك على خلاف وقائع غير مرتبطة بالمؤسسة،أو فلنقل حقائق عارية أو وقائع صريحة brute facts[1]. فالوقائع المرتبطة بالمؤسسة تدعى كذلك لأنها تقتضى بالضرورة سلفا وجود مؤسسات إنسانية شرطا لوجودها. فلكى تكون تلك القطعة من الورق عملة ورقية من فئة خمسة دولارات مثلا، لابد أن توجد مؤسسة إنسانية للنقود.أما الحقائق العارية فلا يقتضى وجودها بالضرورة وجود مؤسسات إنسانية. ولكى نقرر وجود حقيقة عارية أو ننص عليها صراحة يقتضى الأمر بالطبع

وجود مؤسسة اللغة، بيد أنه من الضرورى أن نميز تلك الحقيقة من التعبير عنها والنص عليها.

إن السؤال الذى حيرنى بحق هو كيف تصير الوقائع المرتبطة بالمؤسسة أمرا ممكنا؟ وما هو - على وجه التحديد - تركيب بنية تلك الوقائع؟ غير أنه فيما تخلل من سنوات،قد حدثت بعض الأشياء الغريبة. فلقد برهن كثير من الناس - ومنهم بعض من أحترم رأيه - على أن الواقع كله إلى حد ما هو من صنع الإنسان. وليس ثمة حقائق عارية، وإنما يعتمد وجودها فقط على العقل الإنسانى. إضافة إلى ذلك ـ فإن أناسا عدة قد جادلونا فى فكرتنا التى تتفق مع الحس المشترك commonsense عن وجود وقائع تجعل عباراتنا صادقة، وتجعلها تستمد مصداقيتها من تطابقها مع تلك الوقائع. لذلك فبعد محاولة الإجابة عن سؤالى الأساسى: كيف يمكن للمجتمع أن يبنى أو يقيم واقعا ؟ أود كذلك أن أدافع عن المخالفة التى يعتمد عليها هذا السؤال.أى إننى أريد أن أدافع عن فكرة وجود واقع يستقل بنفسه كلية عن وجودنا (الفصل السابع والثامن).هذا بالإضافة إلى أن منهجى البحثى يعتمد على اختبار بنية الواقع التى تجعل عباراتنا صادقة؛ فتكتسب قيمة صدقها من تطابقها مع الواقع وسوف أدافع كذلك عن صيغة من صيغ نظرية التطابق/التراسل. Correspondence Theory أو مع الواقع (الفصل التاسع). لذلك فالفصول الثلاثة الأخيرة تُعنى بالدفاع عن افتراض فرضيات عامة بعينها عن الواقع، وعن الأشكال التى نمثله بها، وعن المعرفة، وعن الحقيقة.

بعض الأسئلة التى أحاول الإجابة عنها فى مبحث الكتاب الأساسى (فى الفصول من١-٦) تدور حول الطريقة التى يمكن بها أن يوجد واقع موضوعى يستند فى جزء منه إلى اتفاق الناس على قبوله. كيف على سبيل المثال لقطعة ورقية فى جيبى أن تكون نقودا؟ تلك المسألة هى واقعة ذات طابع موضوعى تماما. فما دمنا نشير إلى شىء ما بوصفه نقودا فذلك ينطوى على حقيقة اعتقادنا فى ذلك. ولكن ما هو الدور الذى تقوم به اللغة فى تشكيل تلك الوقائع؟

ولكى نستشعر مدى تعقد المشكلة، أريد أن أبدأ بتأمل ميتافيزيقا العلاقات الاجتماعية المألوفة. فلنتأمل مثلا مشهداً بسيطا كالمشهد التالى: أدخل مقهى فى باريس، وأجلس على مقعد إلى مائدة من الموائد. يأتى النادل (الجرسون) وأغمغم ببعض من عبارة فرنسية، قائلا: " صب لى، من البرميل، من فضلك نصف لتر من بيرة

ميونيخ". يحضر النادل البيرة، وأشربها. أترك بعضا من النقود على المنضدة وأرحل. هذا المشهد مألوف تماما، بيد أن تعقيده الميتافيزيقى قد يجهد بحق فيلسوفا مثل كانط Kant(*) لو أنه شغل نفسه بالتفكير فى ذلك الأمر.

لاحظ أننا لا يمكننا أن نضع أيدينا على السمات الأساسية التى وصفتها فى لغة الفيزياء والكيمياء. فليس ثمة وصف كيميائى أو فيزيائى ملائم لتحديد مقهى، أو نادل، أو عبارة فرنسية،أو نقود، أو حتى مقعد أو مائدة، بالرغم من أنها كلها ظواهر مادية.لاحظ، علاوة على ذلك، أن المشهد - كما جاء وصفه - ينطوى بطبيعته على أمور غير منظورة لا يستهان بها : فالنادل لا يمتلك بالفعل تلك البيرة التى كان قد قدمها لى، ولكنه مستخدَم فقط فى المطعم الذى يمتلكها. والمطعم عليه أن يعرض قائمة بأسعار كل المشروبات، وحتى لو لم أر مثل تلك القائمة فعلى أن أدفع السعر المدرج بها فقط. ولدى صاحب المطعم تصريح من الحكومة الفرنسية يرخص له بإدارته. وعلى هذا النحو نجده يخضع لما لا حصر له من القواعد والتعليمات التى لا أعرف شيئا عنها. وما يخول لى - فى المقام الأول - أن أكون هناك فقط، هو كونى مواطنا من مواطنى الولايات المتحدة الأمريكية، أحمل جواز سفر صالحًا للاستخدام، وقد دخلت فرنسا دخولا شرعيا.

لاحظ - إضافة إلى ذلك - أن الكلمات - على الرغم من تحرى الحيدة قدر الإمكان -تقدم بنحو آلى مقاييس معيارية للتقييم. فالجرسونات مثلا يمكن أن يكونوا أكفاء أو غير أكفاء، شرفاء أو غير شرفاء، مهذبين أو أجلافا. والبيرة يمكن أن تستشعرها باردة، أو حارة، أو لاذعة، أو لذيذة ببساطة، أو ذات مذاق. والمطاعم يمكن أن تكون فاخرة أو كئيبة، راقية أو شعبية، أو عتيقة الطراز. والأمر نفسه يسرى على المقاعد والموائد والنقود والعبارات الفرنسية.

ولا يقتصر الأمر على هذا فلو أنى غادرت المطعم من بعد ذلك وذهبت للاستماع إلى محاضرة أو حضرت حفلا لازدادت وطأة العبء الميتافيزيقى الذى أحمله. وقد يعجب المرء كيف يتسنى لأحد أن يتحمل وطأته!

(*) لم يكن كانط ليعير تلك الأمور اهتماما بطبيعة الحال لأن الفلاسفة في عصره كانوا منشغلين فى المقام الأول بقضية المعرفة knowledge ثم انشغلوا من بعد ذلك بقضية اللغة. أما الفيلسوف الذى نحن بصدده الآن فإنه منشغل على الأقل ببعض السمات البنيوية العامة فى ثقافتنا الإنسانية.

مما يجعلنا نحتمل عبء تلك الوطأة أن أبنية الواقع الاجتماعى المعقدة ـ إذا جاز التعبير ـ ذات تراكيب غير منظورة، ولا نستشعر ثقلها. فالطفل مثلا يتربى فى ظل ثقافة يتخذ فيها الواقع الاجتماعى أمرا مسلما به. فنحن نتعلم كيف نستخدم أشياء من مثل السيارات وأحواض الاستحمام والمنازل والنقود والمطاعم والمدارس، وندركها دون أن نتأمل السمات الأونطولوجية الخاصة بها،ودون أن نعبأ بالأونطولوجيا الخاصة بها.إن وجودها يبدو لنا طبيعيا كوجود المياه والحجارة والأشجار. وغالبا ما يتعذر علينا حقيقة أن نرى الأشياء بوصفها ظواهر طبيعية تجردت فقط من أدوارها الوظيفية، فى الوقت الذى يتيسر لنا فيه أن نرى الأشياء المحيطة بنا وفقا لوظائفها الاجتماعية المحددة.على هذا النحو يتعلم الأطفال أن يروا السيارات المنطلقة، والعملات النقدية، وأحواض الاستحمام الممتلئة.غير أنه من خلال المقدرة على التجريد فقط نتمكن من أن نرى فى هذه الأشياء كتلا معدنية ذات خطوط منحنية، وأليافا سيلولوزية خضراء ورمادية، وتجاويف حديدية مغطاة بسطح مصقول تمتلئ بالمياه.

على هذا النحو يبدو الوجود الأونطولوجى المعقد بسيطا والوجود البسيط معقدا. ذلك لأننا نشيد الواقع الاجتماعى ليخدم أغراضنا، فيبدو على الفور واضحا لنا وضوح تلك الأغراض نفسها. فالسيارات للقيادة، والنقود للتكسب والإنفاق والادخار، وأحواض الاستحمام للاستحمام. لكن بمجرد أن تنتفى الوظيفة ويغيب معها الإجابة عن السؤال عن الغاية من وجودها، نلفى أنفسنا أمام مهمة فكرية أصعب، تتطلب تحديد الأشياء وفقا لسماتها الأساسية، دون أن تدل على ما يهمنا أو تشير إلى ما نهدف إليه من ورائها.

تمثل الطبيعة المستترة لتراكيب أبنية الواقع الاجتماعى فى واقع الأمر مشكلة لمن يتصدى لها بالتحليل. ولا يمكننا فقط أن نصف كيف تبدو لنا من وجهة نظر فينومينولوجية ؛ لأن النقود والممتلكات والزيجات والمحامين وأحواض الاستحمام لا يبدو أن لها أبنية أو تراكيب معقدة. إنها ما هى عليه فقط، أو هكذا تبدو. ولا يمكننا كذلك أن نصفها من وجهة نظر سلوكية خارجية، لأن وصف سلوك الناس الصريح فى تعاملهم مع النقود والممتلكات.الخ يفتقر إلى – البنية الكامنة للتراكيب التى تجعل من السلوك أمرا ممكنا. ولا يمكننا كذلك أن نصف أشكال تلك الأبنية بوصفها تتركب من مجموعة القواعد التقديرية غير الواعية، على النحو الذى يقوم به مبحث الإدراك العقلى Cognitive Science المعاصر واللغويات. ذلك لأنه قد يكون متسقا أن نسلم

باتباع غير واع لتلك القواعد التى يتعذر على الوعى أساسا إدراكها. كذلك فالتقدير الظنى هو أحد الظواهر الوظيفية المتعلقة بملاحظة من يدركون الظاهرة التى نسعى لتفسيرها(٢).

لو لم تكن وجهتا النظر الظاهراتية الداخلية، والسلوكية الخارجية كلتاهما وجهتى نظر ملائمتين، فما هو المنطلق الملائم ؟ وما هو المنهج البحثى السليم لوصف بناء الواقع الاجتماعى؟ ولكى أبدأ بطرح هذا السؤال فى هذا الفصل وفى الفصل التالى له سوف ألجأ إلى استخدام ضمير المتكلم لكى أعرض بعضا من السمات الأساسية الخاصة بالوجود الاجتماعى. وسوف أبين فيما بعد - فى الفصل السادس - كيف أن بعض وسائل القصد العقلى،وإن لم يكن كلها،يمكن أن نفسرها أو نستغنى عنها تماما لصالح ما أسميته فى موضع آخر "الخلفية"، التى تتألف من قدر من القدرات والإمكانات والمواقف.

الأونطولوجيا الأساسية

لما كان بحثنا يتسم بطابع أونطولوجى، مداره كيف توجد الوقائع الاجتماعية ؟، فإننا بحاجة إلى أن نفهم موضع الواقع الاجتماعى من وجودنا ككل؛ كيف يتسق وجودنا داخله؟ أى كيف يرتبط وجود الوقائع الاجتماعية بوجود أشياء أخرى سواها. سوف نفترض بعضا من الفرضيات الأساسية عن حقيقة عالم الواقع، من أجل أن نتمكن من أن نطرح الأسئلة التى نحاول الإجابة عنها. كما سنتحدث كذلك عن كيفية اتساق الواقع الاجتماعى داخل أونطولوجيا الوجود الأكبر. لكن لكى نقوم بذلك يتحتم علينا أن نصف بعضا من سمات ذلك الوجود الأرحب.

والحقيقة أن معظم ما لدينا من أنساق ميتافيزيقية - بما فى ذلك العلوم الطبيعية الأخرى - مستمد من الفيزياء. بل إن الكثير من سمات تصور العلم الطبيعى المعاصر للواقع ما زال موضع خلاف وجدل. قد يظن المرء مثلا أن نظرية الانفجار الكونى التى ترتبط بتفسير أصل الكون لا يمكن بأى حال من الأحوال إقامة الدليل المادى عليها، غير أن تصورنا للواقع له نظريتان ليس بالإمكان إقامة الدليل عليهما بعد. أو بعبارة أخرى ليس أمامنا نحن أبناء أواخر القرن العشرين وبواكير القرن الحادى والعشرين

سوى أن نأخذ بهما. يقتضى منك لكى تكون شخصا متعلما فى عصرنا هذا أن تحيط بهاتين النظريتين: النظرية الذرية للمادة، ونظرية التطور البيولوجى.

يمكن أن نقول ـ فى عجالة ـ إن ما نستخلصه من صورة للواقع من هاتين النظريتين يكشف عن أن عالم الواقع يتكون بأكمله من مكونات وجدنا أنها ملائمة، بالرغم من أنه ليس من الدقة تماما أن نصفها بأنها جزيئات. هذه الجزيئات المكونة تتسق داخل شبكة من العلاقات (تربط سريانها داخل حقول الطاقة). ويعين حدود تلك الأنظمة مجموعة من علاقات السببية. من أمثلة تلك الأنظمة: الجبال، والكواكب، ومركبات الماء (يد٢ أ)، والأنهار، والبلورات ،شأن ذلك شأن الأطفال؛ فبعض هذه الأنظمة أنظمة كائنات حية. وعلى كوكبنا الصغير تشتمل الأنظمة الحية على الكثير من ذرات الكربون ويدخل فيها الهيدروجين والنيتروجين والأوكسجين بكثافة. تتطور الأنظمة الحية عن طريق انتخاب طبيعى، وبعضها قد طور أنواعا بعينها من الأبنية (ذات الأنسجة الخلوية)،لا سيما الأجهزة العصبية التى تكون سببا فى الإدراك العقلى والحفاظ على سلامته. فالوعى أو الإدراك العقلى مسألة بيولوجية، ولهذا فله طبيعة فيزيائية، بالرغم من أنه بالطبع له طبيعة عقلية كذلك. وهذا من خصائص بعض الأنظمة العصبية العليا؛ من قبيل أنظمة العقل الإنسانى وعدد غير قليل من أنماط مختلفة من عقل الحيوان. ومع الإدراك العقلى يأتى القصد العقلى وتوجهه intentionality(*) أى قدرة العقل على أن يصنع أشكالا يمثل بها للوجود ويعبر بها عن أشياء سوى العقل نفسه.

(*) نستخدم كلمة intetionality بوصفها مصطلحا تقنيا يعنى تلك السمة التى تعد من خواص العقل حين يقصد نحو أشياء بعينها، يلتفت إليها و يتوجه نحوها؛ يفهمها فيمثل لها و يعبر عنها. و بهذا المعنى نجد أن الرغبات و المعتقدات – هى – أمور تتعلق بالقصد العقلى، تصف قدرته على أن يصور ويعبر عن.. ،لأنه لكى يكون لدينا اعتقاد أو رغبة ما يجب أن نؤمن بأن كذا وكذا هو ما نعتقده ونرغبه. وعلى هذا النحو الذى قصرنا عليه المصطلح نجده لا صلة له خاصة بالقصدية (بمعنى نية أو اعتزام فعل شىء). فاعتزام الذهاب لمشاهدة الأفلام هو على سبيل المثال نوع من أنواع القصد العقلى نحو شىء يفهمه فيتمثله و يعبر عنه. وللاطلاع على معالجة تستوفى أبعاد هذا المصطلح راجع: J.R.Searle, Intentionality:An Essay in the Philosophy of Mind. (Cambridge: Cambridge Unversity Press,1983).

ليس لكل وعى قصد عقلى، ليعبر عن الأشياء ويمثلها، وليس كل قصد عقلى من ماعون الوعى. فثمة أشكال من الوعى من مثل القلق غير الموجه للتعبير عن شىء ما. وهناك أشكال كثيرة غير واعية من القصد العقلى من مثل اعتقادى أن بيل كلينتون هو الرئيس -حتى لو لم أنتبه لاعتقادى. وعلى أية حال، فبالرغم من أنه لا صلة بالضرورة بين كون حالة ما هى من حالات مقاصد العقل فى لحظة ما، وكونها أمرا واعيا آنذاك، فثمة صلة هامة وضرورية بينهما ؛ ذلك أن كل حالة من حالات القصد العقلى تكون على الأقل فى متناول الوعى ؛فهذا الشىء قابل لأن يستشعره الوعى ويدركه. وكل حالة يتصد فيها الوعى إلى فهم الوجود والتعبير عنه تعبيرا غير واع لابد أن تكون فى أساسها ليست مما يتعذر على الوعى بلوغه.

هنا تتضح لنا أونطولوجيا وجودنا : فنحن نعيش فى عالم يتكون تماما من مركَّبات فيزيائية تتحرك فى مسارات داخل شبكة من العلاقات تربط بين حقول الطاقة؛ اتسق بعضها داخل أنظمة، وبعض هذه الأنظمة أجهزة كائنات حية، وبعض من هذه الأجهزة قد نشأ عنها وتطور الإدراك العقلى. ومع الوعى يأتى القصد العقلى وتوجهه لفهم الوجود وتمثيله والتعبير عنه، أو فلنقل قدرة الكائن الحى على أن يمثل الوجود فيتصوره ويصفه ويفهم حالاته states of affairs والأمور الموجودة فيه. والسؤال المطروح الآن هو كيف نفسر الوجود الزمنى لوقائع اجتماعية داخل تلك الأونطولوجيا؟

الموضوعية ورؤيتنا المعاصرة عالم الواقع

يعتمد قدر كبير من رؤيتنا العالم على تصورنا مفهوم الموضوعية، وكيف نتصور التباين بين الذاتى والموضوعى.من المشهور أن الفرق المميز بينهما مرده اختلاف فى الدرجة - بأكثر مما هو اختلاف فى المعنى. وفى إطار نقاشنا الحالى ثمة وجهان أساسيان وحاسمان للمعنى : الوجه الإبستمولوجى للتمييز بين الذاتى والموضوعى، ووجه آخر أونطولوجى. أما من وجهة النظر الإبستمولوجية فهناك حكم يخبرنا به كل من الذاتى والموضوعى فى المقام الأول وغالبا ما نعد الأحكام أمرا " ذاتيا "متصورين أن صدقها ليس مرده الباعث الموضوعى، لأن مسألة الصدق وعدم الصدق ليست أمرا فى الحقيقة بسيطا بل هى تعتمد على ميول ووجهات نظر بعينها لدى من يصدرون الأحكام ومن يستمعون إليهم. قد يكون المثل الملائم لذلك النوع من الحكم هو أن نقول مثلا

"ميرانت Rembrandt أفضل من روبنز Rubens" على هذا النحو نضع مثل ذلك الحكم الذاتى فى مقابل حكم موضوعى من مثل "عاش رمبرانت فى أمستردام خلال عام ". هكذا نجد أن الوقائع التى تجعل من مثل تلك الأحكام الموضوعية أحكاما صادقة أو أحكاما غير صادقة، تقف بمعزل عن مواقف أى شخص وعن مشاعره الخاصة. بهذا المعنى الإبستمولوجى لا يمكننا أن نتحدث عن أحكام موضوعية فقط، بل عن وقائع موضوعية. تتطابق مع الأحكام الموضوعية الصادقة. لابد أن يكون قد اتضح لنا من ضرب تلك الأمثلة أن التعارض بين الموضوعية الإبستمولوجية والذاتية الإبستمولوجية، إنما مرده اختلاف فى الدرجة.

إضافة للبعد المعرفى فى التمييز بين ما هو ذاتى وما هو موضوعى ، هناك بعد أونطولوجى آخر للتمييز بينهما. من الوجهة الأونطولوجية نجد أن فى الموضوعى والذاتى إخبارًا عن أشياء وأنواع من الموجودات تنتسب إليها أنماط من الوجود. فالآلام من الوجهة الأونطولوجية تعد أمورا ذاتية، لأن نمط وجودها يعتمد على استشعار الذوات لها، بينما تعد الجبال ـ على العكس من الآلام ـ ذات وجود موضوعى من وجهة النظر الأونطولوجية، لأن نمط وجودها يستقل بنفسه عن أية حالة عقلية أوعن أى ذات مدركة.

ويمكننا أن ندرك الفروق المميزة بوضوح لو تأملنا قدرتنا على أن نصوغ عبارات تخبر بطريقة إبستمولوجية ذاتية عن موجودات أونطولوجية موضوعية. كما أننا يمكننا بالمثل أن نصنع عبارات تخبر بطريقة إبستمولوجية موضوعية عن موجودات ذاتية أونطولوجية. فعبارة " قمة إفرست أجمل من قمة وايتنى "مثلا، تصدر حكما ذاتيا على أمور أونطولوجية موضوعية غير أنها تصدر أحكاما ذاتية عنها. ومن ناحية أخرى، نجد عبارة" لدى الآن ألم فى أ سفل ظهرى " تخبر بطريقة إبستمولوجية موضوعية عن إحدى الوقائع؛ أى إنها تصير صادقة من خلال وجود حقيقة فعلية لا تعتمد على أى موقف أو تصور يصدر عمن تبلغهم هذه العبارة. أيا كانت الظاهرة نفسها، فوجود الألم الفعلى وجود ذاتى.

سمات عالم الواقع

الفرق المميز بين ما هو أصلى منها، وما يتعلق بملاحظة المدرك.

على مر الزمان أوجد تقليدنا الثقافى بونا شاسعا يميز بين الجسم والعقل ، والطبيعة والثقافة. فى القسم الخاص بالأونطولوجيا الأساسية، يفهم ضمنا أننى قد

تخليت عن مفهوم العلاقة الثنائية بين العقل والجسم، لصالح تصور أن العقل هو مجموعة من السمات الأرقى للمخ، وهى سمات فيزيائية وعقلية فى آن. سوف نستعين بتركيب البنية العقلية لنبين كيف تتبنى الثقافة على الطبيعة. والخطوة الأولى هى أن نقدم فرقا يفوق ما قد ذكرنا آنفا من أهمية تلك البنية العقلية الأساسية. أعنى الفرق بين تلك السمات التى يتسم بها عالم الواقع وتوجد مستقلة بمعزل عنا، فى مقابل تلك السمات التى يعتمد وجودها علينا.

من السمات التى قد وصفتها بقدرتها على أن تميز وجودنا الأساسي ما يوجد بمعزل عن فهمنا له وتمثلنا له أو تعبيرنا عنه، كالجبال والجزيئات. ومع ذلك، فعندما نبدأ بتحديد سمات أكثر من سمات عالم الواقع نكتشف وجود فرق يميز بين تلك السمات التى قد ندعوها سمات أصلية فى الطبيعة، وتلك السمات التى يتصل وجودها بقدرة وعى من يدركون الأشياء ويستخدمونها على تصورها أو تمثِلها أو التعبير عنها.. إلخ. فمن السمات الأصلية، فى الشىء الماثل أمامى، على سبيل المثال، أن له كتلة وتركيبا كيميائيا بعينهما. فجزء منه مصنوع من الخشب،أى من خلايا تتكون من ألياف سيلولوزية، وكذلك يتكون جزء منه من معدن،أى من خليط من الجزيئات المعدنية، كل هذا من السمات الأصلية. ولكن يصح كذلك أن نقول عن الشىء نفسه إنه مفك. وعندما أصفه بأنه مفك فإنما أعين سمة من سماته التى تتصل بمن يدركه أو يستخدمه.فهو ما هو لأن الناس يستخدمونه كمفك(أو صنعوه لذلك الغرض أو أعدوه لذلك). إن وجود سمات تتصل بمن يدرك عالم الواقع، لا يضيف أى أشياء مادية جديدة لهذا الواقع، ولكنه من الممكن أن يضيف إليه سمات موضوعية إبستمولوجية ؛ إذ تتصل تلك السمات بمن يدركونها ويستعينون بها. فمن السمات الموضوعية مثلا، أن ندعو ذلك الشىء مفكا، لكن تلك السمة لا توجد إلا على صلة بمن يدركونه ويستخدمونه على هذا النحو،من هنا كانت تلك السمة سمة ذاتية أونطولوجية. يتضمن ذلك الصانع والمصمم والمالك والمشترى والبائع وأى شخص آخر يقصد إلى ذلك الشىء فيفهمه ويتمثله أو يعبر عنه بوصفه مفكا.

ولما كانت القضايا هامة والمثل بسيطا، فقد أردت أن أفصّل القول فى هذه النقاط بعض الشىء.

١ - إن الشىء المادى الموجود أمامى لا يعتمد وجوده على أى من تصوراتنا أو على مواقفنا تجاهه.

٢ - إن له سمات كثيرة أصلية،أعنى أنها لا تعتمد على تصورات أو ميول من يدركونها أو من يستخدمونها أو ميولهم. من مثل أن له كتلة بعينها وتركيبا كيميائيا بعينه.

٣ - إن له سمات أخرى توجد فقط فى إطار وقوعه فى دائرة وعى الذوات الفاعلة التى تستعمله فتجعل منه مفكا. وسوف نصطلح على تسمية هذه السمات بعامة سمات تتصل بمن يدركها observer relative، وتعد سمات ذاتية أونطولوجية.

٤ - وبعض هذه السمات الذاتية من الوجهة الأونطولوجية ، هى موضوعية من الوجهة الإبستمولوجية. فمثلا ليس رأيى أو تقييمى فقط هما ما يجعل منه مفكا، فكونه مفكا من الأمور الموضوعية التى يمكن التحقق منها.

٥ - على الرغم من أن كونه مفكا سمة تتصل بمن يدركه، فإن الاعتقاد فى أن شيئا ما مفك (معاملته واستخدامه بوصفه مفكا إلخ) يعد سمة أصلية بالنسبة لمن (يستخدمونه على هذا النحو)، بيد أن السمات الخاصة بمن يدركونه، تلك السمات التى تمكنهم من ابتكار تلك السمات المتصلة بالعالم هى من خواصهم الأصلية وسوف أزيد هذه النقطة شرحا وتفصيلا فى موضع آخر.

قد لا يتضح على الفور إن كانت سمة ما سمة أصلية، أو كانت تتصل بمن يدركها. ولنا فى الألوان مثل طيب. اعتقد الناس قبل تطور علوم الفيزياء فى القرن السابع عشر أن الألوان من سمات عالم الواقع الأساسية، غير أن كثيرا من الناس - فى ذلك الوقت - رأوا فيها أشياء توجد فقط بالنسبة لمن يدركها. ومن السمات الأصلية بالنسبة للضوء أنه ينتشر فى اتجاهات مختلفة عندما تعكسه الأسطح، ومن الخصائص الأصلية أن يكون لدى الناس خبرات لونية ذاتية يسببها تأثير الضوء على أنظمتهم البصرية. بيد أنه مما يعزى للأشياء كذلك من أمور اللون فى عالم الواقع أنه مسألة تتصل بالمدرك؛ لأنها توجد فقط على علاقة بخبرات المدركين نتيجة لتأثير الضوء عليهم. ولست هنا بصدد إثارة قضية الألوان، وإنما ألفت الانتباه إلى أنه من غير الواضح دائما كون الملمح أصليا أو يتصل بمن يدركه.

ولكى ندرك الفرق فى عجالة لا بأس بها، اسأل نفسك هل يمكن لسمة ما أن توجد لو لم يوجد كائن إنسانى أو أى نوع آخر من الكائنات الواعية التى تتمتع بالإدراك

الحسى؟ إن السمات الخاصة بمن يدرك لا توجد إلا على صلة بمواقف من يدركونها وبتصوراتهم عنها، بينما توجد السمات الأصلية مستقلة بمعزل عمن يدركونها، ودون أن نعبأ بهم. يجب على الفور أن نضيف شرطا لكفاءة هذا الاختبار. لقد نوهنا به فى النقطة الخامسة، أعنى أن أفعال الإدراك والاستخدام نفسها من السمات الأصلية بالنسبة للمدركين والمستخدمين لها أنفسهم.

وقد نعبر عن ذلك بلا تنميق قائلين إن شيئا ما يعد مفكا بالنسبة لكائنات واعية تعده كذلك، ولكن امتلاك تلك الكائنات مثل هذا التصور هو نفسه سمة أساسية من سمات الكائنات الواعية.لأن الحالات العقلية الواعية وغير الواعية هى فى ذاتها من سمات الواقع الأساسية. ولو حسمنا القول،فليس من الصواب أن نقول إنه لكى نكتشف سمات عالم الواقع الأصلية علينا أن نسقط من الاعتبار كل الحالات العقلية. ولكى أعيد صياغة ما قدمت من شرح للفرق المميز الذى ذكرته أجد أننى بحاجة إلى أن أعلل لهذا الاستثناء على النحو التالى: إن سمات الواقع الأصلية هى تلك السمات التى توجد مستقلة بذاتها أى بمعزل عن كل الحالات العقلية إلا الحالات العقلية التى تعد هى ذاتها من سمات الواقع الأساسية.

ولو نظرنا من أعلى، أو من خارج عالم الواقع لبدت لنا كل سمات عالم الواقع أصلية، بما فى ذلك السمات غير المستقلة بذاتها كأن يرى الناس فى ثقافتنا مثل هذه الأشياء وتلك بوصفها مفكات. فخارج عالم الواقع لا تُرى مفكات ولا سيارات ولا أحواض سباحة إلخ، لأنه ليس من أصل هذه الأشياء أن توجد على هذا النحو. إنما يمكن الإطلال من خارج عالم الواقع على أشياء بعينها وعلى الطريقة التى نتعامل بها نحن البشر معها فنستخدمها بوصفها مفكات، وسيارات وأحواض سباحة... إلخ. ولكن من وجهة نظرنا بوصفنا كائنات فاعلة داخل عالم الواقع،فنحن بحاجة إلى أن نميز تلك العبارات الصادقة التى نصوغها،والتى تعزو لعالم الواقع سمات لا تعتمد على أى من منطلقاتنا أو تصوراتنا أو المواقف التى نتخذها - من جانب - من تلك العبارات التى تخص سمات توجد فقط على صلة باهتماماتنا و منطلقاتنا ومواقفنا وأهدافنا..إلخ، - من جانب آخر.

فى كل زوج من العبارات التالية نجد أن العبارة الأولى تعبر عن حقيقة أصلية تخص موضوعا ما،أما العبارة الثانية فتعبر عن حقيقة تتصل بمن يدرك تلك الحقيقة:

الأولى أ. أصلية : هذا الشيء حجر.

الأولى " ب بالنسبة للمدرك : هذا الشيء مثقلة أوراق.

الثانية أ أصلية : القمر يتسبب فى المد والجزر.

الثانية ب بالنسبة للمدرك : القمر جميل الليلة.

الثالثة أ أصلية : تحدث الزلازل حيث تلتقى الطبقات المتصدعة.

الثالثة ب بالنسبة للمدرك: تقلل الزلازل من قيمة المنازل الواقعة فى نطاقها.

أردت أن يكون ذلك الفرق المميز واضحا تماما،لأنه سوف يثبت فى النهاية أن الواقع الاجتماعى بعامة يمكن أن يفهم فقط فى ضوء هذا التمييز. فالسمات المتصلة بمن يدركها قد أوجدتها ظواهر عقلية أصلية بالنسبة لمن يدركون الأشياء الموجودة ويستخدمونها..إلخ. تلك الظواهر العقلية شأنها شأن كل الظواهر العقلية الأخرى، ذاتية من الوجهة الأونطولوجية ؛ و من هنا فقد ورثت السمات المتصلة بمن يدركون تلك الذاتية من الوجهة الأونطولوجية.غير أن تلك الذاتية من الوجهة الأونطولوجية لاتمنع من وجود مزاعم ترد السمات المتصلة بمن يدركون إلى كونها سمات موضوعية من الوجهة الإبستمولوجية. لاحظ أن العبارة الأولى (ب) المتصلة بالمدرك والعبارة الثالثة (ب) موضوعية من الوجهة الإبستمولوجية، بينما العبارة الثانية (ب) ذاتية. توضح تلك النقاط الطرق التى تتقاطع بها الفروق المميزة الثلاثة بعضها بالبعض الآخر، أى الفرق الذى يميز بين ما هو أصلى وما يتعلق بمن يدركون من ناحية،والفرق بين الذاتية والموضوعية من الوجهة الأونطولوجية من ناحية أخرى، والفرق الذى يميز بين الذاتية والموضوعية من الوجهة الإبستمولوجية من ناحية ثالثة.

والنتيجة المنطقية لما قد بسطت القول فيه من الفروق حتى الآن، أنه من المنطقى أن يكون من سمات (ف) أن تظهر أنها (ف) فى أعين من يرونها ويدركونها فتكون (ف)؛ أى إنه: لابد ل (ف) أن تبدو (ف) لكى تكون (ف).,فإن تفهمنا تلك الفكرة نكون قد خطونا أول خطوة على طريق فهم أونطولوجيا الواقع الذى يشيده المجتمع.

إن السمة الموضوعية الأساسية التى أتناولها فى هذا الفصل هى أن ما يلزم من وسائل لتفسير الواقع الاجتماعى بوصفه مكونا من مكونات الأونطولوجيا العلمية لنا ككل. و هذا يستلزم توفر ثلاثة عناصر بالتحديد : أن نسند وظيفة، وأن نقصد نحو الوجود فنفهمه ونعبر عنه بشكل جماعى، وأن توجد القواعد التى تضع الأسس وتوفر المتومات. (وسوف أضيف فيما بعد فى الفصل السادس عنصرًا رابعًا «وظيفته التعليل للأبنية المرتبطة بالمؤسسة») أعنى ما للخلفية من قدرات تمكن الناس من التكيف مع بيئتهم، من أجل تفسير العلل التى تدفع الأبنية المرتبطة بالمؤسسة للقيام بوظائفها. يضطرنى شرح هذه النقاط إلى الوقوع فى نوع من الدائرة الهرمنيوطيقية ؛ فعلى أن استخدم وقائع ترتبط بالمؤسسة لأشرح الوقائع الأخرى التى ترتبط بالمؤسسة؛ أى علىَّ أن ألجأ للقواعد لكى أشرح قواعد أخرى، وللغة لكى أشرح لغة ما. بيد أن المشكلة تتعلق بالتفسير لا بالمنطق ؛ فعند عرض النظرية اعتمدت على فهم القارئ الظواهر التى عنيت بتفسيرها. غير أنه لم يكن ثمة وقوع فى دائرة مفرغة circularity عند التفسير الفعلى للظواهر.

سوف أسمى أولى الوسائل النظرية التى أحتاج إليها: أن نسند" وظيفة"أو نفرض على شخص أو شىء أن يضطلع بأمر القيام بها. ولكى أشرح ذلك، أبدأ بالإشارة إلى تلك القدرة الرائعة لدى البشر وبعض الحيوانات الأخرى على إسناد وظائف للأشياء،بما فى ذلك الأشياء الموجودة وجودا طبيعيا،والأشياء التى أوجدت للقيام بالوظائف المسندة إليها.

بقدر ما تحيط خبراتنا الطبيعية بالأشياء الموجودة فى عالم الواقع ؛ فإن خبرتنا بالأشياء تتجاوز كونها موضوعات مادية أو مجموعات من الجزيئات أو الذرات، إلى ما تؤلفه من عوالم من المقاعد والموائد، والمنازل والسيارات، وقاعات المحاضرات، والصور والشوارع والحدائق وهلم جرا. والآن تقتضى كل الأسماء التى أطلقناها وتواضعنا على استخدامها وجود معايير تقييم مستمدة من داخل الظواهر التى نتناولها، بما يجعلها ينطبق عليها هذه الأوصاف فتندرج تحت معاييرها، وغير مستمدة من المكونات المدرجة تحت "الموضوع المادى ". حتى الظواهر الطبيعية كالأنهار والأشجار يمكن أن تسند إليها وظائف تتحدد قيمتها بوصفها جيدة أو سيئة على أساس منها ؛ أى يتحدد مدى نجاحها

فى القيام بها بناء على ما نسنده إليها من وظائف بعينها دون سواها. هذه هى السمة الخاصة بالقصد العقلى التى أدعوها إسناد وظيفة أو فرضها. فى حالة بعض المبتكرات، ننشئ الشىء ليؤدى وظيفة ؛ فالمقاعد، وأحواض السباحة، والحاسبات الآلية (أجهزة الكومبيوتر)، خير مثال على ذلك. وفى حال وجود الكثير من الظواهر الطبيعية كالأنهار والأشجار، فإننا نسند لما هو موجود من قبل وظيفة جمالية أو عملية، وما شابه ذلك. فنقول مثلا" هذا النهر تطيب السباحة فيه"، و" هذا النوع من الأشجار يصلح للتقطيع".

أما وقد بلغنا هذا الحد فأهم ما يسترعى انتباهنا أن الوظائف لا تشكل على الإطلاق جزءا أصليا من التكوين الفيزيائى لأية ظاهرة، وإنما يفرضها عليها من خارجها المخلوقات الواعية التى تدركها وتستخدمها. فالوظائف باختصار ليست أصلية من تركيب البنية بحال وإنما تتعلق بمن يدركون الأشياء.

لقد أعمانا عن تلك الحقيقة - خاصة فى مجال البيولوجيا - اعتياد التحدث عن الوظائف كما لو كانت خاصية أصلية فى الطبيعة،أى لا تنفصل عن تكوين بنيتها العضوية. ولكن الطبيعة، فيما عدا تلك المخلوقات الواعية، لا تعلم شيئا عن الوظائف. من الأمور الأساسية فى الطبيعة مثلا أن القلب يضخ الدماء ويدفعها داخل الجسد. ومن الوقائع الأساسية فى الطبيعة كذلك أن تدفق الدماء يرتبط بمجموعة كاملة من العمليات الأخرى الخاصة بحياة الكائن الحى. ولكن عندما نضيف قائلين:" إن وظيفة القلب أن يضخ الدماء" إلى قولنا " القلب يضخ الدماء" فإننا نقوم بشىء أكبر من مجرد تسجيل تلك الوقائع الأساسية. نحن نضع تلك الوقائع فى موضع يصلها بنظام القيم التى نحملها. كذلك من الأمور الأساسية بالنسبة لنا أن نحمل تلك القيم، لكن أن ننسب هذه القيم إلى الطبيعة المستقلة بذاتها فأمر ذلك بيد من يدركون تلك الظواهر. حتى عندما نكتشف وظيفة ما فى الطبيعة، مثل اكتشافنا وظيفة القلب مثلا،فإننا نجد لهذا الاكتشاف بعدين: بعداً يعلل سيرورتها، وبعداً يربطها بالضرورة بغاية أو بهدف يتحقق من ورائها. يوضح هذا وجود قدر من كلمات النجاح والإخفاق قد صارت الآن ملائمة، غير أنها لا تتلاءم مع ما فى الطبيعة من وقائع بسيطة فطرية خالصة. ومن ثم يمكن أن نتحدث عن "خلل فى الوظيفة" و" مرض القلب" وقلوب أفضل وأخرى أسوأ. نحن لا نتحدث عن حجارة أفضل وأخرى أسوأ، إن لم نسند للحجر وظيفة. فلو أننا استخدمنا الحجر كسلاح أو كمثقلة للورق أو قطعة فنية مثلا لأمكننا أن نقدر مدى قدرته على الوفاء بما أسند إليه من وظيفة وفقا لما تتطلبه من مواصفات.

لابد لنا من أن نفهم هذا الأمر بدقة: نحن بالفعل نكتشف وجود وظائف فى الطبيعة، بيد أن اكتشاف وظيفة طبيعية يمكن أن يحتل مكانا فقط داخل إطار مجموعة من القيم المفروضة مسبقا (بما فى ذلك المقاصد والغائية وغيرها من الوظائف الأخرى). بناء على هذا نكون بالفعل قد قبلنا بوجود قيمة للكائنات الحية فى البقاء والتناسل، وللأنواع فى استمرار الوجود. فبالإمكان أن نكتشف أن وظيفة القلب أن يضخ الدماء، ووظيفة الشبكية أن تثِّبت الصورة المنعكسة داخل تجويف العين، وهلم جرا. عندما نكتشف مثل تلك الوظائف الطبيعية، نجد أنه ليس ثمة وظائف طبيعية يمكن اكتشافها بمقدورها أن تتجاوز الوقائع المرتبطة بالأسباب أو العلل. يرتبط جزء مما تضيفه كلمة " الوظائف" لكلمة "العلل" بمجموعة من القيم (بما فى ذلك الأهداف والغايات بعامة). ذلك لأنه من المسلم به فى علم البيولوجيا أن الحياة والبقاء من القيم، وأنه يمكننا أن نكتشف أن وظيفة القلب أن يضخ الدماء. ولو اعتقدنا أن أهم قيمة فى الوجود أن نمجد الله بأن نجعل صوت الضربات أعلى، فإن وظيفة القلب ستصير إصدار دقات عالية، والقلب عالى الضربات سيصير قلبا أفضل. ولو أننا أعلينا من شأن الموت والانقراض على سواهما من القيم لقلنا إن وظيفة مرض السرطان أن يسرع بنا إلى الموت. وسوف تكون وظيفة الشيخوخة أن تعجل بالموت، ووظيفة الانتخاب الطبيعى الانقراض. وفى حال إسناد كل هذه الوظائف لا ينطوى الأمر على وجود وظائف أصلية جديدة. وبقدر ما ينظر للطبيعة من حيث سماتها الأصلية لا نجد حقيقة وظيفية تتجاوز الوقائع السببية، وما يسند من وظائف سوى ذلك فأمره يتعلق بوجهة نظر من يدركون تلك الوظائف.

من أعظم إنجازات داروين أنه دفع بالغائية بعيدا عن معالجة أصل الأنواع. ففى تفسير داروين Darwin يحدث التطور عن طريق قوى طبيعية صريحة brute forces غفل، فلا غاية أصلية أيا ما كانت من وراء أصل الأنواع الحية وبقائها. من الممكن أن نحدد جزافا "وظائف" عمليات السيرورة أو التطور البيولوجى المتصلة ببقاء الكائنات الحية، لكن فكرة أن يكون إسناد وظيفة على هذا النحو يرتبط باكتشاف غاية أصلية فى الطبيعة، ومن ثم تكون تلك الوظائف أصلية، إنما هو دائما ضرب من ضروب أدلة مور Moor التى يظل فيها النقاش دائرا دون إجابة حاسمة. فبم نحدد الجانب الوظيفى من الوظائف ؟إما أن تتحدد "الوظيفة" بناء على العلل المسببة لها، وفى أى حال من الحالات لا يوجد فى الوظائف ما هو أصلى من الناحية الوظيفية، فما هى إلا علل

شأن غيرها من العلل، أو أن تتحدد الوظائف بناء على ما يعززها من القيم التى نتمسك بها - كالحياة والبقاء والتوالد والصحة - وبناء عليه يتعلق بعض منها بمن يدركون تلك الوظائف فقط.

أدرك أن كثيرا من علماء البيولوجيا وفلاسفتها سيختلفون معى فى ذلك، فخلال العقود القليلة الماضية حدث تطور كبير فيما كتب عن الوظائف والتفسيرات الوظيفية، أكثره قد تأثر بمقال لارى رايت Larry Wright الذى يحدد فيه الوظيفة على النحو التالى(٢):

أن تكون الوظيفة التى تقوم بها (س) هى (ص) يعنى:

١ - أنه (س) موجودة لأنها تقوم بـ (ص).

٢ - و (ص) نتيجة تترتب على وجود (س).

لو صح مثل هذا التحليل لنحّى جانبا تعلق الوظيفة بمن يدركونها، فمن البدهى أننا نحدد "الوظيفة "وفقا لما يعلل لها: فمثلا (س) تقوم بـ (ف)، هذا فقط فى حالة ما إذا كانت (س) تتسبب فى (ف). وعلى الأقل إن جزءا مما يعلل أو يفسر وجود (س) أنها تتسبب فى (ف) ؛ لذلك فالقلب مثلا من وظيفته ضخ الدماء لأنه يضخ الدماء، والتفسير الذى يبرر لوجود القلوب فى تاريخ التطور هو أنها فى الحقيقة تقوم بضخ الدماء. يبدو أن التاريخ الطبيعى يقدم لنا تعريفا للوظيفة وكيف تصير الوظائف من الأمور الأساسية. ولروث ميليكان Ruth Millikan رأى مماثل فى مفهوم "الوظيفة الأصلية proper function بيد أنه أكثر تعقيدا، على الرغم من الإصرار على عدم السعى إلى تحليل الاستخدام العادى لفكرة الوظيفة، ولكن لتقديم تعبير تقنى جديد يتحدد وفقا" للتكاثر" و" السببية "(*). وهو تفسير لا يملك أحد الاعتراض عليه.بمقدورك أن تطرح أية اصطلاحات تقنية جديدة تراها. وعلى الرغم من ذلك فمن

(*) R. G. Millikan , Language , Thought, and Other Biological Categories : New Foundations for Realism (Cambridge? Mass.: MIT Press, 1984). In R. G. Millikan, In Defense of the Proper Functions," in The Philosophy of Sciences 56(1989), 288-302.

كتبت ميليكان تقول :

إن تعريف " الوظيفة الأصلية" قابل للتطبيق الدائم. و فى عجالة يمكن أن نقول إنه من الضرورى لكى تتخذ (أ) الوظيفة (ف) بوصفها وظيفتها الأصلية، (بل يكاد يكون كافيا) أن واحدا من هذين الشرطين يجب أن يستمر: =

الأهمية بمكان أن نؤكد إخفاق تلك التعريفات فى أن تضع يدها على سمات أساسية بعينها من سمات ما قد ألفناه من تصور للوظيفة، لأسباب ثلاثة على الأقل :

الأول فى حالة ميليكان: نجد أن تعريف الوظيفة يعتمد على نظرية تاريخية بعينها تفسر أسباب التكاثر. أنا أعتقد فى الحقيقة أن قلبى يقوم بضخ الدماء، كما أعتقد كذلك فى تفسير داروين: الذى جعل من التكاثر سببا للتطور التاريخى للقلوب. بيد أنه حتى ولو لم يصدق ذلك التفسير الدارونى للتكاثر أو سواه ، فسوف يستمر قلبى فى القيام بضخ الدماء.عند تعريف المعنى الحقيقى لافتراض أن وظيفة القلب الأصلية ضخ الدماء، رأت ميليكان أنه من الممكن أن يفسر معنى الوظيفة الأصلية فقط وفقا لتفسير تاريخى يوضح السبب الذى يفسر كيف تكاثرت القلوب. ومن غير الممكن أن يكون ذلك صحيحا ما دمنا فى إطار ما قد ألفناه من تصور للوظيفة.

الثانى: لو اعتبرنا أن مثل تلك التعريفات تضع يدها على السمات الأساسية لتصورنا المعتاد، فهناك شواهد نفى counter examples يتعذر تحليلها كذلك. قد يكون علينا أن نقول عن تفسير رايت بل عن تفسير ميليكان للوظيفة كذلك (سواء أكانت أصلية أم غير أصلية)، إن الوظيفة الخاصة بنزلات البرد هى نشر جراثيم البرد. فى الحقيقة إنها تنشر جراثيم البرد ولو لم تفعل ذلك لما وجدت. ولكننا قد ألفنا تصور أنه ليس لنزلات البرد من وظيفة، ولو كان لها فليس من وظيفتها بالتأكيد نشر الجراثيم.

الثالث، لقد تُرك الجزء المعيارى من تكوين الوظائف بلا شرح. بالرغم من أن تحليلا كتحليل ميليكان يمكن أن يفسر سبب وجود موجودات لا تحقق وظائفها. إلا أن اختزال الوظيفة إلى تصورات سببية ما زال يتجاهل العنصر المعيارى الخاص بالقيمة. لماذا نتحدث عن خلل فى وظائف القلب، وعن أمراض القلب، وعن قلوب أفضل وأخرى

=١ - نشأت (أ) بوصفها سلالة (لتقدم مثلا واحدا بوصفها نسخة أو نسخة عن نسخة) من صنف سابق أو أصناف قد تشكلت بفضل امتلاك ما قد أنتجته (ف) فى الماضى ، و استمر(وجودها التاريخى) بسبب أدائها هذه الأدوار.

٢ - نشأت (أ) بوصفها نتاج بعض الصيغ السابقة التى هيأت لها الظروف أن تعمل عمل (ف) بوصفها وظيفة أصلية لها و فى ظل هذه الظروف أوجدت (ف) بوصفها نتاجا لمادة تطابق (أ). إن المواد التى تندرج تحت هذا النموذج (٢) لها وظائف أصلية "مشتقة" (و هى وظائف مستمدة من وظائف الصيغ التى قد أسفرت عن وجودها)، ص ٢٨٨.

أسوأ؟. هنا يتضح المأزق المعتاد : فإما أن نتحدث عن العلاقات السببية الخالصة ؛حيث نضع ضخ القلب الدماء، ونشر نزلات البرد الجراثيم، فى سلة واحدة، أو أن نرى للوظائف جانبا وظيفيا؛ حيث ينحي ذلك النوع من التعريف السمة التى تربط بين الوظيفة ومن يدركونها جانبا.

هناك دليل آخر قد يكون من الأدلة الخادعة، على العكس من العلل المسببة ـ تتعلق بمن يدركونه، بينما نجد الخصائص الوظيفية لشىء ما على العكس من الخصائص المسببة ـ معتمة intensional(*) أى ليس بالإمكان استبدال الواحدة منها بالأخرى ولا تنسحب على سواها. فتعدد الإشارات الدالة coreferentiality فى السياقات المتنوعة للوظائف -حين تستبدل إشارة بإشارة أخرى على نحو تغيم معه الفكرة - يخفق فى أن يضمن الحفاظ على قيمة صدق العبارة. وبناء على ما سبق يمكن القول بأن " وظيفة (أ) هى أن تقوم بـ (س)" إضافة إلى أن"قيام (س) بالفعل يتطابق مع قيام (ص) بالفعل" X ing is identifying with Y ing) القول بأن وظيفة بالضروره) لا تتضمن هذه العبارات (أ) أن تقوم بـ (ص)". فعلى سبيل المثال، يصح أو يصدق ببساطة أن يكون من المألوف أن تكون المجاديف قد اتخذت ليجدف بها الناس، وأن التجديف يكون بدفع ضغط على سطح الماء يتصل بنقطة ارتكاز، لكن الأمر ليس أمر اتخاذ المجداف فى إحداث ضغط على الماء من نقطة ارتكاز ما وظيفة له.. والخلاصة : أن السمة الأولى

(*) يجب ألا نخلط بين intensionality و intentionality

فـIntentionality هى من الخصائص المرتبطة بالقصد العقلى وتوجهه نحو العالم الخارجى والأشياء الموجودة فى عالم الواقع فيفهمها ويتصورها ويمثل لها و يصفها يعبر عنها.

أما الأولى فتتعلق بخاصية عدم قدرة الجمل و أشكال التمثيل intensionality أو التصوير الأخرى، على أن تنسحب على ما سواها. extensionality. من أشهر ما يتعلق بهذا قانون لايبنيز leibnizالقائل بأنه "لو أن تعبيرين أشارا إلى الشىء نفسه، فيمكن لأحدهما أن يحل محل الآخر داخل العبارة دون تغيير قيمة صدق العبارة. والعبارات التى تخفق فى اجتياز هذا الاختبار تعد| intensional معتمة فاقدة القدرة على الاستبدال. من التعبيرات الأخرى المستخدمة لتسمية ذلك النوع من الاصطلاحات أى intensionalityهو"إعتام الإشارة referential opacity وبالمثل تماما فالعبارات التى تدور حول حالة من حالات القصد العقلى و توجهه نحو ما يفهمه و يعبر عنه أو يمثله من أشياء هى عبارات معتمة الإشارة ، ليس بالإمكان استبدال بإشارة فيها إشارة أخرى ، لأنه فى تلك العبارات تؤثر الطريقة التى يشار بها إلى شىء على قيمة صدق العبارة . للاطلاع على تناول مفصّل لهذه المسائل انظر :

Searle, Intentionality, An Essay in the Philosophy of Mind.

التى نحتاج إلى أن نشير إليها فى مناقشتنا قدرة الكائنات الواعية على صنع وقائع اجتماعية هى القدرة على إسناد وظائف للأشياء ولظواهر أخرى. فما كانت الوظائف أبدا أصلية؛ ولكن تفرضها اهتمامات من يدركون تلك الأشياء أو يستخدمونها.

لم أحاول بعدُ أن أحلل صيغة العبارة "وظيفة س أن تقوم بـ ص" مبينا الشروط المنطقية الضرورية لاستيفائها شروط تحققها، بيد أنى ألفت الانتباه إلى شروط رئيسية بعينها هى:

(١) حيثما تكون وظيفة (س) أن تقوم بـ (ص)، عندها يكون كل من (س) و(ص) ممثلا لجزء من أجزاء نظام محدد عامة بمقاصد وأهداف وقيم. لأجل هذا توجد وظائف لرجال الشرطة والأساتذة، وليس لكل البشر وظائف كيفما اتفق؛ إذ لابد من أن نرى البشر جزءا من نظام أكبر وظيفتهم فيه مثلا عبادة الله.

(٢) وحيثما يكون من وظيفة (س) القيام بـ (ص)، فإنه من المفترض أن (س) تتسبب فى أو تؤدى إلى (ص). هذا المكون المعيارى من مكونات الوظائف لا يمكن أن يختزل إلى العلة المسببة وحدها، أو يختزل لما يترتب فى الحقيقة على (س). لأن (س) يمكنها القيام بالفعل (ص) حتى فى الحالات التى تخفق فيها (س) فى أن تتسبب فى وقوع (ص) دائما، أوفى معظم الأحيان. لذلك فوظيفة صمام الأمان مثلا منع الانفجارات، وهذا صحيح حتى بالنسبة للصمامات ضعيفة الجودة التى تخفق فى منع الانفجارات،أى الصمامات التى تعانى من خلل وظيفى.

إن الأمثلة التى حظيت منا بعناية أكبر حتى الآن تلفت النظر إلى فرق مميز آخر بين الوظائف المسندة agentive والوظائف غير المسندة nonagentive. يتعلق فرض الوظائف المسندة للأشياء وللظواهر أحيانا بمقاصدنا وبأغراضنا الفورية، سواء أكانت هذه المقاصد والغايات عملية، أم كانت خاصة بتذوق الطعام،أم جمالية، أم تعليمية، أم سوى ذلك من الأغراض. فعندما نقول" إن هذا الحجر مثبت للأوراق" أو " إن هذا الشىء مفك " أو "إن هذا كرسى " فإن تصور وظائف هذه الأدوات الصغيرة الثلاث المختلفة تحدد الاستخدامات الوظيفية التى أسندناها إلى هذه الأشياء. وهى وظائف لم نكتشفها، ولم تحدث حدوثا طبيعيا، وإنما فرضتها عليها علاقتها بالاهتمامات العملية للذوات الفاعلة الواعية. ليس كل هذه الاهتمامات من نوع الاهتمامات العملية العادية بأية حال، لأننا نسند وظائف كذلك عندما نقول " تلك لوحة قبيحة". لأن هذه كلها

شواهد تضرب مثلا على استخدامات الأشياء وما تصوّره لها وعى الناس من وظائف وأسندها إليها. سوف أدعو تلك الوظائف وظائف مسندة[٣] بعض الأشياء التى نسند إليها القيام بوظيفة ما توجد بنحو طبيعى كالحجر الذى نستخدمه لتثبيت الورق، وبعضها صنع خصيصا لأداء تلك الوظائف من مثل الكراسى والمفكات واللوحات الزيتية.إن الشىء الذى صنع خصيصا للقيام بوظيفة أسندت إليه يمكن أن يستغل فى القيام بوظيفة أخرى، كما تخبرنا مثلا عبارة " هذا الشاكوش هو مثبت أوراقى ". وكما ألفينا فى حالة "القلب" أن الوظيفة ليست أساسية بالنسبة للشىء، إضافة إلى علاقاته بأسباب وجوده، بل على العكس،بالنسبة لما يعزى للقلب من وظيفة. نجد فى هذه الحالات أن نسبة الوظيفة للشىء إنما تعزى للاستخدام الذى قصده العقل حين فهم طبيعة ربطه هذا الاستخدام بهذه الأشياء وتمثَّلها.

بعض الوظائف لم تفرض على الأشياء لخدمة أغراض عملية وإنما نجدها تحدث بنحو طبيعى وتندرج تحت عمليات سيرورة بوصفها جزءا من تناول نظرى للظواهر التى نحن بصددها. لذلك نقول " يقوم القلب بضخ الدماء " عندما نتناول الطريقة التى بها تحيى المخلوقات، وتنعم بالبقاء. وبالنسبة للغائية التى تمنح للبقاء والتكاثر قيمة، فيمكن أن نكتشف حدوث بعض الوظائف فى الطبيعة بمعزل عن الأهداف العملية للذوات الإنسانية الفاعلة ؛ ولنطلق على تلك الوظائف "الوظائف غير المسندة"[٤].

ليس ثمة خط فاصل بين هذين النوعين من الوظائف، فأحيانا ما تحل وظيفة أسندت لشىء أو لظاهرة ما محل النوع الآخر ، من مثل حالة ابتكار قلب صناعى. لذلك نجد،أنه بالرغم من أنه بإمكاننا - بشكل عام وليس دائما- أن نقول إن الوظائف المسندة ترتبط دائما بما تقصده عقول من يستخدمونها وتقتضيه، يظل ما سوى ذلك من الوظائف فى تغير دون أى مجهود من جانبنا. لذلك فأحواض السباحة والعملات المالية والمفكات تقتضى منا أن نواصل استخدامنا لها بوصفها أحواض سباحة وعملات مالية ومفكات، بينما يظل كل من القلب والكبد يعمل بوصفه قلبا أو كبدا حتى ولو لم يعر أحد الأمر انتباها. علاوة على ذلك،فقد لا يكون الشخص الذى يستخدم بالفعل شيئا ما للقيام بوظيفة أسندت إليه هو الذات الفاعلة التى أسندت بالفعل تلك الوظيفة إلى ذلك الشىء. بل قد لا يعبأ هذا الشخص بأن للشىء مثل تلك الوظيفة ومن ثم فمعظم سائقى السيارات يكادون لا يبالون بأن وظيفة عمود التدوير (الاسكارتا) نقل الدفع من

ناقل الحركة إلى محاور العجلات ، ولكن الكل يتفق على أنها وظيفة مسندة، (ولا تحدث كأمر طبيعى).

ثمة فرق آخر مميز: فى إطار الوظائف المسندة،نجد أننا بحاجة إلى أن نتحقق من طائفة خاصة من الوظائف ؛ فأحيانا ما تكون الوظيفة المسندة لشىء ما، هى أن يمثل شيئا آخر، أو يرمز إليه. لذلك فعندما أرسم خريطة للعبة كرة القدم أجعل بعض الدوائر ترمز إلى الظهير والأجنحة وما إلى ذلك. وفى هذه الحال،نجد أن الوظيفة التى اسندت لما على الخريطة هى أن تمثل أو أن ترمز. ولأن ذلك ليس سوى اسم آخر للقصد العقلى فى التفاته أو توجهه للأشياء فهما وتمثيلا وتعبيرا عنها، ففى هذه الحال نجد لدينا أهدافا فرضناها عن قصد على موضوعات وأشياء، هى ليست فى أصلها من مقاصد العقل وتوجهاته. يسمى هذا النمط الذى يترتب على إسناد وظيفة ما " معنى " أو "رمزية ". فوضع علامات على الورق الآن له معنى، غير أنه ليس كالمعنى الذى للمفك على سبيل المثال. فليس للعلامات التى على الورق الآن نفس النوع من المعنى،لأنها ترمز إلى أشياء أخرى ولأمور مستقلة عنها. وأشهر أنواع الأمثلة بالطبع نجده فى "اللغة". فعندما نستخدم اللغة نفرض على الأشكال والأصوات وظائف بعينها نسندها إليها؛ أعنى أن تعبر اللغة عما سواها عن طريق العلامات والأصوات.

لقد ذكرت آنفا أن القدرة على أن نسند لظواهر طبيعية وظائف تقوم بها هى قدرة رائعة،غير أنه لا يقلل من روعة تلك القدرة أن يكون ما نسنده لها من وظائف قد فرض بطريقة غير واعية تماما. فبمجرد أن تفرض الوظائف تظل- إذا جاز التعبير - مستترة فى الغالب. فعلى سبيل المثال قد ينشأ المال ببساطة دون أى تفكير فى" أننا الآن نسند وظيفة جديدة إلى هذه الأشياء"؛ وبمجرد أن يوجد المال يستخدمه الناس فى البيع والشراء، ربما دون أدنى تفكير فى كيف فرضنا تلك الوظيفة عقليا، أو فلنقل بنحو أدق دون أدنى تفكير فى البنية المنطقية التى أسندنا عن طريقها تلك الوظيفة. وبرغم ذلك ففى كل الحالات التى نسند فيها وظيفة لشىء ما لابد من وجود شخص قادر على أن يفهم ما وضع الشىء له، وإلا لما تعين على هذا الشىء أمر القيام بهذه الوظيفة. لابد من أن يفهم على الأقل بعض المشاركين فى نظام التبادل بوعى أو بغير وعى أن المال مثلا لشراء الأشياء، وأن المفكات للفك، وهلم جرا. فلو أسندنا أمر القيام بوظيفة ما لشىء بمعزل تماما عن المقاصد البشرية، فلابد أنها مما يندرج تحت الوظيفة الطبيعية. لذا، افرض أن هناك من يقول إن الوظيفة المسندة إلى المال هى أن يكون وسيلة للتبادل،

وسبيلا لاختزان القيمة، غير أن المال كذلك يخدم وظيفة خفية، مستترة،غير مقصودة، هى الحفاظ على نظام علاقات القوة داخل المجتمع.يدور الرأى أو الفرضية الأولى على القصد العقلى فى الوظيفة المسندة. ويدور الرأى أو الفرضية الثانية على الوظيفة غير المسندة. ولكى تلمس ذلك، اسأل نفسك ببساطة عن الوقائع التى من شأنها أن تجعل كل فرضية منهما فرضية صحيحة. فالقصد العقلى الذى يدفع بالناس إلى استخدام المال بوصفه مالا تجعل من الفرضية الأولى فرضية صحيحة.ذلك لأن الناس يستخدمونه لغرض البيع والشراء والاحتفاظ بالقيمة. أما الفرضية الثانية: من مثل أن القلب يعمل على ضخ الدماء، فمما يجعل منها فرضية صحيحة فقط، أن يكون هناك مجموعة من العلاقات السببية غير المقصودة التى تخدم غاية ما، حتى ولو لم يشارك المتحدث فى تلك الغاية. يتحدث بعض علماء الاجتماع عن الفرق بين وظيفة ظاهرة جلية ووظيفة خفية مستترة. فلو أن هذا الفرق يكافئ الفرق الذى قد ذكرته لكانت الوظائف الظاهرة توازى الوظائف المسندة، ولكانت الوظائف المستترة هى الوظائف غير المسندة.

وخلاصة القول فى هذه الأفكار، أننا قد اكتشفنا ثلاث فئات مستقلة تتعلق بإسناد الوظائف:

أولا : الوظائف غير المسندة : كأن تكون وظيفة القلب مثلا أن يضخ الدماء. وهذه الوظائف بعامة تحدث بنحو طبيعى.

ثانيا : الوظائف المسندة: كأن تكون وظيفة المفك مثلا أن يزيل المسمار اللولبى (القلاووظ).

ثالثا : داخل إطار الوظائف المسندة ثمة فئة فرعية: تكون فيها الوظيفة المسندة من الوظائف المرتبطة بالقصد العقلى وتوجهه نحو الأشياء فهما وتمثيلا وتعبيرا عنها؛ فوظيفة عبارة" الثلج أبيض"، على سبيل المثال هى أن تعبر تعبيرا صادقا أو تعبيرا كاذبا عن هذا الأمر (أن الثلج أبيض)(٥).

ولكى أحافظ على سلامة التعبير الاصطلاحى فقط سأتبنى ما أصطلح عليه فيما يلى :

(١) لما كانت كل الوظائف تتعلق بمن يدركونها فسأتحدث عن كل الوظائف بوصفها وظائف مسندة assigned أو وظائف مفروضة imposed بالتساوى.

(٢) داخل فئة الوظائف المسندة، نجد أن بعض الوظائف مسندة لأشياء لأنها موضع استعمال، جعلها مستخدموها تقوم بالوظيفة - كأن تكون وظيفة حوض الاستحمام مثلا الاستحمام فيه.

(٣) فى داخل فئة الوظائف المسندة نجد وظائف يعد بعضها وظائف غير مسندة لأن لها خطوات إجرائية (أو سيرورة) تحدث بنحو طبيعى (لأنها) تسببت فى وجودها ، غير اننا قد أسندنا إليها أمر تحقيق غرض ما، من مثل، أن وظيفة القلب أن يضخ الدماء.

(٤) فى داخل فئة الوظائف المسندة صنف خاص من الوظائف من وظيفته أن يرمز ويمثل للوجود، ويعبر عنه أو فلنقل يعنى بعامة شيئا آخر.

القصد العقلى الجماعى Collective Intentionality

لدى الكثير من أجناس الحيوانات، ولدى البشر خاصة القدرة على القصد العقلى والتوجه توجها جماعيا نحو فهم الأشياء وتمثلها والتعبير عنها. لا أقصد بهذا فقط أنهم يتعاونون فى التعايش، بل إنهم يتشاركون فى حالات من القصد العقلى من مثل المعتقدات والرغبات والمقاصد. وبالإضافة إلى القصد العقلى الفردى ثمة قصد للعقل الجماعى. ومن الأمثلة الواضحة على ذلك: أنى أفعل شيئا فى إطار كوننا نفعل ذلك الشىء فلو أنى حارس خط الهجوم فى مباراة كرة قدم، فقد أغلق ثغرات الدفاع، لكننى أفعل ذلك بوصفى جزءا من تنفيذ لعبة هجوم. ولو أنى عازف فيولينا (الكمان) فى أوركسترا فإننى أعزف الجزء الخاص بى فى إطار العزف السيمفونى للأوركسترا. حتى إن أشد أنواع الخلافات البشرية تتطلب القصد العقلى الجماعى. فلو كان على رجلين الدخول فى مباراة ملاكمة مثلا لكان من الضرورى وجود قصد عقلى جماعى على مستوى أعلى. ولكان لابد عليهما أن يتشاركا فى العراك، أى أن يحاول كل منهما أن يضرب الآخر. من هذه الناحية تختلف مباراة الملاكمة عن ضرب شخص ببساطة فى أحد الأزقة. فالرجل الذى يتسلل خلسة وينقض على رجل آخر فى أحد الأزقة ليس منخرطا فى سلوك جماعى. غير أن ملاكمين بالأجر أو خصمين فى دعوى بالمحكمة، بل إن عضوى هيئة تدريس يتبادلان الشتائم فى حفل كوكتيل كذلك-، كل هؤلاء ينخرطون فى سلوك جماعى مشترك على مستوى عال، يمكن لعداوة الخصوم أن تحتل موضعها فى إطاره. إن فهم القصد العقلى الجماعى أمر أساسى لفهم الوقائع الاجتماعية.

ما العلاقة بين القصد العقلى الفردى والقصد العقلى الجماعى ؟ من الممكن أن نقول مثلا (نحن نقصد) وأن أقول (أنا أقصد)؟ أغلب ما قد رأيت من جهود للإجابة عن هذا السؤال تسعى إلى اختزال " قصد عقل الجماعة " إلى " قصد عقل الفرد ". هذا بالإضافة إلى شىء آخر، عادة ما يكون معتقدات مشتركة، فلو أننا نقصد القيام بشىء ما معا فمعنى ذلك أننى أقصد القيام به، وكل واحد منا يعتقد أن لدى الآخر ذلك الاعتقاد عن تلك الاعتقادات، وتلك الاعتقادات عن تلك الاعتقادات عن تلك الاعتقادات... إلخ، فى تدرج من الاعتقادات قد لا ينتهى. " أعتقد أنك تعتقد أنى أعتقد أنك تعتقد أنى أعتقد"، وهلم جرا. فى اعتقادى أن كل تلك الجهود لاختزال القصد العقلى الجماعى لا يمكن بحال أن تختزل أو أن تنحى جانبا لصالح شىء آخر. وكل ما قد شهدت من محاولات لهذا الاختزال قد استحال إلى شواهد نفى(٦).

ثمة سبب أصلى لعدم إمكان اختزال قصد العقل الجماعى هذا إلى قصد العقل الفردى. فالمشكلة – فى اعتقادى- أنك تعتقد أنى أعتقد إلخ، واعتقادك أنى أعتقد أنك تعتقد إلخ، هى أن اعتقادى أو اعتقادك لا يفضيان إلى معنى الجماعية. وما لمجموعة من وعى الفرد "أنا" حتى لو عززتها الاعتقادات أن تفضى إلى وعى جماعى" نحن " واحد. فالعامل الحاسم فى القصد العقلى الجماعى هو الإحساس بالقيام بفعل مشترك (الرغبة فى أمر ما، أو الاعتقاد فيه، إلخ)، بينما نجد أن قصد الوعى الفردى الذى لدى كل واحد منا إنما هو مستمد من قصد الوعى الجماعى الذى يتشارك فيه الأفراد. لذلك لو رجعنا إلى المثل الذى ضربناه سابقا عن كرة القدم، وقصدى الفردى إلى إغلاق خط الدفاع، لوجدنا أنه يقع كذلك ضمن قصدنا الجماعى إلى القيام بهجوم (لصالح الفريق). ولو عكسنا الأمر لأمكننا أن نرى تلك الفروق بوضوح أكبر؛ حيث نشهد سلوك مشاركة حقيقيًا فى حالات يمكن أن نقول إنه قد تصادف فيها وجود شخصين يتزامن سلوكهما معا، غير أنه ثمة فرق كبير بين وجود لاعبَى فيولينا يعزفان فى أوركسترا واحد من جانب، وبين أن يكتشفا من جانب آخر أنه بينما يتدرب أحدهما على معزوفته، تتدرب زميلته الأخرى فى الحجرة المجاورة على معزوفتها كذلك، فيكتشفان بالصدفة أنهما يعزفان المقطوعة نفسها متزامنين.

لماذا اقتنع كثير من الفلاسفة بأن اختزال قصد العقل الجماعى إلى قصد العقل الفردى لابد أن يكون أمرا ممكنا ؟ لماذا لا يريدون أن يروا قصد العقل الجماعى بوصفه ظاهرة أولية ؟ أعتقد أن السبب مرده أنهم يقبلون ما يساق من دليل يبدو جذابا غير

انه ينطوى على مغالطة. هذا الدليل هو أنه: لأن كل قصد عقلى قد وجد فى رءوس مجموعة أفراد من البشر، فإن شكل هذا القصد العقلى لا يمكن أن يشير إلا إلى الأفراد الذين قد وجد فى عقولهم.

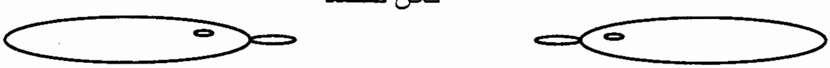
لذلك فقد بدا الأمر كما لو أن من يرى فى القصد العقلى الجماعى شكلا أوليا من أشكال الحياة العقلية ، لابد أن يكون على ولاء لقدر من الروح ذات الطابع الهيجلى،أى على ولاء لوعى جماعى، أو لشىء على غرار ذلك، مما يتعذر تصديقه. بدا أن متطلبات النزعة الفردية تدفعنا إلى أن نختزل قصد العقل الجماعى إلى قصد الوعى الفردى. بدا باختصار أن علينا أن نختار بين الأخذ بنزعة الاختزال من جانب، أو الأخذ بوجود عقل أعلى يحلق فوق العقول الفردية من جانب آخر. أود أن أفترض على العكس من ذلك ؛ أن النقاش ينطوى على مغالطة، كما أن المأزق زائف. ذلك فى حقيقة الأمر لأن حياتى العقلية كلها تقع داخل مخى، وبالمثل فإن كل حياتك العقلية تحدث داخل مخك، وهذا شأن كل إنسان آخر. ولكن لا يستلزم هذا بالضرورة أو يترتب عليه أنه لابد أن يكون التعبير عن حياتى العقلية كله بضمير المتكلم. فالشكل الذى يمكن أن يعبر به قصد العقل الجماعى هو" نحن" نقصد " و"نحن نفعل كذا وكذا "وما على غرار ذلك.

فى مثل هذه الحالات إنما "أقصد" فقط بوصفى جزءا من نحن "نقصد" . فالقصد العقلى الموجود داخل عقل كل واحد إنما هو بصيغة" نحن نقصد"(٧).

والصورة التقليدية للقصد العقلى الجماعى "نحن نقصد" تبدو على النحو التالى:

شكل ١,١

نحن نقصد



أنا أقصد وأعتقد أنك تعتقد أن... أنا أقصد وأعتقد أنك تعتقد أن ...

والبديل أن أفترض أن تبدو على النحو التالى:

شكل ١,٢



نحن نقصد نحن نقصد

ومن الآن فصاعدا سوف نتفق على أن نستخدم تعبير "الواقعة الاجتماعية" للإشارة إلى أى واقعة تستدعى وجود قصد العقل الجماعى. لذلك يعد خروج اثنين للتريض معا مثلا واقعة اجتماعية، ذلك أن الوقائع المرتبطة بالمؤسسة تعد نوعا خاصا من أنواع الوقائع الاجتماعية، وهى ترتبط بوجود مؤسسات إنسانية. فكون هذه القطعة من الورق مثلا هى ورقة مالية من فئة عشرين دولارا هى واقعة يرتبط وجودها بالمؤسسة.

القواعد التأسيسية والفرق المميز بين الحقائق العارية أو الوقائع الصريحة والوقائع المرتبطة بالمؤسسة.

فى كتابى فى فلسفة اللغة[٨]. طرحت بدايات الإجابة عن السؤال الخاص بالعلاقات التى تربط بين السمات الخاصة بعالم الواقع، تلك التى تعد من مسائل الفيزياء والبيولوجيا الخالصة من جانب، وسمات عالم الواقع الخاصة بالثقافة والمجتمع من جانب آخر. دون أن ينطوى هذا على أن تلك الوقائع هى الأنواع الوحيدة من الوقائع الموجودة فى هذا العالم. فنحن بحاجة إلى التمييز بين الحقائق العارية من مثل أن الشمس تقع على بعد ٩٣ مليون ميل من الأرض، والوقائع المرتبطة بالمؤسسة من مثل أن كلينتون رئيس الجمهورية. فالحقائق العارية توجد مستقلة بمعزل عن أى مؤسسة إنسانية، أما الوقائع المرتبطة بالمؤسسة فلا توجد إلا داخل إطار المؤسسات الإنسانية. إن الحقائق العارية بحاجة لمؤسسة اللغة من أجل أن نتمكن من أن نقررها ونخبر بها. غير أن الحقائق العارية نفسها توجد مستقلة بمعزل تماما عن اللغة، وعن أى مؤسسة أخرى. من هنا كانت العبارة الإخبارية " تبعد الشمس عن الأرض مسافة ٩٣ مليون ميل" بحاجة إلى وجود مؤسسة اللغة، ومؤسسة لقياس المسافة بالأميال. فالحقيقة التى قد قررتها اللغة وأخبرت بها، وهى وجود مسافة بين الأرض والشمس، واقعة تستقل بنفسها وتقف بمعزل عن أية مؤسسة. كذلك يستدعى الوجود الفعلى للوقائع المرتبطة بالمؤسسة، من ناحية أخرى، وجود مؤسسات إنسانية بعينها. واللغة مؤسسة من هذه المؤسسات، بل هى فى حقيقة الأمر مجموعة كاملة من هذه المؤسسات.

ما هى هذه المؤسسات؟ ولكى أجيب عن هذا السؤال قدمت فرقا مميزا آخر بين ما أدعوه القواعد التأسيسية والقواعد التنظيمية[٩]. فبعض القواعد تنظم أنشطة موجودة مسبقا؛ فقواعد القيادة على الجانب الأيمن من الطريق تنظم القيادة، لكن القيادة نفسها توجد سابقة على وجود هذه القواعد. وعلى الرغم من ذلك فبعض القواعد ليس

من همها التنظيم فقط، إنما تتيح خلق أنشطة بعينها. فقواعد لعبة الشطرنج لا تنظم نشاطا موجودا مسبقا. وليس الأمر من باب أنه كان هناك أناس كثيرون يتقدمون بقطع من الخشب على سطح رقع مقسمة، ولكى نمنعهم من الارتطام بعضهم بالبعض الآخر، أو من التكدس، كان علينا أن ننظم ذلك النشاط. وإنما حقيقة الأمر أن قواعد الشطرنج مكنتنا بالفعل من لعب الشطرنج، أما وجود قواعد تأسيسية للشطرنج فمعناه أن لعب الشطرنج قد تأسس جزئيا على التحرك وفقا للقواعد، فلستَ بلاعب شطرنج لو لم تتبع على الأقل مجموعة محدودة النطاق من القواعد، لقد حلت القواعد فى الأنظمة، واتخذت بنحو فردى- بل اتخذ النظام كله أحيانا بنحو جماعى وكذلك بنحو مميز - شكلا أو صيغة المعادلة :

"(س) تعد بمثابة (ص)" أو "(س) تعد بمثابة (ص) فى السياق (ع)"

ومن ثم يعد كذا وكذا قتلا للشاه، وتعد حركة كذا وحركة كذا حركة بيدق مشروعة.

إنما أرى أن الوقائع المرتبطة بالمؤسسة توجد فقط داخل أنظمة قواعد ترتبط بالمؤسسة، تمكّن أنظمة القواعد تلك من خلق هذا النوع من الوقائع؛ فتتيح الفرصة لوجود شواهد بعينها على وجود وقائع ترتبط بالمؤسسة - من مثل أنى ربحت فى الشطرنج، أو أن كلينتون رئيس الجمهورية - وهى وقائع أوجدها تطبيق قواعد بعينها؛ خاصة بالشاه وبانتخاب الرؤساء وأدائهم اليمين لتقلد مناصبهم. قد يكون من الأهمية بمكان أن أؤكد أنى أناقش قواعد لا أعرافًا. فمن قواعد الشطرنج أنا نكسب المباراة بقتل الشاه، بينما من أعراف الشطرنج أن الشاه أضخم من البيدق. يتضمن العرف جزافية، بينما لا نجد القواعد المرتبطة بالمؤسسة جزافية بهذا المعنى.

إن سياق المعادلة " (س) تعد بمثابة (ص) فى حالة (ع)" مسألة تشير إلى مبهم intensional؛ ذلك أنها لا تُبين من ورائها عن مدلول معنى تشير إليه، ولهذا فهى لا تسمح بأن نستبدل بالتعبير الدال مكافئا له من نفس الحجم، وعلى هذا النحو تكون عبارات من مثل :

(١) العملات التى أصدرتها مصلحة سك العملة (س) تعد بمثابة النقود (ص) فى الولايات المتحدة (ع).

(٢) المال أصل كل الشرور.

وكلاهما لا يفضى إلى أن:

(٣) العملات التى أصدرتها مصلحة سك العملة تعد أصل كل الشرور فى الولايات المتحدة.

عندما نضع أيدينا فى العادة على إشارة مبهمة أو فلنقل معتمة نكون قد وضعنا أيدينا على مسألة حاسمة، لأن هذه الإشارة تمدنا بدليل يشير إلى وجود مكون عقلى فى الوقائع المرتبطة بالمؤسسة؛ فعندما يصاغ الكلام صياغة مبهمة intensional (لاتشير لما وراءها بالتحديد)، لا تسمح لنا بأن نستبدل بها تعبيرات من نفس حجمها، وهذا دليل يكشف لنا عن أن الظواهر التى قد مثلت لها وعبرت عنها أو وصفتها، تنبنى على القصد العقلى intentional. وهذا أمر شديد الأهمية كما سيتضح لنا فى الفصول التالية.

هاجم غير قليل من المنظرين الاجتماعيين ما كنت قد قدمته من فرق يميز بين القواعد التنظيمية والقواعد التأسيسية[١٠]، غير أنى أعتقد فى سلامة معالجتى قدر ما يمكنها الاستمرار. أما المشكلة الراهنة التى تواجه ما نرمى إليه فهى أن هذه المعالجة ما زالت محدودة ؛ إذ ما زلنا بحاجة إلى معالجة رصينة للقواعد والمؤسسات. وكذلك للإجابة عن الكثير من الأسئلة، من قبيل: هل كل الوقائع الاجتماعية وقائع مؤسسية ؟ وهل ثمة قواعد تضع الأسس وتوفر المقومات للحروب وحفلات الكوكتيل مثلا ؟ ما الذى يحيل أمرا إلى قواعد تأسيسية ؟ وأصعب هذه الأسئلة : كيف نقيم الصلة بين الأونطولوجيا الأساسية لحيوانات بيولوجية واعية مثلنا (نحن البشر) من جانب، والأجهزة الخاصة بالبنية الاجتماعية والمؤسسات الإنسانية من جانب آخر. سيكون لدىّ الكثير مما يقال فيما بعد عن شكل القواعد التأسيسية، وكيف تنعقد الصلة بينها وبين أونطولوجيا الوقائع المؤسسية.

أهدف الآن فى هذا الفصل إلى أن أجمع الأجزاء المتناثرة فى منظومة متكاملة. والآن لقد توفر لدىّ الأجزاء الثلاثة التى أحتاجها وهى: فرض وظيفة على موجودات لم

تكن لها تلك الوظيفة من قبل، وتوجه القصد العقلى الجماعى فهما وتمثلا للوجود وتعبيرا عنه، والفرق بين القواعد التأسيسية والقواعد التنظيمية.

اما وقد وضعنا أيدينا على هذا فيمكننا الآن أن نتحول إلى دراسة بناء الواقع المرتبط بالمؤسسة.

هوامش الفصل الأول

(١) J. R. Searle, "What is a Speech Act", in Black, Maxed.

Philosophy in America (Ithaca, N. Y.: Cornell University Press, London: Allen N. Unwin, 1965)

J. R. Searle, Speech Acts, An essay in the Philosophy of Language (New York: Cambridge University Press, 1969)

يعزى الرأى الخاص بفكرة "الحقائق الصريحة أو الوقائع العارية" بهذا المعنى إلى

G. E. M. Anscombe, "On Brute Facts", (Analysis 18, no. 3 1958)

(٢) من أجل مزيد من النقاش حول الزعمين الأخيرين، أى فيما يخص عدم تماسك مفهوم قانون اللاوعى العميق، واعتباره غير مترابط وإنما يتعلق بمن يلاحظ و يدرك، انظر

John R. Searle, The Rediscovery of the Mind (Cambridge, Mass., London: MIT Press, 1992).

لا سيما الفصل السابع والفصل التاسع.

(٣) L. Wright, "Functions" in The Philosophical Review 82, no. 2 (April 1973), 137-68.

وانظر كذلك:

P. Achinstein, "Functional Explanation" in The Nature of Explanation (New York: Oxford University Press 1983), pp. 263-90.

(٤) فى الأصل اقترحت على جنيفر هودين Jennifer Hudin استخدام هذه المصطلحات لوصف الفرق المميز.

(٥) للاطلاع على تفسير نوع فرض الوظائف الصادر عن القصد العقلى المرتبط بالمعنى انظر:

Searle, Intentionality, An Essay in the Philosophy of Mind,

لاسيما الفصل السادس.

(٦) أناقش بعضا من هذا فى مقال.

John R. Searle, "Collective Intentions and Actions" in

Intentions in Communication, P.Cohen, J. Morgan, and M. E.

Pollack, eds. Cambridge, Mass.: Bradford Books, MIT Press,

1990).

(٧) لا أود أن يُفترض أن آرائى لا جدال فيها ولا اعتراض عليها. فهناك عدة مفاهيم أخرى لها وزنها، خاصة بالقصد العقلى الجماعى. انظر فيما يخص ذلك:

M. Gilbert, On Social Facts (London: Routledge, 1989); M. Bratman, "Shared Cooperative Activity", Philosophical Review 101, no. 2 (1992), 327-412;

R. Tuomela and K. Miller , "We-intentions", Philosophical Studies 53 (1988), 367-89.

(٨) Searle, Speech Acts.

(٩) قدم راولز فرقا مميزا آخر فى:

J. Rawls, "Two Concepts of Rules", Philosophical Review 64 (1955).

(١٠) على سبيل المثال:

Antony Giddens, The Constitutions of Society: Outline of the Theory of Structuration (Berkeley: University of California Press, 1984), pp. 19ff.

الفصل الثانى

بناء الوقائع التى ترتبط بالمؤسسة

فى هذا إلفصل أصف البنية الاجتماعية البسيطة فى شكلها الأولى، وكيف تطورت بنية الوقائع المرتبطة بالمؤسسة بشكل منطقى من أشكال أبسط من الوقائع الاجتماعية. ولكى أقوم بهذا سأستعين بالوظائف المسندة، والقصد العقلى الجماعى، هذا بالإضافة إلى القواعد التأسيسية. وسوف أسعى كذلك إلى أن أفسر عدة سمات تثير الحيرة من سمات الواقع الاجتماعى.

بعض السمات الظاهرية الخاصة بالواقع الاجتماعى

فى البداية دعونا نعرِّف بعضا من سمات الواقع الاجتماعى التى نود أن نشرحها. ولأنى أعتقد أن الأبحاث الفلسفية لابد أن تبدأ بداية بسيطة (بغض النظر عن الطريقة التى تتعقد بها، وتفضى لما يترتب عليها من النتائج)، فسوف أحصى ستاً من سمات الواقع الاجتماعى التى تبدو بسيطة وبدهية، وتتضمن كذلك سمات مؤسسية من مثل العبارة التى أقول فيها: "أنا مواطن أمريكى"، وكذلك تتضمن سمات اجتماعية،مما لا يقتضى بالضرورة وجود أبنية مرتبطة بالمؤسسة، من مثل واقعة وجود اثنين يدفعان سيارة كى تبدأ المسير.

١. كثير من المفاهيم الاجتماعية تستمد معناها من داخل النظام ولا تشير إلى معنى يقع خارجه:

يبدو أن المفاهيم التى نطلق عليها الوقائع الاجتماعية ذات طبيعة خاصة؛ إذ إنها تستمد معناها من داخل النظام، ولا تشير لمعنى خارجه. فى صياغة تمهيدية يمكن أن

نقول مثلا، إنه لكى ينطبق مفهوم النقود على الأشياء الموجودة فى جيبى يجب أن تكون من نوع الأشياء التى يعدها الناس نقودا. ولو كف كل منا عن الاعتقاد بأنها نقود، لتوقفت عن القيام بوظيفة النقود، ولانتفى عن وجودها صفة النقود فى آخر الأمر. يقول منطق الكلام إن عبارة "إن نوعا بعينه من المادة، س مثلا، هو نقود" تنطوى على انفصال ضمنى غير محدد عن صيغة المعادلة" س تستخدم بمثابة النقود، أو يعتقد الناس أن س نقود")…. إلخ. لكن يبدو أنه يترتب على هذا أن مفهوم كلمة نقود لا يستمد من خارج نظامها، أو يشير إلى معنى لا يرتبط بها. لأنه كى ينطبق التعريف على نمط من الأشياء؛ أى لكى تندرج (الأشياء) تحت مفهوم النقود، لابد من الاعتقاد فى أنها نقود، أو استخدامها بوصفها كذلك،…إلخ. بالنسبة لتلك الأنماط من الوقائع، يكاد يبدو صحيحا من الناحية المنطقية أنك لا يمكنك أن تخدع كل الناس طول الوقت. فلو قر فى اعتقاد كل منا بشكل دائم، أن ذلك النوع من الأشياء نقود، واستخدمناها بوصفها نقودا، وتعاملنا معها بوصفها نقودا، لصارت نقودا، ولو لم يعتقد أحد على الإطلاق فى أن ذلك النوع من الأشياء نقود، لما كان نقودا. و ما يجرى على النقود يجرى على الانتخابات، والملكية الخاصة، والحروب، والتصويت فى الانتخابات، والوعود، والزيجات، والبيع والشراء، والمناصب السياسية … إلخ.

ولكى نعرض هذه الفكرة بنحو أدق، نحن بحاجة إلى التمييز بين الممارسات العامة والمؤسسات من جانب،ومجموعة من الشواهد من جانب آخر؛ أى أن نميز بين الأنماط والعلامات الرمزية فقد تسقط ورقة مالية من فئة الدولار من مكابس الطبع وتغيب فى شقوق الأرضية دون أن يفطن أحد على الإطلاق إلى أنها نقود، أو يعتقد أنها نقود، أو يفكر فى استخدامها، بيد أنها تظل نقودا. فى مثل هذه الحال نجد لدينا علامة رمزية مميزة بعينها على النقود، حتى ولو لم يستخدمها أحد على الإطلاق. وبالمثل قد توجد ورقة مالية - من فئة الدولار - مزيفة، متداولة، دون أن يعلم أحد بذلك على الإطلاق، ولا حتى من زيفها. فى مثل هذه الحال، سوف يظن كل من استخدم تلك العلامة الرمزية أنها كانت نقودا، حتى ولو لم تكن فى واقع الأمر نقودا. من الممكن أن يخطئ الناس بشأن منظومة علامات رمزية بعينها. لكن عندما يخص الأمر النمط الذى يندرج تحته شىء ما فإن الاعتقاد بأنه نمط من أنماط النقود اعتقاد تأسيسى لكونه نقودا؛ وهذا ما سيحتاج إلى أن نولى توضيحه توضيحا تاما عنايتنا.

إن ما أقوله عن بعض الظواهر المؤسسية من قبيل مؤسسة النقود، ينطبق على الأنماط أكثر مما ينطبق على العلامات الرمزية. أما بالنسبة لمؤسسات أخرى على شاكلة حفلات الكوكتيل، فإن ما أقوله ينطبق على كل نموذج فردى من نماذج العلامات الرمزية. وللتبسيط سأفترض أن القارئ مهتم بأمر هذا التمييز. لذلك سوف أتحدث عن كيف تستمد المفاهيم المرتبطة بالمؤسسة - بعامة - معناها من منظومتها دون أن تشير إلى معنى خارجها ودون إقامة ذلك التمييز فى كل حالة. وسأحاول فيما بعد أن أشرح الفرق بين أن تستمد الإشارة معناها من داخل نظامها بوصفها تنطبق على الأنماط كما تنطبق كذلك على العلامات الرمزية.

لكن لو كان النمط الذى نبحثه هو النقود؛ لأن الناس يرونها نقودا وحسب - سواء أكانوا يَعُدونها كذلك، أم استخدموها على هذا النحو،أم اعتقدوا فى ذلك - فسوف يؤرق هذا الفلاسفة ؛لأنه يبدو أن الافتراض يعيدنا دائما إلى نقطة البداية من جديد - فيما يشبه الدائرة المفرغة. فلو أن جزءا من مضمون الاعتقاد بأن شيئا ما "نقود"، هو أن نعتقد أن شيئا ما "نقود"، فما هو إذن مضمون ذلك الاعتقاد؟ ولو كان الاعتقاد بأن شيئا ما "نقود"، هو جزء من افتراض كونه نقودا؛ فإن هذا بدوره يعنى أنه لا سبيل إلى شرح هذا الاعتقاد دون تكرار السمات نفسها، المرة تلو المرة. سوف أحاول فيما بعد أن أوضح كيفية تجنب هذه الدائرة. وهنا، ألفت النظر فحسب إلى سمة عقلية منطقية بعينها، تميز المفاهيم الاجتماعية من المفاهيم الطبيعية، من قبيل "الجبل" و"الجزىء"؛ إذ يمكن لشىء ما أن يكون جبلا حتى لو لم يعتقد أحد فى كونه جبلا، ويمكن لشىء ما أن يكون جزيئا حتى لو لم يخطر أمر كونه جزيئًا على بال أحد أبدا .

أما بالنسبة للوقائع الاجتماعية، فتصورنا للظواهر يؤسس لوجودها جزئيا. فلو أننَا أقمنا مثلا حفل كوكتيل ضخمًا، ودعونا كل من فى باريس، ولو فقدنا السيطرة على الوضع،وخرج الأمر عن المعدل المعتاد فى هذه المناسبات حتى فاق معدل من حضروا معركة Austerlitz أوستيرلايتز (معركة خاضها نابليون ومات فيها عدد كبير جدا)، فإن الموقف لا يتحول إلى "معركة" بل يظل "حفل كوكتيل" مذهلاً فحسب.فجزء من كونه "حفل كوكتيل" هو الاعتقاد فى كونه كذلك، وجزء من كون الحرب حربا الاعتقاد فى كونها كذلك. وهذه سمة رائعة من سمات الوقائع الاجتماعية. ولا مثيل لذلك بين الوقائع الطبيعية.

٢. استخدام تعبيرات أدائية إنجازية يسرى مفعولها بمجرد النطق بها فى صنع وقائع ترتبط بالمؤسسة:

من السمات الرائعة، التى تتسم بها الوقائع المؤسسية، أن عددا كبيرا جدا منها - وليس كلها على الإطلاق - يمكن أن يقع بمجرد الإعلان عنها عن طريق التصريح عنها بعبارات يسرى مفعولها بمجرد النطق بها performative utterances. تلك التعبيرات تندرج تحت صنف من أفعال الكلام أسميها "إعلانا صريحا"(١). فى حالة الإعلان "الصريح" تقع الأمور التى يعبر عنها مضمون فعل من أفعال الكلام، عن طريق الأداء الفعلى لفعل الكلام هذا بطريقة ناجحة. وبالإمكان صنع واقعة مؤسسية بالإعلان الصريح عن طريق استخدام كلمات يسرى مفعولها بمجرد النطق بها من مثل جملة "رُفعت الجلسة"، و"أعطى، أو أوصى بكامل ثروتى إلى ابن أخى) أختى"، و"عينتك رئيسا للجلسة"، و"بموجب هذا أعلن الحرب"...إلخ. لقد أدت هذه العبارات المنطوق بها إلى وقوع الأمور التى عبرت عنها فى حد ذاتها؛ وفى كل مرة من هذه المرات تعد الواقعة من الوقائع المؤسسية.

٣. من المنطقى أن تسبق الحقائق العارية أو الوقائع الصريحة الوقائع التى ترتبط بالمؤسسة:

يبدو من البدهى أنه لا توجد وقائع ترتبط بالمؤسسة دون وجود وقائع صريحة أو حقائق عارية. فعلى سبيل المثال بإمكان أى نوع من العناصر أن يكون مالا، بيد أن المال لابد أن يتخذ شكلا أو آخر من الأشكال المادية. فيمكن أن يكون نقودا من عملات معدنية، أو عملات ائتمانية ورقية لا تقبل التحويل إلى ذهب، أو قلادة صدفية مما قد يستخدمه الهنود الحمر فى معاملاتهم المالية wampum أو ما يقيد فى الدفاتر والسجلات. أغلب أموالنا فى الحقيقة، قد شهدت فى العقدين الأخيرين تحولا ثوريا فى مادتها، هذا التحول لم نكد نلحظه. فأغلب الأموال الآن على شكل رسوم مغناطيسية على أسطوانات الكومبيوتر. ولا يهم ما تتخذه من أشكال، مادامت تقوم بوظيفة الأموال، غير أنها لابد أن تتخذ شكلا ماديا أو آخر.

شأن الأموال شأن مباريات الشطرنج، والانتخابات والجامعات، بإمكانها كلها أن تتخذ أشكالا مختلفة، غير أنه لا بد أن يكون لكل واحدة منها أن تتحقق عيانا فى شكل مادى ما يوحى هذا بحقيقة ظنى أن الوقائع الاجتماعية بعامة لا سيما الوقائع المرتبطة بالمؤسسة لها أشكال تتخذ أبنيتها طابع التدرج الهرمى ويمكن أن يقال - إذا جاز التعبير

إن الوقائع التى ترتبط بالمؤسسة تتربع على قمة الوقائع الصريحة أو الحقائق العارية. ولن تتجلى الوقائع الصريحة أو الحقائق العارية فى العادة على شكل أشياء مادية، بل على هيئة أصوات ينطق بها الناس، أو علامات على الورق، بل يمكن أن تتخذ هيئة أفكار تدور فى رءوسهم.

٤. منظومة العلاقات التى تربط بين الوقائع المؤسسية :

ينبغى أن نلاحظ أنه لا يمكن أن توجد واقعة مؤسسية مستقلة بذاتها؛ إذ لا توجد إلا على صلة بمنظومة من العلاقات تصلها بوقائع أخرى. لذلك فلكى يتمكن أى فرد من أفراد المجتمع من امتلاك المال مثلا، لا بد لهذا المجتمع من أن يكون لديه نظام من أنظمة استبدال البضائع والخدمات بالمال. غير أنه لكى يكون هناك نظام استبدال، لا بد من وجود نظام للملكية، وحيازة الممتلكات، وبالمثل، لكى يكون بالمجتمعات زيجات، لا بد من وجود عقود زواج. غير أنه لكى يكون هناك عقود زواج يجب على المجتمعات أن تتفهم أمورا من مثل الوعود والالتزامات.

علاوة على ذلك، فبغض النظر تماما عن المفاهيم العقلية المنطقية الخاصة بالعلاقات المتبادلة فيما بين الوقائع المؤسسية،لقد ثبت فى النهاية أنه فى أى موقف من المواقف الحياتية اليومية سيجد المرء نفسه داخل شبكة متداخلة ومتماسكة من العوالم الموصولة بالمؤسسة. يوضح مشهد المطعم الذى كنت قد عرضته فى الفصل الأول ذلك؛ ففى أية لحظة نجد شخصا ما (على الأقل)؛ مواطنا، ومالك نقود، وزبونا، ودافع فاتورة، يتعامل مع ممتلكات، ومطعم، ونادل (جرسون)، وفاتورة.

قد يبدو أن المباريات شواهد نفى على ذلك المبدأ العام، لأن الألعاب صممت بالطبع لتكون أشكالا من الأنشطة، لا تتصل ببقية حياتنا، على النحو المميز الذى تتصل به الوقائع المرتبطة بالمؤسسة بحياتنا. إن مباراة "البيسبول" التى يلعبها أعضاء قسم الفلسفة اليوم لا تستدعى أن يترتب عليها عواقب مستقبلية، على النحو الذى به يقصد تحديدا أن تترتب على الحروب، والثورات، والشراء، والبيع عواقب مستقبلية(*).

(*) يتوقف الفرق بين رياضات المحترفين، ومجرد اللعب، على ما يترتب على مثل تلك الألعاب من عواقب، إذ تتحول رياضات المحترفين إلى ما هو أكبر من مجرد اللعب، فتصير عملا له نشاط موسع.

على الرغم مما سبق، نجد أنه حتى فى حالة الألعاب والمباريات، نجد منظومة متماسكة تعتمد على أشكال أخرى من الوقائع التى ترتبط بالمؤسسة. فعلى سبيل المثال، يستدعى موضع رامى الكرة ومتلقيها وضاربها وجود مجموعة من الحقوق والواجبات، ولا سبيل لفهم مواقع اللاعبين وتقدمهم أو تراجعهم دون فهم تلك الحقوق والواجبات أو المسئوليات؛ بيد أن هذه التصورات بدورها تظل غير مفهومة دون وجود التصور العام للحقوق والواجبات.

٥. أولوية الأفعال الاجتماعية على المواضيع الاجتماعية، وأولوية الخطوات الإجرائية على النتائج :

يستهوينا أن نتصور أن الموضوعات الاجتماعية ذات وجود مستقل بذاته بالقياس إلى الموضوعات التى تدرسها العلوم الطبيعية. كذلك مما يستهوينا أن نتصور حكومة ما، أو ورقة مالية من فئة الدولار، أو عقدا من العقود باعتبار أن لها كينونة، على غرار تصورنا جزىء الحامض النووى، أو شريحة تكتونية (من سطح التربة) أو كوكبا من الكواكب. ومع ذلك ففى حالة الموضوعات الاجتماعية يخفى عنا ما للسيرورة من أولوية على المنتج. فالأفعال الاجتماعية تؤسس دائما للموضوعات الاجتماعية. وسنحتاج إلى أن نشرح هذا إلى حد ما. فالموضوع هو موضوع إمكان (وجود) الأنشطة وجودا مستمرا.فالورقة المالية من فئة عشرين دولارا، على سبيل المثال، هى إمكان قائم لدفع ثمن شىء ما.

٦. العنصر اللغوى بوصفه مكونا من مكونات كثير من الوقائع المرتبطة بالمؤسسة :

إن السمة الظاهرية الإضافية الأخرى التى تتصل بالسمة الأولى والثانية، هى أن الكائنات التى تمتلك لغة - أو ما يشبه اللغة - تعبر عن طريقها وتمثل لما تتصوره، هى وحدها القادرة على صنع أغلب - بل ربما كل - الوقائع المرتبطة بالمؤسسة، لأنه يبدو أن العنصر اللغوى هو جزء من مكونات الوقائع التى ترتبط بالمؤسسة.

من الشائع مثلا أن نقرأ أن مستعمرات بعينها من مستعمرات النمل لديها شغالات، أو أن لدى خلايا النحل ملكات. أعتقد أن هذا الأسلوب من الكلام مجاز لا بأس به، خاصة عندما نخص بالذكر ما يدعى "الحشرات الاجتماعية". غير أنه من الضرورى أن

نعلل نذكّر أنفسنا أنه لكى تتخذ جماعة ما شغالات أو ملكات بالمعنى الحرفى، فلا بد لأعضائها من امتلاك الأدوات اللازمة لتصور شيئا أو تعبر عنه بوصفه يمثل (نحلة ملكة أو (نملة) شغالة. ولا يكفى جماعة ما أن تتخذ أنماطا من السلوك بعينها فحسب حيث ينبنى السلوك ببطء وفقا لحركات (الأداء) الجسدية - كى يكون لديها ملكة أو شغالة. فلا بد ـ إضافة إلى ذلك ـ من وجود مجموعة بعينها من المواقف والمعتقدات إلخ. من جانب أعضاء الجماعة، مما يبدو أنه يقتضى بالضرورة وجود نسق من أنساق التعبير كاللغة. تبدو اللغة أساسية لنتصور تلك الوقائع المؤسسية؛ بل إن الأشكال اللغوية التى نحن بصدد دراستها هى من الأسس التى تؤدى لقيام هذه الوقائع المرتبطة بالمؤسسة، سيكون علينا أن نشرح هذا بوضوح. ولكن ما هو بالتحديد الدور الذى تلعبه اللغة فى توفير الأسس للوقائع المرتبطة بالمؤسسة ومقوماتها؟ ليس هذا بالسؤال اليسير، وسوف نكرس الفصل التالى للإجابة عنه.

من القصد العقلى الجماعى إلى الوقائع التى ترتبط بالمؤسسة: المال نموذجا

تتطلب أبسط أشكال الوقائع الاجتماعية أشكالا بسيطة من السلوك الجماعى. كما قد ذكرت آنفا، أعتقد أن ما للسلوك الجماعى من مقدرة هى مسألة بيولوجية قد جُبلنا عليها كما أعتقد أن أشكال القصد العقلى الجماعى حين يعبر عن الوجود ويمثله، أمر ليس بالإمكان أن نتجاهله أو أن نختزله إلى ما سواه. فعلى سبيل المثال، ليس على الحيوانات كى تتنقل معا فى قطيع أن يكون لها لغة، أو أدوات ثقافية، أو أعراف ثقافية. فليست الضباع بحاجة إلى أدوات لغوية أو ثقافية عندما تتحرك متجهة فى جماعة كى تفتك بأسد وحيد معزول. هذا بالرغم من أن سلوكها منسق بمهارة فى استجابتها للأسد، بل فى استجابة بعضها للبعض الآخر كذلك. وأنا على ثقة من وضوح مزية الانتقاء فى السلوك المتسم بالتعاون، فالاتفاق الضمنى على ما يلائم يزداد بتعاون أبناء النوع الواحد.

إن شدة الحذر التى تتطلبها منا السمة الوحيدة من سمات إدراج السلوك الحيوانى الجماعى فى إطار نظرية عامة خاصة بالقصد العقلى، إنما مصدرها أنه فى أى شكل غير بسيط من أشكال السلوك ـ كسلوك الضباع التى تهاجم أسدا مثلا ـ سيختلف مضمون نصيب كل مشاركة فردية من القصد العقلى لدى أى حيوان مقارنة بنصيبه من

المشاركة فى السلوك الجماعى - عن الوعى الجماعى (ككل) فى توجهه حين يعبر عن الأشياء ويمثل لها. أما فى حالة البشر، على سبيل المثال، فلو كان فريقنا يقوم بلعب تمريرة (هجوم) وكان من واجبى أن أشل خط الدفاع عن التصدى لها، لقرَّ فى وعيى الفردى أن "أسد الطريق على خط الدفاع"؛ غير أن لهذا مضمونا مختلفا عن القصد العقلى الجماعى، "فنحن نقوم بهجوم" حتى بالرغم من أنى أسُدُ الطريق على خط الدفاع فحسب، بوصف هذا جزءا من القيام بلعبة التمريرة الهجومية. إن مضمون القصد العقلى الفردى من ثم قد يختلف عن مضمون القصد العقلى الجماعى، حتى بالرغم من أن القصد العقلى الفردى هو جزء من القصد العقلى الجماعى هذا. يستدعى رقص التانجو وجود اثنين، كما يستدعى لعب تمريرة هجومية فى لعبة الكرة الأمريكية وجود أكثر من اثنين(٢). لقد ارتأيت ـ فى خطوة أولى لتطوير تصنيف يتدرج هرميا للواقع الاجتماعى والمؤسسى ـ أن أضع فى الاعتبار أن أى حقيقة تستدعى القصد العقلى الجماعى هى واقعة اجتماعية. لذلك فصيد الضباع أسدا على سبيل المثال، وتصديق الكونجرس الأمريكى على تشريع من التشريعات، كلاهما من نماذج الوقائع الاجتماعية. ويئول أمر الوقائع المرتبطة بالمؤسسة إلى كونها فرعا خاصا من فروع الوقائع الاجتماعية. فتصديق الكونجرس على التشريع هو واقعة مؤسسية، أما صيد الضباع أسدا فليس من الوقائع المرتبطة بالمؤسسات.

والخطوة الثانية هى مدخل للوظائف المسندة من النوع الجماعى. فليس من العسير أن نجمع فى وسيلة واحدة كلا من القصد العقلى الجماعى، وفرض الوظائف المسندة على الموضوعات الطبيعية - فرضا واعيا ليمثل ما نعبر عن الوجود من خلاله. ولو كان من اليسير أن نرى كيف أن شخصا واحدا قد يقرر أن يستخدم شيئا ما بوصفه كرسيا أو رافعة، لما كان من الصعب - كما أعتقد - أن نرى كيف يمكن لاثنين أو لأكثر من الناس أن يقرروا أن يستخدموا شيئا ما بوصفه مقعدا جماعيا يجلسون كلهم عليه، أو أن يستخدموا شيئا ما كرافعة يعمل عليها عدد من الناس وليس واحدا فحسب. من هنا نجد أن بإمكان القصد العقلى الجماعى أن يولد وظائف مسندة بنفس القدر من السهولة التى يفعل بها ذلك القصد العقلى الفردى.

والخطوة التالية أشد صعوبة لأنها تستدعى فرضا جمعيا للوظائف على الأشياء، حيث لا تؤدَّى الوظائف التى أسند لشىء ما أمر القيام بها كلية بفضل من السمات

الأساسية المادية كما كان الشأن بالنسبة لجذع شجرة ما يستخدم كمقعد، أو للوح من الخشب يستخدم كعتلة. فى هذا النمط من الحالات، تؤدى الوظيفة نفسها وحسب بوصفها من أمور التعاون الإنسانى المشترك. وسوف نرى بشىء من التفصيل أن تلك الخطوة، - خطوة الفرض الجماعى للوظيفة؛ حيث يمكن للوظيفة أن تؤدى وحسب بفضل الاتفاق الجماعى عليها أو بفضل قبول الجماعة لها، - تلك الخطوة هى عنصر حاسم فى صنع وقائع مؤسسية.

تصور مثلا قبيلة بدائية بنت بداءة حائطا حول حماها. نضرب الحائط مثلا يوضح وظيفة فُرضت بفضل من محض الطبيعة المادية: سوف نفترض أن الحائط من الضخامة بمكان بحيث يُبقِى على المتطفلين فى الخارج، وعلى أبناء القبيلة فى الداخل. لكن افرض أن الحائط قد تحول بالتدريج من كونه حائلا ماديا إلى كونه حائلا رمزيا. تصور أن الحائط قد تهدمَ بالتدريج و لم يبق منه غير خط من الحجارة. لكن تخيل أن السكان وجيرانهم ظلوا يعتبرون الحجارة علامة على حدود المنطقة على نحو يؤثر فى سلوكهم. فعلى سبيل المثال، لا يَعبُر السكان الحدود إلا فى ظروف بعينها، كذلك الغرباء يمكن لهم أن يدلفوا إلى الداخل وحسب لو قَبِل السكان بذلك. والآن لا يقوم خط الحجارة بما له من وظيفة بفضل من محض خصائصه المادية فحسب، بل بفضل من القصد العقلى الجماعى. إن أطلال الحائط ذ على خلاف الحائط أو خندق الماء المحيط - ليس بإمكانها أن تحول بين الناس والدخول ببساطة بسبب من بنيتها المادية. والنتيجة، بمعنى شديد البساطة نتيجة رمزية؛ لأن مجموعة من الأشياء المادية الآن تقوم بوظيفة تشير إلى شىء يتجاوزها، أعنى أنها تشير إلى حدود المنطقة(*). إن خط الحجارة يؤدى نفس الوظيفة التى تؤديها الحدود المادية، غير أنها لا تقوم بها بفضل من

(*) استخدمت فى موضع سابق من هذا النقاش المثل الذى ضربه الإثنوجرافيون عن جماعات الحيوانات التى تعلم مناطق نفوذها بعلامات. على غرار ما أشرنا إليه؛ فالحدود لا تكون - كما فى المثل الذى ضربناه للقبائل البدائية - محض حواجز مادية شأن الحائط أو الخندق المائى، بل إن وجود الحائط يتخذ بعدا رمزيا بمعنى ما، بيد أنى غير متأكد من أن لدى الإنثوجرافيين ما يبرر أن ينسبوا للحيوانات كل هذا القدر من توجه الوعى الجماعى المعبر عما يجدون، ومن ثم استبدلت بمثل الحيوانات مثل القبيلة لأوضح الفكرة نفسها. سوف ندرك - عندما نناقش دور اللغة فى الفصل التالى - أهمية الفرق بين اللغوى وما قبل اللغوى.

بنيتها المادية، بل لأن الجماعة قد أسندت إليها أمر القيام بها، فصار لها منزلة أو وضعٌ جديد، هى منزلة العلامة على الحدود.

أود لهذه الخطوة أن تبدو تطورا طبيعيا شديد البراءة، بيد أنها تنطوى على معان شديدة الأهمية. يمكن للحيوانات أن تفرض وظائف على ظواهر طبيعية. تصور مثلا القرود الكبرى التى تستخدم غصنا من الأغصان كأداة لبلوغ أصابع الموز التى لا تصل إليها(٣). بل لقد طورت بعض هذه القرود تقاليد خاصة بفرض الوظائف توارثتها الأجيال جيلا بعد جيل. لذا فقرود الإمو - Imo أشهر القرود الآسيوية، قد استخدمت الماء لإزالة الرمال عن البطاطس، ثم استخدمت من بعد ذلك الماء المالح لإزالة الرمال ولتحسين النكهة. كتب كامر Kummer شاكرا للإمو، "اليوم غسيل البطاطس بالماء المالح عادة وتقليد مستقر يتعلمه الأطفال من أمهاتهم كعامل مساعد طبيعى فى أكل البطاطس "(٤). وتشير نصوص الأنثروبولوجيا بطريقة روتينية إلى قدرة الإنسان على استخدام الأدوات .غير أن الانعطافة الجذرية الفعلية عن أشكال بعينها من أشكال الحياة تتحقق عندما يفرض الناس عن طريق القصد العقلى الجماعى الوظائف على الظواهر؛ إذ لا يمكن للوظيفة أن تتحقق بفضل المادة الطبيعية والكيميائية وحدها، وإنما يتطلب فرض الوظائف تعاونا إنسانيا مستمرا فى الأشكال الخاصة من الإدراك والتعرف والقبول لوضع ذى منزلة جديدة تحققه الوظيفة التى قد أسندت إلى الظواهر الطبيعية. تلك هى نقطة البدء لكل ما للثقافة البشرية من أشكال ترتبط بالمؤسسات : لابد دائما أن تتخذ بنيتها صيغة المعادلة : س تعد بمثابة ص فى حالة ع كما سوف نرى فيما بعد.

نحن نهدف إلى أن نُدرج الواقع الاجتماعى فى إطار ما نقدم من أونطولوجيا أساسية للأشياء المادية والكيميائية والبيولوجية. ولكى نقوم بذلك نحن بحاجة إلى أن نوضح الخط المتصل الذى يمر من الجزيئات والجبال، إلى المفكات والروافع، ثم إلى مشاهد غروب الشمس الجميلة، حتى يبلغ من بعد ذلك الهيئات التشريعية والنقود والمحافظات .إن المسار الرئيسى على الجسر الممتد من الطبيعيات إلى المجتمع هو التوجه الجماعى للوعى حين يتصور الظواهر ويعبر عنها، والفعل الحاسم ـ على ذلك الجسر ـ المتمثل فى صنع واقع اجتماعى هو ما يقوم به القصد العقلى الجماعى من فرض وظيفة على أشياء ما كان لها أن تؤدى تلك الوظيفة من دون ذلك الفرض . إن ما

يحدث لنا من تغير جذرى بدءا من مثل تلك الوقائع الاجتماعية البسيطة- كجلوسنا على مقعد جماعى معا، أو كتبادلنا اللكمات - حتى نبلغ تلك الوقائع المؤسسية- من مثل النقود والملكية والزواج - هو ما نقوم به من فرض جمعى لوظائف ما كان لتلك الأشياء أن تؤديها وحدها، بفضل من تركيب بنيتها المادية الطبيعية الفيزيائية، وذلك على العكس من الروافع والمقاعد الجماعية والسيارات. . ففى بعض النماذج يتعلق شكل تركيب العملات الورقية، على سبيل المثال، بما تؤديه مصادفة من وظيفة، بفضل من تركيب مادتها، وفى حالات أخرى،نجد كذلك رخص القيادة، لأننا لا نسمح للناس بالقيادة إن لم يصرح لهم بذلك.

إن العنصر الأساسى للانتقال من فرض الوظائف فرضا جمعيا، إلى صنع وقائع ترتبط بالمؤسسة، هو فرض وضع - تتصل به وظيفة ما ـ ندركه إدراكا جمعيا. سوف أميزتلك الوظائف التى تؤدى بمقتضى منزلة ما status functions ما دامت تندرج داخل إطار فئة خاصة من الوظائف المسندة.فى النموذج الخاص بالحدود تخيلنا وظيفة تسببت فى وجود موضوع مادى ؛ فالحائط،قد تحول إلى موضوع رمزى، تتعين به الحدود. فالغرض من الحدود أن تؤدى الوظيفة نفسها التى قام بها الحائط، غير أن الإدراك الجماعى للأحجار بوصفها ذات وضع خاص إنما يتعلق بالوظيفة ويمكِّن من القيام بها. بل قد يبلغ الأمر أن in the extreme case الوضع الوظيفى لشىء ما قد يرتبط بوظيفة يقوم بأدائها وحسب لارتباط جزافى بين الوظيفة من جانب وتركيب بنيته الطبيعية. ولمزيد من الإيضاح دعونا نتأمل نموذج النقود، خاصة تطور العملة الورقية. يعرِّف الدليل المرجعى لشئون المال، ثلاثة أنواع : الأول : أموال على هيئة سلع، من مثل الذهب، تعد ذات قيمة، ومن ثم نقودا. لأن السلعة نفسها ذات قيمة، والثانى: أموال على هيئة عقود تتكون من قطع من الورق تعد ذات قيمة لأنها تمثل عقوداً تتعهد بالدفع لحاملها بسلعة قيِّمة كالذهب، والثالث أوراق نقدية (تصدرها الحكومة بلا غطاء) تتكون من قطع من الورق أعلنت جهة رسمية كالحكومة أو كالبنك المركزى مثلا أن لها قيمة النقود . وبالرغم من ذلك، فلم تتضح حتى الآن العلاقة بين هذه الأنواع الثلاثة، ولا اتضح فى حقيقة الأمر ما يجعل منها كلها صورا للمال. فى حالة المال المتخذ هيئة السلع، تعتبر المواد وسيطا للتبادل لأنها ذات قيمة، أما فى حالة المال المتخذ هيئة الأوراق المالية -بدون غطاء- فإن المواد تكون ذات قيمة لأنها وسيط للتبادل.

إن التتبع الأمثل لتطور العملة الورقية فى أوربا فى العصور الوسطى بإمكانه الكشف عن العلاقات المنطقية بين تلك الأنواع الثلاثة. سوف أفترض صحته، وإن كان لا يخدم مرامينا الحالية ،إنما أستعين بتتبع ذلك التطور فحسب لأبين علاقات منطقية بعينها لا تعتمد على الدقة التاريخية. ولنبين الآن كيف سارت أمور هذا التطور؛ إن استخدام السلع المالية كالذهب والفضة هو فى حقيقة الأمر مقايضة، لأن الشكل الذى تتخذه النقود يعد هو نفسه ذا قيمة. لذلك فالعنصر الذى تتشكل منه يقوم بوظيفة النقود فحسب بسبب من الطبيعة الفيزيائية وحدها، وتلك الطبيعة التى تميزت بها مادته قد فرض عليها من قبل بعض الوظائف. لذلك فالعملات الذهبية ذات قيمة،لا لأنها عملات بل لأنها مصنوعة من الذهب، والقيمة الخاصة بالقطعة الواحدة من العملة تتساوى تماما مع ما تشتمل عليه من الذهب. نحن نفرض على عنصر الذهب القيام بوظيفة خاصة بالقيمة لأنا نرغب فى امتلاك ذلك النوع من العناصر. لأن الوظيفة الخاصة بالقيمة قد فرضت بالفعل على الذهب، ومن السهل أن نجعل فرض وظيفة النقود أعلى من الوظيفة الخاصة بالقيمة. وهذه طريقة ابتكرناها، نريد من ورائها أن نقول :لأن الناس يعدون الذهب بالفعل ذا قيمة بسبب من طبيعته المادية، فهم مستعدون لقبوله وسيطا للتبادل.

ومن هنا نجد لدينا نظاما من أنظمة التبادل تستخدم فيه الأشياء بهدف المقايضة، حتى بالرغم من أن من يحملون هذه الأشياء قد لا يكونون ممن قد شغفوا بها فى ذاتها، أو ممن يروقهم استخدامها. ويشبه هذا ما حدث فى الاتحاد السوفيتى السابق إبان انهياره عام ١٩٩٠ و ١٩٩١، فقد حظيت علب سجائر "المارلبورو" بمنزلة العملة ؛ إذ قبل الناس الدفع بها حتى ولو لم يكونوا هم أنفسهم من المدخنين . فتلك اللفائف التى تجمع بين التبغ والورق أسند إليها القيام بوظيفة، أطلق عليها اسم "سجائر" (لفافات التبغ) وفوق تلك الوظيفة فرض عليها وظيفة مسندة يطلق عليها "وسيط التبادل".

أما عن قصة النقود فى أوربا فى العصر الوسيط فقد قيل إنه كان بإمكان رجال البنوك أن يقبلوا الذهب ويخزنوه للحفاظ عليه فى مكان أمين، وفى مقابل الذهب أصدروا شهادات للمودعين .ومن ثم كان من الممكن لهذه الشهادات أن تستعمل بوصفها وسيطا للتبادل، كما كان الشأن مع الذهب نفسه. فكانت الشهادات بديلا عن الذهب. ولها مصداقية كاملة بوصفها مصدرا من مصادر القيمة، لأنه كان من الممكن فى أية

لحظة استبدال الذهب بها. هكذا استبدل بالمال فى شكل سلعة،المال فى شكل وثيقة تتعهد بالدفع.

كانت خطوة فذة عندما اكتشف شخص ما أنه يمكننا أن نزيد الاعتماد المالى ببساطة بإصدار شهادات تفوق ما لدينا من الذهب، ما دام بإمكان الشهادات أن تستمر فى القيام بوظيفة الذهب، وما دامت وظيفتها قد فرضتها عليها الجماعة، فإن الجماعة ستستمر فى قبولها، وكما يقال سيكون للشهادات صلاحية الذهب. والخطوة الفذة التالية حدثت عندما اكتشف شخص ما - وقد استغرق من الناس زمنا طويلا أن يكتشفوا-أن بإمكاننا أن ننسى أمر الذهب ونحتفظ بالشهادات وحسب. وبهذا التغيير نكون قد بلغنا مرحلة العملات الورقية وهو الوضع الذى نشهده الآن. ففى الإشارة المدونة على أوراق عملة احتياطى البنوك الاتحادية القديم، ذكر أنه لو أخذنا الورقة النقدية إلى البنوك لدفعت لحاملها ما يساويها من الدولارات. ولكن افرض أننا قدمنا لها ما يشهد بقيمة عشرين دولارا فماذا بالضبط سوف يدفعون لنا فى المقابل ؟ شهادة أخرى من الخزانة قيمتها عشرون دولارا(٥).

القواعد التأسيسية : الصيغة الرمزية (س تعد بمثابة ص فى حالة ع)

Constitutive Rules : X counts as Y in C

أظن أنه من الممكن أن نفهم ما يجرى لتطور النقود بنحو أفضل لو فهمنا بعاد العلاقة التى تربط بين القواعد التى توفر المقومات وتضع الأسس من جانب، وصنع الوقائع التى ترتبط بالمؤسسة من جانب آخر. لقد ذكرت أن صيغة التأسيسية الرمزية هى "س تعد بمثابة ص فى حالة ع" ؛ لكن استخدامى منطوق تلك العبارة locutionary من شأنه هو فحسب أن يحدد مجموعة من الوقائع المرتبطة بالمؤسسة والموضوعات المرتبطة بالمؤسسة؛ حيث يعنى ما اصطلحنا على تسميته العنصر (ص) شيئا أكثر من مجرد السمات المادية الطبيعية الخالصة لما نطلق عليه العنصر (س)(٦). علاوة على أن منطوق عبارة "تعد بمثابة" يطلق على سمة من سمات القصد العقلى الجماعى نحو فرض وضع ترتبط به وظيفة، حيث يتجاوز الوضع وما يقترن به من الوظائف الصريحة تلك الوظائف التى يمكن أن نسند أمر القيام بها للموضوعات المادية الطبيعية. لذلك، على سبيل المثال، باستخدام تلك الصيغة الرمزية لن يكون من العبارات التى تقرر قاعدة تأسيسية أن نقول " إن الأشياء التى صممت واستخدمت لجلوس شخص ما تعد

بمثابة مقاعد ".لأنه من تعريف كلمة مقعد فحسب نجد أن توفر الرمز (س) يكفى بالفعل لتوفر الرمزى ولا تضيف القاعدة سوى علامة أو وصفٍ يميز هذا الصنف من الأشياء؛ لذلك فليست هذه الصيغة الرمزية من القواعد التأسيسية. ولهذا فليس مما يعبر عن قاعدة تأسيسية أن نقول"إن أشياء ذات شكل بعينه تعد بمثابة مقاعد"، لأن الوظائف التى يتعين عليها القيام بها يمكن أن يُسند إليها أمر القيام بها بمعزل عن أى اتفاق من الناس على ذلك . إن لهذه الأشياء شكلا بعينه من الأشكال، يمكّننا من أن نستخدمها بوصفها كرسيا، بغض النظر عما يظنه أى شخص آخر. ولكن عندما نقول إن مثل هذه وتلك من القطع الورقية هى من فئة النقود يكون لدينا بحق صيغة رمزية تعد من القواعد التأسيسية، لأن توفر الرمز (س) فى العبارة" إن هذه وتلك من القطع الورقية " لا يكفى بنفسه ليجعل منها نقودا ، ولا بإمكان الرمز (س) أن يعين بالتحديد سمات تبرر لوجود تلك الأشياء، وتكفى لتمكِّنها من القيام بوظيفة النقود دون اتفاق الناس على قبولها. ولهذا يترتب على تطبيق القاعدة التأسيسية السمات التالية: على العنصر ص أن يفرض على الشىء وضعا جديدا لم يكن له بالفعل من قبل بفضل من توفر العنصر (س) وحسب ؛ فلابد من وجود اتفاق جمعى، أو على الأقل قبول جمعى، سواء فى حالة فرض الوضع على الأشياء التى يعود عليها أو يشير إليها الرمز (س) أو فى حالة الوظيفة التى تقترن بهذا الوضع وعلاوة على ذلك، فإن السمات المادية الطبيعية التى تعينت فى العنصر (س) لا توفر بذاتها ما يضمن تحقق الوظيفة المتمثلة فى العنصر (ص) التى أسند إلى (س) أمر القيام بها، فإن الوضع الجديد والوظائف التى تقترن به يجب أن تكون مما يؤسسه له الاتفاق أو القبول الجماعى. كذلك، لأن السمات المادية الطبيعية التى يحددها الرمز س لضمان النجاح فى القيام بالوظيفة لا توفر بذاتها ما يضمن تحقق الوظيفة المسندة، فلابد من وجود قبول جمعى أو اعتراف بفاعلية الوظيفة التى قد أسند أمر القيام بها وبصلاحيتها وإلا لما أمكن النجاح فى القيام بها. ولا يكفى مثلا أن نتفق على الوظيفة التى تم إسنادها، (أى) أن تكون "هذه الأشياء نقود" ؛ فلابد من أن نظل نقبلها بوصفها نقودًا وإلا صارت عديمة القيمة.

إن إحساسنا بأنه ثمة عنصر سحرى، أو حيلة بارعة، خادعة، فى استخراج وقائع مؤسسية من داخل الوقائع الصريحة الخالصة، هذا الإحساس مستمد من العلاقة بين العنصر (س) والعنصر (ص) ـ التى تتسم بأنها علاقة غير مادية ولا تتعلق بما تسبب فى وجودها. ـ داخل تركيب البنية التى نجعل فيها ببساطة الأشياء من صنف العنصر

(س) تعد بمثابة الأشياء من صنف العنصر ص . حين يرهقنا العبء الميتافيزيقى يلح علينا السؤال: "ولكن هل (س) (ما) هى حقا (ص) (ما)؟" هل هذه القطع الورقية مثلا هى نقود بحق؟ وهل قطعة الأرض هذه ملكية خاصة لشخص ما حقا؟ وهل إصدار صخب ما فى أحد الاحتفالات يعنى أن القران عقد حقا؟ بل هل التفوه بتلك الأصوات هو حقا تصريح أو وعد؟ لا ريب أننا عندما نمعن النظر فى المسامير النحاسية نجد أنها ليست من الوقائع الحقيقية، ولا ينتابنا الشعور بالدوار حين تؤدى الوظائف المسندة تماما بفضل سمات طبيعتها الفيزيائية.لهذا ليس لدينا أى شكوك ميتافيزيقية عما إذا كان هذا مفكا بحق أم لا! أو إذا ما كانت هذه سيارة حقا أم لا. لأن محض السمات االفيزيائية لهذه الموضوعات هى التى تمكنها من أن تكون مفكا أو سيارة.

الآن أصف ببساطة تركيب البنية التى يعمل وفقها بالفعل الواقع المؤسسى فى المجتمعات الإنسانية،لأن هذه الخطوة تعد من الخطوات الحاسمة فى هذا النقاش. سوف أشرع فى عرضها بتأنٍ مستعينا بما ضربت من مثل العملات الورقية الأمريكية ، وعلى أمل أن أتمكن من تعميم خصائص بعينها يتسم بها هذا المثال محاولا حصر أبرز خصائصه العامة. فى الولايات المتحدة أنواع بعينها من العملات الورقية يتم تداولها على نطاق واسع. وهذه القطع الورقية توفر شروطا توفر مقومات العنصر (س) ولابد لهذه القطع من أن تشتمل على مكونات من مواد بعينها، تلائم مجموعة بعينها من النماذج من قبيل (الورقة المالية من فئة خمسة دولارات، أو عشرة دولارات...إلخ) ولابد من أن تكون قد أصدرتها مصلحة سك العملة بتوثيق من الخزانة الأمريكية، وأى شىء يتوفر له تلك الشروط (العنصر س) يعد بمثابة النقود. أى العملة الورقية الأمريكية (العنصر ص) . غير أنه لكى ينطبق على تلك القطع الورقية العنصر (ص) فإن "النقود" تقدم لنا ما هو أكثر من مجرد علامة مختزلة تميز السمات التى يتسم بها العنصر (س)؛ إنها تصف وضعا جديدا، وذلك الوضع - أعنى به النقود- يقترن به مجموعة من الوظائف، من مثل وسيط التبادل، أو مستودع يختزن القيمة.. إلخ. وبفضل من الصيغة الرمزية للقاعدة التأسيسية تعد هذه الأوراق بمثابة "سند قانونى يلزم بسداد كل الديون العامة والخاصة"، وما كان لهذه الوظيفة أن تؤدى دون أن يكون فرض ما لها من منزلة من قبل الرمز ص أمرا تعيه الجماعة وتقبله.

فيما يلى نذكر بعض الخصائص البارزة التى يتسم بها هذا النموذج، مما يمكن تعميمه:

أولا : يسند القصد العقلى الجماعى ظاهرة ما أمر القيام بدور بمقتضى منزلة جديدة، يقترن بهذا الدور أداء وظيفة يتعذر القيام بها وحسب استنادا إلى خصائص أصلية تتسم بها الطبيعة الفيزيائية للظاهرة التى نحن بصددها، مما يؤدى إلى صنع وقائع جديدة، ترتبط بالمؤسسة، يعززها اتفاق الجماعة عليها.

ثانيا : إن الصيغة التى نعتمد عليها حين نفرض وظيفة تؤدى بحكم منزلة جديدة تتمثل فى الصيغة الرمزية (س) تعد بمثابة (ص) فى الحالة (ع). وتمدنا تلك الصيغة بأداة قوية لفهم الصيغة الرمزية التى ينبنى عليها صنع الواقعة الجديدة المرتبطة بالمؤسسة، لأن الشكل الذى يعتمد عليه القصد العقلى الجماعى هو إسناد ذلك الوضع وما يقترن به من وظيفة - يحددها العنصرى - إلى بعض الظواهر التى تندرج فى إطار العنصر (س). إن منطوق عبارة "يعد بمثابة" لها دور حاسم فى هذه الصيغة الرمزية ؛ ذلك لأنه ما دام يتعذر القيام بالوظيفة التى نحن بصددها وحسب استنادا إلى خصائص العنصر (س) التى تتسم بها طبيعته الفيزيائية الأصلية ، فالأمر يستدعى أن نتفق على قيامه بالوظيفة ونقبل أن يؤديها. لذلك نحن نتفق على أن نعد أى شىء يندرج فى إطار العنصر س بمثابة ما يرتئيه له العنصر (ص) من منزلة ، بل ما يرتبط به من وظيفة كذلك. وبناء على هذا فإن أنواع الوظائف والأوضاع التى يمكن أن نسندها عن طريق العنصر (ص) محدودة بنحو لا يمكن الإغضاء عنه، يقيدها احتمالات وجود وظائف يضمن القيام بها وجود عنصر يطمئن إليه ببساطة القبول والاتفاق الجماعيان وهذا يعد أشد سمات الوقائع المؤسسية غموضا، وسوف نعنى بتفصيله فيما بعد.

ثالثا: إن عملية process صنع وقائع مرتبطة بالمؤسسة تتم دون أن يكون من يشاركون فيها على وعى تام بالصيغة التى تجرى وفقها وبناء عليها تلك العملية. قد تكون مراحل التطور على غرار ما يتصوره من يشاركون فيها عندما يقولون مثلا "بإمكانى أن أستبدل بهذا ذهبا" و"هذا ثمين" أو حتى عندما يقولون ببساطة "هذه نقود" دون أن يكونوا بحاجة إلى التفكير فى "أننا نفرض فرضا جمعيا قيمة على شىء لا نعده ذا قيمة بسبب من السمات التى تتسم بها طبيعته الفيزيائية الخالصة" حتى لو كان هذا بالتحديد ما يفعلونه . هنالك أمران يخصان العلاقة بين عملية فرض الوظائف تلك والوعى بها. **الأول**: أنه من الواضح أننا فى أغلب المؤسسات، نشب ببساطة فى ظل ثقافة نأخذ فيها المؤسسة أمرا مسلما به، ولا نجدنا بحاجة لأن نثقل وعينا

وانطولوجيتها. لكن الأمر الثانى : والأقرب إلى ما نرمى إليه هنا،أن أعضاء المؤسسة لا يحتاجون فى أثناء تطورها الفعلى إلى أن يثقلوا وعيهم بالصيغة الرمزية التى يتخذها القصد العقلى الجماعى تلك الصيغة التى يفرض من خلالها الوظائف على الأشياء ؛ فعندما يقومون بعمليات الشراء والبيع والتبادل إلى آخر هذا من العمليات الواعية، قد يتطلب الأمر منهم ببساطة الانخراط فى وقائع مرتبطة بالمؤسسة . إضافة إلى أنه قد يبلغ الأمر بهم أن يقبلوا فرض وظيفة فحسب بسبب من بعض النظريات التى قد جانبها الصواب. فقد يعتقدون فى أشياء ما بوصفها " نقودا "فحسب لمجرد أنها مطلية بالذهب ، أو يعتقدون فى أنه "زواج"فحسب لمجرد أنه قد باركت السماء، أويعتقدون فى أن هذا الشخص أو ذاك مَلِك لمجرد الاعتقاد أنه (خليفة الله) فحسب. وقد اعتقد الملايين من الأمريكيين خلال تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية أن الدستور إلهام إلهى. ومادام الناس يجعلون (س) بمثابة (ص)، من حيث وضعها الوظيفى، فإن صنع الوقائع المرتبطة بالمؤسسة لا يتوقف وكما لا يتوقف الحفاظ عليها. وليس عليهم إضافة إلى ذلك أن يعرفوا أنهم يدركون ذلك تماما، كما أنهم قد يحملون كل أنواع المعتقدات الكاذبة الأخرى عما يفعلونه وعن مبررات ما يفعلون.

رابعا: تكتسب الصيغة التى طرحناها وضعا معياريا، عندما يصير فرض الوضع الوظيفى، كما أشرنا فى هذه الصيغة، أمر سياسة عامة؛ أى إنها تصير من القواعد التى تضع الأسس وتوفر المقومات. يوضح هذا أن القاعدة العامة هى التى تصنع إمكانية إساءة الاستعمال التى ما كانت لتوجد لولا وجود هذه القاعدة، كتزييف النقود مثلا .(أى الأشياء التى صنعت لتبدو كما لو كان يتوفر فيها العنصر س، بينما هى فى واقع الأمر على خلاف ذلك)، من قبيل التضخم المالى (أى إصدار أوراق مالية أكثر من اللازم)، ولهذا فالأشياء التى كان يتوفر فيها العنصر (س) لم تعد تؤدى الوظيفة التى يخصها بها العنصر ص. إن احتمال وجود مثل تلك الأشكال من إساءة الاستعمال، وخرق القاعدة مما يميز الوقائع المؤسسية. ولهذا نجد أن حصول المحامين على رخصة تتيح لهم الممارسة القانونية مثلا، كان دافعا لاحتمال أن يتظاهر من لا يحملون هذه الرخصة بالحصول عليها، وأن يتظاهروا بأنهم محامون مصرح لهم بممارسة المحاماة، أى إنهم محامون مزيفون، بل إن الشخص الكفء المؤهل المفوض فى القيام بوظيفة المحامى قد يقع فى شىء من إساءة استخدام السلطة، ومن ثم يفشل فى القيام بوظيفته بنجاح. ومن الأمثلة الأخرى التى نستعين بها على توضيح فكرتنا، اضمحلال مؤسسة

الفرسان خلال العصور الوسطى. فى البداية كانت الفروسية تستدعى أن يكون الفرسان محاربين أكفاء، مسئولين عن عدد من الرجال، ويمتلكون الكثير من الجياد... إلخ. وعندما بدأ الاضمحلال تطلع الكثير من الفرسان الذين لم يستوفوا الشروط أو تنطبق عليهم معايير الفروسية إلى أن يصيروا فرسانا (العنصر س) بأية حال ؛ فطلبوا من الملك أن يمنحهم منزلة الفارس (العنصر ص)، بالرغم من أنهم لم يجتازوا الاختبارات . ولقد أصروا على ذلك، بحجة أنهم قد أتوا من أسر ذات شأن، مما جعلهم يرون وجوب إعفائهم من الشروط التى تؤهلهم للحصول على مرتبة "الفارس". علاوة على ذلك نجد أن كثيرين ممن استحقوا رتبة الفروسية بجدارة صاروا غير قادرين على القيام بمهام الفروسية، ولم يعد لديهم العدد المطلوب من الجياد ولا العتاد المطلوب، ولا اللياقة البدنية اللازمة للقيام بمهام الفروسية.

عندما يخص الأمر النقود يتنوع تركيز الثقافات ويتراوح بين العنصر (س) والعنصر (ص)؛ فعملة الولايات المتحدة الأمريكية مثلا تركز بوضوح على العنصر (ص). وقد كتبت على عملتها الورقية "هذه العملة هى سند قانونى ـ يلتزم بالوفاء بكل أنواع الديون العامة والخاصة".

غير أنه لم يُذكر شىء عن التزييف. بينما تشتمل العملة الورقية الفرنسية على عبارة مطولة عن العنصر (س) ، وعلى وجه الخصوص عن عدم الشرعية وعلى العقاب القانونى على التزييف(*) . وكذلك الشأن مع العملة الورقية الإيطالية التى تركز على العنصر (س) نفسه لكن بإيجاز أشد، فقد كتب عليها "يعاقب القانون من يقوم بتزييف النقود ومن يتداولها".

خامسا : إن العلاقة بين القاعدة والعرف، على الأقل فى هذه الحالة، أمر من الوضوح بمكان. تلك الموضوعات التى من الممكن أن تقوم بوظيفة وسيط التبادل لا تخضع للعرف بل للقاعدة. ولكن أى الأشياء يؤدى هذه الوظيفة، فذلك من المسائل الخاصة بالعرف. وكذلك، فى نموذج لعبة الشطرنج، نجد أن سلطات الملك ليست أمر عرف بل أمر قاعدة. ولكن الشكل الذى يتخذه فرض تلك الوظائف وما يرتبط بها من سلطات إنما هو أمر خاضع للعرف. لأنه فى تلك الحالات، نجد الشروط التى يضعها

(*) تنص المادة ١٣٩ من قانون العقوبات على "أن يعاقب بالسجن المؤبد الذين يزيفون الأوراق المالية القانونية أو يتداولونها، ويتعرض للعقوبة نفسها من يدخلها إلى البلاد".

العنصر (س) إنما تتصل اتصالا عارضا بالوظائف التى حددها العنصر (ص)، فاختيار العنصر (س) مسألة جزافية بنحو من الأنحاء، ما ينتج عن ذلك من تدبر أمر نمط الأشياء الذى سوف يستخدم فيها ذلك النمط،كالنقود أو الملك فى لعبة الشطرنج مثلا، إنما هو مسألة تخضع للعرف، كما سوف نرى فى الأمثلة التى سنضربها فيما بعد. غالبا ما تكون السمات التى تقبل أن ينطبق عليها العنصر س سمات أساسية كى يؤدى العنصر (ص) الوظيفة المسندة. لذلك عندما يحصل جراح على تصريح بمزاولة الجراحة مثلا فلابد من أن يستند اعتماده ممارسا للجراحة (العنصر ص) على استيفائه شروط معيار طبى بعينه (العنصر س). وعلى الرغم من ذلك، بل فى مثل هذه الحالات ثمة سمة إضافية تتوفر فى العنصر (ص) ولا تتوفر بالفعل فى العنصر (س) ؛ فهذا الشخص الآن بمنزلة جراح معتمد.

قد يبدو أنه ثمة أمثلة يمكن أن تعد شواهد نفى واضحة على محاجتنا، يتضح من خلالها أن سمات العنصر (س) غير كافية لضمان الوظيفة التى تسمَّت باسم العنصر (ص). فعندما يعلن الرئيس أو حاكم الولاية نبأ وقوع حريق هائل أو زلزال بوصفه "كارثة" فبالتأكيد قد يقول المرء، إن الوقائع الصريحة الخالصة عن الزلازل أو الحرائق كافية لتُميّزها بوصفها كوارث،بسبب من سماتها الفيزيائية. ولا صلة تربط بينها بوصفها زلازل أو محرقة (كارثة) وبين الاختيار الجزافى العرفى. لكن لو تأمل المرء تلك النماذج عن قرب، حتى لو كان من شأنها أن توضح الفكرة لوجد أن وظيفة إعلان الكارثة يترتب عليها تقديم مساعدات مالية، وقروض مخفضة الفائدة للضحايا من المواطنين المحليين، بينما لا نجد أن الزلازل والحرائق نفسها- لما لها من سمات فطرية فيزيائية خالصة - تتسبب فى اجتلاب المال.

يمكننا أن نطرح رأيا مشابها عن القانون الجنائى. يستمد القانون الجنائى سلطته كلها من قدرته المنظمة (أى التى تفرض قيودا أو شروطا تبيح أوتحرم)، لا من قدرته على أن يضع الأسس والمقومات، حيث يمنع على سبيل المثال من وجود أشكال من السلوك كالقتل قبل وقوعها. لكن لكى تكون لهذه القيود المنظمة سلطتها الفعالة لابد من وجود عقوبات، أى يقتضى هذا فرض منزلة جديدة تحدد وضع العنصر (ع) ومن يكون مذنبا لفعلته تلك يوضع عندئذ فى مرتبة القاتل المجرَّم convicted murderer العنصر (ص)، وبناء على ذلك، يكون فى وضع حددته له إحدى الوقائع الرسمية (أى التى

صدرت عن المؤسسة) بناء على هذا التكييف القانونى للمرتبة الجديدة يلقى العقاب الملائم. لهذا فبمقتضى قواعد التحريم المنظمة: المتمثلة فى الوصية "لا تقتل" يندرج القتل تحت مقوم أساسى يرى أن "إزهاق الروح بشروط أو فى ظروف بعينها يعد بمثابة جريمة عقوبتها الإعدام أو السجن".

فى غير قليل من الحالات يُختار العنصر س بدقة لأنه من المفترض أن تتوفر له السمات الضرورية التى تمكنه من القيام بالوظيفة التى يحددها له العنصر (ص). فمحام، وطبيب، ورئيس، وأسقف، كلها أسماء لوظائف فرض على بعض الموجودات أمر القيام بها بمقتضى بلوغ هذه المنزلة (أو المرتبة أو المكانة) أو تلك؛ كالمتخرجين فى كلية الحقوق أو الطب، أو من فازوا فى أنواع بعينها من الانتخابات، أو الأبنية الضخمة التى تسمح بإقامة الخدمات الكنسية الكبرى، وتحتاج إلى مقام المطرانية - وهذا بالتحديد لأنه من المفترض أن تكون قادرة على القيام بالوظائف (ص) التى تنطوى عليها مستمدة من بلوغ منزلة "محام" أو "طبيب" أو"رئيس" أو "أسقف". غير أنه حتى فى تلك الحالات، ثمة ما يضيفه العنصر (ص). فالسمات التى يحددها العنصر (س) ليست فى ذاتها كافية لأن تضمن له بلوغ المنزلة الجديدة، ولا الوظيفة التى حددها له العنصر (ص). والفرق بين المحامين والمفكات مثلا، هو أن المفكات يمكنها أن تؤدى وظيفتها بفضل محض خصائصها المادية وحسب، أما بالنسبة إلى خريجى كلية الحقوق فلكى يشغلوا هذا الموقع لا بد لهم من الحصول على شهادة أو تصريح يسمح لهم بأن يحظوا بهذه المنزلة. والاتفاق الجماعى الذى يخول لهم الحق حين يكون لهم ذلك الموقع هو الذى يضع الأساس للحظوة بما لهم من وضع ومكانة بمقتضاها يقومون بالوظيفة، كما أن الفوز بتلك المنزلة بدوره من المقومات الأساسية للقيام بالوظيفة التى قد أسندت لمن يشغل ذلك الموقع.

توجد نوعية من الحالات التى تلفت الانتباه، حيث يكون للشىء وظيفة مسندة لسبب يبرر وجودها، تلازمها وظيفة أخرى تؤديها بمقتضى بلوغ هذه المنزلة الجديدة. تأمل مثلا السياج الفعلى المحيط بأجزاء من الحدود بين الولايات المتحدة الأمريكية والمكسيك، من المفترض أن يقوم بوظيفة حائل مادى لأنه يحول دون عبور الحدود. غير أنه من المفترض كذلك أن تتعين به الحدود الدولية، مما يعنى ألا يتمكن أحد من عبوره دون وجود تصريح أو تأشيرة تأذن له بالعبور بناء على موافقة السلطات. وحتى فى هذه

الحالة، فإن الوظيفة التى يتيحها بلوغ هذه المنزلة تقف جنبا إلى جنب الوظيفة الفيزيائية، بالرغم من أنهما على نفس الدرجة من الموضوعية.

خلاصة الأمر هنا أنه لا بد للعنصر ص من أن يعبر عن وظيفة جديدة أتيحت للعنصر س بناء على بلوغ تلك المنزلة الجديدة، لم تنعم بها الموجودات التى تندرج تحت العنصر س من قبل. ولكى توجد تلك المنزلة الجديدة لابد لها من أن تحظى بالاتفاق الجماعى، والقبول، والقصد العقلى الجماعى. وأن تتوفر لها كل الأشكال الأخرى الضرورية و الكافية لإيجادها. والآن، قد تعتقد أنه لم يتبق أمامنا الكثير من الوسائل لنستعين بها، غير أننا فى الحقيقة، سنرى بالتفصيل، أن هذه الآلية محرك قوى يعمل على توليد الواقع الاجتماعى.

سادسا: وأخيرا، هناك صلة خاصة تربط بين فرض تلك المراتب التى بمقتضاها يتيسر القيام بالوظائف من جانب، واللغة من جانب آخر. والعلامات المميزة التى تعد جزءا مما يعبر عنه العنصر ص- مثل العلامة "نقود"- هى الآن مقوم أساسى من مقومات الواقعة التى قد تم صنعها. إن المفاهيم التى ربما تكون قد بدت غريبة على عملية ابتكار النقود، والتى عبرت اللغة عنها، هى الآن جزء من الوقائع الفعلية التى صنعناها. وسوف أستكشف أبعاد ذلك الملمح فى الفصل التالى.

لماذا لا تفضى الإحالة إلى الذات إلى الوقوع فى دائرة مفرغة؟

تصدر القائمة التى أحصيت فيها ستًا من السمات الظاهرية الخاصة بالواقع الاجتماعى - التى كانت بحاجة إلى التوضيح - الحيرة التى تكتنف الطريقة التى يمكن أن نعرّف بها "النقود"، خاصة لو أن جزءا من التعريف يتضمن "أن يظن فيها أو تعد أو يعتقد أنها نقود". ولقد تساءلت: ألا تؤدى بنا أى محاولة لتعريف النقود،أو حتى أى محاولة لشرح مفهومها، إلى السير داخل دائرة لا تنتهى بنا إلى نتيجة؟ بيد أن حلَّ التناقض أمر شديد البساطة. إن كلمة النقود تحدد نقطة التقاء واحدة one node داخل شبكة من الممارسات بأكملها، ممارسات المِلكية (أو الحيازة)، والبيع، والشراء، والكسب، وشراء الخدمات، وسداد الديون ...إلخ. ومادام يُعزى للنقود لعب ذلك الدور داخل هذه الممارسات، فلسنا بحاجة بالفعل إلى كلمة "النقود "فى تعريف النقود، لذلك فلن ندور فى دائرة لا تنتهى.لأن كلمة " النقود" من المنطوق اللغوى الذى يقوم بوظيفة

التعبير عما يكافئها من المعنى داخل تلك الأشكال من الممارسات. وليس المرء بحاجة لكلمة "نقود" بالفعل كى يعتقد أن شيئا ما نقود. فيكفى أن نؤمن بأن تلك الأشياء هى وسيط للتبادل، ومستودع للاحتفاظ بالقيمة، وسبيل للوفاء بالديون، ودفع أجر مقابل الخدمات ....إلخ. وما يسرى على النقود يسرى على مفاهيم أخرى ترتبط بالمؤسسة كالزواج والملكية، وأفعال الكلام : من مثل الوعود وإصدار التصريحات، وصيغ الأمر...إلخ. وباختصار، لا يترتب على أن تكون مجموعة ما من المواقف هى التى تضع جزئيا بقدر ما أسس شروط صدق مفهوم بعينه ومقوماتها. ولا يترتب كذلك على أن يلخص الاستخدام الفعلى لذلك المفهوم تلك التصورات تلخيصا طبيعيا (على سبيل المثال الاعتقاد بأن شيئا ما نقود أو أن هؤلاء الناس متزوجون)لا يترتب على ذلك كله أنه لا يمكن أن تعرف الكلمة المعبرة عن ذلك المفهوم دون الوقوع فى حلقة نظل نعود فيها لنقطة البداية (أى إن النقود ببساطة هى ما نستخدمه كنقود).

وعلى الرغم من أننا لسنا بحاجة إلى مفهوم للنقود لنعرِّف "النقود"، إلا أننا لكى نشرح مفهوم النقود، بحاجة لمفاهيم أخرى من مثل "الشراء" و"البيع" و"الملكية". ولا نتجنب الوقوع فى حركة دائرية إلا بتوسيع الدائرة لتشتمل على مفاهيم أخرى. ولسنا نحاول أن نختزل مفهوم "النقود" إلى مفاهيم منقطعة الصلة بالمؤسسة.

لقد ذكرت أن هناك فرقا بين أن يحيل المفهوم إلى ذاته، (أو مستمدا لمعناه من داخل نسق منظومته نفسها) بوصفه ينطبق على أنماط، أو بوصفه ينطبق على رموز أو علامات بديلة. فعندما يكون الشأن شأن النقود، يمكن لرمز أو لعلامة بديلة بعينها أن تكون نقودا حتى لو لم يعتقد أحد أنها كانت نقودا، بينما لا يتوفر هذا فى حفلات الكوكتيل ؛ لأنه إن لم يعتقد أحد أن حدثا ما هو حفل كوكتيل، لما كان هناك حفل كوكتيل بالمرة. أظن أن مرد ذلك أننا ننظر إلى حفلات الكوكتيل نظرة تختلف عن نظرتنا للنقود؛ فالأولى لها شأن بالحصر والتصنيف. وعلى العموم، لو أن هذه المؤسسة قد نسقت بشكل رسمى - شأن القوانين الخاصة بالنقود - لصار معناها الذى تستمده من داخل نسقها نفسه، والذى نعيره اهتمامنا هو سمة من سمات النمط. وأما إن كانت غير رسمية أو غير مجموعة ومصنفة، فإن المعنى المستمد من داخل نسقه الذى يحيل إليها من الممكن أن ينطبق على كل علامة أو رمز بديل من الممكن أن يحل محلها. إن التصنيف يعين السمات التى لابد أن تكون للرمز أو العلامة البديلة بالتحديد كى تكون

شاهدا على النمط. لذلك قد يتسم الرمز أو العلامة البديلة بتلك السمات حتى لو لم يتصورها أحد، بالرغم من أن النمط يظل يعرّف على هذا النحو الذى يُستمد من النسق الذى وجد داخله هذا النمط.

إن الإحالة على الذات (أو فلنقل المعنى المستمد من داخل منظومته) الذى أوليناه عنايتنا إنما هو نتيجة فورية تترتب على طبيعة الوظائف المسندة ، ليست مما يقتصر على الوقائع المرتبطة بالمؤسسة. لذلك فلكى يكون شىء ما كرسيا مثلا،علية أن يؤدى وظيفة الكرسى؛ ومن ثم يُعتقد أنه كرسى، ويتخذ كرسيا. ليست الكراسى مسائل مجردة أو رموزا على شاكلة النقود والملكية،غير أن القصد من ورائها كلها واحد فى الحالين. فعندما يكون الشأن شأن المفاهيم الخاصة بالوظائف المسندة يكون الاعتقاد فى أنها تتوفر فيها المواصفات جزءًا من استيفائها تلك المواصفات. ولا يفضى هذا إلى أن نظل نعود لنقطة البدء بلا نهاية، للسبب الذى قد بيناه: إذ يمكننا أن cash out نفسر المواصفات وفقا لمجموع الممارسات التى تنطوى على الظاهرة ؛ فالكراسى لنجلس عليها، والنقود لنشترى بها الأشياء، والأدوات نعالج بها الأشياء بطرق مختلفة...إلخ(*).

الاستعانة بأقوال أدائية يسرى مفعولها بمجرد النطق بها فى صنع وقائع ترتبط بالمؤسسة

يخص السمة الظاهرية الثانية التى نود أن نفسرها دور الأقوال الأدائية، التى يسرى مفعولها بمجرد النطق أو التلفظ بها، فى صنع الكثير من - ولا أقول كل - الوقائع المرتبطة بالمؤسسة. هذا التفسير يمدنا به بنية القواعد التى تضع المقومات والأسس. على العموم، عندما يكون العنصر س فعلا من أفعال الكلام تمكنه القاعدة التى تضع الأسس والمقومات من أن يُؤدَّى على هيئة تصريح ينص على مغنى يسرى مفعوله بمجرد النطق به، محققا الأمور التى لها مواصفات العنصر ص.لأن قول أشياء بعينها يعد

(*) فى معجم Random House Dictionary من ضمن تعريفات كلمة أداة "tool" أنها أى شىء يمكن أن يستخدم أداة وبالنسبة للتعريفات يعد هذا إلى حد ما تعريفا ساذجا (يشبه تعريف الماء بعد الجهد بالماء) غير أنه ليس من السذاجة بالقدر الذى قد يبدو لنا عليه، فليس بإمكانك أن تعرِّف مفكا بوصفه "أى شىء يمكن أن يستخدم كمفك" لأن هناك أشياء كثيرة يمكن أن تستخدم كمفك، دون أن تكون على الإطلاق مفكات، كالعملة مثلا. لكن مادام لفظ "أدة" - على خلاف لفظ "مفك" - يطلق على فئة ضخمة من الوظائف المسندة (الفواعل)، فأى شىء من الممكن أن يستخدم للقيام بوظيفة أداة هو تقريبا أداة.

بمثابة الدخول طرفا فى تعهد بالتزام ما، أو برفع جلسة ، فمن الممكن أن تقوم بهذه الأفعال بأن تقول إنك تقوم بها. ولهذا فلو كنتَ رئيسا لجلسة، و قلت - فى الظروف المناسبة- "رُفعت الجلسة" لجعل هذا الجلسة تُرفع. ولئن قلتُ فى الظروف المناسبة مثلا" عينتك رئيسا للجلسة " فسوف يعينك هذا رئيسا للجلسة. ولن يكون للكلمات نفسها ذات التأثير لو قالها الشخص غير المناسب، أو قيلت فى الظروف غير المناسبة. ولأن القاعدة التى تضع المقومات والأسس تجعل لنا القدرة على أن نفرض على فعل الكلام وظيفة. فمجرد القيام بفعل الكلام فى الظروف المناسبة بمقدوره أن يضع الأسس والمقومات لفرض تلك الوظيفة، ومن ثم لإنشاء واقعة جديدة.

يقال إنه فى البلدان الإسلامية يمكن للرجل أن يطلق زوجته بمجرد أن يقول ببساطة " أنتِ طالق" ثلاث مرات ملقيا بيده ثلاث حصوات بيض. وهذا يعد استخداما لفعل "يطلّق" يسرى مفعوله بمجرد النطق به، ولا يوجد هذا فى بلدان أخرى. إن من يرون أن المعنى مستمد من الاستخدام عليهم أن يستخلصوا أن كلمة (طالق) "يطلِّق" لها معنى لدى المسلمين يختلف عن معناها لدى سواهم. لكن الأمر مختلف. فما قد حدث هو أنه قد فرضت وظيفة جديد ة بمقتضى بلوغ منزلة على صيغة قائمة من صيغ الجملة. إن صيغة عبارة "أنت طالق" لا يغير من معناها أن تضاف إليها وظيفة تؤدى بمقتضى بلوغ هذه المنزلة، بل إنها تستخدم الآن ببساطة فى صنع واقعة جديدة، أعنى الطلاق خاصة، استنادا إلى قاعدة تضع أسسا جديدة،بمقتضاها يعد قول الزوج (أنت طالق) (أطلقك) ثلاث مرات مع ما يلازمه من الإشارة الملائمة برمى الحصوات، بمثابة تطليقه زوجته. ومن ثم فالتعبير المنطوق الذى سرى مفعوله بمجرد التلفظ به صنع واقعة جديدة هى الطلاق.

وعلى الرغم من أن العبارة المذكورة على الورقة المالية من فئة عشرين دولارا لا تشتمل على أفعال يسرى مفعولها بمجرد النطق بها، فإن فيها تصريحا بأن "هذه الورقة المالية التزام قانونى tender بسداد كل أنواع الديون العامة والخاصة". ولكن ما تدعيه تلك العبارة المنصوص عليها ليس موضع فحص ، فلن نسأل وزارة الخزانة "كيف تعرفين أنها التزام قانونى" أو "ما دليلك؟". عندما تقول وزارة الخزانة إنها التزام قانونى فهى تنص على أنها التزام قانونى، وليس هذا تصريحا بواقعة قابلة للفحص لأنها قد صارت بالفعل التزاما قانونيا.

ليس من الممكن أن يستوعب إمكان صنع وقائع ترتبط بالمؤسسة عن طريق النص عليها كل أنواع الوقائع المرتبطة بالمؤسسة. فلا يمكنك مثلا أن تهبط بطائرة بمجرد أن تقول إنك تفعل ذلك.

وخلاصة القول إن الأفعال الأدائية التى يسرى مفعولها بمجرد النطق بها تلعب دورا خاصا فى صنع الوقائع المرتبطة بالمؤسسة، لأن الوظائف التى وجدت بمقتضى بلوغ منزلة ما، أى العنصر ص فى الصيغة الرمزية "س تعد بمثابة ص"غالبا وليس دائما ما يتعين القيام بها ببساطة بمجرد إعلان إسنادها. ويصح هذا على وجه الخصوص عندما يكون العنصر س ذاته فعلا من أفعال الكلام.

من المنطقى أن يكون للوقائع الصريحة أو الحقائق العارية السبق على الوقائع المرتبطة بالمؤسسة :

تختص السمة الظاهرية الثالثة التى نود أن نشرحها بوجود الوقائع الصريحة أو الحقائق العارية وجودا يسبق وجود الوقائع المرتبطة بالمؤسسة . وبإمكان بنية القواعد التى تضع الأسس والمقومات أن تفسرها، كما كان الشأن مع السمة الثانية. فبنية الوقائع المرتبطة بالمؤسسة هى بنية تتدرج فيها الصيغة الرمزية "س تعد بمثابة ص فى حالة ع". ذلك التدرج يتغلغل فى بناء الظواهر التى لا تعتمد فى وجودها على اتفاق الجماعة. يعنى هذا أن نقول بعبارة أخرى، أنه عندما تفرض وظيفة بمقتضى بلوغ منزلة ما على شىء،فلابد من وجود شىء يفرض عليه تلك المنزلة. ولو أنها فرضت على وظيفة أخرى بحكم بلوغ منزلة ما،فعلى المرء فى آخر الأمر أن يبلغ قرارة هذا التدرج؛ حيث لا يوجد أى شكل من أشكال الوظائف التى تؤدى بمقتضى بلوغ منزلة ما. ولهذا فإن كل أنواع الأشياء - كما قد ذكرت آنفا - يمكن أن تكون نقودا. بيد أنه يجب أن ندرك للنقود شكلا ماديا واضحا؛ أى واقعة حقائق عارية أو وقائع صريحة تمكننا من أن نفرض عليها أى شكل لدينا من أشكال الوظائف التى تؤدى بمقتضى بلوغ منزلة لها - حتى لو كانت مجرد قصاصة من الورق، أو شكلا على قرص كومبيوتر. وبناء على ذلك فلا توجد واقعة ترتبط بالمؤسسة دون وجود واقعة حقائق عارية أو وقائع صريحة سابقة عليها.

تمهد هذه الحاجة لحاجتنا التى نطرحها برهانا على النزعة "الواقعية" فى الفلسفة، تلك التى سوف نجعلها موضوع الفصل السابع والفصل الثامن. ولا يمكن أن

نقول - على غرار ما قد أكد بعض من هم ضد النزعة الفلسفية الواقعية - إن كل الوقائع هى وقائع مرتبطة بالمؤسسة ، وأنه لا وجود للوقائع الصريحة أو الحقائق العارية، لأن تحليل بنية الوقائع المرتبطة بالمؤسسة يكشف عن أنها تعتمد اعتمادا منطقيا على وقائع صحيحة أو حقائق عارية. فافتراض أن كل الوقائع هى وقائع مرتبطة بالمؤسسة يفضى بنا إلى الوقوع فى أن ندور فى حلقة لا تنتهى. فلكى يكون بعض الوقائع وقائع مرتبطة بالمؤسسة، لابد من كون بعض الوقائع الأخرى وقائع حقائق عارية أو وقائع صريحة، تلك النتيجة قد ترتبت على منطق بنية الوقائع المرتبطة بالمؤسسة.

منظومة العلاقات وأولوية الفعل على الموضوع

كان سؤالنا الرابع عن سبب وجود أنواع بعينها دائما من العلاقات المتسقة بين الوقائع المرتبطة بالمؤسسة ؟ أما السؤال الخامس فقد دار على: السبب الذى يجعل الأفعال المرتبطة بالمؤسسة تبدو سابقة على الموضوعات المرتبطة بالمؤسسة ؟

إن أوضح الأسباب لوجود علاقات تتسق فيما بينها، تربط بين مختلف أنواع الوقائع الاجتماعية من النوع الذى سعيت لتوضيحه، هو أن الوقائع - التى عنينا بها - قد قصد بها تحديدا هذا الغرض. فقد قصد من وراء الحكومات أن تؤثر فى حياتنا بكل الطرق ، وقصد من النقود أن تمثل وحدة خاصة بالقيمة، فى كل أنواع المعاملات التجارية. حتى المباريات التى قصد بها أن تستأثر بجانب آخر من جوانب حياتنا، نجدها بالرغم من ذلك، تستعين بجهاز يتألف من الحقوق، والالتزامات، والمسئوليات...إلخ، من الواضح كما قد نوهت من قبل، أن هذا الجانب من حياتنا يتوفر له كل أنواع الوقائع الاجتماعية الأخرى.

إن تفسير ما يبدو فى الظاهر من أولوية للأفعال الاجتماعية على الموضوعات الاجتماعية social objects أساسه أن الأشياء قد قصد من ورائها أن تعمل لصالح وظائف أسند إلى هذه الأشياء أمر القيام بها، وليس جل اهتمامها على كل حال موجهاً إلينا. فما نعتقد أنه موضوعات اجتماعية كالحكومات، والنقود، والجامعات مثلا، إنما هى فى حقيقة الأمر مجرد رموز لنماذج من الأنشطة. لعله يكون قد اتضح لنا أن فعالية

الوظائف المسندة والتصد العقلى الجماعى، كلها أمور أنشطة مستمرة تتيح الفرصة لإمكانية وجود المزيد من الأنشطة المستمرة.

خلال هذا النقاش كنا قد قبلنا عن غير وعى هذه الفكرة، وذلك من خلال حديثنا عن الوقائع المرتبطة بالمؤسسة، أكثر منه عن طريق الموضوعات المرتبطة بالمؤسسة مثل هذه الموضوعات المادية المنخرطة فى الواقع المرتبط بالمؤسسة كالقطع الورقية مثلا،هى موضوعات شأن غيرها من الموضوعات، غير أن فرض وظائف بمقتضى بلوغ منزلة ما على هذه الموضوعات يدرجها فى مستوى من الفئات له من المواصفات ما يجعل منها موضوعات ؛ كأن تكون عملة ورقية من فئة عشرين دولارا مثلا. وليس هناك كبير اختلاف فى هذا الموضوع، سواء أكان الأمر أمر وظيفة بمقتضى بلوغ منزلة جديدة، قد أسند ت إلى موضوع قديم، (أم كان أمر موضوع جديد قد صنع خصيصا لأجل وظيفة أسندت بمقتضى بلوغ منزلة جديدة وحسب). بيد أن تلك الوظيفة لا تتضح إلا من خلال القيام الفعلى بها، ومن ثم فإن موضع اهتمامنا لا ينصب على الشىء، و إنما ينصب على الأحداث والعمليات الإجرائية المتعاقبة التى تجلت فيها هذه الوظائف.

تفسر أولية العمليات الإجرائية المتعاقبة على المنتج السبب الذى يجعل المؤسسات لا تبلى بطول الاستخدام، بل يجعل كل استخدام للمؤسسة تجديدا لها بمعنى من المعانى. وقد أشار كثير من منظرى علم الاجتماع إلى هذا السبب .إذ تبلى السيارات والقمصان بطول استعمالنا لها، بينما يجدد الاستخدام المستمر المؤسسات من مثل الزواج، والملكية، والجامعات ويشد ساعدها. وتبرهن المعالجة التى قدمتها على أنه لما كانت الوظيفة قد فرضت على ظاهرة لا تقوم بهذه الوظيفة بدافع من بنائها الفيزيائى، وإنما بناء على توجه وعى المستخدمين الجماعى المستمر نحوها، فإن كل تعامل مع المؤسسة وكل استعانة بها يعد تعبيرا مجددا عن التزام المتعاملين معها بها. ومن هنا نجد أن الدولارات تبلى بينما يعزز طول الاستخدام من وجود المؤسسة التى تصدر العملات الورقية.

تخص السمة السادسة و الأخيرة التى نود أن نفسرها الدور الذى تلعبه اللغة فى الواقع الاجتماعى، و لهذا الموضوع كنت قد كرست الفصل التالى.

هوامش الفصل الثانى

(١) John R. Searle, Expression and Meaning: Studies in the Theory of Speech Acts (Cambridge and New York: Cambridge University Press,1979), chap. 1.

(٢) حاولت أن أشرح العلاقة بين المكون الفردى والمكون الجماعى الخاص بالمقاصد العقلية الجماعية فى:

John R. Searle, "Collective Intentions and Actions", in Intentions in Communication, P. Cohen, J. Morgan, and M. E. Pollack, eds. (Cabridge, Mass: Bradford Books, MIT Press, 1990).

(٣) والنص الكلاسيكى يتمثل فى:

W. Koehler, The Mentality of Apes, 2d ed. (London: Kegan Paul, Trench and Turbner, 1927).

كتب إ. أو. ويلسون مؤخرا فى كتابه

E. O. Wilson, Sociobiology: The New Synthesis (Cambridge, Mass. Harvard University Press,1975), p. 73.

"إن استخدام الأدوات بين الفصائل من القردة العليا يبلغ فى الغالب درجة تفوق استخدامها لدى غيرها من جماعات الفقاريات، ومع ذلك فللشمبانزى قدرة مذهلة تجعلها تفوق سواها من الحيوانات الأخرى، بل تكاد تقارب فى هذا قدرة الإنسان".

(١) Werner Kummer, Primate Societes (Chicago: Aldine, 1971), p. 118.

(٥) لا يزال هذا الوضع بالمناسبة قائمًا بالنسبة للعملة البريطانية. فثمّة ملاحظة مكتوبة على العملة البريطانية من فئة عشرين جنيهًا تقول "يُدفع لحامله مبلغ عشرين جنيهًا بناء على طلبه" تحمل توقيع رئيس" بنك انجلترا".

(٦) سوف أستخدم التعبيرات (العنصر س) و (العنصر ص) و(العنصر ع) لتشير إلى موجودات فعلية لها قيمة هذه الرموز المتنوعة الثلاثة، أو تشير إلى التعبيرات الكلامية التى نستبدل بها الرموز (س) و(ص) و(ع). لقد أدركت أنّه يوجد دائمًا خطر الوقوع فى الخلط فى استخدامها. غير أنّى أعتقد أنّ السياق سوف يوضّح إذا ما كنت أشير إلى تعبير ما، أم إلى الشىء الذى يشير إليه هذا التعبير. وفى الحالات التى قد يكون فيها أمر ما يدعو إلى الخلط، سأجعل الفرق المميّز واضحًا عن طريق استخدام ما يميز بين الرمز (س) والعنصر (س) مثلا، حيث يشير أولهما إلى الرمز س بينما يشير ثانيهما إلى موجود فعلى.

الفصل الثالث

اللغة والواقع الاجتماعى

إن الهدف الأول من هذا الفصل أن يشرح زعمنا أن اللغة عنصر جوهرى فى وضع أسس الواقع المرتبط بالمؤسسة ومقوماته، وأن يبرر هذا الزعم. ولقد عرضت لهذه الفرضية بعامة، غير أنى أريد الآن أن أوضح تمام الوضوح ما قد عنيته بذلك، وأن أفصل القول فيه من خلال تقديم الأدلة التى تبرهن على ما أقول. وفى نهاية الفصل سوف أذكر بعضا من الوظائف الأخرى التى تنسب للغة فى مجال الوقائع المرتبطة بالمؤسسة.

ذكرت فى الفصل السابق أنه يبدو من المستحيل أن يكون لدينا أشكال أبنية كالنقود والزواج، والحكومات، والملكية، دون الحاجة إلى وجود بعض الصيغ اللغوية، لأنه ـ قد يبدو من الغريب وهذا مما لم أشرحه بعد ـ أن الكلمات أو الرموز الأخرى تضع جزئيا الأسس والمقومات لخلق الوقائع . غير أن هذا قد يكون أمرا محيرا خاصة لو تصورنا أن الوقائع الاجتماعية بعامة لا تحتاج إلى اللغة. فمن الممكن أن يكون لدى الحيوانات - بوصفها تمثل بدورها مرحلة ما قبل اللغة - كل أنواع السلوك المتعاون، وكذلك من الواضح أن لدى الأطفال القدرة على التفاعل الاجتماعى بطرق شديدة التعقيد دون وجود أى كلمات. أضف إلى هذا أننا لو كنا نميل إلى القول بأن الواقع يحتاج إلى اللغة، فماذا عن اللغة نفسها؟ لو أن الوقائع المرتبطة بالمؤسسة بحاجة إلى لغة، واللغة فى ذاتها مؤسسة، فسيبدو الأمر كما لو كانت اللغة نفسها بحاجة إلى لغة، وهنا لا مناص من أن نظل ندور بلا نهاية.

تتخذ مزاعمى صيغتين إحداهما أقوى من الأخرى؛ أما الصيغة الأضعف فخلاصتها أنه لكى نمتلك أى قدر من الوقائع المرتبطة بالمؤسسة لابد أن يتوفر للمجتمع -على الأقل- شكل ولو أولى من أشكال اللغة، ويعنى ذلك من ثم، أنه من المنطقى أن تسبق

مؤسسة اللغة المؤسسات الأخرى. فاللغة بناء على هذا التصور هى المؤسسة الاجتماعية الأساسية، إلى حد أن وجود كل المؤسسات لابد أن يسبقه وجود اللغة.بينما لا يقتضى وجود اللغة وجود المؤسسات الأخرى؛ إذ يمكن أن يكون للمرء لغة دون أن ينعم بالمال أو بالزواج، والعكس غير صحيح. وأما الصيغة الأقوى فترى أن كل مؤسسة تحتاج أن تكون العناصر اللغوية ضمن الوقائع التى تشتمل عليها كل مؤسسة. وأكبر ظنى أن الزعمين صحيحان، وسوف أناقش الصيغة الأقوى التى أرى أنها تضم فى إهابها الصيغة الأضعف.

الفكر المعتمد على اللغة، والوقائع المعتمدة على اللغة

لكى أوضح القضايا والأدلة التى سأطرحها للنقاش، أجدنى بحاجة إلى أن أقدم ولو باختصار، إيضاحات أولية بعينها، وأن أشرح بعضا من الفروق المميزة بينها. أريد أن أبين أى سمات اللغة يتعلق بهذه القضية. ولن أسعى هنا إلى أن أعرف كلمة "اللغة". إذ لا يتعلق بهذه القضية الكثير من السمات الأساسية للغات الطبيعية التى بلغت أوج نضجها، من مثل القدرة على التوليد بلا نهاية، ووجود صيغ تشير إلى قوة اللغة التى تتجلى فيما تتركه من أثر على المتلقى وفى النسب الكمية، وفى الروابط المنطقية. والسمة اللغوية الأساسية لوضع الأسس للوقائع المرتبطة بالمؤسسة هى وجود صيغ رمزية، كالكلمات، التى تعارفنا على أن تعنى شيئا يتجاوزها أو تمثل له أو ترمز إليه. لذلك عندما أقول إن اللغة فى جزء منها تضع الأسس لخلق الوقائع التى ترتبط بالمؤسسة، فلا أعنى بهذا أن تلك الوقائع بحاجة إلى وجود لغات طبيعية مكتملة النضج كالفرنسية والألمانية أو الإنجليزية، إنما أرى أن اللغة فى جزء منها تسهم فى بناء الوقائع المرتبطة بالمؤسسة. وهذا يتساوى مع الزعم بأن الوقائع المرتبطة بالمؤسسة تشتمل بنحو أساسى على بعض العناصر الرمزية. و"الرمزية" فى هذا السياق تعنى أنه توجد كلمات ورموز، أو صيغ أخرى اخترناها جزافا و تعارفنا عليها. تعبر تلك الصيغ عن شىء يتجاوزها ترمز إليه وتمثله خارج ذاتها، بطريقة يتيسر للجمهور فهمها. لقد أردت أن يبدو هذا الأمر فى هذا الموضع شديد الإبهام وعامًا بقدر كبير، لأنه، حتى الآن، قد قصد منه وحسب أن يعيِّن بالتحديد السمة اللغوية التى أزعم أنها تلعب دور وضع الأسس والمقومات التى ينبنى عليها الواقع المرتبط بالمؤسسة.

واللغة على هذا النحو تشتمل بنحو أساسى على كينونات رامزة، وفى اللغة مثل تلك القدرات الخاصة بالقصد العقلى - إذا ما نظرنا إليها فى مقابل حالات القصد العقلى فى الوضع السابق على اللغة - فتلك القدرات ليست أصلية بالنسبة لتلك الكينونات، وإنما فرضها عليها - أو استمدتها - اللغة من القصد العقلى، لهذا فجملة" أنا جائع" هى جزء من اللغة، لأن العرف قد جعل لها دلالات لها القدرة على أن تعبر عن الأشياء وتمثلها، بل على أن ترمز كذلك إليها. غير أن الشعور الفعلى بالجوع ليس جزءا من اللغة، لأنه يمثل شروط الإشباع الفعلى، فلست بحاجة إلى اللغة أو إلى أى نوع آخر من الأعراف كى تشعر بالجوع.

نحن بحاجة أولا إلى التمييز بين الوقائع التى لا يعتمد وجودها على اللغة، من مثل تأكيدنا على واقعة أن قمة إفرست يغطيها الثلج والجليد، من جانب ، والوقائع التى يعتمد وجودها على اللغة من مثل الواقعة اللغوية التى تتمثل فى الجملة الإنجليزية "قمة إفرست يغطيها الجليد" من جانب آخر. وعلى الرغم من أنه لا شك فى وجود حالات تقع فى مناطق هامشية (تتداخل فيها الحدود) فالمبدأ من الوضوح بمكان، فلو لم يقتض وجود واقعة من الوقائع فعلا وجود عناصر لغوية شرطا لها لكانت من نوع الوقائع التى قد استغنت عن اللغة سبيلا لتعزيز وجودها. ولو نحينا كل العناصر اللغوية جانبا، لظلت قمة إفرست يغطيها الجليد والثلج، بيد أننا لو نحينا جانبا كل ما هو لغوى لأدركنا أننا قد أسقطنا كون "قمة إفرست يغطيها الجليد والثلج" عبارة صيغت باللغة الإنجليزية.

والاختلاف الثانى الذى نجدنا بحاجة لأن نوضحه يتمثل فى الفرق الذى يميز بين الأفكار التى تستقل بذاتها عن اللغة ، والأفكار التى يعتمد وجودها على اللغة. فمعنى أن بعض الأفكار ليست بحاجة إلى اللغة، يمكن أن يوضحه أن الحيوان لا يمكن أن يتأتى له مثل هذه الأفكار، مادام لا يمتلك الكلمات أو بعض الأشكال أو الصيغ اللغوية الأخرى التى تمكّنه من أن يفكر على غرار هذا. بيد أن بعض الأفكار مستقلة عن اللغة؛ بمعنى أن الحيوان يمكن أن يكون لديه نوع من هذه الأفكار دون الحاجة إلى كلمات أو أى شكل آخر من أشكال الصيغ اللغوية. ومن الأمثلة الواضحة على الأفكار التى يعزز وجودها اللغة الاعتقاد بأن" قمة إفرست مغطاة بالجليد و الثلج "إن هى إلا عبارة صيغت باللغة الإنجليزية. وأى مخلوق ليس لديه لغة لن تخطر على باله هذه الفكرة.

إن النزعات الأولية البيولوجية غير المرتبطة بالمؤسسة والمدركات التى لا تتطلب أيا من الأشكال أو الصيغ اللغوية - هى - أوضح الحالات الخاصة بالفكر المستقل عن

اللغة. فالحيوان مثلا بإمكانه أن يمتلك شعورا واعيا بالجوع والعطش، وكلاهما شكل من أشكال الرغبة. فالجوع رغبة فى الأكل، والعطش رغبة فى الشرب، والرغبات حالات من القصد العقلى، وفى الاصطلاحات المعاصرة ، هى"مواقف تفيد حكما" -proposi tional attitudes علاوة على أن بإمكان الحيوان أن يمتلك مدركات حسية سابقة على اللغة، واعتقادات سابقة على اللغة مستمدة من هذه المدركات. فبإمكان كلبى أن يشم قطة يراها تنطلق إلى أعلى شجرة، ويكوِّن تصورا عن كون القطة فوق الشجرة. بل يمكنه تصحيح ما يظنه فيجنح إلى ظن آخر، عندما يشم القطة ويراها وقد انطلقت إلى الساحة الخلفية لبيت الجيران. تعد مشاعر الغيظ والخوف حالات أخرى تمثل الأفكار السابقة على اللغة. لا بد أن تتملكنا الدهشة لامتلاك الحيوانات أفكارًا سابقة على اللغة، وكذلك لأن بعض الأفكار التى تعتمد على اللغة لا يمكن أن تقوم لها قائمة بعيدا عنها.

بعد أن وضعنا فى اعتبارنا تلك الفروق المميزة،دعونا نبلور القضية التى نسعى لفحصها، واضعين فى الاعتبار تلك الفروق. لقد قدمت الدليل على أن بعض الوقائع ـ التى لا تبدو فى ظاهرها معتمدة على اللغة ـ من مثل الوقائع الخاصة بالمال والملكية هى فى حقيقة الأمر لا غنى لها عن اللغة. ولكن كيف تكون معتمدة على اللغة على الرغم من أن النقود والملكية ـ على العكس من الجمل الإنجليزية ـ ليست بالكلمات ولا تتألف من كلمات؟

لكى توجد واقعة تعتمد على اللغة يكفى أن يجتمع لها شرطان. **الأول**: لا بد لأشكال التمثيل العقلية للأشياء، كالأفكار مثلا، من أن تضع جزئيا أسس الوقائع ؛ **والشرط الثانى**: أنه لابد أن تكون أشكال التمثيل التى عنيناها معتمدة على اللغة. بناء على هذا يتوفر لبنية قواعد التأسيس شرطان: **الشرط الأول** تكفله الوقائع المرتبطة بالمؤسسة، أما **الشرط الثانى** فيترتب عليه أن الوظائف التى يقتضيها بلوغ المنزلة التى ينص عليها العنصر ص بالتحديد لا يمكن الوفاء بها إلا بإدراكها، والاعتراف بها، وقبولها،أى بتصديقها، مما يعنى أن الواقعة المرتبطة بالمؤسسة – التى كانت موضع اهتمامنا– إنما توجد وحسب بوصفها واقعة قائمة لو عبرنا عن وجودها القائم (أى لا تكتمل تصوراتنا إلا بوجود اللغة). اسأل نفسك عما يكون عليه الحال لو صح أن قصاصة من الورق فى

يدى هى ورقة مالية من فئة عشرين دولارا، أو لو قلنا إن "توم" يمتلك منزلا، تجد أنه لابد من وجود أشكال تمثل تصوراتنا العقلية للأشياء، فتقيم ما يؤسس جزئيا لقيام هذه الوقائع. ولا سبيل لوجود تلك الوقائع إن لم يكن لدى الناس أشكال بعينها من القناعات وأنواع أخرى من المواقف العقلية. هذا ما كنت أرمى إليه من قبل، حين قلت إن نمطا ما من الأشياء يكون نقودا وحسب إذا ما اعتقد الناس بالفعل أنه نقود، كما ينسحب الشىء نفسه على الممتلكات. وكل الوقائع المرتبطة بالمؤسسة هى بهذا المعنى ذاتية من الوجهة الأونطولوجية أى بالرغم من أنها موضوعية من الوجهة الإبستمولوجية.

ولكن ماذا عن الشرط الثانى ؟ هل لابد أن تكون أشكال تمثيل الوجود التى تحدثنا عنها معتمدة على اللغة؟ إن الوفاء بالشرط الأول لا ينطوى فى ذاته على ضرورة الوفاء بالشرط الثانى. فقد تشتمل واقعة ما على حالات عقلية تضع الأسس لقيام الواقعة، وتظل فى الوقت نفسه واقعة غير لغوية. فلنفرض مثلا أننا اختلقنا جزافا تعبير"عظمة كلب" لنعنى بها عظمة يشتهيها كلب واحد على الأقل. وبذلك نجد أن واقعة كون هذا الشىء عظمة كلب قد تأسست فى جزء منها من منظور كلابى. بيد أن الأمر لا يستدعى بالضرورة وجود تعبير لغوى يعبر عن مثل تلك الحالات العقلية؛ لأن بإمكان الكلاب أن تشتهى العظم دون أن يكون لديها بالضرورة أية لغة للتعبير عن تلك الرغبة.

إذن فما الفرق بين "عظمة الكلب" والنقود مثلا؟ لماذا يقتضى الاعتقاد فى شىء اعتقادا يجعله بالفعل نقودا، وجود اللغة، على نحو لا يقتضيه الاعتقاد فى "عظمة الكلب"؟ ما الذى لابد أن يحدث لى كى أعتقد أن " هذه نقود"؟ لقد رأينا فى الفصل الثانى أننى لا أحتاج إلى كلمة"نقود" ذاتها، لذلك فليست الكلمة بحاجة إلى أن تتجسد فى تعريفها. فلماذا لا يزال يلح علىَّ أن يكون لدىّ كلمات أو ما يشبهها كى أفكر بها ؟ ليس هذا بالسؤال الهين؛ إذ لا يجيب عن هذا السؤال سوى طبيعة الانتقال من العنصر س إلى العنصر ص. عندما نعد س ذات وظيفة تقوم بها بمقتضى بلوغ منزلة تجعلها بمثابة وضع يخصها به ويحددها على أساسه العنصر ص. لا بد أن تتولد الإجابة باختصار عن فهم طبيعة الوظائف التى تؤدى بمقتضى بلوغ منزلة ما وهى- دون استباق للأحداث - هى أن الانتقال من س إلى ص هو فى ذاته فى الحقيقة فعل لغوى، حتى فى الحالات التى لا تعتمد فى الظاهر على اللغة.

إن فرضيتنا الأصلية - فرضية أن الوقائع المرتبطة بالمؤسسة تعتمد على اللغة - يمكن أن تختزل إلى افتراض أن الأفكار التى تضع الأسس لقيام وقائع ترتبط بالمؤسسة إنما تعتمد على اللغة. ولكن لماذا؟ وما الدليل؟ لنبدأ بطرح السؤال التالى: لماذا تعتمد أية فكرة- ناهيك عن الأفكار المهتمة بالعناصر اللغوية نفسها- على اللغة؟ وهناك نماذج متنوعة من الأمثلة.

أولا : بعض الأفكار على قدر من التعقيد بحيث يكاد يستحيل فحصها دون أن تقع فى قبضة الرموز. فالأفكار الخاصة بالمسائل الرياضية مثلا تحتاج إلى منظومة من الرموز، وسوف يتعسر- بل يكاد يكون من المستحيل - لحيوان لم يمتلك اللغة بعدُ أن يفكر فى العمليات الحسابية البسيطة من مثل

٣٧١+ ٢٤٨ = ٦١٩

غير أن إخضاع تلك الحالات للفحص المدقق من الأمور العسيرة؛ بسبب الطريقة التى نشأنا عليها؛ فالأفكار المعقدة المجردة تحتاج إلى كلمات ورموز. ولا أرى أنه من المستحيل أن نفكر فى هذه المسألة بشكل منطقى بدون لغة. فمن السهل أن نتصور أن مسار الارتقاء سوف يؤدى إلى وجود مخلوقات يمكنها أن تفكر فى علاقات رياضية معقدة بدون استخدام الرموز.

يوجد مثل آخر على نوع من الحالات التى تتطلب وجود اللغة، بوصفها مسألة ضرورة منطقية، لأن التعبير اللغوى عن الفكرة أساسى لوجودها. ففكرة "اليوم الثلاثاء السادس والعشرين من أكتوبر" مثلا بحاجة إلى مجموعة محددة من الكلمات أو من مرادفاتها فى اللغة الإنجليزية وفى اللغات الأخرى، لأن مضمون الفكرة يحدد موضع اليوم فى علاقته بمنظومة كلامية بعينها لتعريف الأيام والشهور. من أجل هذا ليس فى وسع كلبى مثلا أن يعتقد أن"اليوم الثلاثاء السادس والعشرين من أكتوبر".

يمكننا ـ نحن الذين نمتلك الكلمات الخاصة بالتقويم - أن نترجم عبارة " اليوم الثلاثاء السادس والعشرين من أكتوبر" إلى الفرنسية، وليس إلى تقويم مختلف اختلافا جذريا مثل أبناء حضارة المايا Mayanالمكسيكية. قد يكون بإمكانهم باستخدام نظام التقويم الخاص بهم تحديد يوم فعلى ندعوه نحن " الثلاثاء السادس والعشرين من أكتوبر" غير أن فكرهم لن يترجم إلى" الثلاثاء السادس والعشرين من أكتوبر" فالإشارة نفسها لها معنى مختلف.

لا غنى للفكر عن اللغة، لأن الواقعة التى تناظر هذا اليوم أو تطابقه تعتمد على اللغة. إن واقعة أو مقولة "الثلاثاء السادس والعشرين من أكتوبر"لا توجد إلا داخل منظومة كلامى. غير أن بإمكان المرء أن يقول مثلا "إن الأمر نفسه صحيح تماما بالنسبة للكلاب والقطط، فما يسمى قطة أوكلبا يكون صحيحا داخل المنظومة اللغوية، وما نطلق عليه كلبا إنما يكون له وجوده وحسب داخل منظومة خاصة بتعريف الحيوانات والأشياء بعامة". إذ يوجد فرق حاسم ؛ وهو الفرق الذى يميز السمات التى يمتاز بها شىء ما بفضل كونه كلبا، بدون الاعتماد على اللغة، بل بإمكاننا أن نفكر فى هذه السمات بعيدا عن الحاجة إلى اللغة. ولكن ليس بوسع السمات التى بفضلها يكون اليوم الثلاثاء السادس والعشرين من أكتوبر أن توجد خارج منظومة لغوية. وبدون نظام اللغة ما كان لمثل تلك الواقعة أن توجد، على الرغم من أن وجود ذلك اليوم يستمر بغض النظر عما يظنه أو يقوله أى شخص. باختصار، لا غنى لتلك الفكرة عن اللغة، لأن جزءا من مضمونها يستمد شرط وجوده وحسب من علاقته بالكلمات.

ليس من الوقائع المرتبطة بالمؤسسة أن اليوم هو السادس والعشرون من أكتوبر، لأنه - بالرغم من أن الأيام تتحدد فى إطار المؤسسة بنحو من الأنحاء، - لا توجد وظيفة جديدة بحكم بلوغ منزلة ما، تتسم بهذا الوصف(*). لنتأمل الآن الوقائع التى ترتبط بالمؤسسة. عندما أتأمل بعض الأفكار، من مثل أن هذه ورقة مالية من فئة عشرين دولارا، وأن هذا من ممتلكاتى، أجد أنها بحاجة إلى اللغة، بوصفها أمرا ضروريا لتوصيل الفكرة. كذلك أجد أن مثل هذه الأفكار شأن الأفكار الخاصة بتاريخ اليوم، إنما تعتمد على اللغة. وجدير بنا أن نسأل عن السبب.

المباريات والواقع المرتبط بالمؤسسة

ولكى نبرهن على صحة ما نراه نود أن نبدأ بتأمل بعض الوقائع البسيطة للغاية، أخص بالذكر المباريات، لأن من شأنها أن توضح الأفكار التى نريد أن نطرحها. نقول بالنسبة للنقاط التى يتم إحرازها فى لعبة كرة القدم الأمريكية مثلا، حين يتمكن

(*) بعض أسماء التواريخ هى علامات على أوضاع وظيفية؛ مثلا "عيد الميلاد المجيد"، أو "عيد الشكر" مثل هذه التسميات تتجاوز مجرد تحديد اليوم داخل المنظومة الكلامية؛ بحيث يسند لشىء مكانة أو منزلة يقوم بمقتضاها بوظيفة.

اللاعبون من الاحتفاظ بالكرة متجاوزين بها خط مرمى الخصم (مما يعد إحراز ضربة مرمى تحتسب بست نقاط فى كرة القدم الأمريكية). والآن، لا يتيسر لأحد أن يسجل تلك النقاط دون وجود رموز لغوية. لكننا نكرر طرح السؤال: لماذا؟ لأنه ليس بالإمكان أن تحتسب ضربة المرمى إلا فى إطار منظومة لغوية تمثلها وتعبر عنها. ولذلك لا يمكننا أن نفكر فى إحراز النقاط، إلا لو كنا نمتلك الأداة اللغوية الضرورية للتعبير عن هذه المنظومة. ولكن هذا سيعيد طرح السؤال من جديد : لماذا لا يحتسب إحراز النقاط إلا فى إطار تلك المنظومة اللغوية. والرد على هذا شديد البساطة، فلو أننا استبعدنا كل أشكال الصيغ الرمزية التى تمثل احتسابا للنقاط لما تبقى لنا شىء البتة. ولو خلّف لدينا هذا انطباعا بأن النقاط هى مجرد كلمات، لكان هذا أمرا مضللا، وغير صحيح على الإطلاق. فللكلمات نتائج تترتب عليها، تجعل اللاعبين يستميتون من أجل تسجيل النقاط، بأكثر مما يفعلون من أجل الكلمات. لأن إحراز النقاط هو الذى يميز النصر من الهزيمة، ومن ثم فهو سبيل المشاعر المتراوحة بين النشوة واليأس. يبدو أنه لا يمكن للكلمات المجردة أن تكون بؤرة تتجمع فيها تلك المشاعر العميقة. فما من فكرة تستغنى عن الكلمات، أو عن سواها من الرموز الأخرى، كى تترك الأثر الذى نستشعره عند إحراز ست نقاط. قد يعبر عن إحراز تلك النقاط بعض صيغ الأشكال الرمزية، بالإضافة إلى الكلمات الفعلية، فعلى سبيل المثال قد نحتسب النقاط بتجميع أكوام من الحجارة؛ بحيث يشير لكل نقطة حجر. غير أنه فى هذه الحال سيكون شأن الحجارة شأن الرموز اللغوية، وشأن أى نوع آخر من الرموز. إذ يتوفر فيها السمات الأساسية الثلاث الخاصة بالرموز اللغوية وهى: أن ترمز لشىء يتجاوزها هى ذاتها، وتصيرعرفا عاما فى متناول الجماعة.

من غير الممكن أن يسبق إدراكنا إحراز النقاط، أو ما نعتقده بشأنها، وجود اللغة لأننا لا نفهم أو نعتقد فى وجود شىء دون الاستعانة بالأشكال الرمزية. فليس بوسع الحيوان مثلا أن يفهم إحراز النقاط - وهو لا يمتلك اللغة بعد ذ بالطريقة نفسها التى يدرك بها القطة فى أعلى الشجرة، ولا بوسعه أن يرغب - وهو لم يبلغ مرحلة اللغة بعد - فى أن يحرز نقاطا على النحو الذى يشتهى به الطعام.

فلماذا لم يولد الحيوان - وهو فى مرحلة لم تعرف اللغة بعد - مزودا برغبة فى إحراز نقاط فى مباريات كرة القدم، كما قد ولد مزودا برغبة فى رضاعة لبن الأم؟ لعل السبب فى هذا أنه لا معنى للرغبة فى إحراز نقاط بمعزل عن نظام يقبله المجتمع

يمثل احتساب النقاط ويعبر عن نظامها. فلو استبعدت كل الأنظمة الرمزية لاحتساب النقاط، لاستبعدت بالضرورة كل الاعتقادات الممكنة والرغبات والأفكار المتصلة بإحراز النقاط بعامة. سوف أبرهن فيما بعد على أن ما يجرى على النقاط فى مباريات كرة القدم يجرى على النقود والملكية والظواهر الأخرى المرتبطة بالمؤسسة.

إن جزءا من الصعوبة التى تواجهنا فى فهم تلك الوقائع مصدره أننا نتصور أن اللغة تعمل وفق نموذج بعينه، ينطبق على عدد كبير من الحالات، لذلك نظن أنه لابد أن ينطبق على كل الحالات. وهذا النموذج هو: أن للكلمات والتعبيرات مغزى تحيل بفضله إلى أشياء مشار إليها. فعبارة "نجمة المساء" مثلا ذات مغزى، حيث نشير عندما ننطق بها أو نفكر فيها إلى شىء خارج اللغة هو "نجمة المساء". فلو أمكننا أن نفهم معنى ذلك النموذج أو مغزاه بدون الكلمات، لأمكننا أن نفهم المشار إليه بدون الكلمات كذلك. وكل ما علينا أن نفعله هو أن نحرر المعنى أو المغزى من وثاق التعبير ثم نفكر فيهما وحسب. ويبدو أنه لابد لنا دائما من أن نتمكن من أن نحرر المعنى من وثاق التعبير؛ لأنه بمقدورنا أن نترجم التعبير إلى لغات أخرى. ويبدو أن قابلية الترجمة تبرهن على أنه من الممكن أن ننشغل بالتفكير فى ذلك المعنى الذى من الممكن أن نحرره من وثاق التعبير، ثم نعقد الصلة من جديد بينه وبين الكلمات الإنجليزية حينا والكلمات الألمانية حينا آخر. إلخ. ويولِّد لدينا هذا النموذج انطباعا بأنه لا توجد أفكار تعتمد على اللغة بالضرورة، لأنه يبدو أن أى تعبير فى أية لغة من الممكن أن يترجم إلى لغات أخرى، ويبدو أن هذا ينطوى على أن المعنى الذى يمكن أن نفكر فيه ليس بينه وبين العبارات المكتوبة أو المنطوقة دائما رباط وثيق.

مهما كانت أوجه القصور الأخرى، فإن ذلك النموذج لا ينطبق على الوقائع المرتبطة بالمؤسسة. يمكننا أن نرى بوضوح سبب عدم انطباق هذا النموذج على حالة إحراز نقاط فى المباريات الرياضية. ذلك أنه حتى لو لم يكن لدينا كلمات تدل على "رجل" و"خط" و"كرة"...إلخ يمكننا أن نرى ذلك الرجل يعبر الخط حاملا تلك الكرة ، ومن ثم نفكر بدون كلمات، فى الفكرة التى تصفها الكلمات "عبر الرجل الخط حاملا الكرة". غير أننا لا يمكن أن نرى، إضافة لذلك، هذا الرجل يحرز ست نقاط عن طريق الرؤية البصرية. فالتعبير " ست نقاط أو ضربة مرمى" لا يحيل على أشياء لا تعتمد على اللغة، على النحو الذى تشير به تعبيرات "الرجل" و"الكرة " و"الخط" و"نجمة المساء" حين تعود على

أشياء لا تعتمد على اللغة . فوجود النقاط (التى يحرزها اللاعبون) يختلف عن وجود الكواكب والرجال والكرات والخطوط (التى لا يد لنا فى وجودها ولم نصنعها).

لعل القارئ يشاركنى حتى الآن ما أجده بديهيا، لأنى أريد الآن أن أنص على المبدأ العام الذى يكمن فى ما أرى من بديهيات. فى المستوى الأدنى نرى الانتقال من (س) إلى (ص) الذى يؤدى إلى خلق وقائع ترتبط بالمؤسسة، إنما هو انتقال من المستوى الفطرى الخالص إلى مستوى يرتبط بالمؤسسة. ذلك الانتقال كما كنت قد أكدت مرارا وتكرارا، يمكن أن يوجد وحسب لو صورناه قائما، غير أنه لا توجد طريقة تسبق اللغة تمثل العنصر ص، لأنه قبل أن نمتلك اللغة ليس بمقدورنا أن ندرك الأشياء، أو أن يستهوينا شىء فيكون هدفا لرغبتنا بالإضافة للعنصر (س) . يمكننا بدون اللغة أن نرى الرجل يعبر خطا أبيض حاملا كرة، وبدون اللغة يمكننا أن نود أن يعبر رجل خطا أبيض حاملا كرة، بيد أنه لا يمكننا أن نرى رجلا يحرز ضربة مرمى، أو أن نود أن يحرز رجل ضربة مرمى دون لغة، لأن النقاط ليست أمرا يمكن أن يوجد بدون الكلمات أو بدون أى نوع آخر من أنواع العلامات. وما يسرى على النقاط يسرى على النقود والحكومات والممتلكات الخاصة...إلخ، كما سوف نرى.

إن الدروس المستفادة من ذلك المثل يمكن أن تمتد إلى الوقائع المرتبطة بالمؤسسة بعامة، إن الصيغة الفعلية للوظائف التى يقتضيها بلوغ منزلة ما تتسم بأنها تتألف فى جزء منها من أفكار، والأشكال التى تتخذها الأفكار قبل أن تبلغ مرحلة اللغة قاصرة عن القيام بهذا الدور، ولا توجد مراتب بمقتضاها تؤدى الوظائف إلا فى ظل اتفاق الجماعة على قبولها. قد لا يكون هناك سبيل لصياغة مضمون ذلك الاتفاق قبل أن ندرك اللغة، لأنه ليس فى الوجود (خارج ما ننتجه) ظاهرة طبيعية فى مرحلة ما قبل اللغة. فالعنصر (ص) يحقق للعنصر (س) منزلة تضاف إلى السمات الفيزيائية للعنصر (س)، وعلى هذه المنزلة أن تهيئ أسباب الفعل، فتلك الأسباب لا تعتمد على ميولنا الطبيعية.

ولا توجد منزلة إلا لو اعتقد الناس فى وجودها، ولا تكون الأسباب فعالة إلا لو قبلها الناس، وبناء على ذلك فإنه لابد من سبيل لنمثل الوضع الجديد ونعبر عنه؛ إذ لا يمكن القيام بذلك وفقا لسمات الرمز س الصريحة أو الحقائق العارية فى مرحلة ما قبل اللغة، ولا يمكن أن يرتبط ما يمثل الوضع الجديد "النقود" - مثلا - بالتصورات

الخاصة بلون ورقة مالية من فئة الدولار وشكلها وحسب، ولا يتعدى ذلك التصورات التى ترتبط باندفاع لاعب يحمل الكرة يبلغ وضع "إحراز ضربة مرمى". لأن المراتب الجديدة لا توجد إلا عن طريق العرف، فلابد من طريقة أو أخرى تعبر بها الجماعة عن قبولها العرفى لتلك المنزلة واتفاقها عليها، وإلا تعطل النسق. "ولكن لماذا يتعسر على العنصر (س) نفسه أن يكون السبيل الذى تتعارف عليه الجماعة وتتفق عليه ليمثل المنزلة الجديدة؟". والإجابة عن هذا السؤال هى أنه بإمكانه ذلك، بيد أنه لكى نسند إلى العنصر (س) أمر القيام بذلك الدور يعنى بالتحديد أن نفرض عليه منزلة لغوية أو رامزة.

لاحظ أن الوظائف التى تقتضيها المراتب تختلف عن الوظائف التى يسند أمر القيام بها بدافع من علة مسببة، وذلك بسبب اعتمادها على اللغة. فقد يعتقد المرء أن هذا مفك بدون وجود أى من الكلمات أو صيغ الأشكال اللغوية الأخرى، وذلك وحسب لأنه يمكن للمرء أن يعتقد أن ذلك الشىء يستعان به على فك أشياء أخرى. ولا حاجة بنا على الإطلاق من الناحية المنطقية إلى كلمات لكى نتعامل مع المفك أو نستخدمه بهذه الطريقة، لأن قدرته على القيام بهذا العمل إنما تصدر عن تركيب بنيته المادية الصريحة أو حقيقته العارية. ولكن فى حالة الوظائف التى تؤدى بحكم بلوغ منزلة ما، فلا نجد فى بنية العنصر (س) سمة تجعله يتلاءم مع ما يحدده له العنصر (ص) من وظيفة. ومن الناحية الفيزيائية نجد أن العنصر (س) يتطابق تماما مع العنصر (ص). والفرق الوحيد هو أننا نفرض على العنصر (س) وظيفة يكون عليه القيام بها بحكم بلوغه منزلة جديدة، هى نفسها بحاجة إلى علامات تدل عليها وتميزها، ولو اصطبغ كلامنا بطابع تجريبى لقلنا ولا شىء سوى ذلك هناك.

والخلاصة أنه: لأنه لا وجود للمستوى (ص) - عند خلق وقائع مرتبطة بالمؤسسة عن طريق الانتقال من العنصر (س) إلى العنصر (ص) - بمعزل عما يمثله ويعبر عنه، لذلك نكون فى أمس الحاجة إلى طريقة ما للتعبير عن العنصر (ص) وتمثيله. لكن كيف تتأتى لنا الوسيلة الطبيعية لتمثيله والتعبير عنه، فى مرحلة لم تبلغ اللغة، ذلك لأن العنصر (ص) لا تتوفر له السمات الطبيعية للمرحلة السابقة على اللغة. بالإضافة إلى أنه من شأن العنصر (س) أن يوفر وسائل تمثيل الأشياء والتعبير عنها. لذلك يجب أن تتوفر لنا الكلمات أو الأشكال الرمزية الأخرى لإتمام تحول العنصر (س) إلى القيام بالوظيفة التى يقتضيها بلوغ المنزلة (ص).

أعتقد أنه من الممكن أن نجعل هذه الأفكار اوضح بان نلفت النظر إلى المكانة الأخلاقية للظواهر المرتبطة بالمؤسسة. إن الحيوانات التى تتنقل على شكل قطعان بإمكانها أن يكون لديها كل ما تحتاجه من الوعى ومن التوجه الجماعى. بل يمكن أن يكون لديها تدرج فى المراتب، وذكر مهيمن؛ فيمكنها أن تتعاون فى الصيد، وتشترك فى الطعام، إلى حد أنها من الممكن أن تتوالف. لكنه من غير الممكن أن يكون لديها مؤسسة كمؤسسة الزواج أو الملكية أو النقود. فما المانع يا ترى ؟ لأن من شأن كل هذه الأمور أن تصنع أشكالا تتمتع بسلطات، وأن يكون لها حقوق، وعليها التزامات (يحددها القانون) وكذلك واجبات (تحددها الأخلاق) و....إلخ. مما تتميز به هذه الظواهر أنها تولد دوافع وعللا أخرى للفعل بعيدة عن أهوائنا. لنفترض أنى أدرب كلبى على أن يلتقط الأوراق المالية ويعيدها إلى فى مقابل الطعام، فلا يعنى هذا أنه يشترى الطعام، أولا يعنى أن الأوراق المالية هى نقود بالنسبة له. فما المانع إذن ؟ لأنه ليس بإمكان الكلب أن يتمثل أو يعبر عن البعد الأخلاقى (الأدبى) المتصل بالظواهر. قد يكون بإمكانه أن يقول لنفسه" لو أعطيته هذا سيعطينى ذلك الطعام" ، غير أنه ليس بإمكانه مثلا أن يقول لنفسه" الآن لدى الحق فى شراء أشياء". ولو تمكن شخص آخر من أن يفكر على هذا النحو لصار له الحق كذلك فى شراء الأشياء .

بالإضافة إلى أنه ليس من الممكن اختزال مثل تلك الظواهر الأخلاقية إلى شىء أولى أبسط، فإنه لا يمكننا أن نحللها أو نستبعدها بسبب مخاوفنا أو رغبتنا فى تجنب العواقب السلبية المترتبة على الإحجام عن عمل شىء. من المشهور أن هيوم Hume وكثيرين سواه قد حاولوا هذا غير أنهم لم يحالفهم التوفيق.

لقد برهنت فى هذا الفصل على أن وجود الوقائع المرتبطة بالمؤسسة بعامة تقتضى بالضرورة وجود اللغة، لأن اللغة مما يضع الأسس والمقومات الخاصة بالوقائع. دعونا نصغ السؤال بطريقة أخرى : هل من وقائع ترتبط بالمؤسسة لا تعتمد على اللغة ؟ وقائع أصلية تنطبق عليها الصيغة الرمزية س تعد بمثابة ص، حيث يفرض القصد العقلى الجماعى المنزلة ص الجديدة التى بحكمها يقوم العنصر س بالوظيفة، بل حيث لا يعتمد القصد العقلى الجماعى إلى الأشياء على اللغة ؟ حسنا، ماذا عن المثل الذى ضربناه أولا للشكل الفيزيائى للحدود (الجغرافية) والحائط الذى يئول به الأمر إلى أن يصير حدودا رمزية خالصة، أو لمجرد خط من الحجارة؟ أليس هذا مثلا على واقعة

استغنت عن اللغة؟ يعتمد هذا على الطريقة التى تنظر بها القبيلة إلى خط الحجارة ؛ إن كانت فى حقيقة الأمر لا تميل لعبور الخط،أم كانت تتجنبه بحكم العادة،عندها لن يكون هذا التصرف بحاجة إلى اللغة. يمكن على سبيل المثال تدريب الحيوانات- وهى مخلوقات لم تبلغ مرحلة اللغة - على عدم عبور حدود بعينها، ومن شأن الكثير من أنواع الحيوانات امتلاك وسائل طبيعية مدهشة التنوع لتعيين علامات الحدود. لقد كتب بروم Broom قائلا : " إن تعيين حدود منطقة بعينها يمكن أن يتم عن طريق وجود علامة لدى الأسماك التى تنظف البيئة البحرية وغيرها من أسماك الشعاب المرجانية، أو يكون عن طريق إصدار أصوات يصدرها الكثير من الطيور، أو يكون عن طريق إفراز روائح يعلّم بها كثير من الثدييات مناطق حدودها، أو يكون عن طريق إصدار نبضات كهربية تعين بها الأسماك المضيئة مناطق حدودها(1). لو أن القبيلة التى تخيلناها لم ترغب فى عبور الحدود وحسب بدافع من ميول أبنائها، لما كان بالنسبة لديها ـ بالمعنى الذى قد أشرنا إليه - واقعة من الوقائع المرتبطة بالمؤسسة، وإنما كان هذا ببساطة نزوعًا للتصرف بطرق بعينها. ويشبه سلوكها وحسب حال الحيوانات التى تعلّم حدود منطقتها. مثل هذا التحديد عن طريق العلامات لا صلة له بالأخلاقيات. فالحيوانات تتصرف فى سلوكها على ذلك النحو أو سواه، وكلمة تتصرف هنا إنما تعنى أنها تحرك ببساطة أجسادها بطريقة بعينها.

لكن لو افترضنا أن أعضاء القبيلة أدركوا أن خط الحجارة يمنح حقوقا و يفرض التزامات تحظر عليهم عبور الخط الذى من غير المفترض لهم أن يعبروه، لصار هذا فعلا من أفعال الترميز. فالحجارة ترمز الآن إلى شىء يتجاوزها ؛ إنها تقوم بوظيفة الكلمات. ولا أظن أن هناك خطا فاصلا بين ما يرتبط بالمؤسسة وما لا يرتبط بها، أو بين ما هو لغوى وما لم يبلغ بعد حد اللغة. غير أننا لابد أن نرى فى اللغة سبيلا لوضع الأسس لإقامة الظواهر، فى حدود ما نعتقده فى أن الظواهر فى حقيقتها هى وقائع مرتبطة بالمؤسسة، وليست مجرد أشكال مشروطة للسلوك المعتاد. لأن الخطوة التى نقوم بها حين نفرض الوظيفة ص على الموضوع س هى فعل من أفعال الترميز.

بالرغم مما قدمنا يبدو أن نقاشنا قد بلغ طريقا مسدودا. لقد ذكرت أن وجود الوقائع المرتبطة بالمؤسسة يقتضى بالضرورة وجود اللغة، لأن اللغة تضع أسس إقامة الوقائع. بيد أن الوقائع اللغوية بدورها من الوقائع المرتبطة بالمؤسسة. مما يجعل الأمر يبدو كأنما تحتاج اللغة إلى لغة. ألا يؤدى بنا ذلك إلى أن نظل نعود من حيث بدأنا بلا نهاية ؟ لقد برئنا من الاتهام الأولذ بما يبدو ظاهريا شكلا من أشكال الدوائر المفرغة عند تحديد مفاهيم كالمفاهيم الخاصة بالنقود، مما استدعى اللجوء إلى ذكر تلك المفاهيم نفسها بوصفها جزءا من التعريف ذ وذلك بأن وسَّعنا الدائرة لتشتمل على مفاهيم أخرى ترتبط بالمؤسسة. فكيف تم لنا ذلك ؟

قد لا تبدو الإجابة المختصرة عن هذا السؤال إجابة شافية، فاللغة ليست بحاجة إلى لغة لأنها هى فى ذاتها بالفعل لغة. والآن دعونى أشرح ما يعنيه ذلك. تتساوى الحاجة إلى وجود علامات لغوية تدل على الوقائع المرتبطة بالمؤسسة مع الحاجة إلى وجود طريقة يتعارف عليها أعضاء المؤسسة للإشارة إلى أن العنصر س يعد الآن بمثابة ص. وما دام ليس من خصائص العنصر س الفيزيائية ما يؤهله للقيام بالوظيفة التى يتيحها له بلوغ المنزلة ص، ومادام قد اكتسب تلك المنزلة بناء على اتفاق الجماعة على قبوله، وما دام لتلك المنزلة خصائص أخلاقية أدبية ليست من باب الخصائص الفيزيائية، فليس بوسع تلك المنزلة أن توجد دون علامات دالة عليها. من هذه العلامات ما يضع الآن الأسس لبلوغ المنزلة. أى إنه من الضرورى أن توجد علامة ما تدل على أن اللاعب الممسك بالكرة قد اخترق خط مرمى الفريق الخصم، وأن هذا الاختراق يعد ضربة مرمى أى بمثابة إحراز ست نقاط. وبدون هذه العلامة لا نجد فى خصائص هذا الوضع الفيزيائية ما يشير إلى ذلك. وليست هذه مسألة إبستمولوجية بل مسألة أونطولوجية . ومن الواضح أنه ليس فى التركيب الكيميائى لقطعة من الأرض ما يجعل لها وظيفة استمدتها من مكانتها بوصفها من ممتلكاتى. ولا شىء فى التركيب الكيميائى لتلك القطعة من الورق ما يجعلها ورقة مالية من فئة عشرين دولارا. لذلك لابد لنا من بعض الأشكال الرمزية كى تشير إلى تلك الوقائع التى تربطها بالمؤسسة. ولكن ماذا عن تلك الأشكال الرمزية نفسها.؟ كيف تتخذ الطابع الرمزى ؟ لو كان صحيحا، كما هو بالتأكيد، أنه لا شىء فى تركيب قطعة الورق الفيزيائى ما يجعلها ورقة مالية فئة خمسة دولارات ، كما أنه لا شىء كذلك فى تركيب قطعة الأرض الفيزيائى يجعلها من

ممتلكاتى، فإنه من الصحيح كذلك أنه لا شىء مما ينتسب إلى الطبيعة السمعية للصوت الذى أنطق به،أو من الطبيعة الفيزيائية للعلامات التى أضعها على الورق يجعل منها كلمات، أو أى نوع آخر من أنواع الرموز.

ولا سبيل لحل هذا اللغز سوى أن نرى أن اللغة قد وضعت لتعبر عن صنف من الوقائع المرتبطة بالمؤسسة يدل على ذاته. فالطفلة تنشأ داخل ثقافة تتعلم فيها أن تتعامل مع الأصوات الصادرة من فمها ومن أفواه الآخرين بوصفها تعنى شيئا أو تمثله. وهذا ما كنت أرمى إليه عندما قلت إن اللغة لا تحتاج إلى لغة كى تكون لغة لأنها لغة بالفعل. لكن ألا يدفع بنا هذا السؤال إلى أن نتراجع عن أفكارنا ؟ لماذا ليس بإمكان كل الوقائع المرتبطة بالمؤسسة أن يكون لها ما للغة من خاصية تدل بها على ذاتها؟ لماذا ليس بإمكان الطفلة أن تنشأ على تصور أن هذا وذاك ملكية خاصة لكذا وكذا، أو على تصور أن ذلك الشىء المادى نقود ؟ والحقيقة أن بإمكانها أن تفعل ذلك. ولكنها بقدر ما تفعل ذلك بالتحديد، يكون تعاملها مع الأشياء مرتبطا برؤيتها هذه الأشياء بوصفها ترمز لأمور تتجاوزها لما هو أبعد منها؛ أى إن الطفلة تتعامل معها على الأقل بوصفها فى جزء منها ذات طبيعة لغوية.

إن الانتقال من الفطرى الخالص إلى بلوغ المنزلة التى ترتبط بالمؤسسة هو فى حد ذاته انتقال لغوى، لأن العنصر س الآن يرمز إلى شىء يتجاوزه هو ذاته إلى شىء أبعد منه. بيد أن ذلك الانتقال الرمزى بحاجة إلى الأفكار. فلابد من وجود وسيلة للتفكير ننتقل بها من العنصر س إلى الوظيفة التى يمكن القيام بها بمقتضى بلوغ المنزلة ص. أى لابد لنا من شىء نفكر به. فالسمات الفيزيائية للعنصر س لا تكافئ مضمون الفكرة، بينما يمكن أن يكون أى شىء يتعارف الناس على استخدامه فى التفكير أداة من أدوات التفكير. والكلمات أفضل ما يستعان به فى التفكير،لأن مهمة التفكير جزء مما وضعت له اللغة. فمن شروط الكلمات أن تعيننا على التفكير عن طريقها. لكن فى مقدورنا قطعا أن نقول إن أية علامة يتعارف عليها الناس بإمكانها أن تقوم بهذا الدور .وبالرغم من أنه يتيسر لنا التفكير عن طريق اللغة، فإنه يشق علينا أن نتخذ الناس أو الجبال وما سواها وسائل نفكر بها، ذلك لأنه يتعلق بها كثير جدا مما لا صلة له بالتفكير، كما أنه يتعسر علينا للغاية أن نتحكم فيها. من أجل هذا نستخدم الكلمات الحقيقية، أو نستعين بما يشبه الكلمات من علامات لتكون وسائل للتفكير.عن طريق الكلمات بمقدورى أن أقول " ذلك العقار ملكى" و"هو رئيس الجلسة"...إلخ، بيد أن كلمات من مثل "ملكية" و"رئيس" لا تمثل أشياء تنتمى لمرحلة ما قبل اللغة،على غرار تعبير "نجمة

المساء" حين يمثل نجمة المساء. فى بعض الأحيان نضع علامات او رموزا تدل على العنصر (س) نفسه؛ كأن تقول إحدى العلامات مثلا "هذه الورقة المالية التزام قانونى بسداد كل أنواع الديون العامة و الخاصة ". ولكن هذا المثال على الأقل يمثل فى جزء منه إعلانا أوتصريحا ينص على أنه: يخلق منزلة ترتبط بالمؤسسة من خلال تصويرها فى وضع قائم يدل على وجودها. فهو لا يمثل ظاهرة طبيعية بوسائل لم تبلغ بعد مرحلة اللغة. يمكننا أن نتناول الشىء الذى ينطبق عليه العنصر (س) نفسه بوصفه شيئا قد أكسبه العرف وظيفة بمقتضى بلوغه المنزلة (ص)، على غرار ما نفعل مع العملات حين يكون بمقدورنا أن نتخذها نقودا، أو خط الحجارة حين نتخذه حدودا. ولو سلمنا بهذا فإنه يعنى بالفعل أن نجعل لها وضعا لغويا يعهد إليها بأمر القيام بوظيفة أو دور ويجعل منها رموزا تعارف عليها الناس لترمز إلى أشياء تتجاوزها لما هو أبعد منها ؛ فهى ترمز إلى وضع أدبى أخلاقى يتجاوز طبيعتها الفيزيائية. وكل الحالات التى يمكننى التفكير فيها حيث يحيل الرمز (س) إلى ذاته، لها نفس السمات الأصلية للكلمات : سواء أكان ينطبق عليها ما يميز نمط العلامة الرمزية البديلة التى تحل محل علامة أخرى، أم كانت العناصر (س) من الممكن التعرف عليها على الفور، ومن السهل أن ينصرف الذهن إليها، وقد تعارفنا على أن ترمز إلى وظيفة تؤدى بمقتضى بلوغ المنزلة (ص).

إلى جانب الكلمات، هناك الكثير من العلامات التى تعمل عمل الكلمات تماما، قد تعارف عليها الناس من قبل أن توجد اللغة حتى وقتنا الحاضر. وأمامنا أمثلة كثيرة على ذلك نذكر ستًا منها : فقد كانت راحة الكف اليمنى للمجرمين فى العصور الوسطى تحمل علامة تكوى بالنار لكى يمكن تمييزهم بيسر، ولعل هذا يفسر تقليد رفع الكف اليمنى عند أداء القسم فى ساحة القضاء، كى يثبت من يؤدى القسم طهارة ذيله (أو يده) للحضور. ويحلق الرهبان دائرة من شعر أعلى الرأس علامة على كونهم رهبانا. والملوك يلبسون تيجانا، والمتزوجون يلبسون خواتم الزواج، وقطعان الماشية تختم جلودها، وكذلك يلبس كثير من الناس أزياء بعينها علامة على منزلتهم الاجتماعية.

لقد أسفر النقاش فى هذا الفصل برمته عن نتيجة غريبة، لا أرتاح تماما إليها، وهى أن الانتقال من (س) إلى (ص) هو بالفعل انتقال ذو طبيعة لغوية، لأنه بمجرد أن نفرض وظيفة على العنصر (س) ترمز إلى شىء آخر ؛ هو الوظيفة (ص). ولا يحدث

ذلك الانتقال إلا إذا تصورته الجماعة وعبرت عنه.فالتعبير عن الوظيفة وتمثيلها بشكل جمعى يجعلها عامة وعرفا، يحتاج إلى وسيلة ما للإشارة إليها. ومجرد إنعام النظر فى الخصائص التى يتسم بها العنصر (س) وتخيلها لن يفى بالغرض. لذلك نحن نحتاج إلى كلمات من مثل " نقود" و"ملكية"..إلخ، أو إلى رموز تشبه الكلمات على غرار ما قد فرغنا توا من الإشارة إليه. وفى أضيق الحدود، نحن بحاجة إلى أن نتناول حالات تعارف عليها الناس تعبر فيها العناصر س نفسها عن الوظيفة. ولكى يكون بمقدورنا أن نحقق ذلك لابد من وجود الكلمات أو الرموز نفسها، أو ما يشبه الكلمات، بالقدر الذى تعد فيه العناصر (س) أشكالا تمثل صورا عرفية للوظيفة ص من جانب، و تمثل كذلك الانتقال من (س) إلى (ص) من جانب آخر.

ونخلص إلى أن القدرة على إدراك معنى، أى وظيفة رمزية، لشىء لم يكن له ذلك المعنى أصلا هو شرط أساسى للغة، بل لإقامة سائر أشكال الوقائع المرتبطة بالمؤسسة. فالقدرة على الترميز فى المراحل السابقة على المؤسسة هى شرط إمكان إقامة كل المؤسسات الإنسانية. وفى سياقات بعينها تتألف من النطق بمجموع أصوات "ا ل ق ط ة ف وق ا ل ب س ا ط" عبارة "القطة على العتبة".وفى سياقات بعينها يعد عبور خط مرمى الفريق الخصم حال الإمساك بالكرة تسجيلا لضربة مرمى تحتسب بست نقاط فى هذا النوع من مباريات الكرة. وكلاهما من الحالات التى تخلق فيها الوقائع المرتبطة بالمؤسسة بناء على الصيغة الرمزية المذكورة. والفرق بين الحالين يكمن فى أن إنشاء فعل كلام يعنى خلق شىء له طاقات أرحب على التعبير والتمثيل، غير أن إحراز ضربة المرمى فى المباريات لا يمثل أو يعبر عن أمر يتجاوزها هى ذاتها لما هو أبعد منها. من الممكن أن تكون العبارات صادقة أو كاذبة، وضربة المرمى ليس لها خصائص دلالية semantic properties.

كذلك تقتضى علاقة التمثيل التى تربط بين شيئين وجود موضوع مستقل عن الرمز الذى يمثّله. غير أن الربط بين معنى ما وموضوع ما- بناء على وجود القواعد التى تضع الأسس كما لسنا فى حالة الواقع المرتبط بالمؤسسة فى أبسط صوره - هو السبيل إلى إيجاد الفئة الملائمة من الموضوعات ، من بين ما يمكن أن يشتمل عليه المشار إليه من الموضوعات الممكنة.فلا تصنع الرموز القطط والكلاب، ولا نجمة المساء؛ ولكن تتيح المجال وحسب لإمكان الإحالة على القطط والكلاب ونجمة المساء، على النحو الذى

ييسر للعامة فهمها. لكن الترميز يمنحنا أصنافا متناوتة من الموجودات- كالنقود، والممتلكات، والنقاط المسجلة فى المباريات، والمناصب السياسية.إضافة إلى طائفة أخرى من مثل الكلمات، وأفعال الكلام. وبمجرد إيجاد صنف ما على غرار تلك الأصناف تتضح لنا الفروق المميزة الخاصة بالمعنى أو الإشارة نفسها، تلك التى ميزت نجمة المساء...إلخ. ومن ثم يمكن أن نفلح أو نخفق فى أن نشير إلى " ضربة المرمى التى قام بها اللاعب المسك بالكرة حين اخترق خط مرمى الفريق الخصم محرزا ست نقاط فى نهاية الشوط الرابع "أو إلى" رئيس الولايات المتحدة الأمريكية" بالطريقة نفسها التى يمكن بها أن ننجح أو نخفق فى الإشارة إلى " نجمة المساء ". غير أن الفرق يكمن فى أن إيجاد هذه الفئة من مثل" تسجيل ضربات المرمى " أو" رؤساء الدول" قد تميز بالفعل عن طريق وجود أبنية أو تراكيب ربطنا على أساسها بين العنصر س وأداء وظيفة بمقتضى بلوغ منزلة ما،لأن تلك الخصائص إنما توجد على صلة بهذه المنزلة وما يترتب عليها من وظائف.

ولنتأمل الأمر على النحو التالى : المعنى الذى يمثله ويعبر عنه الصوت (ق- ط- ة) "قطة " هو ما تصوره قطعة من الورق وظيفتها أن تمثل قيمة الدولار. وعلى الرغم من ذلك فلهذه الأصوات وظيفة إشارية لا تحظى بها تلك القطعة من الورق ؛ إذ يمكن أن تقع هذه الأصوات فى جمل يشير فيها المتحدث حين ينطق بها إلى قطة، بينما لا تشير القطع الورقية- حتى لو كانت أوراقا مالية من فئة الدولار- بالطريقة نفسها. غير أن تداول قطع ورقية بوصفها عملة من فئة الدولار يبعث على وجود صنف من الأشياء ما كان ليوجد لولا هذا الاستخدام. ولكى يوجد هذا الاستخدام لابد من أن يرى الناس فى تلك القطعة الورقية" ورقة مالية من فئة الدولار " ولا يمكنهم التفكير فى ذلك دون وجود كلمات أو رموز أخرى، حتى إن كان الرمز الوحيد المطروح هو الشىء نفسه.

وظائف أخرى للغة فى إطار الوقائع المرتبطة بالمؤسسة

لقد بلغ نقاشنا درجة عالية من التجريد، وقد وجه عنايته إلى شروط إمكان خلق واقع لغوى أو غير لغوى. فلو تأملنا بعضا من اللغات الطبيعية بالفعل كالفرنسية أو الألمانية ، ولو شهدنا التعقيد الفعلى الذى بلغته المؤسسات الاجتماعية، لأمكننا أن نلمس عدة أسباب أخرى توضح لماذا يقتضى وجود الوقائع المرتبطة بالمؤسسة بالضرورة وجود اللغة؟

اولا : من وجهة النظر الإبستمولوجية لا غنى لنا عن اللغة

لقد ذكرنا عن بنية الوقائع المرتبطة بالمؤسسة أننا نفرض على س وظيفة جديدة تؤديها بمقتضى بلوغها المنزلة ص، ولا تقوم س بما يسند إليها من وظائف بفضل بنائها الفيزيائى وحسب.

ولكن كيف يتأتى لنا أن نقول أى الموجودات قد فرض عليها القيام بتلك الوظيفة التى اقتضاها بلوغ تلك المنزلة؟ من بين الكثير من الوظائف المفروضة، لعله من السهل أن نعرف أى الأشياء كراس، وأيها موائد، وأيها شواكيش، وأيها مفكات، لأنه من الممكن أن تستنتج الوظيفة من البنية الفيزيائية. لكن عندما ننتقل للنقود، والأزواج، و أساتذة الجامعة، والممتلكات الخاصة، نجد أنه ليس بمقدورنا أن نعرف المنزلة التى قد بلغتها من التركيب الفيزيائى. إذ يقتضى أن نتخذ قصاصة ورقية ما عملة مالية وجود لغة أو رمز يعبر عنها. وفى الفصل التالى سيكون لدينا الكثير مما نقوله عن تلك السمات عندما نناقش ما يسمى" المؤشرات الدالة على بلوغ المنزلة".

ثانيا: لأن الوقائع المرتبطة بالمؤسسة فى الأصل وقائع اجتماعية لابد أن يكون من الممكن تناقلها والإبلاغ بها

لكى تقوم الأنظمة بوظيفتها لابد أن تكون الوقائع حديثة العهد قابلة لأن يتناقلها الأشخاص، حتى لو كانت تخفى على العين المجردة. لكى يتمكن النظام من القيام بوظيفته لابد من أن يكون بمقدورك أن تبلغ الناس أنك متزوج، و أنك رئيس الجلسة، وأن الجلسة قد رفعت. حتى فى النماذج البسيطة من الوقائع المرتبطة بالمؤسسة، يقتضى ذلك التواصل أن تتوفر وسيلة اتصال جماهيرية، أى يقتضى وجود لغة.

ثالثا : يقتضى وجود هذه الظواهر بالغة التعقيد فى عالم الواقع، والرغبة فى تمثيل تلك المعلومات المعقدة وجود اللغة.

نجد أبسط أفعال الشراء والبيع على درجة عالية من التعقيد، كما قد رأينا فى المثل الذى ضربناه لطلب البيرة فى المقهى فى أول الكتاب، لأن بنية الوقائع لا تتجلى إلا

بقدر ما نمثلها ونعبر عنها، فوجود وقائع معقدة يقتضى وجود نظام معقد يمثلها ويعبر عنها؛ واللغات هى ذلك النظام.

رابعا: لهذه الوقائع من الاستمرار، على مر الزمن، ما يجعلها بمعزل عن دوافع أعضاء المؤسسة ومواقفهم.

إن استمرار وجود تلك الوقائع يقتضى بالضرورة وجود وسيلة تعبر عنها وتمثلها، بمعزل عن الحالات النفسية لأعضاء الجماعة البدائية المرتبطة بما قبل اللغة، وهذه الأشكال من التعبير التى تمثل بها الجماعة هذه الوقائع هى أشكال لغوية.

هوامش الفصل الثالث

(1) Donald M. Broom, The Biology of Behavior: Mechanisms, Functions and Applications (Cambridge: Cambridge University Press, 1981), p. 196-197.

الفصل الرابع

النظرية العامة للوقائع المرتبطة بالمؤسسة

أولاً: تكرار التراتب، والتفاعل، والبنية المنطقية

تعميم التحليلات

قدمت فيما سبق عرضا تمهيديا للوقائع المرتبطة بالمؤسسة، استعنت فيه بنموذج النقود مثلا أكثر مما استعنت فيه بسواها من الأمثلة، مؤكدا الدور الذى تلعبه اللغة، خاصة فى الواقع المرتبط بالمؤسسة. وسوف أستخدم الأدوات التى قد أجملتها لأقدم معالجة لا تتناول النقود فحسب، بل تتناول كذلك أمثلة أخرى كالزواج، والملكية، والإلحاق بالوظائف والفصل منها، والحروب، والثورات، وحفلات الكوكتيل، والحكومات، والاجتماعات، والاتحادات، والنقابات، والبرلمانات، والقوانين، والمطاعم، والإجازات، والمحامين، وأساتذة الجامعة، والأطباء، وفرسان العصور الوسطى، والضرائب. ولا أدرى كيف أحكى قصة كل واحد منها ببساطة كما حكيت قصة المال. غير أنى قد ألجأ بهدف التعميم إلى انتهاج ما قد انتهجته من قبل، مع إضافة قدر من النظر الثاقب المتعمق على الأقل، فى أمرين أساسيين للمادة التى قدمناها فى الفصول السابقة

أولا : يمكن أن تتكرر الصيغة الرمزية " (س) تعد بمثابة ص فى السياق أو بشرط (ع) " تكرارا متراتبا.

بمقدورنا أن نفرض وظائف تؤدى بمقتضى مراتب أو أوضاع على موجودات قد فرض عليها بالفعل من قبل ذ وظائف تؤدى بمقتضى بلوغ منزلة ما. من هنا يكون العنصر س فى مستوى ما هو ما كان يعد بمثابة ص فى مستوى آخر سابق عليه. أى إن مواطنا من مواطنى الولايات المتحدة الأمريكية مثلا يمثل العنصر س بمقدوره فحسب أن يصير رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية أى يعد بمثابة ص، غير أنه لكى يكون مواطنا أمريكيا، عليه أن يحظى أولا بوظيفة تؤدى بمقتضى بلوغ منزلة فى مستوى

سابق يعد عن طريقتها بمثابة مواطن أمريكى أولا. ويمكننا أن نعرض هذه الوظائف المستمدة من المراتب ؛ حيث يحدد العنصر ع سياقا يقتضى بلوغ المنزلة ووظائفها، التى كانت قد فرضت بالفعل من قبل. وهنا يمكن للعنصر ع - فى مستوى أعلى - أن يكون العنصر ص من مستوى أدنى أسبق. وبناء عليه فإن أى حفل زفاف مثلا يقتضى بالضرورة حضور شخصية رسمية تترأسه بوصفها السياق أو الشرط ع، غير أنه لكى يكون لهذه الشخصية تلك السلطة وذلك النفوذ لابد لها أولا من أن تكون قد حظيت من قبل بمنزلة بحكمها تؤدى الوظيفة الخاصة بـ ص. علاوة على أنه يمكننا أن نفرض أوضاعا تقتضى أداء وظائف على أشياء كان من وظيفتها أن تعبر عن فرض تلك الأوضاع وما لها من وظائف، أى أن نفرضها على أفعال الكلام. فمثلا نجد أنه لكى يكون س تعد بمثابة تعهد بالقيام بـ ص وعدا لابد له من أن يكون قد حظى من قبل فعلا بالمنزلة وبوظيفتها التى تجعل العنصر س يعد بمثابة ص فى مستوى أدنى. بالإمكان أن نقول بلا مبالغة إن تلك التكرارات iterations المتراتبة تجعل من بنية المجتمعات المعقدة بنية ذات تركيب منطقى.

ثانيا: لهذه الأبنية التى يتخذ تكرارها بمرور الزمن طابع بنية متراتبة أنظمة متواشجة.

إن تكرار بنية الوظائف ومعاودتها تكرارا متراتبا يؤدى بحكم بلوغ منزلة ما، لا يحدث فحسب بمرور الزمن؛ ذلك أن أداء الوظائف يستدعى تفاعلا مستمرا بين هذه الوظائف بعضها مع البعض الآخر على مدى فترات زمنية ممتدة. إذ لا يكون فى حوزتى مثلا مبلغ من المال فحسب، بل يكون فى **رصيد حسابى** بالبنك من **المال** ما **أنفقه** عن طريق كتابة **شيك لدفع** ما على من **الضرائب القومية والمحلية**، **بوصفى مواطنا** من مواطنى الولايات المتحدة الأمريكية، **وبوصفى موظفا** أقيم **إقامة** متصلة بولاية **كاليفورنيا**. إن كل الحروف المسودة فى العبارات السابقة تعبر عن مفاهيم مرتبطة بالمؤسسة والوقائع التى أصفها يقتضى جميعها وجود أنظمة من القواعد التأسيسية التى تضع الأسس وتوفر المقومات التى تكتسب فعاليتها بمرور الزمن.

لكى نأخذ فى التحليل، دعونا نحك قصة عن الزواج والملكية على غرار قصتنا عن النقود. فقد صدرت تلك المؤسسات وسواها عن وقائع مادية محضة وعن وقائع قصد فيها الوعى إلى الربط بينها والمعايشة والامتلاك الواحد تلو الآخر. تبدأ مسألة

الامتلاك بأنى قد حصلت على هذا، وأنه قد صار منسوبا إلىّ. أما الزواج ببساطة فيبدأ بأناس يعيش الواحد منهم مع الآخر، وفى حالة الزواج بزوجة واحدة أو بامرأة واحدة طول العمر، يستأثر الواحد منهما بمعاشرة الآخر. فلم لا نقنع بتنسيق الأوضاع على هذا النحو؟ لم لا يكفى أن أمتلك هذا بمعنى أن أتحكم فيه جسديا، ولماذا لا يكفى أننا نعيش معا فحسب؟ حسنا، قد يكفى هذا بعض الناس، وبعض المجتمعات البسيطة؛ غير أن الكثيرين منا يعتقدون أنه من الأفضل لو وجد نظام يعترف اعترافا جمعيا بالواجبات والحقوق والمسئوليات والالتزامات والسلطات، بالإضافة إلى - أو فى آخر الأمر الاستعاضة بـ ـ الامتلاك الجسدى والمعاشرة الجسدية المحضة brute physical possession لأمر ما : يمكن أن يكون لدينا نظام من التوقعات أكثر استقرارا، لو أضفنا إليه تلك الوسائل الأخلاقية. ولأمر آخر، ليس علينا أن نعتمد على قدرة المادة الفطرية المحضة على أن تعزز أشكال تنظيمها، ولأمر ثالث ، يمكننا أن نحتفظ بأشكال التنظيم، حتى لو غاب عنا التركيب المادى الطبيعى الأصلى. فالناس على سبيل المثال يمكن أن يستمروا فى الزواج على الرغم من أنهم لا يعيش بعضهم مع البعض الآخر لسنوات، كما يمكنهم أن يحتفظوا بممتلكاتهم على الرغم من ابتعاد ممتلكاتهم عنهم.

وأيا كانت المزايا والمساوئ، فأشد أشكال التنظيم الأولية المنطقية قد استحالت إلى تراكيب أبنية ترتبط بالمؤسسة، لها وظائف مستمدة من مراتب تعترف بها الجماعة، تماما كما حدث بالنسبة للنقود عندما فرض وعينا الجمعى الموجه والقاصد وظائف جديدة بناء على بلوغ منزلة جديدة، على أشياء ما كان بمقدورها القيام بتلك الوظائف دون أن تفرضها عليها الجماعة. وعلى الرغم من ذلك فمن السمات الخاصة بهذه الحالات أن الوظيفة غالبا ما يفرضها أداء فعل كلام صريح. وفى مثل تلك الحالات يعد فعل الكلام نفسه شاهدا على فرض وظيفة تؤدى بناء على بلوغ منزلة، على وظيفة سابقة تؤدى بمقتضى بلوغ منزلة أخرى. وقد استخدم هذا الفعل لإيجاد وظيفة جديدة تؤدى بمقتضى بلوغ المنزلة أو لاستبدال الوظيفة الجديدة بوظيفة قديمة كانت تؤدى بمقتضى بلوغ منزلة قديمة. ومن ثم يتألف حفل الزفاف مثلا من سلسلة من أفعال الكلام، غير أن الاحتفال فى هذا السياق يصنع كيانا جديدا ندعوه الزواج، ووجود الزواج بدوره يفرض وظائف جديدة - بمقتضى ما له من منزلة - على عناصره الأساسية التى ندعوها "الزوج" و"الزوجة" .وللقيام بذلك لابد أن يكون لأفعال الكلام

وظائف مستمدة من بلوغ منزلة، تتجاوز المعنى الحرفى للكلمات المعلومة، التى لها فى ذاتها وظيفة، مستمدة مما تحظى به الكلمات نفسها من منزلة.

دعونا نستكشف أبعاد هذه المسألة فيما يخص حالة الزواج، ونتناولها بشىء من التفصيل. والخطوة التالية فى استخراج وقائع يتدرج ارتباطها بالمؤسسة من ظواهر بيولوجية أولية عن طريق فرض وظائف تؤدَى بمقتضى بلوغ منزلة ما، لا على الأشياء التى لا تتصل مادتها الطبيعية بأدائها الوظيفة فحسب، بل بفرضها على أشياء لها بالفعل وظائف قد فرضت من قبل عليها، وأخص بالذكر منها أفعال الكلام. إذ تستخدم أفعال الكلام تلك فى فرض وظائف جديدة بمقتضى مراتب جديدة على أشياء ليست من صنف أفعال الكلام، كأن تفرض مثلا على الناس. ومن ثم فالعنصر س فى الصيغة الرمزية " س تعد بمثابة ص فى السياق أو بشرط ع " يمكن أن يكون حقا فعلا من افعال الكلام. تأمل مثلا نوع أفعال الكلام التى يؤديها الناس فى حفل الزفاف. فأداء هذا وذاك من أفعال الكلام (العنصر س) أمام شخصية رسمية تترأس الحفل (العنصر ع) يعد بمثابة عقد قران (العنصر ص). وترديد هذه الكلمات نفسها فى سياق آخر؛ عند ممارسة الحب مثلا، لا يتوفر فيه العنصر المؤسس للزواج.إن العنصر ص الآن يسند لأفعال الكلام تلك وظيفة جديدة بحكم هذه المنزلة (تحقيق عقد القران). فالوعود التى يقطعها الحاضرون على أنفسهم فى حفل الزفاف توجد حقيقة جديدة ترتبط بالمؤسسة هى حقيقة الزواج، لأنه فى هذا السياق يعد قطع هذه الوعود بمثابة "عقد القران". علاوة على ذلك فمسألة الشخصية الرسمية التى تترأس القران تحدد سياقا بعينه هو السياق ع، الذى قد نتج بدوره عن وظيفة كانت قد فرضت بالفعل من قبل. إن فكرة الشخصية الرسمية فى مجملها هى مسألة خاصة ببلوغ المنزلة المرتبطة بالمؤسسة،التى بمقتضاها كان قد أسند إلى فئة بعينها من الناس أمر القيام بهذه الوظيفة، وذلك بناءً على الصيغة الرمزية س تعد بمثابة ص فى السياق أو بشرط ع. وفى هذه الحال فإن الشخصية الرسمية التى تترأس حفل الزفاف (وبدونها لا يتم عقد القران) هى العنصر ع، غير أنها هى نفسها (فى الوقت نفسه) إحدى نتائج عنصر ص سابق، وإنما فرض عليه وظيفة بمقتضى بلوغه منزلة جديدة أو بديلة.

لو صح اعتقادنا بالتطابق بين مؤسسة الزواج وعدة مؤسسات اخرى، لكان إيجاد عدد كبير من الوقائع المرتبطة بالمؤسسة بالضرورة ذا تركيب متدرج. لذلك نجد – من

خلال عرضنا الشاهد الخاص بنموذج الزواج أن إصدار نوع بعينه من الجلبة ، يعد بمثابة النطق بجملة إنجليزية، والنطق بجملة إنجليزية بعينها فى ظروف بعينها يعد بمثابة قطع عهد على النفس، وقطع عهد على النفس فى ظروف بعينها يعد بمثابة تعاهد، و التعاهد من نوع بعينه يعد زواجا. ومن هنا نجد أن حفل الزفاف يفضى بنا إلى إيجاد واقعة ترتبط بالمؤسسة هى الزواج، ويتم هذا عن طريق فرض وظيفة على مجموعة من أفعال الكلام. بيد أن الزواج يفرض على طرفيه منزلة جديد ومن ثم وظيفة جديدة ؛ إذ يصير طرفاه الآن زوجا وزوجة، وهذا - شأن الزواج نفسه - بوصفه إحدى الوقائع المرتبطة بالمؤسسة.

أرجو أن تكون هذه الأمثلة قد أوضحت لنا طبيعة النموذج الآخذ فى التشكل. والأسئلة الحاسمة التى تلح علينا فى هذا الموضع هى : ما هى بالتحديد الوظائف التى يتم فرضها بحكم بلوغ منزلة ما ؟ وعلى أى شىء تفرض؟ فى مجال اللغة والنقود نجد الإجابة بسيطة نسبيا، فبالنسبة للغة نجد المراتب اللغوية تفرض على أنماط من الأصوات والعلامات المميزة، وبالرغم من أن وظائف اللغة متعددة، يتصدر الوظائف الأولية الوظائف الخاصة بتمثيل الوجود ووصفه من خلال أنماط أفعال الكلام المتنوعة(١).

أما بالنسبة للنقود ، فعلى هذا النحو تماما تُفرض مراتب على قطع ورقية ومعدنية، نسند إليها أن تقوم بوظيفة وسيط للتبادل، ومستودع للاحتفاظ بالقيمة... إلخ. نلاحظ أن الوضع فى حالة الزواج يعد نسبيا أكثر تعقيدا ؛ فالمنزلة قد فُرضت من قبل على مجموعة من أفعال الكلام تحقق عقد القران، غير أن أفعال الكلام تلك تؤدى إلى إيجاد واقعة جديدة، هى الزواج. ومرة أخرى نجد أن الزواج نفسه يفرض وظائف ترتبط ببلوغ طرفيه منزلة تجعل منهما زوجا وزوجة، لهما مجموعة من الحقوق وعليهما مجموعة من الواجبات والالتزامات. يعد هذا النموذج الذى نقدمه الآن ؛ نموذج إيجاد واقعة جديدة ترتبط بالمؤسسة يتم عادة من خلال أداء أفعال الكلام؛ حيث يفرض فعل الكلام نفسُه وظيفة على الناس وعلى المبانى وعلى السيارات و.... إلخ، يعد من الخصائص التى تميز عددا كبيرا من المؤسسات الاجتماعية. كما نجده ينطبق كذلك على نموذج الملكية، والمواطنة، ورخص القيادة، والكاتدرائيات، وإعلان الحروب، وجلسات البرلمان. فى هذا النموذج ببساطة: نحن نوجد واقعة جديدة ترتبط بالمؤسسة كالزواج مثلا،

باستخدام شىء (أو أشياء) ذات وظائف يؤديها [illegible] فالجملة مثلا : إذ يمثل وجودها فى ذاته إحدى الوقائع المرتبطة بالمؤسسة، لأنها تشكل نمطا من أنماط أفعال الكلام، يعد القيام به فى ذاته واقعة أخرى من الوقائع المرتبطة بالمؤسسة.

دعونا نطبق ما ذكرنا على المثل الخاص بالملكية. نحن كالعادة بحاجة إلى أن نميز بين المؤسسة بعامة، وشواهد أخرى على غرار أشكال رمزية بديلة بعينها، أو علامات رمزية، أو مواضع يسرى فيها مفعول المؤسسة. وأن نميز بين الصيغة الرمزية العامة "س تعد بمثابة ص فى السياق أو بشرط ع" وشواهد بعينها تنطبق عليها هذه الصيغة الرمزية. وكما كنت قد ذكرت آنفا، أن الملكية تبدأ بامتلاك المادة الطبيعية الخالصة. ومن بين أنظمة قانونية عدة أخص بالذكر منها ما يتعارف عليه المجتمع الإنجليزى ويقبله خارج نطاق القانون السائد وتلك الأنظمة الشرعية المتأثرة به. ثمة فارق حاسم يميز بين الامتلاك الحقيقى والملكية الخاصة. ففى بلدان كثيرة للملك وحده حق امتلاك الأرض. ومن الفروق الحاسمة بين الامتلاك الحقيقى و(الملكية الخاصة). نجد مثالا من الأهمية بالنسبة لدراستنا يتمثل فى أن الامتلاك الحقيقى يختلف تماما عن الامتلاك الشخصى، إذ يمكننى أن ألبس قميصى وأقود سيارتى، بل أن أحمل كومبيوترى(حاسوبى)، ولكن عندما يبلغ الأمر أمر بيتى وأرضى فإن ملكيتى لها تحتاج إلى إثبات يدل على هذا الوضع.

ويكشف بدقة ذلك الفرق ما يميز فى اللغة الفرنسية بين الأثاث وما سواه. فالممتلكات القابلة للنقل غالبا ما يوجد ما يدل على ملكيتها (أى توجد مؤشرات تدل على منزلتها بالضبط وما لها من قيمة) كأوراق تسجيل الملكية الخاصة بالسيارات، والعلامات التى توسم بها قطعان الماشية لتدل على أنها بمنزلة الملكية الخاصة بالمالك. تلك المؤشرات الدالة على منزلة الأشياء وقيمتها فى هذه الشواهد إنما ترجع إلى أن هذه الممتلكات نفيسة أو ثمينة كما نشهد فى حالة المجوهرات، واللوحات الزيتية، كذلك تكون هذه المؤشرات الدالة على قيمة الشىء ضرورية فى حالة عدم الإحاطة به، إذ يمكن أن تتبدد أو تتبعثر وتنتشر كما فى حالة قطعان الماشية.كذلك تكون لهذه المؤشرات الدالة على المنزلة أو القيمة ضرورتها ، عندما تكون من الأشياء الخطرة التى قد تتسبب فى الإيذاء، ومن ثم يكون مالكها مسئولا عنها ، كالأسلحة النارية،. وقد يكون هناك أكثر من سبب (يستدعى بالضرورة وجود هذه المؤشرات الدالة على قيمة هذه

الممتلكات ومنزلتها)، كما نلمس في حالة السيارات. على أية حال، من الصعب أن نرى كيف يمكن أن يوجد نظام من الملكية الحقيقية المعقدة، دون وجود وثائق تدل عليه.

وعلى رأس أشكال الامتلاك المادى الخالص للأشياء المادية بما فيها ملكية الأرض نضع الشراء والبيع، والتوريث بوصية. إلخ ونقل الملكية نقلا جزئيا عن طريق الرهان وغيرها. والوسائل المميزة التى نستعين بها على ذلك هى أفعال الكلام، و صكوك نقل الملكية، وفواتير البيع، وأوراق التسجيل، والوصايا وغيرها . وليس من المصادفة أن نطلق عليها " وثائق قانونية". وكلها نماذج لوظائف فُرضت على أفعال الكلام بحكم بلوغها منزلة ما. وفعل الكلام الأصلى بالطبع هو بالفعل حالة من حالات فرض وظيفة بناء على بلوغ منزلة ما . لذلك ففاتورة البيع،على سبيل المثال، تسجل ببساطة (واقعة) "أنى قد بعتك سيارتى" مثلا. إنها فعل كلام مؤكد، لكن السيارة تعد الآن بمثابة إحدى ممتلكاتك المعلقة على صدور أوراق تسجيل جديدة تعلن عن انتقال ملكيتها لشخص آخر.

وبمجرد امتلاك المجتمع مؤسسة خاصة بشئون الملكية تنشأ معها عادة حقوق جديدة خاصة بالملكية عن طريق أفعال الكلام، تماما كما يحدث عندما أعطى شخصا شيئا، أو عندما تكون هناك أفعال كلام تصاحبها أفعال من أنواع أخرى، كأن أعطى أحدا شيئا فى مقابل المال . افرض أنى أعطى لابنى ساعتى، يمكننى أن أفعل ذلك بعدة طرق: منها مثلا أن أقول "إنها ملك لك" أو" يمكن أن تأخذها لك" أو أن أقول بنغمة أدائية عالية النبرة (لها شكل رسمى يجعلها سارية المفعول بمجرد النطق بها) "بموجب هذا أعطيك ساعتى". هكذا أكون قد فرضت على تلك الأفعال من أفعال الكلام وظيفة أسندتها إليها بمقتضى بلوغها منزلة بموجبها تنتقل إليه الملكية. وتفرض أفعال الكلام تلك بدورها وظيفة على الساعة بمقتضى أنها الآن بمنزلة المملوك لابنى .

لقد ذكرت أن الأبنية المرتبطة بالمؤسسة تمكِّن من إزاحة الامتلاك المادى الخالص، سواء فى حالة الأشياء الممتلكة، أو فى حالة التقارب الجسدى الخالص عن طريق المصاهرة ، ليحل محله مجموعة من المؤشرات المعروفة، التى يمكن للناس بمقتضاها أن يتزوجوا حتى لو كان الواحد منهم بعيدا عن الآخر، وكذلك أن يمتلكوا الأشياء بالرغم من بعد ممتلكاتهم عنهم. ولإنجاز هذا العمل الفكرى الفذ لابد من أن يكون لدينا ما قد أطلقنا عليه المؤشرات الدالة على بلوغ المنزلة، تماما شأن أى وثيقة تشير إلى بلوغ

منزلة خاصة بالقيمة، تجعل بمقدورنا أن نسترد ما يساوى تلك القيمة ذهبا. لهذا فلدينا نظام معترف به (للزواج)، ولدينا كذلك سندات أو وثائق للملكية. ولدينا مؤشرات دالة على بلوغ منزلة ما على غرار قسيمة الزواج مثلا، وخاتم الزواج، وأسماء عدة لسندات الملكية.. ولو كنت بعيدا جدا عن بيتى وزوجتى فإن البنية المرتبطة بالمؤسسة تمكننى من أظل زوجا وأظل مالكا. ولو استدعى الأمر، يمكن إثبات ذلك للآخرين باستخدام المؤشرات الدالة على بلوغ المنزلة(ممثلة فى الأوراق الرسمية). وفى مثل تلك الحالات تحل المؤشرات الدالة على بلوغ المنزلة أو القيمة محل الامتلاك المادى المحض، والتقارب الجسدى (بالمصاهرة)، هذه المؤشرات تجعل الوقائع المرتبطة بالمؤسسة جلية واضحة للعيان.

وفى مستوى أشد تعقيدا من مستوى النقود والزواج والملكية، نجد الحكومات تضرب بجذورها فى أعماق سلسلة من الظواهر البيولوجية الأولية، من مثل ميل معظم جماعات الحيوانات الثديية إلى توزيع المراتب على نحو متدرج. وكذلك تميل هذه الجماعات إلى قبول أن يقودها حيوان آخر، وفى بعض الحالات تخضع للقوة الجسدية المحضة التى تمارسها بعض الحيوانات على سواها. ولا أفترض أن تلك القائمة تستغرق كل جوانب القصة الخاصة بأصول الحكومات، غير أنه يبدو لى أن عناصر رئاسة الجماعة البيولوجية أمر أساسى لفهم الفلسفة السياسية، والسمات التى كانت قد تعرضت لها بعض المعالجات التقليدية كالعقد الاجتماعى مثلا.

إن الأشكال التى تبلورت من بعد أن كانت قد أرسيت دعائمها، من مثل تركيب المواطنة والحقوق والمسئوليات، والمناصب والسلطات والانتخابات، والنيابات الإدارية، ووسائل أخرى لاختيار الحكام وتنحيتهم عن السلطة، وغيرها، كل هذا قد انطوى داخل أبنية وهياكل ترتبط بالمؤسسات، عن طريق فرض الجماعة وظائف يستوجبها بلوغ منزلة ما تعلو على العلاقات الأولية.

يوجد سلم متدرج - بالنسبة للأصناف التى اخترناها من بين الوظائف التى تؤدى بموجب بلوغ منزلة ما - ينطلق من الحرية متجها نحو الضرورة، ومن الجزافية نحو العلة المسببة. وعلى قمة الطرف الخاص بالحرية و الجزافية تقع النقود. وكل أنواع المواد يمكن أن تلعب دور النقود بشرط أن يتوفر فيها الحد الأدنى من شروط التحمل، وإمكان التداول، وقابلية النقل، وتعسر التزييف. قد يكون هناك بعض من شروط

أخرى كى تقوم هذه المواد بوظائف النقود. وعلى الطرف الآخر حيث الضرورة والعلة المسببة، نجد النموذج القياسى للمتر، الذى تحتفظ به الحكومة الفرنسية فى سراى بريتِىّ Breteuil فى مدينة سيفرSevres وبطبيعة الحال، نجد أن الأشياء التى تُفرض عليها هذه الوظائف محدودة بدرجة كبيرة، فليس بإمكان أى مادة قديمة، ولا بإمكان أى مقياس للمتر أن يؤدى هذه الوظيفة. ويتوسط بين هذين الطرفين - مستوفيا الشروط الخاصة بالعنصر س - كل من الوعود التى نبذلها عند عقد القران، والاختبارات التى على المرء أن يجتازها لكى يصير فارسا من الفرسان فى العصور الوسطى. ولا يتحقق ارتباط كل منها بالوظائف الجديدة مصادفة أو جزافا مقارنة بقدر المصادفة فى ارتباط الأوراق بوظيفة النقود، ولا هى فى الوقت نفسه من باب الضرورة. يمكن للمرء أن يتخيل بل أن يختار كل الأنواع المقبولة تماما من أشكال الزواج أو من الأشكال التى يصير بها فارسا. وبسبب هذا التراخى الذى يقع بين الشروط التى يحددها العنصر س من جانب والوظيفة التى يحددها العنصر ص من جانب آخر، تختلف الثقافات فى المؤهلات التى تمكنها من أداء الوظائف نفسها أو الوظائف المشابهة. فمثلا فى أغلب الولايات الأمريكية تقتضى منزلة من يتقلد منصب المحامى الحصول على شهادة جامعية فى القانون، واجتياز امتحان الدولة فى الدفوع القانونية، وحلف اليمين. بينما لا يتحتم فى بريطانيا الحصول على شهادة جامعية فى القانون للتسجيل فى العمل بالاستشارات القانونية لفترة من الزمن،أو التردد الدائم على قاعات المحاكم للتدرب واكتساب الخبرة. ولا يتضح على الإطلاق إلى أى مدى يفترض أن تمكن هاتان المجموعتان من الشروط من يمتلكها من أداء الوظيفة نفسها، وظيفة الهيئة القضائية. وعلى الرغم من ذلك يبدو أن المكاتب القانونية المختصة تعتنق هذا الرأى.

هذان المكونان الأساسيان لفرض وظيفة بناء على بلوغ منزلة ما، أى كل من العنصر س والعنصر ص، قد أسفرا عن نتائج تهم بحثنا : أولها: أن التعبيرات الخاصة بالوظائف التى يفرض القيام بها بموجب بلوغ منزلة، تفسح المجال لتعريفين: أحدهما يعتمد على المقوم الخاص بالعنصر س، والآخر هو المقوم الخاص بالعنصر ص، أى المقوم الخاص بالوظيفة المسندة. وبناء على ذلك يمكن للعملة أن تتحدد وفقا لأصلها أو مصدرها، كما يمكن أن تتحدد كذلك وفقا لتركيب مادتها. إن أنواعا بعينها من الأوراق المالية تصدرها مصلحة سك العملة(العنصر س) هى بمثابة عملة الولايات المتحدة الأمريكية. غير أن العملات المتداولة يمكن أن تتحدد فى جزء منها، بل من الممكن

بالفعل أن تعد فى مقابل عملة الولايات المتحدة الأمريكية بمثابة "تعهد قانونى بالوفاء بكل أنواع الديون الشخصية والعامة " (العنصر ص). وإحراز هدف يتحقق باختراق اللاعب حامل الكرة خط مرمى الخصم فى أثناء المباراة (العنصر س) يسجل ضربة مرمى تكافئ إحراز ست نقاط (العنصر ص) .

حصر القواعد وتصنيفها

يعتمد فحص مجموعة من الوقائع الأصيلة المرتبطة بالمؤسسة، على قدرتنا على أن نجمع القواعد ونصنفها تصنيفا واضحا صريحا على هيئة سلم متدرج. إن الكثير من الوقائع المرتبطة بالمؤسسة - كمؤسسات الملكية والزواج والنقود - قد جُمعت قواعدها وصُنفت بالفعل فى قوانين واضحة صريحة. بينما لم يخضع غيرها كالصداقة، واللقاءات، وحفلات الكوكتيل للتصنيف، وإن كان من الممكن القيام بذلك. ولو رأى الناس أن مجموعة من العلاقات التى تربط بينهم تندرج تحت بند الصداقة واللقاءات وحفلات الكوكتيل، لكان لكل منها منزلة تعتمد على أساس الاعتقاد بأن الصداقة، واللقاءات، وحفلات الكوكتيل فى واقع الأمر لها هذه المنزلة أو هذه القيمة التى تقتضى منها أن تقوم بوظائف بعينها . هذا ما يتضح من توقعات بعينها يشترك فيها أصحابها، ويكون لها من الأسباب ما يبررها . على خلاف مجموعات أخرى متسقة من العلاقات التى تطابقها أو تناظرها ، لكنها ليست مما يرى الناس أنه من صنف اللقاءات أو الصداقة أو حفلات الكوكتيل.

تلك النماذج من الوقائع المرتبطة بالمؤسسة يمكن تصنيفها وتبويبها، ذلك لو كان أمر التمييز مثلا بين حفل الكوكتيل وحفل الشاى قد صار فعلا أمراً ذا بال، ومن الأهمية بمكان. ولو أن أمر الحقوق والواجبات الخاصة بالصداقة قد صار فجأة مسألة تنبنى على أسس بالغة الأهمية ومسألة أخلاقية، لكان حتما علينا أن نتخيل تلك المؤسسات غير الرسمية وقد صارت مقننة بوضوح، بالرغم من أن التقنين الصريح أمر له ضريبته؛ إذ يحرمنا تلقائية الشكل غير المقنن من المعاملات ومرونته.

لا بد أن يكون قد اتضح لنا من هذه الأمثلة أن هناك انتقالا تدريجيا - وليس خطا فاصلا - بين الوقائع الاجتماعية بعامة، وما تفرع عنها من الوقائع المرتبطة بالمؤسسة خاصة. فى مجتمعى يعد الخروج للتريض مع شخص واقعة اجتماعية لا واقعة ترتبط

بالمؤسسة. لأن هذا الوصف لا يضع علامة تتعين بها وظيفة جديدة بناء على بلوغ منزلة، وإنما يحدد الطريقة التى ينتبه بها الوعى إلى الأشياء وبأى طريقة يمثلها ويعبر عنها. ومع ذلك فالتحول نحو المؤسسة يتميز بأنه ينطلق من القصد العقلى الجماعى؛ إذ يلتفت إلى الأشياء ويمثلها، أو يعبر عنها تعبيرا جمعيا، يعتمد فى أساسه على القبول وفهم الظاهرة إلخ، بوصفها ظاهرة تدل على ما هو أعلى، أى على ما فرضته عليها من وظيفة مناظرة لها. والوظيفة فى باطنها متعلقة ببلوغ المنزلة، بمعنى أنه ما كان للظاهرة أن تحظى بهذه المنزلة لو لم تكن لها هذه الوظيفة .لقد ارتبط المعيار دائما بالقدر الذى يقترن به تميز شىء ما بما نسنده إليه من وظيفة جديدة، كأشكال الحقوق والواجبات التى لا يمكن أن تتوفر لها إلا إذا حظيت هذه الوظيفة بالقبول الجماعى مثلا. ووفقا لهذا المعيار تشير كلمات من مثل "زوج" و"قائد" و"مدرِّس" إلى وظائف تؤدى بمقتضى مراتب،غير أن كلمات مثل "سكران " و" شخص مُنكبّ على العلم" و "مثقف"و"مشهور" ليست من هذا المعين. ولنكرر مؤكدين أنه لا يوجد خط يفصل بشكل حاسم بين النوعين.

من النماذج الباهرة فى هذه الدراسة المثل الخاص بحالة الحرب. فالحرب دائما شكل من أشكال القصد العقلى الجماعى، ومن ثم فهى لا تقع إلا لو اعتقد الناس أنها حرب بمعنى الكلمة. فى الحروب الحقيقية يعد مجرد وقوع الأحداث بمثابة وضع قانونى أو شبه قانونى يقتضى أن يُفرض على المشاركين فيها مسئوليات وواجبات بعينها تجعل من الحرب واقعة ترتبط بالمؤسسة، وليست مجرد واقعة اجتماعية وحسب. علاوة على ذلك نجد ـ كما رأينا فى مؤسسة الزواج ـ أن هناك طرقا لفرض أوضاع ترتبط بالمؤسسة. ففى حالة الحرب فى كوريا مثلا كانت الولايات المتحدة الأمريكية حريصة فى ذلك الوقت على ألا يطلق عليها" الحرب الكورية "، ولهذا سميت "النزاع الكورى "، لأنها لم يتوفر فيها المقومات الأساسية للحروب، التى ترى فى إعلان الحرب مقوما أساسيا لقيامها. وبناء على ذلك كان الخيار بين أمرين : أنه لو أطلق عليها حرب لكانت حربا تفتقر للمقومات،لذلك لم يطلق عليها "الحرب"، وإنما كانت تحركات من قِبَل قوات الولايات المتحدة الأمريكية، مما ينسب له وظيفة بناء على وضع مختلف تماما. ولما كانت الظاهرة لا ينطبق عليها العنصر س الخاص بفرض وظيفة بموجب بلوغ منزلة ما، فإن العنصر ص أى "الحرب" لا تنطبق عليها كذلك. وإبَّان حرب فيتنام أمكن تجنب إطلاق هذا النوع من التسميات المراوغة على الغزو، وكان فى الوقائع الطبيعية المحضة

والقصد العقلى فى التفاته إليها وطريقته فى التعبير عنها ، ما يسمح بإطلاق كلمة "الحرب" ، حتى بالرغم من أن الوضع القانونى بالنسبة لإعلان الحرب لم يكن يختلف كثيرا عما كان عليه الحال بالنسبة لـ"كوريا".

تتأرجح كلمة "الحرب" بين تسمية نمط من الوقائع الاجتماعية المنتشرة على نطاق واسع، ونمط من الوقائع المرتبطة بالمؤسسة. فهل "الحرب " علامة على مجموعة مستقرة من العلاقات، وهل تتضمن عواقب أخرى، يسفر عنها وضع الحرب المعروف الذى نطلق عليه هذه التسمية "الحرب" ؟. فالحرب بوصفها واقعة اجتماعية يمكن أن تحدث بغض النظر عن كيفية وقوعها. غير أنها تحدث بوصفها واقعة من الوقائع المرتبطة بالمؤسسة وحسب، تحت إمرة الدستور الأمريكى، وبفعل نوع من أفعال الكلام يدعى "إعلانا" من الكونجرس. وقد نقيم بعد "حرب فيتنام" و" حرب الخليج" مؤسسة خاصة بأعراف الحرب على غرار " الزواج المدنى".

بعض المسائل المهمة المطروحة للتحليل

نطرح فى هذا الفصل واحدا من أصعب الأسئلة على الإطلاق، يدور حول تركيب البنية المنطقية الضرورية لإيجاد وقائع ترتبط بالمؤسسة. ويتصل بهذا السؤال مجموعة أخرى من الأسئلة على غرار : ما نوع الوقائع التى نستطيع ببساطة أن ننشئها عن طريق الاتفاق الجماعى، حيث تعد س بمثابة ص أى لها وظيفة تؤديها بموجب بلوغها منزلة ما ؟ وما هى الإمكانات المتاحة لها والحدود التى تتقيد بها الوقائع المرتبطة بالمؤسسة؟ ولأن النظام كله يعمل بدافع القبول الجماعى فسوف ندرك قبل ذلك أن ليس بوسعنا أن نفعل الكثير حياله. إذ تبدو الأمور كلها هشة، كما لو كان النظام كله قد يتهاوى فى أية لحظة . ومع ذلك فبنية المجتمع المرتبطة بالمؤسسة لها هذا الشكل بالتحديد، لذلك نحن بحاجة إلى أن نعرف مدى قدرة هذا الشكل على أن يكون مرنا (تتسع به إمكاناته أو تضيق به حدوده).

ولأننا نحاول وصف البنية المنطقية لمجتمع منظم، فقد يكون من المستحسن أن نتريث قليلا عندما نشرح هذه الفكرة حتى نجعلها او نجعل جزءا منها على الأقل واضحا. والسؤال الذى يراودنا الآن هو: كيف يتوفر لـ "مجتمع منظم بنية منطقية؟ على

كل حال، ليس المجتمع مجموعة من الفرضيات و لا هو محض نظرية. فلم هذا الحديث عن البنية المنطقية؟ بناء على دراستى، تعد الأشكال التى نمثل العالم عن طريقها ونعبر بها عنه، من أسس إقامة كل من الواقع المرتبط بالمؤسسة والواقع الاجتماعى . فمن العناصر التى تشتمل عليها أشكال التمثيل هذه ما هو عقلى وكذلك منها ما هو لغوى، ومنها كذلك ما يعد مقومات تضع الأسس لإقامة هذا الواقع. ونحن نبذل وسعنا لنعرض أهم عناصر الأبنية المنطقية.

فما هو موطن الخلاف ؟ نميل إلى الأخذ بأن تلك الأبنية المرتبطة بالمؤسسة، من مثل الملكية، بل الدولة نفسها، تحافظ على وجودها واستمرارها عن طريق قواتها العسكرية وشرطتها المسلحة، وقد يُفرض قبول تلك التشكيلات والخضوع لها بالقوة إذا لزم الأمر. بينما تعتمد القوة العسكرية لعدد من الدول الديموقراطية من بينها الولايات المتحدة الأمريكية إلى حد ما على قبول الأنظمة والقواعد التى تضع الأسس، لا يعتمد قبول الأنظمة والقوانين والتشريعات على قوة الدولة العسكرية. وقد بدا هذا واضحا فى أحداث الشغب التى وقعت فى لوس أنجلوس عام ١٩٩٢ . فقد شرع الناس فى أعمال السلب والنهب ، حاملين من المتاجر الأشياء القيمة، بينما كانت شرطة الولاية تصوب بنادقها إليهم آمرة إياهم بالتوقف. وقد تجاهلت جموع المشاغبين الشرطة دون أن يترتب على هذا أية عواقب. وقد سأل أحد الصحفيين: "لماذا تفعلون ذلك؟ "فأجاب أحدهم "لأنها مجانية" . ولقد شاهد الملايين هذا على شاشات التليفزيون. يعنى هذا أن قوة الشرطة التى تنتمى للحكومة قابلة لأن تستخدم ضد عدد محدود وحسب، وحتى عند حدوث ذلك على فرض أن كل من عداهم إنما يقبل الوظائف التى تقتضيها الأوضاع والمراتب الخاصة بالأنظمة. فبمجرد أن يتجاوز من يخرقون القانون حد الشرذمة القليلة، كما حدث فى لوس أنجلوس، تنسحب الشرطة تماما إلى داخل قسم الشرطة، أو يتظاهر فريقها بالقيام (بتمثيلية استعراضية) يتصرف فيها كما لو كان ينفذ القانون، فيقبض على المواطنين المطيعين للقانون. ففى بيركلى فى فترة الشغب والسلب نفسها قبض على مالك أحد المتاجر لأنه تسلح بقصد الدفاع عن متجره. ولقد قبض عليه فى أثناء سرقة متجر مجاور لم ينبر رجال الشرطة ليحولوا دون سرقته. وفى دول ديموقراطية عدة بمجرد أن يبلغ الخارجون على القانون درجة تبلغ حد

التهديد لا يملك رجال الشرطة سوى أن يظهروا وحسب دون مواجهة حقيقية بالفعل(*).

يهدف نقاشنا هذا إلى توضيح أنه لا يمكننا أن نقول بأن نظام القبول يعززه نظام من القوة موثوق فيه. ويرجع ذلك وحسب إلى أن نظام القوة فى ذاته هو نظام من انظمة القبول (أو الخضوع)؛ فقوات الشرطة والجيش مثلا هى أنظمة لها وظائف تؤديها بموجب بلوغها منزلة بعينها. غير أن الأهم بالنسبة لما نهدف إليه هنا هو أن نظام القوة يقتضى بالضرورة وجود أنظمة الوظائف المحكومة بالمراتب الأخرى. ولا يمكننا أن نفترض أن الدولة ذات النظام الديكتاتورى (كما نطالع فى كتاب Leviathan للكاتب توماس هوبز، فى العلوم السياسية، فى كيفية مواجهة المجتمع للقوى الجامحة) سوف تهب لمساعدتنا فى الأوقات العصيبة، بل على العكس من ذلك. مع ملاحظة أن المجتمعات فى الظروف الطبيعية غالبا ما تلتزم بالمقومات والأسس المنظمة.

من الأمثلة الأخرى التى قد نلمس فيها قدرا أكبر من الاستعراضية انهيار الإمبراطورية السوفيتية المشهور عام ١٩٨٩. وبإمكان أى شخص قد زار الأقاليم السوفيتية خلال الفترة السابقة على عام ١٩٨٩ أن يرى أن السبب الذى أبقى على الوضع كله هو نظام من أنظمة الإرهاب. ثم كف معظم الناس عن الاعتقاد فى أن نظام الوظائف التى تعتمد على بلوغ منزلة ما من الممكن قبوله من الناحية الأخلاقية ، ولم يعد مقدار الرغبة الاجتماعية فيه كافيا. غير أنه ليس بإمكان أى شخص أن يفعل حياله شيئا، لأن النظام كله كان قد أبقى عليه وحافظ على استمراره جهاز البوليس السرى، تدعمه قوة عسكرية تشكلت من قوات الجيش المسلحة. لقد سحقت قوات الجيش العسكرية بمساعدة البوليس السياسى المحلى جهود الإصلاح بوحشية، كما فعلت مع تشيكوسلوفاكيا فى أحداث "ربيع براج " عام ١٩٦٨. لقد جُند عُشر سكان تشيكوسلوفاكيا للتجسس على مواطنيهم لإبلاغ البوليس السياسى عن أى بادرة سخط أو استياء. كذلك كان نظام المراقبة البوليسية فى ألمانيا الشرقية ذا قبضة حديدية أشد قسوة، إلى الحد الذى كان فيه الزوج يُكره على التجسس على زوجته، والزوجة على

(*) نشأ اهتمامى بهذا الأمر خلال الفصل الدراسى الأول من دراستى فى أوكسفورد، عندما شهدت annual Guy Fawkes riots الاحتفال السنوى بعيد العرفان (فى الخاس من نوفمبر، يصاحبه الصخب والألعاب النارية) فى هذه الفترة كانت قوات المراقبة بكلابها البوليسية قد ألقت القبض علىَّ أنا المتفرج السلبى، دون أن تواجه من شاركوا فى الصخب بالفعل، أولئك الذين كانوا أشد خطورة.

زوجها، وعلى تقديم تقارير، كل منهما عن الآخر. ولم يخطر أمر الانهيار المفاجئ للنظام كله، فى غضون سنوات قليلة إبان الثمانينيات، ببال أى خبير محنك فى شئون نظام الحكم السوفيتى، أو أى ديبلوماسى أو صحفى أو سائح. لقد انهار الحكم السوفيتى عندما لم يعد نظام الوظائف التى تؤدى بموجب منزلة ما مقبولا. لم يعد خوف التدخل بالقوة معقولا، كما لم تعد قوات البوليس المحلى ولا قوات الجيش العسكرية راغبة فى السعى للحفاظ على النظام. وفى ألمانيا الشرقية رفض الجيش إطلاق النار على المعارضين رغم صدور الأمر له بذلك.

ولا أعتقد فى وجود دافع واحد لاستمرار التسليم بالوقائع المرتبطة بالمؤسسة. قد يميل البعض إلى الاعتقاد فى لزوم وجود بعض الأسس العقلية لهذا التسليم، فالمشاركون يستفيدون من بعض مزايا اللعبة نظريا أو يبلغون درجة عالية من اللامبالاة. غير أن الملمح البارز واللافت من ملامح الوقائع المرتبط بالمؤسسة هو أن من ينتمون إليها يستمرون فى الأخذ بالقواعد واتباعها حتى لو بدا واضحا أنه لم يعد من مصلحتهم أن يلتزموا بها .عندما يكون استمرار المؤسسات فى الغالب بحكم العادة، فليس من الغريب أن تنهار كذلك فجأة، على غير توقع، مثلما يحدث عندما تنهار ثقة الناس بعُملتهم، أو عندما يسحبون الثقة من الحكومة ويكفون عن الاعتراف بها.

قال ماركس ـ إيمانا منه بأن المصالح الأساسية هى مصالح الطبقات- إن التاريخ كله هو تاريخ الكفاح الطبقى. لكنه من غريب الأمر أن قدرا ضئيلا من التاريخ كان مداره الصراع الطبقى. فى القرن العشرين الذى تميز بزخم وتذمر عظيمين أثبت الولاء القومى أنه أقوى من التضامن الطبقى، والتفاف الطبقات حول فكرة قومية بحماس وتعاطف شديدين استل من الطبقات عداوتها.ولم يعد التضامن الطبقى الدولى يساوى فيما بعد شيئا. ولم يحدث فى أغلب حالات الجيشان المتذمر أن تخلى الناس عن أنظمة القواعد التى تضع المقومات الأساسية،التى كانت تعزز التمايز الطبقى. حتى بالرغم من حدوث كل التغيرات الأخرى المرتبطة بالمؤسسة ؛ حيث انهارت البنية المرتبطة بالمؤسسة التى تعزز الأبنية الطبقية، يمثل ذلك روسيا فى الحرب العالمية الأولى، والصين بعد الحرب العالمية الثانية ؛ فإسقاطهما لم يكن أحد أهداف أعدائهما من وراء الحرب. ولم يكن من أهداف ألمانيا القيصرية أن تقيم دولة بلشفية Bolshevik فى روسيا (دولة الحكم فيها فى يد الأغلبية)، ولا كان من هدف الماوية Maoism تحقيق ازدهار جماعى

بشرق أسيا العظمى . إنما أسعى إلى أن أوضح عدم وجود مجموعة بسيطة من العلاقات من بين التحريض و المصلحة الشخصية والبنية المرتبطة بالمؤسسة وكذلك التغير المرتبط بها.

قد يكون أروع شكل من أشكال الأوضاع الوظيفية هو ما تمثله حقوق الإنسان. أما الشكل السابق على عصر التنوير فقد انطبق فيه ذلك التصور لحقوق الإنسان - فى حدوده الضيقة- على بعض الأبنية المرتبطة بالمؤسسة من مثل مفهوم حق الملكية، وحق الزواج، وحق كبار السن...إلخ. وبنحو ما حظيت فكرة ضرورة وجود وظيفة للإنسان - يؤديها بحكم بلوغه منزلة- بالقبول الجماعى،لا لشىء سوى كونه كائنا إنسانيا. وهنا نجد أن العنصر س كان "إنسانا" و العنصر ص كان " له حقوق لا تسلب منه". وليس من قبيل المصادفة أن القبول الجماعى تلك الخطوة قبولا جمعيا قد أعان عليه فكرة السلطة الإلهية: " لقد منحهم خالقهم مجموعة من الحقوق لا تنتزع منهم من بينها حق الحياة وحق الحرية وحق السعى وراء السعادة". وقد شهدت فكرة الحقوق الإنسانية أفول العقيدة الدينية بل اتخذ هذا صبغة دولية. وقد ظل إعلان هلسنكى لحقوق الإنسان ينادى على الدوام- وبدرجات تنوع تأثيرها - بالتصدى للأنظمة الدكتاتورية. وقد ظهرت مؤخرا حركة للاعتراف بحقوق الحيوان. والمناداة بحقوق الإنسان وحقوق الحيوان، كلاهما يعد فرضا لوظيفة عن طريق القصد العقلى الجماعى.

سيتبين لنا من خلال هذا الفصل أن الوظائف التى تؤدى بمقتضى بلوغ منزلة بعامة هى مسألة من مسائل السلطة. فبنية الوقائع المرتبطة بالمؤسسة هى بنية علاقات ذات نفوذ، بما فى ذلك النفوذ الإيجابى والسلبى، والمقيد والمطلق ، والفردى والجماعى. لشد ما كانت السلطة فى تقاليدنا الفكرية منذ عصر التنوير، فكرة تؤرق على الدوام الوعى الليبرالى. ولربما ودت طائفة بعينها من المفكرين لو لم توجد تلك السلطة على الإطلاق (لو كان عليها أن توجد فإنهم يودون لو حظيت القلة المفضلة لديهم والفئة المقهورة منها بقدر أكبر، أما من هم سواهم فليكن نصيبهم منها أقل القليل) . والدرس الذى يجب ألا نغفل عنه من دراسة الوقائع المرتبطة بالمؤسسة هو: أن كل ما نقدِّره فى الحضارة يقتضى إقامة علاقات ترتبط بقوة ذات نفوذ، والحفاظ عليها عن طريق ما تفرضه الجماعة من وظائف محكومة بمراتب لها منزلتها. و يقتضى هذا بالضرورة مراجعة وتعديلا مستمرين للحفاظ على فعاليتها ومرونتها واتساقها وإبداعيتها ناهيك عن تلك

القيم الموروثة فى تقاليدنا كالحرية والعدالة والكرامة. إن علاقات النفوذ والقوة المرتبطة بالمؤسسة موجودة فى كل مكان وكل زمان، فهى مسألة جوهرية. إن القوة المرتبطة بالمؤسسة الهائلة الغالبة المستترة تماما - تنفذ فى الشقوق والأركان وتتشربها مسام حياتنا الاجتماعية وبذلك لا تتهدد القيم الليبرالية بل هى من شروط وجودها ذاته.

بعض أنماط فرض وظائف تؤدى بموجب بلوغ منزلة ما

لكى نبحث أمر البنية المنطقية الخاصة بالواقع المرتبط بالمؤسسة، أود أولا أن أسأل عن نوع الوقائع الجديدة، والقوى الجديدة، والأبنية التى يرتبط وجودها بالأسباب التى بمقدور الناس أن يوجدوها عن طريق فرض وظائف تؤدى بموجب أوضاع أو مراتب، عندما يكون الاعتقاد فى وجود الوظائف المفروضة التى تؤدى بموجب بلوغ منزلة ما السبب الأوحد لوجودها؟ وعندما يخص الأمر أمر الوظائف الفيزيائية فإن القيود الوحيدة تفرضها الإمكانات الفيزيائية المحضة. إن تاريخ التكنولوجيا هو تاريخ تراكم المعرفة، وتنظيم الرغبات، وكيفية تسخير الإمكانات التقنية. أما فى مجال الوقائع المرتبطة بالمؤسسة، فلا نجد للتطور التكنولوجى القدرة على تغيير الاحتمالات الممكنة. ؛ إذ ليس بإمكاننا أن نفرض شحنة كهربية بمجرد أن نقرر أن نعد شيئا ما بمثابة شحنة كهربية، بينما يمكننا أن نفرض الرئاسة كوظيفة تؤدى بناء على بلوغ منزلة، أو نسند الاضطلاع بأمرها إلى من نقرر أن يصير رئيسا للجمهورية ، عندما نجد من بين الناس من تنطبق عليه الشروط، فنقرر توليته الرئاسة. إن عدم إمكان إحلال إشارة محل أخرى intensionality فى الصيغة الرمزية"س تعد بمثابة ص فى السياق أو بشرط ع" هى مفتاح intetinonality القصد العقلى. لأنه لا العنصر س ولا العنصر ص يسمحان بأن نستبدل بما يشير إليه كل منهما تعبيرا يكافئه coreferring دون أن نفقد أو نغير من قيمة صدق العبارة كلها. لدينا من الأسباب القوية ما يجعلنا نفترض أن "يعد بمثابة" فعل نطق locution يحدد شكلا بعينه من أشكال القصد العقلى والتفاته إلى ما يمثله أو يعبر عنه من الظواهر. إن إمكان إنشاء وقائع مرتبطة بالمؤسسة عن طريق الاستعانة بهذه الصيغة الرمزية أمر تحد منه الاحتمالات الممكنة لفرض سمات جديدة على أشياء

بدافع من الاتفاق الجماعى الذى ارتضى لها تلك السمات وحسب. والآن نسأل عن الأشكال التى يتخذها فرض وظائف مرتبطة بالمؤسسة وعن الحدود التى تقيدها.

للوهلة الأولى يبدو تنوع الوقائع المرتبطة بالمؤسسة مذهلا بمعنى الكلمة؛إذ يمكننا أن نبذل وعودا، ونحرز أهدافا، ونمتلك أراضىَ، ونتولى سلطات الرئاسة، ونؤجل اجتماعات، وندفع فواتيرنا، ونفصل موظفينا، كل هذا عن طريق الوقائع المرتبطة بالمؤسسة. غير أنه من بين هذا التنوع الهائل فى الموضوعات هناك بالفعل قدر ضئيل جدا من الخصائص الشكلية الخاصة بالوقائع المرتبطة بالمؤسسة عامة.

وحيث إن إيجاد وقائع ترتبط بالمؤسسة يتعلق بفرض وظيفة على شىء لم تكن له من قبل بناء على بلوغه منزلة ترتبط بها، لذلك فإن هذا الفرض بعامة هو نوع من أنواع منح بعض من نفوذ أو من سلطة جديدة. إن لم يكتسب العنصر (س) بعضا من السلطة الجديدة فلن يكون هناك الكثير مما يشير إلى فرض تلك الوظيفة بناء على بلوغ المنزلة التى يحددها العنصر ص.يتعلق معظم عمليات إيجاد وقائع مرتبطة بالمؤسسة ذ وليس كلها بالتحديد - بمنح العنصر (س) نوعا من النفوذ أو السلطة، أو القيام بإجراء وظيفى يحظى بالمصداقية، كأن تنفى مثلا، أو أن تضع شروطا على امتلاك السلطة وبسط النفوذ. وفى أبسط الحالات نجد أن العنصر (ص) وصف يطلق على نفوذ أو سلطة، ما كان لـ س أن تحظى بها بذاتها، بفضل من بنيتها فحسب. وفى حالة انطباق العنصر س على شخص، فإن ذلك الشخص يمتلك سلطات لم تكن له أو لها من قبل. أما إذا كان العنصر (س) شيئا فإن من يستعمل ذلك الشىء بإمكانه أن يعمل به أشياء ما كان له أن يعملها بفضل من محض طبيعة العنصر (س) الفيزيائى وحسب . لهذا فالنقود، وجوازات السفر، ورخص القيادة، وعبارات اللغة، تمكِّن حاملها أو من يستخدمها من عمل أشياء لم يكن من المتاح له القيام بها من دونها، من مثل شراء الأشياء، والسفر عبر البلدان، وقيادة السيارات بناء على حمل رخصة للقيادة، والقيام بأفعال كلام عن طريق النطق بالعبارات. يقتضى قبول العنصر (ص) فى تلك النماذج شكلا من أشكال امتلاك السلطة وبسط النفوذ،من مثل تخويل السلطة أو التصريح بها . وفى نماذج أخرى كما سوف نرى يرتبط الأمر ببعض من وظيفة التخيير(إما أو) بين هذه الأشكال من أشكال القوة، من مثل النهى أو التقييد بشروط.

لذلك فالسؤال عن عدد أنماط الوقائع المرتبطة بالمؤسسة يمكن أن يُختزل إلى السؤال عن أنواع القوى التى يمكن أن ننشئها ، عن طريق القبول الجماعى وحسب،

فالقوة الفيزيائية المحضة لا تتأثر بالقبول الجماعى. ولا يمكننا أن نزيد من وزننا أو من قوتنا العضلية عن طريق الاتفاق الجماعى . غير أن بوسعنا أن نزيد من ثروة الناس، أو أن نجعل لهم القدرة على التحكم فى حياتنا أو فى موتنا عن طريق الاتفاق الجماعى. قد نجيب بأن الشكل العام للإجابة عن هذا السؤال لابد أن يتلخص فى أنه بمقدورنا عن طريق هذه الآلية وحسب أن نوجد كل تلك الأشكال الخاصة بالقوة والنفوذ، التى تتخذ من الاعتراف والقبول الجماعيين شرطا تتوفر به أسس قيامها . لو أن هذا هو الشكل الذى تتخذه بنية تلك الآلية لصار لدينا تلقائيا سمتان قد تثيران ارتباكنا وتوقعاننا فى الحيرة ؛ السمة الأولى: أن تلك الآلية لا تضع على الأمر أية قيود، ومن هنا لا يصير مربكا أن نجد أن الواقع المرتبط بالمؤسسة على قدر هائل من التنوع ؛ يتراوح بين الزوجات وشئون الحرب، أو يتراوح بين حفلات الكوكتيل ومجلس الشيوخ. والسمة الثانية : هى أن الآلية التى وصفناها لا تقتضى أن يُعَنِّى من يسهمون فيها أنفسهم بما يحدث فعلا. فقد يظنون أن رجلا ما هو الملك، لا لشىء إلا لأنه قد مسح بالزيت المقدس، غير أنه يظل له وضع الملك الوظيفى (أى مكانته ومنزلته وصلاحياته ونفوذه وسلطاته وحقوقه وواجباته... إلخ) ما داموا يعترفون بسلطته، أى بغض النظر عن صدق معتقداتهم أوعدم صدقها.

هناك طائفة هامة من التوقعات نستثنيها من دعوانا أن كل الوقائع المرتبطة بالمؤسسة ترتبط بالقوة أو النفوذ، فبعض الوقائع المرتبطة بالمؤسسة تتعلق بمرتبة مجردة لا يقترن بها القيام بوظيفة. ذلك هو الحال عندما تكون المنزلة منزلة شرفية خالصة، فلو فزت بميدالية، أو منحت درجة شرفية، أو انتخبت الطالب المثالى فى فرقتك الدراسية، أو لو صرتِ ملكة جمال إقليم ألاميدا، فليس لك بعامة حقوق أو سلطات تقترن بهذه المنزلة، لأن هذه المنزلة منزلة شرفية للتكريم وحسب . والعكس من هذا أوضاع إلغاء التشريف (أو بعبارة أخرى ما ينتقص من قدر المرء) كأن يكون المرء مثلا موضوعا تحت المراقبة لسوء سلوكه، أو أن يوبخه رئيسه، أو يوجه إليه لوما أو لفت نظر رسميا، أو أن تُجمِع أصوات الطلاب فى فرقة دراسية على أن شخصا ما هو أقل الطلاب شعبية. كل هذه الأوضاع هى أشكال يسلب فيها التشريف أو ينتقص من قدر المرء، ولا حاجة بنا للتطبيق على أشكال أخرى من أشكال النفوذ السلبية والإيجابية.

كان سؤالنا عن عدد الأنماط التى يمكن أن تنطبق عليها الصيغة الرمزية " س تعد بمثابة ص فى السياق أو بشرط ع" ؟ علينا أن نجيب عن هذا السؤال لأن الوقائع

المرتبطة بالمؤسسة تنبنى على القصد العقلى الجماعى، ولأن هناك قيودا صارمة على إمكان إقامة وقائع ترتبط بالمؤسسة. دعونا نبدأ ببساطة بحصر بعض السمات الخاصة بأشكال الواقع المرتبط بالمؤسسة.

بمقدورنا أن نفرض الوضع ص على عدة طوائف مختلفة من الظواهر الأونطولوجية، كالظواهر الخاصة بالناس (من مثل رؤساء الجلسات، والزوجات، والرهبان، وأساتذة الجامعة)، والظواهر الخاصة بالأشياء (من مثل العبارات اللغوية، والأوراق المالية من فئة عشرة دولارات، وشهادات الميلاد، ورخص القيادة)، والظواهر الخاصة بالأحداث (من مثل الانتخابات، والأعراس، وحفلات الكوكتيل، والحروب، وإحراز النقاط فى المباريات)، فالأشخاص والأشياء والأحداث كلها تتفاعل داخل منظومة تربط بينها علاقات تجعل منها مجموعة واحدة متماسكة (من مثل المجالس النيابية، والجامعات، والجيوش، والكنائس). وعادة ما يُفرض الوضع ص على الأفراد وجماعات الناس بفضل مجموعة من العلاقات القائمة فيما بينهم سلفا، قبل أن توجد المؤسسة . لذلك قد يؤلف مجموعة من الناس دولة أو دويلة مدنية، كما أن رجلا وامرأة قد يصنعان أسرة من زوج وزوجة، غير أن هذه الأبنية لا تتكون ببساطة بفضل اجتماع مجموعة من الناس ذات حجم مناسب ، بل بفضل العلاقات التى تربط الأفراد بعضهم بالبعض الآخر داخل هذه الجماعة .

فما هى السمات التى تتوفر فى الموضوعات والأشخاص والأحداث التى تتعلق بفرض وظائف تؤدى بحكم بلوغ منزلة قد جدت عليهم ؟ أول فرضياتى ترى أن نعد طائفة من الناس، بل من الجماعات طائفة أساسية. أعنى أن فرض وظيفة تؤدى بحكم بلوغ منزلة ما على الأشياء وعلى الأحداث لا يكون ذا جدوى، ولا قيمة له إلا إذا كان متصلا بالناس. ويجب ألا يدهشنا ذلك مادامت هذه سمة من السمات العامة للوظائف المسندة .فلا يهمنا الورقة المالية فئة خمسة دولارات نفسها، بل يهمنا أن من يمتلكها الآن سيكون له من النفوذ ما لم يكن له قبل امتلاكها. وهكذا، لا يهمنا المفك نفسه، بل يهمنا أن من يمتلكه الآن له قدرة لم يكن ليمتلكها بدونه. يثبت هذا سلامة فرضيتى التى تقول بأن القصد العقلى الجماعى حين يفرض وظيفة تؤدى بحكم بلوغ منزلة جديدة - يتطابق تماما مع وضع الذات الإنسانية، فردية كانت أم جماعية، فيما تمتلك فى يدها من نفوذ أو قوة : سلبية كانت أم إيجابية، مقيدة كانت أم مطلقة . ينطبق هذا

مباشرة على فرض منزلة مباشرة على ذات فاعلة على غرار الشاهد الخاص بكون: جون رئيس جمهورية. وينطبق بشكل غير مباشر على فرض منزلة على موضوع ما، كما قد رأينا فى الشاهد الخاص بواقعة أن هذه ورقة مالية من فئة خمسة دولارات.

علينا أن ننتبه إلى سمة شكلية أخرى ، تتصل بالفرق الذى اعتدنا أن يميز بين وجهات النظر الداخلية ووجهات النظر الخارجية التى تنطبق على الوقائع المرتبطة بالمؤسسة. وقد عُنينا فى هذا الكتاب فى المقام الأول بوجهة النظر الداخلية، لأن المؤسسة لا يمكن أن توجد على الإطلاق إلا باعتقاد يصدر عن المشاركين فيها ومن وجهة نظرهم. على سبيل المثال، قد يرى عالم الأنثروبولوجيا - من خارج المؤسسة مثلا - أن مهرجان الشتاء potlatch لتوزيع الهدايا عند الهنود الحمر Kwakiutl يؤدى وظائف قد يكون المشاركون فيها غافلين عنها، غير أن العيد كله هو مهرجان فى المقام الأول، وهو لم يصر مهرجانا إلا بسبب توجه وعى الجماعة وبسبب فرضهم وظائف تؤدى بموجب مراتب أو أوضاع جديدة. وسواء اتخذ هذا الفرض شكلا واعيا أم اتخذ شكلا غير واع،ففرضه الوظائف لا يكون إلا من وجهة نظر الذات بضمير المتكلم (أنا أو نحن).

حتى فى إطار وجهة النظر الداخلية (أى التى لا تُفرض على الذات من آخرين من الخارج بل تختارها الذات بنفسها)، نجد أن هناك بعض الفروق الشكلية التى علينا أن نميزها وننتبه إليها. على النطاق الأصغر (نطاق الفرد أو الأسرة) نجد المرء يرى فى النقود وسيطا للتبادل ومستودعا للحفاظ على القيمة. كما يرى كل من الزوج والزوجة فى الزواج وعدا من الطرفين بالمشاركة مدى الحياة. لكن على النطاق الأكبر(نطاق الجماعة أو المجتمع) يرى المخططون والمنسقون - من وجهة نظر داخلية - أن المؤسسات ذات وظائف تختلف باختلاف الوظائف المسندة إلى الأفراد. فالأسقف يرى أن من وظيفة الزواج أن يؤدى إلى حياة اجتماعية مستقرة، كما أنه مظهر من مظاهر تمجيد الرب. ويرى البنك المركزى فى إصدار النقود سبيلا للتحكم فى الاقتصاد. والجدير بالذكر أن أونطولوجيا عالم الفرد الأصغر- حين نراه بعين داخلية - هى الأسبق. من غير الممكن أن يكون للأسقف أو لوزير الخزانة، أو لعالم الأنثروبولوجيا من رأى أو من وجهة نظر بدون أدنى حد ممكن من أشكال توجه وعى من يشاركون فى كل مجال يتصل بالنقود أو بالزواج (مما يضع الأسس التى تقوم على أساسها أبنية الوقائع

المرتبطة بالمؤسسة). وعلاوة على ذلك فالمشاركون فى عالم الفرد الأصغر قد يكون لديهم كل أنواع الوظائف الأخرى التى يريدون من الأشياء المرتبطة بها القيام بها لهم، والتى لا تتعلق بالأونطولوجيا الأساسية. ولهذا فكثير من الناس يريد النقود من أجل القوة أو النفوذ والوجاهة الاجتماعية ؛ تلك الأمور التى تعد بالنسبة لهم الوظيفة الأساسية للنقود. لقد كان الزواج من بين الوسائل التى استخدمتها الأسر الحاكمة الأوربية لتدعيم مكانتها (النمسا السعيدة تدعم مكانتها عن طريق الزواج بينما تعمد دول أخرى إلى أن تدعم مكانتها عن طريق الحرب)، (Alii bella gerunt, tu felix Austriua nubc) وقد مثل الزواج الحد الأقصى من الوظائف حتى من بين المتواضع منها. والفكرة التى أريد طرحها هى أن هذه الأفعال تكتسب أونطولوجيا أساسية بالنسبة للقصد العقلى الجماعى لدى رجل الشارع العادى .،أى بالنسبة لفرض وظائف تؤدى بناء على مراتب وأوضاع تعتمد على صيغة الرمزية التى طرحناه (س تعد بمثابة ص فى السياق أو بشرط ع).

لو وضعنا فى اعتبارنا هذه النقاط، ونحن ننظر إلى الوقائع المرتبطة بالمؤسسة، يبدو لى أن الوظائف التى تؤدى بموجب بلوغ مرتبة تندرج تحت نطاق عريض من نوع بعينه من الفئات. وفى محاولة أولى منا للتصنيف ذ وسوف نحاول أن نطور هذا التصنيف فيما بعد- سوف نقسم هذه الطوائف مؤقتا إلى أربع طوائف كبرى أطلق عليها : الوظائف التى تؤدى بموجب بلوغ وضع أو مرتبة ، فمنها ما له وضع رمزى، ومنها ما له وضع أخلاقى، ومنها ما له وضع شرفى، ومنها ما له وضع مرحلى إجرائى.

١ ـ القوى الرمزية وإيجاد المعنى

إن الغاية من امتلاك قوى رمزية هى أن تعيننا على أن نمثل عالم الواقع ونعبر عنه، فى واحد أو أكثر من أشكال المعنى المرتبطة بتأثير ما يستنتج من الكلام على المتلقى وما يسوقه إليه. وفى هذه الأحوال نفرض على الوعى التوجه والالتفات إلى الموجودات التى لم تكن فى جوهرها مما يلتفت إليه. ولكى نفعل هذا علينا أن نوجد لغة ومعنى فى كل الأشكال الممكنة.إن فرض التوجه بالوعى نحو نمط بعينه من التراكيب الفيزيائية، يحدد شكلا ومضمونا ذا معنى، أى دلالة. ولهذا فالنموذج الكتابى والصوتى لجملة " إنها تمطر" باللغة الفرنسية مثلا، يجعلها جملة من اللغة الفرنسية، ونفس

النموذج بالألمانية يجعلها جملة من اللغة الألمانية. لقد فرض على الأصوات والعلامات المادية وضع الكلمة والجملة والنحو بعامة. كما فرض على مكونات نحوية مختلفة فى تلك الحالات المضمون الدلالى نفسه. والجملتان (بالفرنسية وبالألمانية) تعنيان " إنها تمطر". فالترميز أساسى للأشكال الأخرى الخاصة بفرض الوظيفة المرتبطة بالمؤسسة، للأسباب التى سعيت إلى شرحها فى الفصل الثالث؛ إذ لا يمكننا أن نفرض حقوقا وواجبات. إلخ بدون وجود كلمات أو رموز.

٢- القوى الأخلاقية: سلطة منح حقوق وفرض واجبات

إن الغاية من امتلاك سلطة العرف هى تنظيم العلاقات بين الناس. فى إطار هذه الطائفة من الأوضاع نمنح حقوقا، ونفرض مسئوليات، والتزامات، وواجبات، ونمنح امتيازات، وتفويضات، ونعاقب بجزاءات، ونمنح سلطات، وتصاريح، وغيرها من ظواهر العرف الأخلاقية. عندما عرضنا من قبل للعنصر ص بعامة ذكرنا أن وضعه يمنح قوة أويسلبها ، وبناء على هذا يتضح لنا أن هناك فئتين كبريين تندرج تحتهما الوظائف المرتبطة ببلوغ منزلة أو مرتبة ما. فى الفئة الأولى تكتسب الذات الفاعلة نوعا من النفوذ الجديد عن طريق شهادة، أو سلطة، أو بإمكانها تفويض، أو حق، أوتصريح، أو خاصية تمنحها القدرة على فعل شىء لم يكن بإمكانه أو بإمكانها فعله بدونها. والفئة الثانية يفرض فيها على الشخص التزام، أو يكلف بأداء واجب، أو يعاقب، أو يحظر عليه، أو يضطر لسبب ما للتعرض لشىء ما كان ليتعرض له بدون هذا الفرض، أو يمنع من شىء ما كان ليمنع منه لولاه. هاتان بالتقريب هما الفئتان الكبريان من السلطة : السالب منها والموجب. ولكى نجعل الأمر أوضح يمكن أن نقول إن كل الأمور الخاصة بالوظائف المبنية على بلوغ منزلة ترتبط بالأخلاق هى أمور ترتبط بسلطة العرف. يعيننا هذا الاصطلاح على أن نميز قوة العرف من قوة المادة الفيزيائية (الخام)، هذا على الرغم من أنهما بالطبع تسيران جنبا إلى جنب، لأن الغاية من منح سلطة العرف عادة هو التصريح باستخدام قوة المادة الفيزيائية الخالصة، و قوة الشرطة ونفوذها من الأمثلة الواضحة على ما نقول.

لو لم نتخذ الموضوعات الاجتماعية من مثل النقود والحكومات والجامعات هدفا أساسيا لتحليلنا، بل الأشخاص الذين بإمكانهم أن يؤثروا ويتفاعلوا مع هذه الموضوعات،

لتحول التصنيف إلى وجهة أخرى ،ترى الفئتين الكبريين إنما تتمثلان فى امرين : إما إمكان الشخص القيام بأمر ما، وإما إلزامه القيام به (أو عدم القيام به)، اى ما يمكن للشخص أن يفعله، وما يكون عليه أن يفعله بناء على ما أسند إليه من وظيفة تؤدى بحكم بلوغ منزلة بعينها،أى ما يندرج تحت العنصر ص. و لدينا على هذا بعض الأمثلة :

لدى جون ألف دولار فى البنك .

توم مواطن من مواطنى الولايات المتحدة الأمريكية.

كلينتون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية.

سالى محامية.

سام يمتلك مطعما.

كل جملة تخول حقوقا وتفرض مسئوليات؛ فالجملة الأولى تخول لجون - بما لديه من المال - الحق فى شراء الأشياء أو ابتياع خدمات الناس، كما أنها توجب عليه دفع الضرائب عن الأرباح التى كسبها عن النقود. والجملة الثانية تخول لتوم الحق - شأنه شأن الكثيرين - فى التصويت فى الانتخابات، كما تفرض عليه التزامات شأن غيره من الناس، فتلزمه بحمل رقم خاص بالتأمينات الاجتماعية. والجملة الثالثة تخول لكلينتون حق الاعتراض القانونى، وتحمله مسئولية توجيه خطاب الاتحاد لمجلس الشيوخ، إلخ. لاحظ كذلك أن الوقائع المرتبطة بالمؤسسة التى تفرض المسئوليات على الناس، ليس من العسير عليهم أن يتخلصوا منها أو يلغوها بطرق عدة، من الأمثلة على ذلك :

آن فقدت كل نقودها.

صارت ثروة إيفان من الروبلات عديمة القيمة فى فترة التضخم.

استقال نيكسون من منصبه.

انقضت فترة رئاسة كوليدج.

حصل سام على الطلاق.

مات زوج سالى.

٣ ـ المرتبة الشرفية: التكريم منزلة لذاتها

إن الغاية من التشريف (أو عدم التشريف) هى الحصول على أوضاع تكريم (أو انتقاص) فى ذاتها. وليس الهدف منها الحصول على شىء من ورائها. من الأمثلة على ذلك الفوز أو الهزيمة فى المباريات، وأشكال الجزاء المرتبطة بالمؤسسة ؛ كأن يكرم شخص على ملأ أو يُوبَّخ شخص على ملأ. من الأمثلة على ذلك :

فاز مارك ببطولة الغرب الأقصى للتزلج.

وجه مجلس الشيوخ اللوم لمكارثى.

منحت الكلية الفرنسية بيل ميداليتها .

بالإضافة إلى هذه الأنماط الثلاثة الخاصة بفئات الوظائف التى تؤدى بحكم بلوغ منزلة بعينها، نرى أننا بحاجة إلى أن نحدد السمات الإجرائية التى تعد من شروط سلطة العرف ومراتب الشرف.

٤- الخطوات الإجرائية فى سبيل الحصول على القوة والتكريم

يمكن فى إطار المؤسسات أن نفرض خطوات مرحلية إجرائية تؤدى إلى الحصول على حقوق و تفوض فى الاضطلاع بمسئوليات، أو تكسب تشريفا أو تجر إلى خزاية. من الأمثلة على ذلك:

صوَّت بيل لصالح ريجان.

رشح الديموقراطيون كلينتون للرئاسة.

أيَّد القاضى الاعتراض .

فى النموذج الأول الخاص بالتصويت لا يؤدى الاقتراع فى حد ذاته - على الرغم من أن التصويت حق من حقوق المواطن - إلى الحصول على أية حقوق، أو إلى تفويض المرشح فى الاضطلاع بمسئوليات جديدة. إنما يفضى تجمع الأصوات، والحصول على الأغلبية، إلى الحصول على حقوق، والتفويض فى الاضطلاع بمسئوليات جديدة. فالحصول على ستة أصوات يشبه الحصول على ست نقاط فى مباراة كرة القدم، ولا يشبه الحصول على ستة دولارات. فستة أصوات مثل ست نقاط، كلاهما خطوة من مجموع خطوات على طريق الفوز، وليس بالإمكان فعل شىء آخر بهما. لكن بستة

دولارات يمكن فى الحقيقة شراء شىء ما. ونكرر أنه عندما يُعلن المرشّح رئيسا أو رئيسة للجمهورية فإنه ينال حقوقا ويفوض فى الاضطلاع بمسئوليات بوصفه منتخبا، غير أنه يُفترض أن الغاية من الترشيح أن يكون خطوة على الطريق للرئاسة.

يمكن لهذه السمات الأربع السابقة أن تنطبق على أية واقعة من الوقائع المرتبطة بالمؤسسة.فوضع المرشح الديموقراطى يخول له حقوقا، ويفوضه فى الاضطلاع بمسئوليات، وهذا فى حد ذاته شرف عظيم، كما أن هذا يعد خطوة مرحلية على طريق رئاسة الجمهورية. والأمر كله لا غنى لوجوده عن الكلمات ، وعن أنواع أخرى من الرموز، كما قد شرحت فى الفصل الثالث.

أود أن أوضح كيف تنطبق هذه الأفكار على المثل الخاص" بالمباريات"، لأنها من النماذج المفيدة بوجه خاص للدراسة المتصلة بتحليلنا هذا، ذلك أنها ترسم صورة مصغرة لعالم الظواهر الاجتماعية الأكبر. من المشهور أن فيتجنشتين Wittgenstein قد برهن على أن كلمة "مباراة " لا تشير إلى أمر جوهرى. ومع ذلك فثمة سمات بعينها تشترك فيها مع ما يندرج تحت صنف المباريات . نشهد هذه السمات فى مباريات البيسبول والتنس وكرة القدم... إلخ، وفى كل منها نجد المباراة تتكون من سلسلة من المحاولات لقهر عقبات بعينها أقيمت لتحفزنا للتغلب عليها. وفى الوقت الذى يحاول فيه كل فريق من الفريقين أن يتغلب على هذه العقبات نراه يحاول كذلك أن يعوق الطرف الآخر عن التغلب عليها(*).

وتحدد قواعد اللعبة نوع العقبات وكيفية التغلب عليها، كما تحدد ما لابد أن يقوم به اللاعبون، وما يلزم عليهم أن يتجنبوه. لذلك فقواعد لعبة البيسبول تسمح لضارب الكرة أن يسدد ضربة (مطوحا) ولكنها لا تقتضى منه أن يطوح بالكرة. ومع ذلك فبعد أن يستنفد ثلاث ضربات عليه أن يترك مربع التصويب للاعب آخر. معظم قواعد اللعبة يرتبط بالحقوق والواجبات (السمة ٢) لكن الهدف النهائى هو الفوز (السمة ٣) والكثير من الخطوات التى تتخلل اللعبة هى خطوات مرحلية إجرائية على طريق الفوز (السمة ٤). فكثير من الحقوق والواجبات مشروطة، ولذلك فلو أن ضارب الكرة أحرز هدفه بتسديد ثلاث كرات مثلا فإن هذا لا يتيح له - حتى هذه اللحظة - صلاحيات

(*) لم أبتكر هذا الرد على فيتجنشتين فيما يخص المباريات، ولا أعرف من فكر فيه أولا، ولا أين سمعته أول مرة، غير أنه قد صار جزءا من التقليد الشفاهى.

أكثر، أو يلقى عليه بأية تبعات. وإنما يقيّد بعضا من حقوقه ويلزمه ببعض الواجبات : فتصويبتان أخريان تخرجانه، وتصويبة واحدة ترده لخط الانطلاق. تتطابق هذه الحقوق المشروطة والمسئوليات مع الأبنية المرتبطة بالمؤسسة. فعلى سبيل المثال، في الجامعات الأمريكية، بعد سنوات طويلة من الخدمة بالجامعة يكون عضو هيئة التدريس قد صار مؤهلا لأن يثبَّت فى وظيفته.

سلطة العرف وما لها من بنية منطقية

للمزيد من بسط المسألة -التى طرحنا من أجلها فى عرضنا السابق تصنيفا عاما لا يزال موضع الاختبار - أريد الآن أن أختبر بنية القصد العقلى بالوقائع المرتبطة بالمؤسسة ، كى أحدد بالنص الشكل العام لمضمون الوظيفة التى تؤدى بموجب بلوغ منزلة ص . عندما ننتقل من (س) إلى (ص) فى الصيغة الرمزية " (س) تعد بمثابة ص فى السياق أو بشرط ع". لأن مضمون ص قد فُرض على العنصر س عن طريق الاتفاق الجماعى، فلابد أن يكون لهذا الاتفاق الجماعى مضمونا ما (كالاعترافات، والمعتقدات... إلخ). نحن نفترض أنه فى طائفة كبيرة من النماذج يقتضى المضمون وجود صيغة من الصيغ المستمدة من سلطة العرف، حيث ترتبط الذات بنمط من الأحداث أو بمسار الأحداث. علاوة على ذلك فبسبب وجود قيود صارمة على أنواع السلطة التى من الممكن إيجادها عن طريق القبول الجماعى، لابد أن يكون بمقدورنا أن نحصر الأشكال العامة لمضمون العنصر ص داخل عدد محدود للغاية من الصيغ. لأن السلطة دائما تتضمن القدرة على فعل شىء أو منع شخص آخر من فعل شىء، يشبه مضمون عباراتنا التى نصور بها سلطة الوظائف - التى قد فرضت بموجب بلوغ منزلة ما - فى جزء منه الصيغة :

(ث تفعل أ)

حيث يحل محل "ث" ما يعبر عن شخص أو مجموعة من الأشخاص، ويحل محل"أ" اسم لفعل أو حركة أو نشاط، بما فى ذلك الأشكال السلبية منها كالإحجام أو المنع.

لو أخذنا فى التفكير على هذا النحو لوجدنا أن الشكل الأولىَّ للقصد العقلى الجماعى عند فرض هذه البنية على العنصر (س)، فى الصيغة الرمزية "(س) تعد مثابة (ص) فى السياق أو بشرط (ع) "هو:

نحن نقبل أن (ث لها سلطة «ث تقوم بـ أ»)

وبأسلوب تقليدى نقول إنه بإمكان المرء أن يقوم بعدد من الخطوات العملية مستندا إلى تلك البنية الأساسية، وتلك العمليات تضرب مثلا على عدة فروق مميزة، كنت قد أوضحتها من قبل؛ فلقد ذكرت سابقا، أن هناك فرقا بين سلطة العرف السلبية وسلطة العرف الإيجابية، هو الفرق بين الممكنات و الضرورات. وهناك فرق يميز كذلك بين جعل العرف له سلطة وتحطيم هذه السلطة أو إلغائها والتخلص منها. من الأمثلة على ذلك الفروق التى تميز بين الزواج والطلاق، وبين تعيين شخص ما فى وظيفة وإقالته أو إقالتها منها. هذا علاوة على وجود فرق آخر يميز بين سلطة العرف فى خطواتها المرحلية الإجرائية وسلطته بعد أن تكتمل مراحلها . يتمثل ذلك فى الفرق المميز بين الحصول على عدد بعينه من الأصوات عند الاقتراع، والفوز فى الانتخابات. فالحصول على الأصوات هو خطوة مرحلية على طريق الفوز، والفوز هو النهاية التى بها تكتمل عملية الانتخاب .يتبقى أمامنا الفرق الذى يميز بين إيجاد وقائع مرتبطة بالمؤسسة بداءة ، وما يعقب ذلك من الحفاظ على استمرارها، وسوف أناقش هذا الفرق فى الفصل التالى.

لكى نبدأ فحص شكل تلك الخطوات المرحلية علينا أن نبدأ بفحص الصيغتين الأساسيتين، أعنى صيغتى الإمكان والضرورة اللتين تتمثلان فى الأمثلة التالية :

نحن نقبل أن (بمقدور ث «أن تفعل ث أ»)

نحن نقبل أن (ث يقتضيها الأمر أن «تفعل ث أ»)

فى الحالة الأولى الخاصة بالتمكين من أمر ما نخول - (نحن) بوصفنا جماعة - فردا أو جماعة سلطة ما، أما فى الحالة الثانية حالة الإلزام ؛ فنحن - بوصفنا جماعة - نقيد سلطة جماعة أو شخص ما.

نجد - بناء على الفرضية التى أتتبعها - أنه لو وضعنا كل تلك العناصر معا فإن صيغة النموذج الكامن داخل سلطة العرف حين يكون لها فاعلية الإمكان، تكون على غرار النموذج "(س)، تلك القطعة من الورق، تعد بمثابة (ص)، خمسة دولارات"، هذا النموذج فى جزء منه يعنى :

نحن نقبل أن (ث حاملة س، بمقدورها أن تشترى(ث بـ س («ما يمكن أن تبلغ قيمته») (خمسة دولارات)(*).

أما فى حالة سلطة العرف السلبية؛ حين تقتضى منا الضرورة (أن نفعل أو لا نفعل)، يمكن أن نضرب لها المثل بـ" (س)، تلك القطعة من الورق، تعد بمثابة ص، تذكرة جراج"، وهذا يفضى بنا إلى أن صيغة النموذج الكامن لتوجه وعى الجماعة سوف تعنى فى جزء منها :

نحن نقبل أن (ث، الشخص الذى من أجله أُصدرت س، من يلزم عليه أن «ث يدفع غرامة فى غضون فترة زمنية محددة»).

لقد وصفنا حتى الآن شكل الوقائع المرتبطة بالمؤسسة التى لها طابع الاستمرار. حيث يكون قد صار لدينا مثلا ورقة مالية من فئة خمسة دولارات بالفعل، أو تذكرة جراج. لكن تلك القوى الخاصة بالعرف إما أن تكون هى نفسها قد أنشئت وإما أن تكون قد أزيحت. وأفعال الإنشاء أو الإزاحة هذه قد تكون من ممارسات سلطة العرف. كالزواج والطلاق مثلا، أو قد تأخذ سلطة العرف فى النمو ببساطة شيئا فشيئا، كأن تقبل مجموعة من الناس شخصا ما وتتخذه بالتدريج قائدا لها دون انتخاب رسمى أو دون تعيين . عندما يكون الفعل هو فعل إنشاء سلطة من سلطات العرف أو إزاحتها فإن هذا الفعل نفسه هو ممارسة تامة لسلطة عرفية أخرى قادرة على إيجاد نفوذ أو إزاحته. لنفترض أن جهة ما لها القدرة على إنشاء سلطة عرفية - من مثل قسم موتورات وسائل النقل - تلك الجهة الرسمية تصدر رخصة قيادة لأحد الراغبين ث ممن تقدموا بطلب ذلك. فما هو نوع القصد العقلى الجماعى فى هذه الحال ؟ نحن فعلا بحاجة للتمييز بين وعى تلك الجهة الرسمية ووعى المجتمع المحيط الذى يجعل من النظام كله نظاما فعالا فى المقام الأول. من وجهة نظر المجتمع المحيط فإن الصيغة التى يتخذها جعل المؤسسة ذات سلطة هى :

نحن نقبل أن (الجهة الرسمية المعنية تجعل (ث بمقدورها أن «تقود ث سيارة»).

(*) تذكر، ألا يؤرقك ما قد يبدو من السير فى حركة دائرية تعود لنقطة البداية من جديد، حين نستخدم الأفكار المرتبطة بالمؤسسة من مثل (يشترى) أو (قيمة خمسة دولارات)، عندما نضع فى الاعتبار مضمون القصد العقلى، مادامت هذه الأفكار قد فسرت بعدة طرق حاولت أن أشرحها فى الفصل الثانى، وقد فسرناها عن طريق توسيع الدائرة بدلا من استبعادها.

عندما تتحطم سلطة من سلطات العرف، يبدو لى أن السلب يؤثر على القبول الجماعى لا على مضمون ما يجتمع عليه هذا القبول. لذلك فلو أن أواصر الزواج بين ث١ وث٢ مثلا قد تقطعت لترتب على ذلك أننا

لم نعد نقبل أن (ث ١ و ث٢ زوجان).

قد نميل إلى أن نعتقد أن على المرء أن يكون قادرا على أن يحدد كل سلطات العرف بناء على إضافة كل ما هو مبدئى لكل ما ينفيه. وما أحرزناه من نجاح فى فروع أخرى من المنطق يشجعنا على ذلك، لهذا ففى أنموذج alethic modal logic منطق الضرورة والاحتمالات نجد أنه:

لا يمكن لـ ب بالضرورة أن تكون سوى ب

وفى المنطق (الكمى) الحملى quantificational logic نجد أن :

(كل ما هو س يتسم بالخاصية ف بشرط ألا يكون هناك س لا تتسم بالخاصية ف)

وحتى فى بعض أنساق منطق الواجب الأخلاقى نجد أنه :

(يقتضى أمر ب ألا يسمح لها بأن تكون سوى ب)

فلم لا يكون هناك بنية موازية فى المنطق الخاص بالمؤسسة؟ لم لا يكون بمقدور (ث) ان (ث تؤدى الفعل أ) هذا وحسب، بشرط ألا تكون (ث) ملزمة بـ (ألا تقوم ث بـ أ)؟

لأول وهلة يبدو أن تلك البنية الموازية لن تجدى، لأن غياب الإلزام بعدم القيام بشىء (أى ترك حرية القيام به أمرا غير مشروط) لا يشكل فى ذاته أمرا تمكننا المؤسسة من ان نقوم به. فى المنطق الأخلاقى الكلاسيكى يتساوى غياب الإلزام بعدم فعل شىء ما ، مع السماح بفعله، غير أنه لا يوجد مثل هذا التساوى فيما يخص سلطة العرف، لأن هناك أشياء كثيرة لا يطلب منا ألا نفعلها(أى إنها غير ممنوعة)، ومع ذلك فالمؤسسة لا تخولنى الحق فى فعلها ولا تعيننى على القيام بذلك. فمثلا لا تعيننى المؤسسة على ان أستيقظ وأتجول حول الغرفة، أو أن أتمخط، أو أن أهرش رأسى على الرغم من أننى غير ملزم بألا أفعل هذا.

ورغم ذلك فلو فكرنا بعمق فى هذه الأمور لأمكننا أن نرى أن التوازى أمر ممكن تماما، والمشكلة تنحصر فى مجال من المجالات؛ إذ لا توجد سلطة العرف إلا حيث نضع الأساس لإيجاد أو لإقامة كيان ما، أو لتتخذ عملية ذات طابع إجرائى مرحلى خطوات تمامها. علينا أن نفكر فى الأمرين : فيما تمكننا منه المؤسسة، وفيما تقتضى منا أن نفعله، داخل إطار عملية الإنشاء التى تمارسها سلطة الجماعة. إن السبيل إلى فهم ركنى الشرط اللذين قد ذكرناهما آنفا، هو أن نفهم كل جملة (من جمل الشرط) بوصفها تقع فى إطار عملية إنشاء سلطة، وبذلك نكون قد فهمنا مذهب التوازى القائم على قانون التبادل فيما بين المنطق المشروط والمنطق الأخلاقى من جانب، والمنطق الكمى من جانب آخر، هذا التوازى الذى يعمل تماما لصالح المؤسسة .لذلك نجد أن

(ث) تتمكن من أن (ث تفعل أ) وحسب بشرط ألا يقتضى الأمر أن (ث لا تفعل أ).

هذه الصيغة الرمزية تعنى فى الحقيقة أنه عن طريق القبول الجماعى (تتمكن ث من «ث تقوم بـ أ» إذا لم يكن القبول الجماعى يقتضى أن (ث لا تفعل أ).

وسوف تزيد الأمثلة الفكرة وضوحا: عندما نضرب مثلاً سلطة رفض الموافقة على تشريع أو قانون يصدره مجلس الشيوخ من بين سلطات رئيس الجمهورية، هنا نجعل الرئيس غير ملزم بألا يعترض على مثل هذا التشريع. وبالمثل عندما أستصدر رخصة قيادة تخولنى حق القيادة يعنى هذا أننى قد اكتسبت منزلة تجعلنى غير ملزم بألا أقود.

هناك غاية بعيدة تنطوى عليها طبيعة سلطة العرف: فهى توجد . وحسب . عندما يكون ثمة فعل تأسيس. لذلك فلا يتساوى مجرد غياب سلطة العرف التى تتميز السالبة، مع حضور بعض أنواع سلطات العرف الأخرى، لكن مازال بإمكاننا أن نحدد نموذجى سلطة المؤسسة على أساس من سلطة + سلب (سلطة مانعة)، مما يبين أن كليهما قد فهم بوصفه يقيم سلطة على غرار الصيغة (التى قد طرحناها بداءة). هذان النموذجان لسلطة العرف نخول فيهما الحق لشخص أو لجهة بالفعل، و كلاهما يمكن أن نحدده فى إطار علاقته بالسلب (أى كل واحد منهما + سلب) .

ونضيف إلى ما سبق أنه بمقدورنا أن نحدد التخلص من سلطة ما وفقا لإلغاء سلطة عرفية كانت موجودة من قبل، كأن يُفصل موظف من عمله مثلا، أو كأن تقضى المحكمة بالتطليق، وفى كلتا الحالين تزول سلطة العرف عندما يكف الناس عن قبولها. وبهذا

تكون عبارة " أنت مفصول " مساوية للتخلص من سلطة العرف.

نحن نحول بينك وسلطة (أنك موظَّف)

وهذا يتساوى مع أننا

لم نعد نقبل أن (ث لها حقوق وعليها التزامات أن «ث تقوم بدور موظف»).

إن الدليل على أن الشكل المنطقى للتخلص من سلطة عرفية ما هو سلبها القبول الجماعى وليس نفى مضمون القبول، هو أن التخلص من سلطة العرف لا تقتضى منا الحفاظ على استمرارية الوضع الوظيفى على النحو الذى تقتضيه منا إقامة سلطة من سلطات العرف.لهذا فالزواج مثلا يقتضى منا الحفاظ على استمرارية هذا الوضع على خلاف الطلاق.

والآن فى ضوء هذه المناقشة التى عرضنا فيها الشكل المنطقى لبنية واقع المؤسسة، حرى بنا أن نتساءل عما قد بلغناه فى التصنيف التمهيدى للوقائع المرتبطة بالمؤسسة إلى فئات أو طوائف : منها وقائع رمزية، ومنها وقائع عرفية أخلاقية، و منها وقائع شرفية للتكريم وحسب ،ومنها وقائع إجرائية تمثل خطوات مرحلية. أظن أنه قد تبين أن التصنيف لا يبدو فعالا بالقدر الكافى. لأن كل شىء تقريبا يستحيل إلى وقائع أخلاقية عرفية . لو تأملنا النماذج الإجرائية فى كل الأمثلة التى طرحناها لوجدنا أن تلك النماذج كانت تمثل خطوات متراتبة فى سبيل بلوغ منزلة أخلاقية أو منزلة شرفية تقتضى بحكمهما أن تؤدى بعض الوظائف. ولهذا يعد وضع علامة x مثلا فى ورقة اقتراع تصويتا لصالح مرشح،كما يعد الحصول على أغلبية الأصوات فوزا فى الانتخابات. والتطويح تجاه الكرة مع عدم إصابتها يعد ضربة، واستنفاد ثلاث ضربات يعد خروجا. وفى هذه الحالات نجد أن الوظائف الإجرائية المرحلية التى تؤدى بموجب بلوغ منزلة هى وظائف عرفية أخلاقية مشروطة. وعندما يتحقق العنصر الشرطى السالف تكون النتيجة خطوة لأعلى فى تراتب واقع المؤسسة. لهذا تعد إصابة الكرة بضربة مثلا ذات منزلة أخلاقية عرفية مشروطة. ولها سلطة أن تخرجك لو استنفدت ضربتين أخريين. لكن عندما تحقق ضربتين أخريين بالفعل وتخرج فإن هذا بدوره يبلغ بك منزلة أخلاقية عرفية جديدة، على أساسها ترتقى سلم تدرج الوقائع المرتبطة بالمؤسسة.لكن لو اُختزلت الوظائف المرحلية الإجرائية التى تؤدى بموجب بلوغ المنزلة إلى وظائف أخلاقية عرفية مشروطة وأخرى شرفية، وأمكن تفسيرها وفقا لتراتبها

على أساس موقعها على سلم التدرج فى وظائف المراتب، لما تبقى لدينا موضع لفئة مستقلة خاصة بالوظائف الإجرائية.

والآن ماذا عن الحالات الشرفية؟ من الأفضل أن نتناولها بوصفها تُضَيق من دائرة النماذج الأخلاقية . فالمنزلة التى تنال التقدير فى ذاتها لا للسلطة التى تقترن بها هى من النماذج التى تحُد من نفوذ الوظائف التى تؤدى بموجب بلوغ منزلة ما. فالحالات الشرفية هى- بمعنى ما حالات يتراجع فيها ا النموذج الأخلاقى، لأن الحقوق و الالتزامات التى تقترن تماما بهذه الوظائف قد تقلصت إلى الحد الذى صارت فيه المكانة تُقدر أو لا تقدر لذاتها. والسؤال الآن هل الحالات الشرفية هى حالات فعلا أخلاقية ؟ أوهل الصفر فعلا رقم ؟ وهل الفئة الفارغة هى بالفعل فئة ؟ ولا يُطرح السؤال بحثا عن حقيقة واقعة، بل يطرح كى نتخذ قرارا. وأقترح أن يكون أفضل قرار نتخذه هو ألا نتناول الوضع الشرفى بوصفه فئة منفصلة.

وفئة الوقائع الرمزية هى كذلك حالة خاصة مما تنطوى عليه الحالات الأخلاقية، لأن اقتران الجمل بمعنى عرفى يجعل للمتحدث سلطة القيام بفعل كلام عن طريق هذه الجمل. لذلك لا نجد فى النهاية لدينا أربع فئات منفصلة. لكن لو استحال كل شىء إلى وظيفة تؤدى بموجب بلوغ منزلة أخلاقية، لما عاد مصطلح أخلاقى ملائما،لأنه كان قد وضع للتعبير عن تعارض، وقد تلاشى الآن. والنتيجة أنه، ليس بمقدورنا من وجهة نظر البنية المنطقية أن نحتفظ بطائفة الوقائع الرمزية، والأخلاقية والعرفية، والوقائع الإجرائية المرحلية؛ إذ نجد لدينا ببساطة أمرين : إنشاء سلطات العرف وتحطيمها . بعض هذه السلطات رمزى وبعضها شرفى تماما، وبعضها سالب، وبعضها شَرطى. وعلاوة على ذلك، فبعضها جمعى وبعضها فردى، وبعضها مفروض فى أساسه على ظواهر الوقائع الصريحة والحقائق العارية، والبعض الآخر قد فرض على أشياء تتمتع بالفعل بسلطة العرف. فى النهاية نجد أمامنا فئتين كبريين : الفئة اللغوية التى تتشكل على نحو ضيق وفقا لوجود جمل بالفعل وأفعال كلام، وفئة غير لغوية، تشتمل على النقود والممتلكات، والزواج، وما سوى ذلك مما ينطوى عليه واقع المؤسسة .

الخلاصة

تعزز مناقشتنا البنية المنطقية الخاصة بواقع المؤسسة الفرضية التالية، لا أعرف إن كانت هذه الفرضية صحيحة، ولم أعمد بالتأكيد إلى طرح هذا السؤال، لكنه جدير بأن يكون موضع بحث ؛ إذ يفسر ما كنا قد طرحناه قدمنا من معطيات حتى الآن :

فهناك بالتحديد إجراء منطقى أولى واحد، يوفر لواقع المؤسسة المقومات التى ينبنى على أساسها ويقوم عليها. يمكن صياغة هذا الإجراء على النحو التالى :

نحن كجماعة نقبل وندرك ونعترف بـ. وما على غرار ذلك من أفعال يمكن أن تختزل إلى الصيغة الرمزية.

(ث لها سلطة أن «ث تفعل أ»)

دعونا ندع هذه الصيغة الرمزية " البنية الأساسية ". ومن الحالات الأخرى الخاصة بالوظائف المترتبة على بلوغ منزلة ما، الحالات التى تتأسس فيها إجراءات التخيير (إما/أو) Boolean على صيغة البنية الأساسية الرمزية، والحالات التى تنشأ فيها تلك الأبنية بوصفها جزءا من نظام الأبنية المتراتبة iterated والحالات التى تكون فيها السلطة المسندة سلطة شرفية خالصة. لذلك فإلزامى بأن أدفع ضرائبى يتحدد وفقا لسلب (حرمان من سلطة أو كبح أو منع أو تقييد) يقع على صيغة البنية الأساسية يمكن أن تعبر عنه الصيغة الرمزية :

نحن نقبل (أن) (ث يلزم عليها أن «ث تدفع الضرائب) هذا وحسب بشرط أن نقبل (ن) «ث لا تملك سلطة أن(ث لاتدفع الضرائب»).

وحق ضارب الكرة فى لعبة البيسبول فى ضرب الكرة لمرة واحدة، مسألة شرطية، مسألة تراتب يخضع له شكل البنية الأساسية.

فنحن نقبل (أن) (ث لها الحق فى ضربة واحدة) هذا وحسب بشرط أن نقبل أنه

«لو أن ث ضرب ضربتين أخريين فسوف يخرج (من المربع ويحل آخرون محله)).

واستيفاء الشروط السابقة فى هذه النماذج يرفع البنية بنحو آلى إلى المستوى المتراتب الأعلى من هذه الوظائف، بناء على المستوى الأعلى من المنزلة التى قد بلغها التراتب، حيث تتجلى سلطة العرف بوضوح.

نحن نقبل أن «ث يخرج (من المربع) هذا وحسب بشرط أن نقبل أن «ث ملزمة بـ» أن «ث تترك اللعب».

يختزل الطرف الأيمن إلى البنية الأساسية + نفى

فى الصيغة الرمزية

نحن نقبل (أن) (ث لا تمتلك سلطة «أن ث لا تترك الملعب»).

بالطبع قد بالغت فى التبسيط لكى أجعل البنية المنطقية الكامنة واضحة، وهناك ملامح أخرى كثيرة ترتبط بالخروج من لعبة البيسبول غير مجرد ضرورة ترك الملعب. فمثلا ثلاث ضربات طائشة ويخرج هذا الجانب كله (الفريق من مربع التصويب، ليحل الفريق الآخر محله). لكن الفكرة التى أحاول أن أوضحها أنه فى النهاية كل هذه السمات هى تكرارات - بناء على سلطة العرف - وتنويعات على شكل البنية الأساسية. أعتقد أن البحث الذى أدرناه حول السمات المنطقية لمضمون ومعنى القصد العقلى نحو الوضع الوظيفى ص فى الصيغة الرمزية "س تعد بمثابة ص"، قد بدأ يكشف عن أن التعقيد الهائل فى كيان الواقع المرتبط بالمؤسسة يقف من ورائه بنية هيكلية بسيطة. ولا يدهشنا ذلك بعد طرح المسألة الأولية التى كان علينا أن نتناولها ؛ فليس لدينا سوى القدرة على فرض منزلة، وبحكم المنزلة تؤدى الوظيفة التى يعززها الاتفاق والقبول الجماعيان. غير أنى لا أود أن أعطى انطباعا بأنى أعتقد أنى قد سبرت غور هذه الأمور، وحتى لو كنت قد أصبت، فهذه المناقشة حتى الآن هى مجرد بداية.

هوامش الفصل الرابع

(١) لمزيد من النقاش التفصيلى انظر:

John R. Searle, Speech Acts: An Essay in the Philosophy of Language (Cambridge: Cambridge University Press, 1969),

John R. Searle, Expression and Meaning: Study in the Theory of Speech Acts (Cambridge: Cambridge University Press, 1979).

الفصل الخامس

النظرية العامة للوقائع المرتبطة بالمؤسسة

ثانيا: إيجاد الوقائع المرتبطة بالمؤسسة، وتدرجها، والحفاظ على استمرارها

فى الفصل الرابع استكشفنا أبعاد شكل البنية المنطقية الخاصة بالوقائع المرتبطة بالمؤسسة. ولقد توفر بين أيدينا عن طريق هذا التناول مادة كافية تتيح لنا أن نرسى دعائم نظرية عامة لإيجاد الوقائع المرتبطة بالمؤسسة : تعريفها، والحفاظ على استمرارها. عندما أعرض تلك النظرية العامة، سوف ألخص بعضا من مادة الفصول السابقة، لكى أستفيض فى شرحها. فى هذه المعالجة نحتاج إلى أن نميز بين عناصر أربعة : المؤسسة، ودورها فى إيجاد الوقائع، واستمرار وجود هذه الوقائع، وما تدل عليه.

أولا : هناك المؤسسة

وهى التى تتيح الفرصة لإيجاد وقائع ترتبط بها، تخرج من عباءة الوقائع الاجتماعية، والوقائع الصريحة أو الحقائق العارية. تتألف مثل هذه الوقائع المرتبطة بالمؤسسة من قواعد تضع الأسس والمقومات على شكل (ممارسات وإجراءات) تحتذى الصيغة الرمزية.

"(س) تعد بمثابة (ص) فى السياق". ولا شىء فى هذه الصيغة عجيب أو سحرى، ولا أريد أن نصير مولعين بها ولعا مرضيا. ما أرمى إليه هو أن أبين أن القصد العقلى الجماعى يفرض منزلة بعينها على ظاهرة ما، ومع هذا الوضع تأتى الوظيفة، وأجدنى بحاجة إلى صيغة رمزية تمثل بنية فرض تلك المنزلة، فالعنصر (ص) يفرض منزلة جديدة على الظاهرة التى يشير إليها العنصر س، ومع تلك المنزلة الجديدة تأتى وظيفة لا يمكن القيام بها بفضل السمات الفيزيائية الجوهرية التى يرمز إليها بالعنصر (س) فحسب. لأنه بدون المنزلة لا يتأتى القيام بالوظيفة، والمنزلة بحاجة لاتجاه وعى

الجماعة بالضرورة، ولاستمرار قبول تلك المنزلة وما يناظرها من وظيفة. والاسم الذى يطلق على الوظيفة مستمد من المنزلة؛ لذلك فمنزلة "النقود" مثلا تنطوى بالفعل على وظيفتها بوصفها وسيطا للتبادل من بين عدة وظائف أخرى . أحيانا ما تكون الوظيفة التى نعنيها تتحدد بعامة وحسب، أو يتضمنها التعبير عن المنزلة، وأحيانا أخرى تنطوى المنزلة على نطاق كامل من الوظائف، لا على وظيفة واحدة بعينها. لذلك نجد أن منزلة شخص ما يعد زوجا أو مواطنا مثلا قد اختصت كل واحد منهما بنطاق كامل من الوظائف. والمجتمعات المختلفة قد تختلف اختلافا جوهريا فيما يخوله كون الرجل زوجا أو مواطنا له من الحقوق وعليه ما يُلزَم به من واجبات. ومع ذلك، وحتى فى هذه الحالات ثمة إلماح ضمنى يتعلق بالوظيفة يحمله وصف موضوع يحظى بمنزلة ترتبط بالمؤسسة. يوضح هذا مثلا أن تكون بعض عناصر التقدير ملائمة لمنزلة دون سواها، فأن يكون الشخص زوجا أو مواطنا يعنى أن الصفات التى توصف بها هذه المنزلة من المحتمل أن تتوفر فى هذا الشخص الذى يتأهب للقيام بهذه الوظيفة فيكون زوجا أو مواطنا صالحا أو غير صالح.

قد يكون من المفيد أن نلفت النظر إلى أننا حين نستخدم فكرة الوظيفة لا نرمى بالتأكيد إلى أن نصادق على نوع بعينه من أنواع "التحليلات الوظيفية" أو " التفسيرات الوظيفية" فى البحث الاجتماعى. إن الوظائف التى نناقشها تتصل فيما بينها بمنزلة تناظرها، ومن ثم فإن التعبير عن منزلة بعامة ينطوى بطريقة ساذجة على الوظيفة التى تناظره. فحين نقول إن شيئا ما نقود ينطوى هذا فى أساسه على أنها تقوم بدور وسيط للتبادل،أى النقود - من بين أشياء أخرى بإمكانها القيام بها.

نحن بحاجة إلى أن نميز ثلاثة عناصر داخل إطار المؤسسة : مبدئيا إيجاد الوقائع المرتبطة بالمؤسسة ، ثم استمرار وجودها، والتعبير عنها تعبيرا رسميا (يتخذ فى العادة شكل تعبير لغوى) تمثله مؤشرات تدل على المنزلة.

من الأحداث التى ينطبق عليها إيجاد وقائع مرتبطة بالمؤسسة لها طابع الاستمرار (الأوكازيونات) مواسم تخفيض أسعار المبيعات، والانتخابات، وحفلات الزفاف، ولحظات إعلان الحرب، وجلسات البرلمان الافتتاحية، وكذلك التصديق على القوانين وإجازة التشريعات. يرتبط هذا غالبا - وليس دائما - بإعلان واضح وصريح من مثل "أعلن افتتاح جلسة البرلمان" أو " هكذا نعلن الحرب" و" أشهر زواجكما" تصف استمرار هذه الوقائع المرتبطة بالمؤسسة عبارات من مثل " هذه زوجتى" و" البرلمان منعقد"

و"هناك حرب مشتعلة" و"أمتلك ذلك الشىء" و"أنا خريج جامعة أوكسفورد". ومن أشكال التعبير اللغوى التى تمثل الوقائع المرتبطة بالمؤسسة كذلك قسيمة الزواج، وسندات الملكية، وشهادات الحصول على الدرجات العلمية الجامعية، والزى الرسمى، والميداليات، ورخص القيادة .

علينا أن نتوقف عند كل عنصر من العناصر الثلاثة كل على حدة ،الواحد تلو الآخر.

ثانيًا: إيجاد الوقائع المرتبطة بالمؤسسة

أبسط الحالات الخاصة بإيجاد وقائع ترتبط بالمؤسسة هى الحالات التى تكون فيها الأبنية المرتبطة بالمؤسسة قد ضمنت بالفعل أن أفعالا من مستوى أدنى بعينه تكون بمثابة ظواهر ترتبط بالمؤسسة من مستوى أعلى . ومن أوضح الأمثلة على ذلك المباريات وأفعال الكلام. إن تحريك قطعة خشب بعينها يكون بمثابة تحريك الفارس إلى البيدق الخامس فى إحدى مباريات الشطرنج . وفى سياق بعينه قد يعد كذلك بمثابة أن تضع الملك الخاص بك (الشاه) فى موضع يهدد بإسقاطه. وفى الظروف الملائمة يكون القول بوعى قاصد " أعدك أن آتى لرؤيتك" بمثابة وعد بالحضور لرؤيتك. واختراق خط مرمى الفريق الخصم حاملا الكرة فى أثناء المباراة يعد إحرازًا لضربة مرمى بست نقاط. وهكذا بالنسبة لعدد كبير من الحالات.أما الحالات المعقدة فتقتضى وجود نمط بعينه من الوقائع المرتبطة بالمؤسسة عن طريق القيام بأفعال يعد القيام بها نفسه نوعا من الوقائع المرتبطة بالمؤسسة . لذلك فمنح حقوق جديدة للملكية مثلا يقتضى بالضرورة وجود فعل بيع وشراء أو فعل منح . فى كل هذه النماذج تفرض وظائف يرتبط القيام بها بمنزلة جديدة على ظواهر كان لها بالفعل وظائف مفروضة عليها من قبل . من الأمثلة الخاصة على هذا النمط من إيجاد الوقائع المرتبطة بالمؤسسة نمط استخدام عبارات أدائية صريحة يسرى مفعولها بمجرد النطق بها performative utterances. فى مثل تلك الحالات يفرض على فعل من أفعال الكلام وظيفة تؤدى بموجب منزلة جديدة وظيفته فرض وظيفة بمقتضى منزلة جديدة. لذلك عندما يقول رئيس البرلمان " أعلن افتتاح الجلسة" فإنه يفرض وظيفة بمقتضى منزلة على فعل من أفعال الكلام، وظيفته افتتاح جلسة البرلمان. ونتيجة لذلك نجد بالفعل هذا الحشد من الناس قد فرض عليه الآن وظيفة ترتبط بمنزلة، منزلة وجوده فى جلسة برلمانية، ومن هنا يكون له سلطة التصديق على القوانين.

من حيث المبدأ لا يبدو أن هناك حدا أعلى لهذا النمط من تكرار تراتب iteration فرض وظائف بمقتضى منزلة على وظيفة تؤدى بموجب منزلة سابقة كانت قد فرضت عليها من قبل. لذلك يعد تعبير الناخبين فى أحد الانتخابات عن اختيارهم من يفضلون من المرشحين تصويتا. إن سلسلة من أفعال الكلام كهذه عندما تعتمدها السلطات تعد بمثابة انتخاب. والحصول على عدد كاف من الأصوات يعد بمثابة فوز . والفوز وحلف اليمين يقلدان شخصا ما منصب عمدة المدينة.

من المبادئ العامة: أنه بقدر ما تكون المنزلة المرتبطة بالمؤسسة الجديدة على أعلى قدر من الأهمية نكون أشد ميلا إلى أن يتخذ إعلانها شكل فعل من أفعال كلام صريحة تؤدَّى وفقا لقواعد صارمة. وأفعال الكلام من هذا النوع هى نفسها وقائع مرتبطة بالمؤسسة . لذلك فالحرب تدور رحاها لأنها أعلنت، ونحن نصير زوجا وزوجة لأننا قد تزوجنا وكلينتون رئيس الجمهورية لأنه انتخب وحلف اليمين وتقلد منصبه.

بعض الوقائع المرتبطة بالمؤسسة التى يستلزم تحققها وجود أفعال الكلام قد توجد دون أى فعل من أفعال الكلام، وذلك ببساطة لوجود واقعة اجتماعية قد حافظت على بقائها على مدى فترة من الزمن .

لذلك فلو أن هناك قوانين يتم عن طريقها "الزواج المدنى" فقد يوجد زواج بدون حفل زفاف، وحقوق الملكية كذلك قد تنتقل بالامتلاك المقابل بدون أى بيع أو إهداء (أى عن طريق اقتران طرف بطرف آخر).

ثالثًا: استمرار وجود الوقائع المرتبطة بالمؤسسة

إن سر (فهم) استمرار وجود الوقائع المرتبطة بالمؤسسة يكمن ببساطة فى أن الأفراد المرتبطين مباشرة بالجماعة، وعددا كافيا من أعضاء المجتمع المعنيين لابد من أن يستمروا فى قبول وجود تلك الوقائع والاعتراف بها . لأن وجود منزلة ما تنبنى على أساس من قبول الجماعة لها، ولأن القيام بالوظيفة يحتاج بالضرورة إلى المنزلة. ومن الأمور الأساسية للقيام بالوظيفة أن يستمر قبول المنزلة،لأنه فى اللحظة التى يرفض فيها كل أعضاء المجتمع أو معظم أفراده الاعتراف بحقوق الملكية مثلا كما يحدث عند قيام ثورة أو حركة جيشان متذمر يتوقف سريان حقوق الملكية فى ذلك المجتمع وتسقط.

يعد التراجع المطرد فى قبول نطاق كبير من أبنية المؤسسة حول العالم من السمات الرائعة والمروّعة التى تتسم بها هذه الفترة التى أكتب فيها كتابى هذا. إن انهيار الهوية القومية لصالح العرقية القبَلية يحدث فى بقاع متنوعة من العالم مثل البوسنة، وكندا، وتشيكوسلوفاكيا السابقة، وتركيا، وفى غير قليل من الجماعات الأمريكية. وفى عدة دول إفريقية ليس بإمكاننا أن نحدد أين ينتهى الجيش وتبدأ الجماعات المسلحة، أو من هو " القائد العسكرى " ومن هو " القائد الأعلى للقوات المسلحة". عدم الاستقرار فى روسيا قد بلغ مبلغه لدرجة أن أى شىء قد يقوله المرء بثقة الآن - عن العلاقات بين الجمهوريات، وعن القوى العسكرية، وعن البوليس السرى، وعن الجريمة المنظمة على سبيل المثال - سيكون على الأرجح قد مضى زمنه عند قراءة هذا الكتاب. تغرينا كل هذه الأمثلة بأن نعتقد أنها كلها تعتمد فى النهاية على من له أكبر قدر ممكن من القوة العسكرية، تلك الحقيقة العارية سوف يكون لها الغلبة على الوقائع المرتبطة بالمؤسسة. غير أن هذا فى الحقيقة ليس صحيحا. فالأسلحة عديمة الجدوى إلا بالنسبة لمن تأهلوا لاستخدامها بمساعدة آخرين وداخل تشكيلات - مهما كانت غير رسمية - فى إطار حدود تعترف بها السلطة والقيادة، وهذا كله يقتضى توجه وعى الجماعة ووقائع ترتبط بالمؤسسة .

من أكبر أوهام هذه الفترة أن" القوة صارت أكبر من فوهة السلاح التى فجرتها" تلك القوة فى الحقيقة تتفاقم حتى تفوق طاقة المنظمات التى نشأت فى كنفها، أى المجموعات المتسقة والمطردة من الوظائف المرتبطة بالمراتب والأوضاع. وفى مثل هذه المنظمات يكون حامل السلاح سيئ الحظ على الأرجح من أضعف الأشخاص و أكثرهم عرضة للخطر. إن القوة الحقيقية تكون فى يد الشخص الذى يجلس على المكتب، ويتفوه بالأصوات، ويوقع على الأوراق. مثل هؤلاء الأشخاص ليس لديهم من الأسلحة إلا مسدس للحفلات، أو سيف لزى التشريفات، على أفضل تقدير.

لأن المؤسسات تحيا على القبول، فإنه فى حالات كثيرة تبعث وسائل مشاعر الهيبة وتضفى معانى الشرف، وتضمن الحفاظ على الاعتراف والقبول . إن سلوك شارل ديجول فيما يخص فرنسا فى أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها كان يعكس هذه الأمور باستمرار، ساعد ديجول على إحياء مفهوم الدولة القومية الفرنسية والحفاظ على استمرارها، بالإصرار المستمر على الحفاظ على شرف فرنسا وعظيم قدرها،

وبالتظاهر بأن حكومة فرنسا المستقلة ظلت موجودة فى اثناء الحرب وبعدها، وبالإصرار المستمر على أن قادة الأمم الأخرى يعترفون بها ندا لهم. والفكرة عامة تماما، عندما تحتاج المؤسسة من المشاركين فيها إلى أكثر مما بمقدورها أن تستخرجه بالقوة، عندما يكون القبول عنصرا أساسيا، يكون الاهتمام الشديد بإحداث فرقعة، واحتفالية، وجعجعة razzmataz (كلمة من العامية، ويقابلها فى العامية المصرية : هيصة وزمبليطة) إنما نفترض أن شيئا هاما يحدث، أكبر من مجرد قبول بسيط للصيغة الرمزية"س تعد بمثابة ص فى السياق ع ". تستخدم الجيوش وساحات المحاكم - وكذا الجامعات وإن كان بدرجة أقل - الاحتفالات، والشارات، والأرواب الجامعية، والتشريفات، والرتب، وحتى الموسيقى، لتشجيع استمرار قبول الأبنية المرتبطة بالمؤسسة. لا تجد الزنزانات ضرورة كبيرة لتلك الأشكال لأن لها قوة فطرية خالصة .

ثمة طريقة لإيجاد وقائع مؤسسية - حيث لا توجد مؤسسة - وذلك ببساطة بالتصرف كأنها موجودة بالفعل. والمثل الكلاسيكى على هذا هو إعلان الاستقلال عام ١٧٧٦، فلم يكن هناك بنية ترتبط بمؤسسة على غرار الصيغة الرمزية "(س) تعد بمثابة (ص) فى السياق ع "عندما كان بمقدور مجموعة من رعايا الملوك فى مستعمرة تتبع التاج البريطانى تحقيق استقلالها عن طريق أداء أفعال كلام يسرى مفعولها بمجرد النطق بها. غير أن الآباء المؤسسين قد تصرفوا كما لو كان اجتماعهم فى فيلادلفيا هو السياق (ع) الذى مكنهم عن طريق القيام فى إطاره بفعل النطق بكلام بعينه من إيجاد واقعة الاستقلال (ص). لقد انصرفوا وقد أوجدوا وقائع مؤسسية وعززوا قبولها، لأن المجتمع المحلى دعمته القوة العسكرية التى كانت قد بلغت أوجها فى استسلام كورنويلز فى مدينة يورك .

إن الصيغة الرمزية "(س) تعد بمثابة (ص) " تنطبق على كل من إيجاد الظاهرة والحفاظ على استمرارها، لأن القاعدة التى تضع الأسس وتوفر المقومات هى وسيلة من وسائل إيجاد الوقائع. وبعامة بالإمكان أن نقول إن وجود الواقعة يستند إلى كونها قد وجدت ولم تتحطم بعد، لذلك فالشروع فى عقد القران يعد بمثابة التزوج، والتزوج وليس بالتالى الموت، أو فسخ الزواج، يعد بمثابة أن يصير المرء متزوجا. فقول "أعلن افتتاح البرلمان" يعد بمثابة افتتاح للبرلمان، وأن يكون البرلمان مفتتحا وليس بالتالى مختتما يعد بمثابة كونه منعقدا.

لما كانت الوقائع المرتبطة بالمؤسسة توجد فحسب عن طريق الاتفاق الجماعى نجدها فى حالات كثيرة تستلزم تمثيلها والتعبير عنها بشكل رسمى، أى عن طريق ما قد أسميته من قبل المؤشرات الدالة على المنزلة، لأن وجود وقائع ترتبط بالمؤسسة لا يمكن أن يستخلص من الوقائع الفيزيائية الصريحة الخالصة الخاصة بمنزلة ما . وتمثل واقعة الحرب إستثناءً لأنه من الواضح أن الوقائع الصريحة الخالصةذ كقتل الناس بعضهم البعض - بشكل جماعى - عادة ما تجعل المؤشرات الرسمية الدالة (على هذا الوضع) غير ضرورية . فالنقود مثلا لا تستلزم وجود وثائق إضافية تشير إلى أنها نقود، لأنها هى فى ذاتها شكل من أشكال الوثائق . فالورقة المالية مكتوب عليها " دولار واحد" أو " عشرة جنيهات" ..إلخ، وهذا حد النقود . حتى فى المجتمعات السابقة على الكتابة كان من السهل معرفة العملة بوصفها عملة، حيث كانت سماتها من حيث الشكل والحجم تشير إلى واقعة عرفية ترى فى هذا الشىء عملة . وبالمثل تشير السندات إلى ذاتها، وكذلك بطاقات الائتمان، والشيكات. وبالمثل نجد فى أفعال الكلام ذاتها ما يعرفها بالنسبة لأولئك الذين يعرفون اللغة .

فى المجتمعات ذات البنية المعقدة نجد جوازات السفر ورخص القيادة من المؤشرات المألوفة الدالة على المكانة، وهى تشير إلى منزلة حامليها ممن لهم الحق القانونى فى السفر من وإلى البلدان الأجنبية، وممن لديهم رخصة تؤهلهم للقيادة . ومن أكثر المؤشرات الدالة على المنزلة شيوعا التوقيع الخطى، فالتوقيع على الوثيقة قد يوجد واقعة مؤسسية جديدة؛ إذ يشير استمرار وجود التوقيع المكتوب، وما على غراره من الصيغ، إلى استمرار وجود الواقعة. وهذا الدور قد لا يلعبه الفعل الأدائى الحيوى لأنه لا يحظى بما للتوقيع الخطى من استمرارية، كما يعد مؤشرا على ما قد جد من منزلة. إن وظيفة المؤشرات الدالة على المنزلة هى دائما وظيفة إبستمولوجية . نحن بحاجة إلى أن نميز دور اللغة فى تشكيل الواقعة المرتبطة بالمؤسسة، وهو الدور الذى قد وصفته فى الفصل الثالث، والذى نميزه من دور اللغة بوصفها تتطابق مع ما قد تأسس بالفعل. بالرغم من أن الكلمة نفسها أو الرمز قد يلعب الدورين كليهما . وأنا أصف هذا الدور الأخير عندما أتكلم عن المؤشرات الدالة على المنزلة. (هناك دور للغة تقيم وضعا

وظيفيا عن طريق التعبير، والمنطوق اللغوى، وأفعال الكلام سارية المفعول بمجرد النطق بها هذا من جانب، وهناك دور آخر للغة من جانب اخر حين تتطابق مع واقعة مؤسسية قد وجدت بالفعل) .

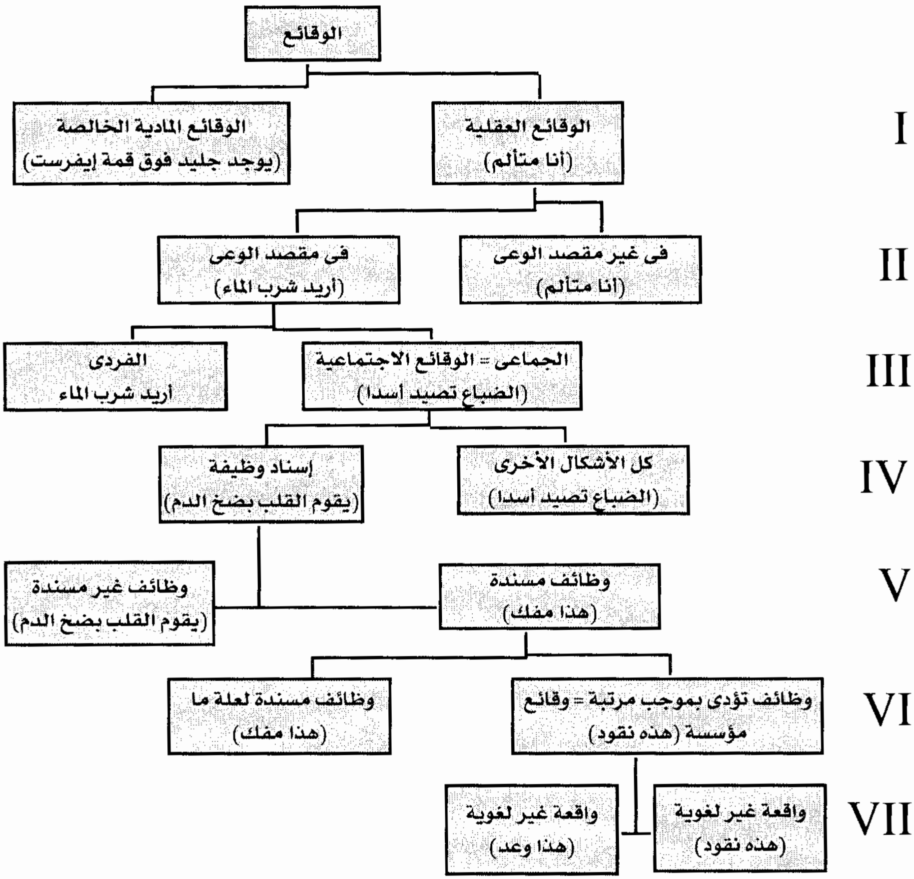
بعض المؤشرات الدالة على المكانة ليست بحاجة إلى أن تكون علامات لغوية صريحة، أى إنه من غير الضرورى أن تكون كلمات بالفعل. وأكثر الأمثلة وضوحا (فى هذا السياق) خاتم الزواج، والزى الرسمى. ومع ذلك فكلاهما له دور رمزى كاللغة. فلبس خاتم الزواج أو الزى الرسمى يشكل نمطا من أنماط أفعال الكلام. فالمؤشرات الدالة على منزلة ما لا تقوم بدور إبستمولوجى فحسب، وإنما تقوم بوظائف أخرى كالوظائف التعبيرية، والاحتفالية والجمالية كذلك . والأهم من ذلك كله أنها تقوم بوظيفة جوهرية هى توفير الأسس والمقومات التى على أساسها تقوم الواقعة . بالطبع ليس الزى هو ما يجعل من شخص ما رجل شرطة، غير أنه يسهم فى إقامة واقعة أن الرجل رجل شرطة فى الواقع؛ إذ يرمز لوظيفته بناء على تلك المنزلة التى قد حظى بها، وهذه الوظيفة الرمزية هى بشكل أو بآخر من الأمور الأساسية لوجود هذه المنزلة وما قد ارتبط بها من وظيفة . لقد حاولت خلال صفحات هذا الكتاب أن أؤكد أن اللغة بالنسبة للوقائع المرتبطة بالمؤسسة ليست لغة وصفية وحسب، بل هى من العوامل التى تسهم فى تكوين الواقع وقيامه .

تدرج الوقائع هرميا: من الوقائع الصريحة الخالصة أو الحقائق العارية إلى الوقائع المرتبطة بالمؤسسة

تنطوى المعالجة التى كنت أطرحها على تصنيف متدرج، أود الآن أن أجعله واضحا صريحا. إن عالم الواقع الذى تصدر فيه قرارات المحكمة العليا، والذى انهارت فيه الشيوعية، هو العالم الذى تتخذ فيه الكواكب أشكالها، وتتعطل وظيفة الموجة فى ميكانيكا الكم. من أهداف ذلك الكتاب أن يبين لنا كيف يمكن لهذا أن يقع على هذا النحو: [أى] كيف يمكن لعالم المؤسسات أن يكون جزءا من العالم "الفيزيائى" . سوف يعيننا هذا التصنيف الذى تتدرج فيه المراتب على أن نتبين موضع الواقع الاجتماعى، والواقع المرتبط بالمؤسسة، والواقع العقلى داخل واقع فيزيائى مفرد.

ومع ذلك فإقامة مثل هذا التصنيف ليس أمرا هينا،لأن هناك عدة تمييزات متقاطعة مختلفة نحتاج إلى أن نفهمها. بشيء من التردد أقدم صيغة مبسطة للعلاقات المتدرجة التى تربط الأنماط المختلفة من الوقائع(*).

لقد تم تجاوز الفارق الأساسى الذى نراه يميز بين الوقائع الصريحة الخالصة أو الحقائق العارية والوقائع المرتبطة بالمؤسسة، ولابد من استيعابه داخل مجموعة الفروق المميزة الإضافية التالية.



الشكل ٥ – ١ تدرج أنماط الوقائع.

(*) يسند أمر القيام بالوظائف تماما وعلى الدوام لظواهر فطرية خالصة، لهذا فقد رسمنا هطا يتجع من إسناد الوظائف إلى الوقائع الفيزيائية.

فى الشكل السابق نجد أنه :

على المستوى **الأول**: من بين أنواع كثيرة مختلفة من الوقائع، نميز بين مثل تلك الوقائع غير العقلية الصريحة الخالصة،من مثل أنه يوجد جليد وثلج فوق قمة إفرست، والوقائع العقلية من كل الأنواع، من مثل أنا متألم، وأريد شربة ماء. نحن لا نفضل المصطلحات الديكارتية القديمة، لأنه يبدو أنها تنطوى على تعارض بين العقلى والفيزيائى، لكن لو أمكننا أن نشيح عن الميتافيزيقا الديكارتية، بمقدورنا أن ندعو ذلك الفرق المميز بين الوقائع غير العقلية الفيزيائية الصريحة الخالصة من جانب، والوقائع العقلية ، من جانب آخر. ولا نعنى أن نلمح إلى أن هذا الفئات تستغرق كل أنواع الوقائع . فلو أن هناك وقائع خاصة بعلم الرياضيات مثلا فلن يشتمل عليها ذلك التصنيف .

وعلى المستوى **الثانى** : نميز داخل طائفة الوقائع المرتبطة بالمؤسسة بين الوقائع التى تتصل بالقصد العقلى فيما يعبر عنه ويمثله من مظاهر الوجود، من مثل إننى الآن أريد شربة ماء، والوقائع التى لا تتصل بالقصد العقلى، من مثل أننى متألم.

وعلى المستوى **الثالث**: نميز داخل فئة الوقائع المتعلقة بالقصد العقلى، بين الوقائع المفردة التى تتصل بالقصد العقلى، من مثل إننى الآن بحاجة إلى شربة ماء، من جانب، والوقائع التى تتعلق بتوجه وعى الجماعة من جانب آخر، من مثل أن تلك الضباع تهاجم أسدا . لقد استخدمنا تعبير " الوقائع الاجتماعية" بشىء من التحفظ يجعل كل الوقائع التى تتصل بتوجه وعى الجماعة وحسب وقائع اجتماعية ؛ وبناء على ذلك تكون الوقائع المرتبطة بالمؤسسة صنفا بعينه مما يتفرع من الوقائع الاجتماعية . وما يشغلنا هو تحديد السمات التى تميز هذه الطائفة الفرعية من سواها بخاصة .

من الآن فصاعداً سوف نعنى فى أغلب الأمر بالوقائع الاجتماعية، على الرغم من أن بعض الثنائيات المتقابلة تنطبق على الحالات المفردة كذلك. فمثلا يمكن أن يقوم بفرض الوظيفة على الأشياء فرد أو جماعة على السواء.

على المستوى **الرابع**: نميز- داخل إطار القصد العقلى بصنفيه الخاص بالفرد أو الجماعة - بين تلك الأشكال من القصد العقلى التى تسند أمر القيام بوظيفة لشىء ما، كما قد ذكرنا آنفا فى المثل "هذا مفك" من جانب، وكل الأمثلة الأخرى من مثل" أريد شربة ماء " من جانب آخر. فحين نسند أمر القيام بالوظيفة لشىء ما فنحن نوجد وقائع وظيفية.

نعرف أنه يبدو من الغريب أن يكون القول بأن هذا مفك من صنف الوقائع العقلية، لأنه من الناحية الأونطولوجية أمر ذاتى، بالرغم من أنه من الناحية الإبستمولوجية أمر موضوعى. غير أن هذا قد ترتب على طابع التعلق بالمدركين الذى تتميز به الخصائص الوظيفية. بل لأن كل وظيفة مفروضة إنما يسند أمر القيام بها إلى وقائع فطرية خالصة،فإن هذه السمة من سمات التصنيف ترجع إلى وجود وقائع فيزيائية فطرية خالصة فى تصنيفنا على المستوى الأول. يمكن أحيانا أن نفرض وظائف على وظائف أخرى غير أن مثل هذه التدرجات فى المراتب لابد أن تنهض تماما على ظواهر فطرية خالصة (انظر الشكل ٥-١). ينهض تدرج المراتب بعامة على الوظائف المسندة إلى ظواهر فيزيائية فطرية خالصة ؛ غير أنه من حيث المبدأ ليس ثمة ما يبرر لعدم نهوضها على ظواهر عقلية بعينها . قد نقرر مثلا أن نعد حدوث حالات عقلية بعينها من مقومات حدوث أنماط بعينها من الخلل العقلى . فى مثل هذه الحالة تعد س بمثابة ص، غير أن التعبير عن العنصر س يحيل على ظاهرة عقلية.

على المستوى **الخامس**: نميز داخل طائفة الوقائع الوظيفية بين الوقائع الوظيفية غير المسندة functional nonagentive من مثل أن وظيفة القلب أن يضخ الدم، والوقائع الوظيفية المسندة agentive functional من مثل أن وظيفة المفك أن يفك ويربط المسامير. إن الوظائف المسندة لا تفرض على المواد المصنَّعة فحسب، بل تفرض كذلك على الظواهر الطبيعية كذلك، فكلا التعبيرين "هذا الحجر مثقلة ورق جيدة" و"هذا غروب جميل" يمثل لحقيقة تسجل فرض وظائف على ظواهر طبيعية وتقدر قيمتها.

بمجرد أن يكون بمقدور المرء ـ إضافة لما سبق ـ أن " يفرض" وظائف مسندة على ظواهر طبيعية من مثل غروب الشمس مثلا،يصير بإمكانه كذلك أن " يكتشف" وظائف غير مسندة بين وظائف الأشياء المصنوعة . فلو أنك مثلا قد قبلت التمييز بين الوظائف الظاهرة والوظائف الكامنة ، واعتقدت أن الوظائف الكامنة هى وظائف عفوية، لكان اكتشاف وظائف كامنة ترتبط بالمؤسسات هو اكتشاف لوظائف غير مسندة لشىء مصطنع. ولهذا فلو اعتقدت مثلا أن وظيفة النقود الكامنة العفوية هى الإبقاء على أحد أنظمة الاضطهاد،فسوف تزعم أنك اكتشفت للنقود وظيفة غير مسندة بين الوظائف المسندة التى تقوم بها النقود بناء على ما لها من منزلة .

على المستوى **السادس**: نميز داخل طائفة الوظائف المسندة بين وظائف تؤدّى وحسب بفضل وجود علة ما، وبفضل وجود سمات فطرية خالصة أخرى من جانب ، ووظائف تؤدى وحسب بفضل قبول الجماعة لها من جانب آخر . والعنصر الأساسى الذى يعد السبيل لتطور الوظائف المسندة حتى تصير وقائع مرتبطة بالمؤسسة يتوفر عندما تفرض الجماعة وظيفة ما على ظاهرة ليس لها من التكوين الفيزيائى ما يضمن قيامها بتلكم الوظيفة . و عندئذ لا يمكن أن تتمكن من القيام بالوظيفة إلا عن طريق الاعتراف والقبول االجماعيين . تلك الوظائف التى تؤدى بموجب منزلة ما تشكل صنفا فرعيا من الوظائف المسندة . هكذا تتطابق فئة الوظائف القائمة المرتبط أداؤها بصلتها بمنزلة ما، مع فئة الوقائع المرتبطة بالمؤسسة .

من أمثلة الوظائف المسندة التى يمكن القيام بها بفضل العناصر الجوهرية لتركيبها الفيزيائى ما قد ضربناه من قبل فى الأمثلة : " هذا حوض استحمام " و"هذا مفك". أما أمثلة الوظائف التى تؤدى بموجب منزلة بعينها (الوقائع المرتبطة بالمؤسسة) فقد ضربنا لها الأمثلة "هذه ورقة مالية من فئة عشرين دولارا" و" هو محام".

على المستوى **السابع**: يوجد داخل طائفة الوظائف التى تؤدى بموجب منزلة بعينها أكثر من طريقة لتصنيف الوقائع المرتبطة بالمؤسسة، وهى مجموعة من المعايير تشتبك وتتقاطع لتميز بين كل نوع وسواه . و ليس بمقدورنا أن نضع كل هذا على الشكل التوضيحى المتدرج هرميا. لكننا نقدم هنا قائمة نحصى فيها بعضا من هذه الأنواع :

أ- بمقدورنا أن نقسم الوقائع المرتبطة بالمؤسسة وفقا للموضوع . أى أن نميز فى الوقائع المرتبطة بالمؤسسة بين ما هو لغوى، وما هو اقتصادى، وما هو سياسى، وما هو دينى... إلخ. وأهم عنصر مميز بالنسبة لنا هو أن نميز بين ما هو لغوى وما ليس بلغوى، بين الجملة الألمانية Es regent "إنها تمطر" من جانب، وانتخاب بيل كلينتون رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية، من جانب آخر.

ب - يمكن أن نميز الوقائع المرتبطة بالمؤسسة بما لها من مراتب مؤقتة ؛ فبمقدورنا أن نميز بين أن نقيم بداءة واقعة ترتبط بالمؤسسة (مثل صار كلينتون رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٩٣) والمثل على استمرار تلك الواقعة (كان كلينتون رئيسا لعام ١٩٩٣ كله،مدة دورة انعقاد البرلمان... إلخ) من جانب، والانقطاع الطارئ الذى يحدث عن طريق الانتهاء أو الانحسار أو الانهيار الكامل (مثل، سقوط الإمبراطورية البيزنطية عام ١٤٥٣)، من جانب آخر.

جـ ـ يمكن أن نميز الوقائع المرتبطة بالمؤسسة عن طريق العمليات العقلية . لقد أشرنا فى الفصل الرابع إلى أن الأبنية الأساسية كان لها شكل من أشكال فرض السلطة بناء على الصيغة الرمزية

نحن نقبل [أن] (لـ س سلطة [أن] «س تفعل أ» .

مثل تلك الصيغة الرمزية الأساسية نضرب لها مثلا " لدى سالى عشرون دولارا" أو"جون قائدنا"،غير أن ثمة عمليات منطقية من مثل السلب [أو النفى] والشرطية التى خضعت لها الصيغة الرمزية الأساسية . فسلب السلطة من مضمون الواقعة المرتبطة بالمؤسسة فى المثال الأول سوف يئول إلى :"سالى مدينة لى بعشرين دولارا" و سلب القبول فى المثال الثانى سوف يئول إلى " جون أقيل من القيادة" .

على المستوى **الثامن**: بمجرد أن يكون لدينا وظائف لغوية وأخرى غير لغوية يصير بمقدورنا أن نكرر تراتب إقامة وظائف فوق وظائف . فالعنصر ص من مستوى يمكن أن يصير العنصر س أو العنصر ع من المستوى التالى الذى يعلوه، أو من المستويات التى تتدرج فى العلو. لذلك فهذا وذاك من التعبيرات الكلامية المنطوقة بوصفها العنصر س١ تعد بمثابة وعد بـ ص١ فى السياق ع١، لكن فى ظروف بعينها [فى] السياق ع ٢ نجد ذلك الوعد بحق ص١= س٢ يعد بمثابة ارتباط قانونى يتعاهد فيه الطرفان [بنحو ملزم]، ص٢. وباتخاذ هذا التعاهد سياقا ص٢=ع٣ يمكن لفعل بعينه من مثل س ٣ أن يعد بمثابة خرق لهذا التعاهد ص٣. فى سياق هذا الخرق ص٣=ع٤. قد تعد سلسلة من الأفعال القانونية من مثل س٤ بمثابة دعوة قضائية ناجحة ص٤،ومن ثم يكون لها وظيفة رأب الصدع أو التعويض عنه. وهذا التكرار المتراتب يفضى إلى أعلى مستوى من مستويات الوقائع المؤسسية.

الوقائع المرتبطة بالمؤسسة وما للخلفية من قدرات

كنا نتحدث أحيانًا كما لو كان فرض الوظائف فرضا جمعيا هو على الدوام موضوع فعل عمدى أو مجموعة من الأفعال. لكن فيما عدا حالات بعينها حيث يصدق على التشريع أو تغيير السلطة، فإن قواعد أى لعبة و إقامة وقائع ترتبط بالمؤسسة إنما هو مسألة تطور طبيعى تماما، ولا حاجة فى هذه الحال إلى الوعى الصريح بفرض

الوظائف على ظواهر هى فى المرتبة من مستوى أدنى - سواء أكانت الوظائف تؤدى بموجب منزلة بعينها أم كانت أنماطا أخرى من الوظائف - توضح القصة التى ذكرناها عن النقود هذه الفكرة.. فارباط النقود بنا قد يتخذ طرقا لا ننتبه إليها أو تنال اهتمامنا. فلم يحدث أننا فى يوم من الأيام الطيبة قررنا كلنا أن نعد قطعا من الورق نقودا ؛ إنما تمثل الشكل الذى اتخذه القصد العقلى الجماعى، عندما بدأنا كلنا نعد تلك العبارات الواعدة وسيطا للتبادل، وعندما استمر قبولنا الجماعى لها. قد تستدعى بعض الحالات هذا القصد العقلى الجماعى، غير أن هذا يبدو لنا نمطا واحدا فحسب من الأنماط . فمن سبل فرض وظيفة على موضوع ما أن نبدأ فحسب باستخدام هذا الموضوع ليؤدى تلك الوظيفة؛ فالقيام بوظيفة ما يعتمد على مجموعة من الظواهر تشكل خلفية ضرورية وسياقا تستند إليه، يجعل من استخدامه ببساطة أمرا مسلما به.

وإضافة إلى هذا، حتى فى الحالات التى تفرض فيها الجماعة الوظائف على الظواهر فرضا جمعيا واعيا، لا نجد هذا يستلزم أن يصحب هذا الاستخدام نفس القصد العقلى الأصلى الذى صاحب فرض الوظيفة . فعندما يبتكر شخص ما- وربما مجموعة ما من الأشخاص - أدوات كالمفك أو الشاكوش مثلا، فهم يصنعون نمطا من الأدوات تفرض عليه وظيفة بعينها عن طريق القصد العقلى الجماعى . لكن الأجيال التالية من هذا المنتج تدخل مجال الثقافة ببساطة حاملةً اسم هذه الأدوات كالمفكات والشواكيش، دون التفكير فى وعى الجماعة الذى فرضها، وتأخذها فى الاعتبار أمرا مسلما به، بوصفها ببساطة أدوات مفيدة. فما قد عد مرة فرضا صريحا لوظيفة من الوظائف عن طريق فعل يتميز بتوجه وعى الجماعة والتفاته يفترض الآن أن يكون جزءا من الخلفية [أو السياق أو البيئة المحيطة] . فى الفصل السادس سوف نستكشف أبعاد الخلفية وصلتها بالتفسيرات التى تعلل وجود الظواهر الاجتماعية.

الفصل السادس

قدرات الخلفية وتفسير الظواهر الاجتماعية

لقد ذكرنا فيما سبق أن أبنية المؤسسات الإنسانية تتخذ شكل أبنية القواعد التى توفر المقومات وتضع الأسس. كما قد ذكرنا كذلك أن الذين يشاركون فى المؤسسات قد يكونون غير واعين تماما بهذه القواعد، فغالبا ما يكون لديهم معتقدات خاطئة عن طبيعة المؤسسة، بل إن الأشخاص الذين صنعوا المؤسسة بالفعل قد يكونون غافلين عن بنية المؤسسة.إلا أن تلك المجموعة من المزاعم تطرح علينا سؤالاً هامًا: ما هو الدور الذى بإمكان تلك القواعد أن تلعبه والذى يعد سببا يفسر وجود هذه القواعد ، ويجعل بإمكانها أن تؤثر فى السلوك الفعلى لمن يشاركون فى المؤسسة فى ظل هذه الشروط ؟ لو كان المشاركون فى المؤسسة غير واعين بالقواعد، ولا يبدو أنهم يحاولون اتباعها بوعى أو بغير وعى، ولو أن من أقاموا المؤسسة فى الحقيقة أو شاركوا فى تطورها بالفعل كانوا هم أنفسهم يجهلون تماما نظام القواعد، فما هو الدور الذى صنعته مجموعة من الأسباب، الدور الذى يمكن لهذه القواعد أن تلعبه؟

لم يتم حصر القواعد وتصنيفها، بعامة، وحتى فى حالة كحالة اللغات الطبيعية ، وحالة المِلكية حيث صنف اللغويون والمشرِّعونِ والمحامون الكثير من القواعد، نجد أن الكثيرين منا قد يغفلون عن هذا الحصر والتصنيف. وحتى لو كنا ندرك هذه التصنيفات، فإنها لا تفسر نفسها. وإنما علينا أن نعرف كيف نفسر القواعد المصنفة المنظمة لها وكيف نستخدمها.

ثمة إجابة مثلى عن هذا السؤال نجدها فيما خلفه لنا مبحث الإدراك العقلى cog- nitive scince وعلوم اللغة من آراء. وعلى مدار هذا الفصل سوف نرفض هذه الإجابة. بينما نرى الإجابة فى : أننا بالطبع نتبع تلك القواعد لكن عن غير وعى بذلك. فى حالات كثيرة فى الواقع لا تكون القواعد من النوع الذى بالإمكان أن نغفله. يقول

تشومسكى Chomsky مثلا عند تناوله فكرة النحو الشامل universal grammar إن الطفل بمقدوره أن يتعلم نحو لغة طبيعية بعينها لأنه (أو لأنها) يمتلك بالسليقة قواعد نحو جامع، وهذه القواعد فى عمق من اللاوعى، بحيث لا يكون بمقدور الطفل أن يعى إجراءاتها[1]. وطريقتها فى العمل مألوفة فى مبحث الإدراك العقلى. يقول فودور Fodor إنه لكى نفهم أى لغة علينا كلنا أن نعرف لغة الفكر[2]. وهذه اللغة فى عمق من اللاوعى، بحيث يتعذر علينا تماما أن نكون على وعى بعملياتها. ولا ترضينا أبدا هذه الأساليب من التناول. وجدنا منذ فرويد Freud أنه من المفيد و الملائم أن نتحدث ببساطة وبلا تكلف عن اللاوعى، دون أن نتحمل تبعة أن نفسر ما نعنى بالتحديد. إن الصورة التى نتصور بها حالات اللاوعى تشبه تماما صورة حالات الوعى، وإن كانت سالبة. ولكن ماذا يُفترض أن يعنى هذا بالتحديد؟ لم نجد إجابة شافية عن هذا السؤال. ولا نظن لدى تشومسكى ولا لدى فودور Fodor ولا حتى لدى فرويد مثل هذه الإجابة .تتلخص فكرتنا بالتقريب فى أننا نعتقد أنه فى أغلب الحالات التى نلجأ فيها إلى اللاوعى فى مبحث الإدراك العقلى لا يكون لدينا بالفعل فكرة واضحة عما نتصدى له بالحديث[3].

وعلى الرغم من ذلك، ففى هذا الفصل لا أجدنى معنيا فى المقام الأول بالحدود الضيقة التى تنحصر فيها أنماط التفسير التى بين أيدينا، بل تتجه عنايتنا إلى طرح شكل آخر بديل لأنماط التفسير. لكى نشرح كيف يمكننا أن نتعلق بقواعد الأبنية، كأبنية اللغة والنقود والممتلكات والزواج وغيرها حيث لا نعرف القواعد ولا نتبعها بوعى أو بغير وعى، لابد أن ألجأ إلى ما أسميته فى موضع آخر "الخلفية "[4]. يشتمل هذا الفصل على جزأين : فى الجزء الأول سوف أسجل مجموعة من الملاحظات العامة عن هذه الخلفية وكيف تعمل، وفى الجزء الثانى سأطبق المبادئ التى ذكرتها وأرسيت دعائمها فى الجزء الأول سبيلا لفهم الواقع المرتبط بالمؤسسة.

ماذا تعنى الخلفية ؟ وكيف تعمل ؟

أثبت فى مؤلفاتى فى قضايا فلسفة العقل، وفلسفة اللغة ، الأطروحة الخاصة بما أطلقنا عليه "الخلفية " ؛ فحالات القصد العقلى ترسى دعائم وظيفة تعمل وحسب حالة توفر مجموعة من طاقات الخلفية التى لا تتوقف هى نفسها على الظواهر. لذلك

فالمعتقدات والرغبات والقواعد مثلا هى وحدها التى تحدد مدى انطباق شروط صدق المعتقدات وإشباع الرغبات...إلخ عليها حين يتوفر لها مجموعة من القدرات التى لا تتوقف هى فى ذاتها على تلك الظواهر التى قد التفت إليها الوعى .من أجل هذا حددت للخلفية مفهوما يرى فيها مجموعة الطاقات غير الموجهة، أو السابقة على القصد العقلى التى تمكن لحالات الوظائف المرتبطة بالتفات الوعى والقصد عقلية نحو التعبير عن ظواهر الوجود. غير أن هذا التعريف يشتمل على أربعة مفاهيم على درجة من الصعوبة هى: الطاقات capacities والتمكين من enabling وحالات القصد العقلى intentional states و الوظائف.functions.

نعنى بالطاقات: القدرات أو الإمكانات abilities والميل إلى التصرفات "dispositions والاتجاهات أو المواقف tendencies والأبنية المترتبة على وجود الأسباب بصفة عامة .causal structures. من الضرورى أن ندرك أننا عندما نتحدث عن الخلفية إنما نتحدث عن طائفة بعينها من المقولات التى تتسبب فى قيام الأعضاء بوظائفها الفسيولوجية العصبية، ولأننا لا نعرف كيف تعمل هذه الأبنية على مستوى وظائف الأعضاء العصبية فنحن مضطرون إلى أن نتناولها على مستوى أعلى بكثير (من مستوى وظائف الأعضاء العصبية). ولا شىء فى هذا مما يَشين فى هذا أو يزرى، فعندما أقول مثلا إنه بمقدورى أن أتحدث الإنجليزية فأنا أتحدث عن كفاءة يتسبب فيها مخى، ولا اعتراض على أن أعرِّف هذه الكفاءة بوصفها "القدرة على أن أتكلم الإنجليزية" دون أن نتعرض لتفاصيل فهم الوظائف العصبية للأعضاء ودورها فى ذلك.

من هنا نعنى بالتمكين الاعتقاد فى فكرة تتعلق بسبب. نحن لا نتحدث عن شروط منطقية للإمكان possibility بل عن أبنية الوظائف العصبية التى تعمل بناء على أسباب تؤدى إلى إنتاج أنواع بعينها من الظواهر التى تنبه إليها الوعى فمثلها وعبر عنها.

حالات القصد العقلى: لصالح نقاشنا الحالى سوف نزعم أن القصد العقلى لامراء فيه، على الرغم من أننا ندرك أنه يحتمل الكثير من الجدل. سوف نفترض تحديدا أن حججنا arguments لإثبات أن كل حالات القصد العقلى إما أن تكون واعية بالقوة وإما أن تكون واعية بالفعل، هى أدلة صحيحة(٥). ولهذا سوف يقتصر نقاشنا على أشكال القصد عقلى الواعية.

وأخيرا، الوظائف: سرعان ما ندرك وجود نخبة من الأنماط المتنوعة لقيام الخلفية بوظائفها. وسنسعى إلى تفسير هذه الأنماط تحت العناوين الكبرى العامة ، لأشكال التمكين المتنوعة.

أبسط حجة نثبت بها الفرضية الخاصة بالخلفية أنه ليس بمقدور المعنى الحرفى لأى جملة أن يحدد شروط صدقها أو شروط سلامتها إلا فى مقابل طاقات الخلفية ، والخصائص السلوكية، وأسرار التركيب إلخ، وهى أمور ليست فى ذاتها جزءا من مضمون الجملة. بالإمكان أن ندرك هذا بالنسبة إلى أية جملة على الإطلاق، غير أنه ربما يكون أشد وضوحا فى حالة الجمل التى تشتمل على الأفعال الإنجليزية البسيطة من مثل الفعل" قطع" أو "فتح " أو "كبر - نما". علينا أن نتأمل مثلا وقوع كلمة "قطع" فى جمل من مثل " سالى قطعت الكعكة "، أو مثل " قطع بيل العشب"،أو من مثل " قطع الترزى القماش"، وعندما نتأمل كذلك وقوع الفعل "كبر - نما " فى جمل من مثل" ينمو الاقتصاد الأمريكى " أو من مثل " ابنى ينمو" أو من مثل " ينمو العشب ". لكل فعل فى هذه الجمل عندما ننطق به النطق الحرفى المعتاد معنى مستقر. فلا يوجد التباس معجمى ولا استخدام استعارى. غير أنه فى كل جملة نجد أن كل فعل يعين شروط صدقه وملاءمته بعامة.لأن ما يعد قطعا أو نموا يتنوع وفقا للسياق الذى يرد فيه. فلو تأملت عبارة " قطع العشب " لعرفت أنها تؤخذ مأخذا يتميز من " قطع الكعكة" ولو أن أحدا طلب منى أن أقطع الكعكة فحششتها بالمنجل، أو طلب منى أن أقطع العشب فشطرته بالسكين، لساد شعور بأنى لم أفعل على الإطلاق ما طلب منى. ومع ذلك فلا يوجد فى هذه الجمل ما ينص حرفيا على ما يحول دون هذا التفسير الخاطئ. فى كل حالة نفهم الفعل بطريقة مختلفة بالرغم من أن معناه الحرفى لم يتغير، لأنه فى كل حالة يعتمد تفسيرنا على الإمكانات التى تتيحها الخلفية.

لا نود الآن أن نشرع فى عرض محاجتنا للبرهنة على الخلفية، لكننا نود أن نوضح أن هذه الظاهرة مهيمنة ومتغلغلة. دعونا نتأمل مثلا من الأمثلة التى ضربناها للجمل التى ناقشنا بها أوضاع تداول الوحدات اللغوية: linguistic pragmatics على غرار "هى أعطته مفتاحها، وفتح الباب". قد يدور نقاش طويل حول ما إذا كان المتحدث عندما نطق هذه الجملة قد قال بالفعل (أو قال ضمنا) إنه قد فتح الباب بذلك المفتاح، أو إنه يقول بالفعل إنها أعطته أولا المفتاح، ثم فتح الباب فيما بعد، غير أنه من المتفق عليه بعامة أن ما يقوله المعنى الحرفى للجملة غير قطعى undetermination (٦). نود

أن نلفت النظر إلى عدم وجود قطع حاسم بما يقوله المعنى الحرفى للجملة. فلا شىء فى المعنى الحرفى للجملة " أعطته مفتاحها، وفتح الباب" يحول دون فهم حطم الباب بالمفتاح، وأن المفتاح يزن مائتى رطلٍ وأنه على شكل فأس. أو يحول دون أن يكون قد (فتح الباب بمفتاحها بعد أن) ابتلع الباب والمفتاح ، ثم دفع بالمفتاح فى قفل الباب بحركة أمعائه.

سنترك لك أن تتخيل مدى لا نهائية التفسيرات البلهاء، بالرغم من أنها لا تزال تعد من التفسيرات الحرفية لهذه الجملة أو لسواها من الجمل. ما نرمى إليه هو أن المضمون الدلالى ليس الشىء الوحيد الذى يحول دون الوقوع فى هذه التفسيرات، وإنما يحول دون الوقوع فى هذه التفسيرات ببساطة ما لدينا من معرفة بالطريقة التى تجرى بها الأمور فى عالم الواقع. ولدينا كذلك مجموعة من الإمكانات التى تهيئنا للتكيف مع عالم الواقع، تلك الإمكانات ليست مما يشتمل عليه المعنى الحرفى للجملة، ومن غير الممكن أن تكون جزءا منه.

من الممكن أن تتسع أطروحة الخلفية للكثير من المضامين الدلالية حتى تشمل المضامين الخاصة بالقصد العقلى بعامة. فأى حالة من حالات القصد العقلى تحدد شروط الملاءمة فى إطار ما تشتمل عليه الخلفية من طاقات، وقدرات، وخصائص للتصرفات، وميول واتجاهات، مما لا يعد جزءا من معنى القصد العقلى نفسه ، ولا هو جزء من مكوناته.

يتعلق مبحثى الذى أناقش فيه ما أطلقت عليه الخلفية بمباحث أخرى فى الفلسفة المعاصرة،أذكر منها بخاصة ما كتبه فتجنشتين مؤخرا Wittgenstein، وهو فيما أعتقد - إن كنت قد أصبت الفهم - يدور على نفس الظواهر التى يدور حولها ما كتبه بيير بورديو Pierre Bourdieu عن الاعتياد habitus. أعتقد أن هيوم Hume كان أول فيلسوف يدرك الدور المحورى للخلفية فى تفسير الإدراك العقلى المعرفى، وقد كان نيتشه Nietzsche من أشد من تأثروا بتكامله الفذ، حين حث على ألا تكون على ما هى عليه.

كيف تعمل الخلفية ؟ بودنا أن نستشعر معا كيف تشكل كفاءة الخلفية التى تتسع لطاقات هائلة - بالرغم من أنها ليست جزءا من مضمون القصد العقلى ، وليس بمقدورها أن تكون جزءا من مضمون القصد العقلى - كيف تشكل المقتضيات الضرورية

التى تحتاجها المضامين الخاصة بالقصد العقلى كى تكون فعالة وتقوم بوظائفها. والسبيل الوحيد لتحقيق هذا هو أن نرصد بضعة أنماط للوظائف التى تقوم بها الخلفية.

أولا: تفسح الخلفية الطريق- كما قد أثبتنا من قبل - للتفسيرات اللغوية

لقد زعمت أن معنى أية جملة لا يقطع قطعا فاصلا بشروط صحتها لأن المعنى الحرفى للجملة يرسخ مجموعة من شروط الصحة توفرها لها كفاءات بعينها مما تشتمل عليه الخلفية. لاحظ أن الكلمات فى الأمثلة لها مضمون دلالى معتاد. فكلمة قطع فى الأمثلة تحتفظ بمعنى معتاد، غير أننا لا نفسر الجمل على مستوى المضمون الدلالى الصريح، وإنما يرتفع التفسير إلى مدى ما تشتمل عليه خلفيتنا من طاقات. فنحن نفسر على الفور وبلا عناء تلك الجمل بالطريقة النمطية الملائمة stereotypical appropriate way التى اتخذت شكل قوالب لها صفة الثبات.

ثانيا : تفسح الخلفية الطريق للتفسير المبنى على الإدراك الحسى perceptual interpretation

ما يجرى على الدلالات يجرى على الإدراك الحسى، فمن المألوف أنه حين يتوفر لنا مجموعة من المهارات التى تنطوى داخل سياق الخلفية، يصير بمقدورنا أن نرى الأشياء بوصفها تخضع لتصنيفات بعينها. ولنتذكر الشكل الذى ضربه فتجنشتين مثلا على إمكان أن نرى فى الشكل من زاوية بطة تنظر إلى اليسار ومن زاوية أخرى أرنبا ينظر إلى أعلى(*)(٧).

حيث يمكننا أن نرى فى الشكل بطة أو أرنبا،لأننا نميل فيما يحفز إدراكاتنا الحسية إلى أن نعتمد على مجموعة من المهارات التى تشتمل عليها الخلفية ؛ فتنشط القدرة فى هذه الحال على تحديد طوائف بعينها. وما يسرى على هذا المثال يسرى على الإدراك

(*) هذا الرسم هو الذى ضربه فيتجنشتين مثلا: (المترجمة)



الحسى بعامة. فأنا أرى فى هذا كرسيا، وفى هذا منضدة، وفى هذا زجاجة، فى الحقيقة كل حالة من حالات الإدراك السليم نرى فيها فى موضوع ما شيئا ما، حيث يستوعب المدرك ما يدركه بنحو ما فى إطار صنف ما من الأصناف.

هاتان الوظيفتان المتغلغلتان، أعنى الدور الذى تلعبه الخلفية فى تيسير التفسير اللغوى ، وكذلك الدور الذى تلعبه فى تيسير تفسير الإدراك الحسى، كلاهما يمتد حتى يبلغ الوعى بعامة.

ثالثا : الوعى وأبنية الخلفية

مما يشوقنا عن الوعى أن خبراتنا الواعية تأتينا فى صحبة ما قد ندعوه مظهرا من مظاهر الألفة. حتى لو كنت فى موقع غريب، فى غابة من غابات المكسيك أو أفريقيا، بالرغم من أن المساكن و الملابس تبدو مختلفة عما لدى الأوربيين أو فى الولايات المتحدة الأمريكية، فإنها بالرغم من ذلك تظل مألوفة بالنسبة لى بوصفها بيوتا وملابس وأناسا وسماء وأرضا .فكل مظاهر الوعى غير المرضية (الباثولوجية) نعايشها ونمارسها بوصفها تندرج تحت مظهر نألفه. وهذه وظيفة بوسع خلفيتنا أن تقوم بها؛ لأن كل قصد عقلى للوعى من طبيعته أن يتجلى فى مظهر ما ومن زاوية ما .aspectual وإمكان الإدراك الحسى، أى إمكان العيش فى ظل مجموعة ما من المظاهر يستدعى الألفة بمجموعة من التصنيفات التى يستشعر الواحد منا خلال ممارستها أو معايشتها تلك المظاهر. إن إمكان تطبيق هذه التصنيفات على مظاهر الحياة التى نعيشها مما بوسع الخلفية وبمقدورها أن تقوم به.

نبلغ هذا الملمح الثالث من ملامح الخلفية حين نوسع نطاق الملمحين السابقين أعنى كون الخلفية أمرا أساسيا بالنسبة إلى تفسير الدلالة اللغوية وتفسير الإدراك. ولا نحبذ استخدام كلمة "تفسير" لأنها توحى بأمر غير صحيح بالتأكيد، فاستخدام هذه الكلمة يفترض القيام بفعل التفسير كلما فهمنا أو أدركنا شيئا، ونحن لا نريد أن نقول هذا بالطبع. إنما نريد أن نقول إننا نرى شيئا أو نفهم جملة ما فهما سليما وحسب، وهذا يحدث دون القيام بأى فعل تفسير. إن القيام بفعل التفسير قيام بفعل فكرى خاص للغاية. لعلنا نوافق ايتجنشتين(٨) فى الرغبة فى أن نحتفظ بكلمة تفسير للحالات التى نقوم فيها بالفعل عن عمد بفعل واع من أفعال التفسير، كما نفعل مثلا عندما نستبدل بتعبير تعبيرا آخر. مع هذا التحرز نود أن نقول إن فهم ما ننطق به من الأقوال وما

نعايشه من حالات الوعى المعتاد فى حاجة بالضرورة إلى القدرات أو الطاقات التى بوسع الخلفية أن تتيحها وتحتويها.

دعونا نتأمل الجهد الثقافى الذى ننفقه فى محاولة الإفلات من الخلفية أو اختراقها. كم حاول الرسامون السيرياليون هذا، لكنه حتى فى اللوحة السيريالية تظل المرأة ذات الرءوس الثلاث امرأة، والساعة المتمعجة تظل ساعة، وتلك الأشياء المجنونة تظل أشياء تقع فى أفق، وفضاء له سماء ومقدمة.

أعتذر عن السرعة التى أتنقل بها داخل تلك المنطقة الخطرة. وأحاول بأسرع ما يمكن العودة إلى السؤال الرئيسى الخاص بشرح أسباب وجود الوقائع المرتبطة بالمؤسسة. وغايتى الآن أن أطور الأدوات التى أحتاجها فى هذا المبحث.

يفضى هذا إلى المظهر التالى من المظاهر التى تتجلى فيها وظائفَ الخلفية:

رابعا: توسيع نطاق النتائج المترتبة على الخبرة متخذة الشكل السردى أو الدرامى، بنحو مؤقت

إنها تأتينا مندرجة تحت ما سوف نسميه - بغرض البحث عن كلمة أفضل- المقولات "الدرامية" .dramatic categories عندما تحدث لنا بعض الخبرات، تتخذ بعض الوقائع التى تصنع خبراتنا مظهرا بعينه بالإمكان إدراكه. إن تعاقب هذه الخبرات لا يأتى متقطعا بل يتخذ طابعا سرديا. فالخلفية ليس لها طابع متقطع وحسب، كما فى الأمثلة التى كنا نعرض لها حتى الآن ، بل إن لها كذلك ما قد ندعوه بعدا ديناميكيا، يحدث تأثيرا على سلسلة متعاقبة من الأحداث. وأوضح الأمثلة على ذلك نجدها عندما تمتد الفئات التى تتسم بطابع الإدراك الحسى، وكذلك الفئات التى تتسم بالطابع اللغوى، لتشمل سلاسل متعاقبة ممتدة من الأحداث. فنحن لا ندرك الأشياء على هيئة بيوت وسيارات وأناس، بل نحن نصنع لها سيناريوهات بعينها، نصف بها الطريقة التى تتفاعل بها البيوت والسيارات والناس، أو نصف بها كيف تجرى الأمور مثلا عندما أدخل مطعما أو أقوم بالشراء من متجر كبير (سوبر ماركت). والأكثر من ذلك، أننا نجد لدى الناس سلسلة من التوقعات حول أمور تندرج تحت فئات أكبر من رءوس الموضوعات فى حياتهم؛ من مثل الوقوع فى الحب، أو الزواج وإنشاء أسرة، أو دخول الجامعة والحصول على درجة علمية. يقول لاروشفوكو La Rochefoucauld إن قلة قليلة من الناس- بنحو ما- قد تقع فى الحب ولو لم تقرأ عنه أبدا، ويمكن أن نضيف

فى ايامنا هذه (إلى هذا القول) ولو لم تشاهده فى الأفلام السينمائية أو فى التليفزيون. فما تخرج به من القراءة ومن مشاهدة التليفزيون ومشاهدة الأفلام هو بالطبع فى جزء منه مجموعة من المعتقدات، والرغبات. نريد أن نلفت الانتباه الآن إلى أن المعتقدات والرغبات تستوفى شروطها فى مقابل ما تستوعبه الخلفية من طاقات وقدرات ليست هى نفسها من المعتقدات أو الرغبات. لذلك فمن المظاهر التى تتجلى فيها الخلفية ما نطلق عليه المقولات الدرامية التى تتسع حتى تشتمل على أبنية وأحداث متعاقبة ذات أشكال سردية .

خامسا: كل منا لديه مجموعة من البواعث للتصرف بطريقة ما، تنبنى عليها خبراتنا

لو افترضنا أنك مغرم بالسجاجيد الشرقية، وبالسيارات الرياضية، وبالخمور المعتقة الفاخرة، لو كنت كذلك لكان لك خبرة بشوارع باريس ونيويورك، وهى خبرة تختلف عن خبرة شخص مغرم بأشكال السحب وصبار أريزونا. ثمة فرص كثيرة أمام هواة جمع السجاجيد الشرقية والخمور المعتقة الفاخرة،لا تتوفر لهواة صبار أريزونا . بالطبع إن هواة جمع السجاجيد الشرقية على وعى بمعتقدات ورغبات تجعل السجاد الشرقى يستهوينا . أعتقد مثلا أن السجاد الكاكاز Kakas يفوق ثمنه بكثير ثمن الحمدانى، كما أعتقد أن تحف السجاد فى الوقت الحاضر باهظة الثمن. أود لو أمتلك Chi-Chi التحف الصينية المنمة. إن هذه القناعات و الرغبات وغيرها تسهم فى تشكيل بنية خبراتى، لكن ما يهم مبحثنا الحالى أن ما يكسبها معنى- بالإضافة إلى تلك المعتقدات والرغبات - هو مجموعة من البواعث على القيام بتصرفات بعينها .

سادسا: تيسر لنا الخلفية أن نتهيأ بأنواع بعينها من الاستعدادات

فى لحظة ما أكون مستعدا ومتهيئا لأشياء بعينها دون سواها ؛ ففى المدن الكبيرة أكون مستعدا لمواجهة ضوضاء الشوارع ، وأصوات السيارات، ورؤية ازدحام الناس والمرور، والمتاجر. وعندما ألبس الزلاجات للتزحلق على الجليد أكون متهيئا لرؤية متزحلقين يعبروننى منطلقين كالقذائف. لكن عندما ألقى محاضرة لا أكون متهيئا على الإطلاق لأن أرى متزحلقا قادما نحوى فى قاعة المحاضرة، ولسوف يدهشنى تماما لو ظهر متزحلق فجأة، أو لو دخل فيل ببساطة القاعة. غير أنى أكون مستعدا تماما لسماع الضوضاء والاستجابات التى من المألوف سماعها فى قاعات المحاضرات.إن الطاقات

التى يكون بوسع الخلفية أن تتيحها لى وتهيئنى لها تحدد لى مجموعة من الاستعدادات وتتبنى وفقها طبيعة خبرتى.فعندما أتزحلق على الجليد أتهيأ لوجود متزحلقين آخرين يكونون مصدرا للخطر عندما يتدافع الناس أمامى إلى مصعد المتزحلقين ليتعلموا تقنيات التزحلق السليم، أو بسبب وجود أشخاص جذابين من الجنس الآخر، أو للبس زلاجات جيدة أو رديئة، أو لكونهم أصدقاء قدامى ألتقى بهم فى حلبة التزحلق. وفى السمينار أكون مهيأ لوجود أناس يرفعون أيديهم يتهموننى بالتراجع المطلق عما كنت قد قدمت من أدلة وبراهين، أو يتهموننى بإيراد مغالطات فى كتاباتى. ولا يكون لدى استعداد لشىء خلاف ذلك. فلو أنى أوغلت بعيدا فوق جليد قمة "الكلب الأحمر" Red Dog Ridge فالتقيت بمجموعة من الناس يجلسون على مقاعد المدرجات الجامعية يرفعون أيديهم ويرددون " لقد تراجعت تماما عن واحد من براهينك" لهالنى ذلك .مثل هذه الأشياء قد تحدث لكنها ليست من النوع الذى تهيئنى له خلفيتى على الإطلاق.كثير من الكوميديا ينبنى على مجرد وجود مثل هذا التنافر الذى ينبنى على المفارقات.

سابعا: تجعلنا الخلفية نميل نحو سلوك أنواع بعينها من التصرفات

قد نميل للضحك على أنواع بعينها من النكات دون سواها، ونميل إلى التحدث بمستوى من ارتفاع الصوت دون سواه، ونميل إلى الوقوف على مسافة بعينها من الناس عند التحدث إليهم دون سواها. ونسمى هذا مظهرا من مظاهر تجلى الخلفية.

هذه سبع طرق تتجلى بها الإمكانات التى تشتمل عليها الخلفية، وتكشف عن نفسها بالفعل فى أشكال من القصد العقلى واقعة بالفعل. ولا أوحى ولو للحظة بأن هذه هى كل الطرق التى تتجلى على غرارها الخلفية، بل هى على الأقل الطرق التى أشعر بالثقة فى أنها تتلاءم بشكل معقول مع نظرية الخلفية التى كنت أسعى حتى الآن إلى إرساء دعائمها.

الخلفية: العلة والمعلول Background Causation

نتحول الآن إلى موضوع دراستنا الأساسى : " كيف تلعب القواعد الخاصة بالمؤسسة دورا فى تعاملاتنا مع المؤسسة (نفسها)، حتى عندما لا نتبع القواعد، عن وعى أو عن غير وعى؟" بالطبع فى بعض الحالات نتبع القواعد بالفعل. فقد أعلمك لعبة جديدة من

ألعاب الورق وقد تتذكر قواعد اللعبة وتتبعها. لكن بالنسبة لمؤسسات كثيرة، خاصة بعد أن صرتُ خبيرا بطريقة العمل داخل المؤسسة، أجدنى أعرف وحسب ماذا أفعل. أعرف ما هو السلوك الملائم، دون الرجوع إلى القواعد.

دعنا نضرب مثلين لما يبعث فينا شعورا بالحيرة. لنتأمل لاعب البيسبول المحترف بعد أن يضرب الكرة يجرى إلى المربع الأول ؛ ولو سألنا الآن عن السبب الذى يدفعه لأن يفعل ذلك، لقلنا إنه يريد أن يصيب الكرة، ويريد أن يبلغ الموقع الأول، وهو يفعل ذلك لأنه يريد أن يحرز – عن طريق الجرى (الذى يبلغه موقعه) - هدفا ، وهو يفعل ذلك لكى يفوز فريقه.لكن ما الدور الذى تلعبه قواعد البيسبول فى هذا الشرح؟ هل نريد أن نقول كذلك إنه يريد أن يتبع قواعد البيسبول؟ هذا يبدو غريبا بعض الشىء وإن كان يلائم المبتدئين. إن لم يقع بعض الجدل لما عنت قواعد البيسبول الخبير بها على الإطلاق؛ لأنه قد صار من المحترفين الذين قطعوا شوطا بعيدا ينأى بهم عن إعارة قواعد البيسبول كبير اهتمام. ولنتأمل مثلا آخر حين تأخذ امرأة قائمة مشتريات إلى المتجر. تلك القائمة هى إعلان صريح عن قائمة رغبات، وفى أثناء عملية الشراء تتعامل المرأة مع النقود والمشتريات. يعنى هذا أنها بالإضافة إلى الرغبة فى أصناف المشتريات لديها الرغبة فى اتباع القواعد التى تضع مقومات تداول النقود ، فهل تتبع تلك القواعد عن وعى ؟ هذه افتراضات بعيدة مما يدفعنى إلى أن أطرح الآن مجموعة من الأسئلة.

لو نظرنا إلى تاريخ العلوم الاجتماعية المعاصر لوجدنا بالتقريب أنها قد قبلت نوعين من العلل. الأول منها عقلى، على أساسه تتصرف الذات الفاعلة بوعى أو بغير وعى من خلال مجموعة من الخطوات الإجرائية التى يقصد فيها العقل بشكل أو بآخر مجموعة من الحالات التى يفضل فيها جدولة القواعد وتعميمها. هناك نماذج كثيرة يتلاءم معها هذا النوع من تفسير القصد العقلى، حيث يكون علينا مثلا أن نتخذ قرارا عقليا يترجم إلى سلوك. يحدث هذا على سبيل المثال عندما يحاول الحكام أن ينتهجوا سياسة اقتصادية من شأنها أن تحقق قدرا أكبر من التوازن بين المدفوعات ومعدل النمو الاقتصادى. هذه إحدى حالات اتخاذ قرار عقلى أو استخدام مبادئ تعين على اتخاذ قرار عقلى .غير أن هناك حالات كثيرة يبدو فيها هذا النمط بالغ الغرابة. افرض أنى أقود السيارة ذاهبا إلى العمل، أو افرض أنى أجلس فى مطعم أقرأ قائمة الطعام،

وأحاول أن أقرر ماذا اكل. فى هذه الأمثلة يبدو من غير المعقول أننى حين طرح علىّ مجموعة من العناصر السابقة الصالحة للمفاضلة بينها إذا بى أشرع فى إجراء بعض الإحصائيات بلا مبالاة أو تحيز.

فى الحقيقة لو تأملنا بالفعل عن قرب النماذج التى نعد على أساسها اتخاذ قرار ما - من الناحية النظرية ذ أمرا عقلانيا، لن نجدها مقنعة على الإطلاق. هاكم نموذجا على ذلك. إحدى النتائج التى ترتبت على نظرية اتخاذ القرار لـ بيز Bayesian Decision Theory أننا لو قيَّمنا شيئين سيكون هناك أفضلية يفضُل أحدُهما بسببها الآخر. لذلك فلو فاضلت بين عشرة سنتات وحياتك فلابد أن يكون هناك بعض الفروق التى على أساسها ترجح كفة حياتك فى مقابل السنتات العشرة. يجب أن أقول الآن إنه لا منفعة تجعلنى أراهن على حياة ابنى بعشرة سنتات، ولو حدث وراهنت فلن أراهن بالتأكيد على حياة ابنى فى مقابل عشرة سنتات . لقد أشرت إلى هذا لأذكر غير قليل من المشهورين الذين نظَّروا لاتخاذ القرار، فهم عادة ما يقولون بعد نقاش يستمر لنصف الساعة " ببساطة أنت غير عقلانى" و لا أوافقهم على ذلك، بل أظن أنهم هم الذين يفتقرون إلى العقلانية. ليس هذا هو الموضع الملائم للمضى فى المحاجة، غير أنى أفترض أنه من غير الملائم أن نرى فى العقلانية مجموعة محددة بعينها من العمليات المرسومة الموصوفة بدقة التى يخضع لها مضمون القصد العقلى.

من أشكال تفسير العلل الأخرى ما قد شاع فى العلوم الاجتماعية من شكل لا يميل إلى المضامين المتعلقة بالقصد العقلى، بل يميل إلى العلة الفيزيائية الخالصة. كانت العلوم السلوكية - فى الولايات المتحدة الأمريكية - هى أبرز شكل اتخذه هذا النوع من التفسير. كنا قد اعتقدنا أن السلوكية قد قضت نحبها، لكن ثمة جهود مؤخرا لإحيائها.

كيف يتعين علينا إذن أن نتصور الأسباب التى تبرر وجود الخلفية ؟ لو أننا اعتقدنا فى وجود هذين النموذجين من مبررات السلوك ؛ أحدهما يبرر السلوك على أساس من القصد العقلى، والآخر يبرره على أساس ما قد نطلق عليه علة كرة البليارد-billiard ball causation، فأيهما النموذج الملائم لوصف الخلفية؟ سوف أبرهن فى النهاية أن كليهما غير ملائم. نحن بحاجة إلى نموذج مختلف يشرح لنا كيف تمكننا قدرات الخلفية من الارتباط بالمؤسسات.

إن القراء الذين أحاطوا علما بما يجرى من مناظرات وحجاج فى مجال علم الإدراك المعرفى سوف يدركون بعض المشاكل اللصيقة. و المشكلة التى تواجهنا الآن هى الإجابة عن

السؤال: بم نميز الدور الذى يلعبه ما بوسع الخلفية من طاقات فى التعامل مع المؤسسة؟ فالطريقة التى نميز بها بين القواعد التى تصف السلوك والقواعد التى تحكم السلوك من المشاكل التى تتصل بهذا الموضوع، وهى مشكلة ظلت تطرح للنقاش لعدة عقود . كيف يجب علينا مثلا أن نفكر فى قواعد اللغة : قواعد الإعراب مثلا؟ قد ترى وجهة نظر ما أن علينا أن نقول إن القواعد ليس لها من واقع إلا بوصفها جزءا من وصف نظرى للظواهر. من هنا كانت القواعد صيغة يلجأ إليها اللغوى ليميز الظواهر ، غير أنها تصف السلوك وحسب دون أن تلعب أى دور يجعلها تتسبب فيه. ومن وجهات النظر ما يعد أكثر ميلا للمغامرة ؛ إذ يرى أن السلوك ليس وصفا للقاعدة وحسب، بل هو سبيل للتحكم فى القاعدة، أوفلنقل توجيهها. وهنا علينا أن نتأمل مضمون القاعدة الدلالى بوصفها تلعب بالفعل دورا يتسبب فى تحديد السلوك ؛ أى على أى نحو نتصرف. لذلك فعندما تصوغ الذات الفاعلة جملة بالإنجليزية مثلا، فإن الطريقة غير الواعية التى تجعل بها الذات القواعد مسألة داخلية إنما تجعلها فى الحقيقة هى فعل يتسبب فى إنتاج تلك البنية الإعرابية بعينها. وعندما يقوم الشخص البالغ بأداء أفعال الكلام، فى أية لغة ؛ عندما تبذل (هى) وعدا، أو تصدر أمرا، فعلينا أن نتذكر قواعد أفعال الكلام بوصفها السبب الذى يدفعنا بطريقة غير واعية إلى أن نسلك سلوكا بعينه.

حرى بنا أن نسأل الآن : أى وجهتى النظر هى الأصوب لفهم الخلفية ؟ لست قانعا بأى من هاتين الطريقتين. أرى أن المشكلة تكمن فى أننا لو فهمنا الخلفية من حيث ارتباطها بالقصد العقلى نكون قد تخلينا عن أطروحة الخلفية. لقد توصلنا إلى هذه الفرضية فى المقام الأول وحسب لأننا وجدنا مسألة القصد العقلى مسألة قد أصابتها المبالغة، فالقصد العقلى لا يفسر نفسه بنفسه، لكن من ناحية أخرى لو قلنا إن القواعد لا تلعب دورا يتسبب فى السلوك على الإطلاق، لكان من الواجب علينا عندئذ أن نقول إن الخلفية هى ما يحدد أنه هكذا يفعل أى شخص وحسب، وعلى هذا النحو يتصرف. فهو يصوغ مثلا هذا النوع من الجمل دون سواه. وهو ببساطة يفعل ما يفعله بالطريقة التى يختارها، و هكذا تنتهى الحكاية. اعتاد فتجنشتين أن يتحدث على هذا النحو الذى ذكرناه مؤخرا؛ فهو يقول هناك وحسب طريقة فى التصرف[٩] لا أساس لها، إنما نجد أنفسنا نتصرف تصرفا ما وحسب. نحن نتحدث بهذه الطريقة وليس بتلك الطريقة، ونقبل هذا ولا نقبل ذاك .غير أننا لا نجد ما يراه فتجنشتين مقنعا، لأنه لا يقول لنا ما هو الدور الذى تلعبه بنية القواعد. نريد أن نقول إن المؤسسات من مثل مؤسسة النقود،

والملكية، والإعراب، وأفعال الكلام، هى أنظمة قواعد توفر الأسس والمتومات، ونريد أن نعرف الدور الذى تلعبه بنية تلك القواعد فى الكشف عن العلل التى تتسبب فى أن يسلك الإنسان مسلكا ما أو يتصرف بنحو ما. فنحن نتحدث وندفع نقودا لنشترى أشياء، وكذلك نمشى، نفعل كل هذا بشكل طبيعى، غير أنه يبدو لنا أن التحدث والنقود كليهما له بنية من القواعد، يبدو أنها لا تتوفر لفعل المشى.

من المسائل التى ترتبط بالتنافس بين أنموذجين إرشاديين يتنافسان فى مجال مبحث الإدراك العقلى فى حياتنا الفكرية المعاصرة نشهد طريقة أخرى للمقاربة : الأنموذج الإرشادى الأول: هو الأنموذج التقليدى، أو أنموذج فون نيومان Von Neu-mann الخاص بعملية تشغيل المعلومات المتتابعة،حيث ينفذ الكومبيوتر مجموعة من الخطوات المتتابعة لبرنامج ما. والأنموذج الارشادى الثانى يتعلق بالتطور الأحدث الخاص بتشغيل نسق من التوزيع المتوازى، للعمليات،أو بنموذج على غرار شبكة الخلايا العصبية، حيث تحمل البيانات المدخلة معنى، وتحمل البيانات المخرجة معنى كذلك. لكن فيما بين هاتين العمليتين ليس هناك رموز لخطوات العمليات التنفيذية، بل هناك سلسلة متوالية من العقد أو نقاط التقاطع nodes يصل بينها قوى ومقاومات ربط مختلفة، وتنتقل الإشارات فيما بينها من نقطة تقاطع لأخرى ، والتغيرات الفعلية فى قوى شحنات الربط تفتح الطريق أمام مدخلات ومخرجات دون وجود أى مجموعة من القواعد التى تجمع بينها أو من الأسس المنطقية. قد يقول المرء إن كل هذا الحديث عن الخلفية هو بالتأكيد أكثر تناغما، وتعاطفا مع نموذج الإدراك المعرفى الرابط connec-tionist model of cognition، أظن ذلك صحيحا، غير أنه لا يزال يضعنا أمام تحد يقيمه من يعارضون نزعة الربط الفلسفية،؛ أعنى ما هى سمات البنية الداخلية التى تمكن النظام من أن ينتج مجموعة من البيانات المخرجة التى تتجلى فى شكل منظومة ذات خصائص تركيبية وأخرى منطقية ؟

تلك هى المفارقة : نحن نريد تفسيرا يوضح السبب الذى يجعل سلوكنا يتميز بالتركيب والتعقيد وسرعة التأثر ، كما يفسر كذلك ما يتميز به من تلقائية وابتكار وأصالة. لا نملك إلا الأنموذجين الإرشاديين اللذين نستعين بهما على تفسير العلل، غير أنه لا يبدو أحدهما ملائما أو لشرح العلاقات التى تربط بين الفرد كفرد والأبنية الاجتماعية .أحدهما الأنموذج الإرشادى الخاص باتخاذ قرار عقلانى بناء على قواعد وأسس أو مبادئ وما شابه ذلك. والأنموذج الإرشادى الثانى الخاص بالعلة الخاصة

بالحقائق العارية والوقائع الصريحة أى العلة المفارقة للعقلانى وللقصد العقلى على حد سواء. وسواء أكانت متعلقة بنزعة الربط الفلسفية (أى ربط المخرجات بخصائص البنية التركيبية والمنطقية) أم كانت على صلة بالنزعة السلوكية .فهذا النمط من التعليل ليس له بنية عقلانية.

إن السبيل لفهم العلاقات السببية التى تربط بنية الخلفية وبنية المؤسسات الاجتماعية، هو أن ندرك أن هناك علة تبرر أن تكون الخلفية سريعة التأثر بأشكال بعينها من القواعد التى توفر المقومات لقيام المؤسسات، دون أن تشتمل بالفعل على أى معتقدات أو رغبات أو صور تمثل تلك القواعد وتعبر عنها . ولكى ندرك ذلك دعونا نبدأ بضرب مثل بسيط. لنفرض أن أحد الناشئين يتعلم كيف يلعب البيسبول. فى البداية نجده يتعلم بالفعل مجموعة من القواعد، والأسس أو المبادئ، والاستراتيجيات. لكنه بعد أن يصبح لاعبا ماهرا يصير سلوكه أكثر سلاسة وانطلاقا، وأكثر تناغما واستجابة لما يقتضيه الموقف. عندئذ يبدو لى أنه لا يطبق القواعد ببراعة أكثر من ذى قبل ، بل يبدو أنه قد اكتسب مجموعة من المهارات وحسن التصرف الذى يجعله يستجيب الاستجابة الملائمة .والملاءمة تتحدد بالفعل من خلال منظومة متسقة فى بنية تمثل قواعد البيسبول، واستراتيجياتها وأسسها. والفكرة الأساسية التى نحاول أن نشرحها الآن هى أنه بإمكان المرء أن يطور، وأن يبرع فى مجموعة من القدرات التى لها حساسية خاصة تجاه أشكال بعينها من القصد العقلى دون أن تكون هذه القدرات بالفعل وليدة هذا القصد عقلى. بإمكان المرء مثلا أن يبرع فى أن يطور مهارات و قدرات يمكن أن يقال عنها إن لها وظيفة تكافئ نظام القواعد، دون أن تشتمل بالفعل على أية أشكال تمثل لتلك القواعد أو تعبر عنها، أو دون دمج تلك القواعد فى الشخصية.

بإمكاننا أن نتأمل مثلا يفوق تعقيده لعبة البيسبول بقدر طفيف، هو المثل الخاص بالنقود. لقد حاولت أن أصف بعضا من القواعد التى وضعت الأسس ووفرت المقومات لنظام النقود. فكيف تعمل هذه القواعد عندما تكون جزءا من سلوكنا فى الحياة بالفعل؟ إن من يستخدمون النقود لا يعلمون هذه القواعد، ونحن نبرهن بشكل عام على أنهم لا يطبقون هذه القواعد عن وعى أو عن غير وعى، بل لقد برعوا فى الاسترشاد بمجموعة من أساليب التصرف الحساسة التى تستجيب للمعنى الذى تتضمنه هذه القواعد. لذلك فلابد أن يكون لديهم القدرة على استخدام النقود وسيطا للتبادل، ولابد أن يستجيبوا

للفروق التى تميز بين النقود المزيفة والنقود الحقيقية، حتى إن كانوا غير قادرين على أن يميزوا الفرق دون مساعدة خبير. يجب أن يستجيب سلوكهم لإدراك أن النقود ذات قيمة لا بسبب من الورق الذى طبعت عليه، بل لأنها تعد وسيطا للتبادل. تلك الأنواع من القدرات وهذه المعرفة بأسس التركيب التى تصير متأصلة فى النفوس، هى فى حقيقة الأمر انعكاس لمجموعة القواعد التى تضع الأسس والمقومات ، والتى نفرض عن طريقها على بعض الأشياء أمر القيام بوظائف، ما كان لها أن تقوم بها بسبب من بنيتها الفيزيائية، وإنما نراها قد اكتسبت وظيفتها وحسب عن طريق اتفاق الجماعة وقبولها.

يتوازى تركب بنية الخلفية على هذا النحو كى تقوم بوظيفتها من ناحية، وبنية القصد العقلى الخاص الظواهر بالاجتماعية التى يرتبط بها ما تتسع له هذه الخلفية من طاقات من ناحية أخرى. هذا التوازى الدقيق يجعلنا نتوهم أن الشخص القادر على التعامل مع النقود، والتكيف مع المجتمع، والتحدث باللغة ، لابد أن يكون قد اتبع القواعد عن غير وعى. وأرد على هذا قائلا: هناك دائما قواعد نتبعها، عن وعى وعن غير وعى، وبالرغم من ذلك نجد أن :

١ ـ القواعد لا تفسر نفسها بنفسها على الإطلاق.

٢ ـ ولا يمكن أن تستنفد أبدا.

٣ ـ ونحن فى الحقيقة فى كثير من المواقف لا نعرف إلا ما نفعل، وكيف نعالج الموقف، نحن لا نطبق القواعد عن وعى أو عن غير وعى.

نحن لا نتوقف ونتفكر بوعى أو عن غير وعى." آه ها! النقود هى إحدى حالات فرض وظيفة عن طريق القصد العقلى الجماعى بناء على القاعدة المتمثلة فى صيغة المعادلة " س تعد بمثابة ص فى السياق ع"، و يقتضى هذا أن تقبلها الجماعة وتعترف بها " بل نحن نطور مهارات تستجيب لشكل تلك المنظومة بعينها من أشكال الأبنية الموصولة بالمؤسسة.

يمكننا أن نفهم تلك الأفكار فهما أفضل لو تأملنا بعض الاستراتيجيات المفسرة التطابق .فهناك تطابق واضح بين ما كنا نقول ومشكلات بعينها فى التطور البيولوجى. أروع ما فى نظرية التطور البيولوجى الدارونية من وجهة النظر الفلسفية، لا يكمن وحسب فى أنها لم تجعل التفسير البيولوجى لأصل الأجناس يرتبط بالغاية منها، ولكنها

كذلك تمنحنا نوعا جديدا من التفسير، وشكلا منه يعكس ترتيب أدوات التفسير. فقد كنا نقول قبل البيولوجيا الداروينية مثلا إن " للسمكة هذا الشكل كى تعيش فى الماء ". أما فى البيولوجيا التطورية فنحن نعكس الصيغة التى تقصد من التفسير الكشف عما تريد أن تبلغ من غاية ونحل محلها مستويين من التفسير. **الأول** المستوى التعليلى : فنقول إن للسمكة ما لها من شكل بسبب من تركيبها الجينى الوراثى، وبسبب الطريقة التى يستجيب بها النمط الوراثى genotype لظروف البيئة فينتج نمطا بعينه من الظواهر phenotype. **والثانى** المستوى الوظيفى : حيث نقول إن السمك الذى له هذا الشكل أقدر على الحياة من السمك الذى ليس له هذا الشكل. هكذا نكون قد عكسنا نسق التفسير، كان النسق الأصلى يعتمد على أن للسمكة هذا الشكل ليكون لها القدرة على البقاء، أما الآن وقد عكسنا الصيغة : فالسمكة ستتخذ هذا الشكل على أية حال، غير أن السمك الذى له ذلك الشكل من المرجح أن يكون له القدرة على البقاء أكثر من غيره من السمك، الذى ليس له هذا الشكل. لاحظ ما قد فعلناه حين عكسنا نسق التفسير. فالبقاء مازال يعد جزءا من التفسير لكنه الآن يدخل مجال شرح التعاقب diachronically ، إنه يمارس فعله على مدى أجيال عدة، وقد انعكس الآن دوره التعليلى، لأن الغائية الآن قد نُحيت جانبا، فالبقاء ليس هدفا نقصده، بل هو ببساطة النتيجة التى تسمح لآليات التوالد بالاستمرار.

على غرار هذا ما قمنا به حين عكسنا نسق التفسير علينا أن نعكس ما تتسع له الخلفية الإنسانية من طاقات على التكيف مع الظواهر الاجتماعية. فبدلا من أن نقول إن المرء يتصرف على هذا النحو لأنه يتبع قواعد المؤسسة، يكون علينا وحسب أن نقول، **أولا** : (على مستوى العلة المسببة) إنه يسلك هذا المسلك لأن لديه منظومة تجعله يميل للسلوك على هذا النحو؛ **وثانيا**: (على المستوى الوظيفى) لقد صار ميالا للتصرف على هذا النحو لأن هذه هى الطريقة التى تتفق مع قواعد المؤسسة وتتكيف معها.

وبعبارة أخرى يمكن أن نقول إن الإنسان ليس بحاجة إلى أن يعرف قواعد المؤسسة ويتبعها، لكى يتلاءم مع القواعد، بل نقول إنه يميل وحسب لأن يسلك سلوكا بعينه، لكنه قد اكتسب تلك الكفاءات والخصائص التى جعلته يتصرف على هذا النحو عن غير وعى غير مما جعل منه إنسانا سريع التأثر بهذا النسق من القواعد الخاصة بالمؤسسة. ولكى نربط هذا بنموذج ملموس، علينا ألا نقول إن لاعب البيسبول ذا الخبرة يجرى

للمربع الأول ،لأنه يريد أن يتبع قواعد البيسبول، بل علينا أن نقول لأن القواعد تتطلب منه أن يجرى للمربع الأول فقد اكتسب مجموعة من العادات والمهارات والتصرفات التى تشكل جزءا من الخلفية، والتى تجعله عندما يضرب الكرة يجرى إلى المربع الأول.

دعنا نطرح فكرة من الأفكار التجريبية التى من شأنها أن توضح المسار الذى نفترض أن يتخذه التفسير. لنفرض أن هناك قبيلة يشب فيها الأطفال وهم يلعبون البيسبول. إنهم لا يتعلمون القواعد أبدا، بوصفها نظاما من القواعد المرتبة المصنفة ، وإنما يلقون التشجيع عندما يفعلون الصواب أو اللوم والتقريع عندما يفعلون الخطأ .فلو نال الطفل ثلاث تصويبات وسأل"أليس بالإمكان منحى فرصة أخرى؟" لقيل له "لا، يجب عليك الجلوس الآن لتتيح الفرصة لشخص آخر كى يأخذ الهراوة ويصوب الكرة." يمكننا أن نعتقد أن الأطفال قد حققوا قدرا عاليا جدا من المهارة فى لعب البيسبول وحسب. والآن كذلك لنفرض أن أنثروبولوجيا غريبا على القبيلة يريد أن يصف ثقافتها. إن الأنثروبولوجى الناجح سوف يدرك قواعد البيسبول بمجرد وصفه سلوك هؤلاء الناس وما يعدونه معيارا فى مواقف البيسبول المختلفة. ولن يكون من الدقة بمكان أن يصف الأنثروبولوجى أعضاء ذلك المجتمع بأنهم يتبعون تلك القواعد عن وعى أو عن غير وعى. ومع ذلك فهذه القواعد تلعب دورا حاسما فى شرح سلوكهم، إذ اكتسبوا هذه التصرفات، لأن هذه بالتحديد هى قواعد البيسبول.

كنا نقصد أن نضرب مثلا وهميا، غير أننا نكون فى عالم الواقع فى وضع مشابه تماما، خاصة عندما نستخدم قواعد النحو أو قواعد أفعال الكلام. إن عالما منظرا لأفعال الكلام وحسب – مثلى – لن يضيره أن يجمع قواعد أفعال الكلام ويصنفها. إن الطفلة التى تنشأ وقد تعلمت مثلا أن عليها إن قطعت على نفسها عهدا أن تفى به، فإن لم تفعل تواجه باللوم والتقريع، فعندما تكبر تكون قد اكتسبت معرفة بالطريقة التى تتمكن بها من أن تتكيف مع المؤسسة. وما يجرى على لعبة البيسبول يبدو لى أنه يجرى على الإعراب كذلك. لذلك نفترض أنه عندما نتعلم التكيف مع الواقع الاجتماعى نكتسب مجموعة من القدرات المعرفية التى تكون سريعة التأثر- حيثما وجدت- دوما لأشكال القصد العقلى وأبنيته ، خاصة لأنظمة القواعد الخاصة بالمؤسسات غير البسيطة، دون الحاجة إلى أن تشتمل أنى وجدت على أشكال تمثل قواعد تلك المؤسسات أو تعبر عنها.

والخلاصة: أنه من الممكن أن نسلم بالقواعد التى تحكم أنظمة المؤسسات الإنسانية بالغة التعقيد، وبإمكاننا كذلك أن نسلِّم بأن هذه القواعد تلعب دورا من الممكن أن يفسر غير قليل من أنماط سلوكنا، غير أننا نميل إلى أن نفترض أنه قد يكون من الخطأ أن نزعم أن سلوكنا يتوافق مع بنية القواعد لأننا نتبع القواعد عن غير وعى. بل نحن بالأحرى نشرع فى الأخذ بمجموعة من التصرفات التى هى سريعة التأثر ببنية القواعد.

قد يعترض البعض قائلا: ألا تقول حقا إننا "كما لو" كنا نتبع القواعد؟ لكن ذلك لن يفسر بالفعل أى شىء. مادام لا يوجد أى قصد عقلى للوعى بالفعل؛ ذلك أن"كما لو" لا تفسر أى شىء، وليس لها أى قدرة على التفسير لأنها غير موجودة بالفعل"كما لو" صيغة فارغة فراغ ما أطلق عليه دانيال دينيت Daniel Dennett منطلق القصد العقلى intentional stance(١٠)، إنما هذا كله نوع من السلوكية كنت تعارضه تماما".

لا ليس هذا ما نقوله، بل نقول إننا لو فهمنا مدى تعقيد مسألة التعليل لأدركنا أن الشخص الذى يتصرف بمهارة داخل مؤسسة ما عادة ما يبدو لنا كما لو كان يتبع القواعد، ليس لأنه يتبع القواعد عن غير وعى، ولا لأن سلوكه تسببت فيه آليات لا يمكن تمييزها لأنها تبدو كما لو كانت تنبنى على قاعدة، بل لأن الآلية قد تطورت تماما على نحو يجعلها شديدة التأثر بالقواعد. تفسر الآلية السلوك، والآلية يفسرها نظام القواعد، غير أن الآلية فى غنى عن أن تكون هى نفسها نظاما من القواعد. نحن باختصار نلح على إضافة مستوى آخر، هو مستوى التعاقب، عند تفسير أنواع بعينها من السلوك الاجتماعى.

و الآن لدينا اعتراض أخير، قد يقول البعض" لماذا تتمسك بهذه القواعد على الإطلاق؟ ولماذا لا تأخذ بنوع من أنواع السلوكية وحسب؟ فتقول بأن هذه الأشياء تقع فحسب والناس يفعلون هذا فحسب." والرد على هذا يتلخص فى أننا نسلم بالمضمون المعيارى الذى يضعه المجتمع عندما يخص الأمر المؤسسات الإنسانية. نحن نسلم بوجود خطأ ما إذا ما صُوِّبت كرة البيسبول نحو شخص ما فأكلها ببساطة، و نسلم كذلك بأن شخصا ما قد أخطأ إذا ما قطع عهدا على نفسه بأن يفعل شيئا ولم ينفذ ما وعد به، ونسلم بأن شخصا ما قد أخطأ حين يتلعثم وينطق بجمل غير سليمة نحويا. كل هذه الأمثلة تنطوى على وجود خطأ ما يختلف عن نوع الخطأ الذى يقع عندما يتعثر

شخص فى أثناء مشيه ؛ فهناك معيار للمضمون وضعه المجتمع فى بنية المؤسسة ؛ يفسره فحسب أن البنية المرتبطة بالمؤسسة هى بنية تتألف من مجموعة من القواعد، والقواعد الفعلية التى نميزها على وجه الخصوص عندما نصف المؤسسة سوف تحدد تلك المظاهر التى تجعل النظام الذى يندرج تحتها نظاما معياريا. والسبب فى هذا بالتحديد أن هناك قاعدة ترى أن قطع عهد يعد التزاما يأخذه المرء على عاتقه، ونحن نفهم هذا ا لسلوك فى إطار مؤسسة الوعود التى تجعلنا نرى فى سلوك ما أمرا مقبولا، وفى سلوك آخر أمرا غير مقبول. لذلك نجد هناك قواعد تضع الأسس وتوفر المقومات التى تقوم فى الحقيقة بدور الأسباب، ونحن فى الحقيقة نكتشف تلك القواعد على مدار تحليلنا. غير أنه لا يترتب على هذا أن يصير المرء قادرا على أن يكون عضوا عاملا فى المجتمع بمجرد أن يتعلم القواعد ويتذكرها بالفعل، ويتبعها عن وعى أو عن غير وعى. ولا يعنى هذا كذلك أن المرء قادر على أن يكون عضوا عاملا بالمجتمع وحسب لو استوعب القواعد بوصفها جزءا من ممارسته وتكوينه. ما نرمى إليه هو أن نبرهن على أننا يجب ألا نقول إن الرجل الذى قد استرخى واستشعر الراحة والألفة داخل بيته، داخل مجتمعه أى "الرجل الذى على أرضه" chez lui داخل المؤسسات الاجتماعية، قد صار رب البيت، لأنه قد صار حاذقا متمكنا من قواعد المجتمع، بل لأنه قد تمكن من الارتقاء بمجموعة من الكفاءات والقدرات التى تجعله يستشعر الراحة داخل مجتمعه. ونجده قد برع فى تلك القدرات لأن تلك هى قواعد مجتمعه. فالرجل فى بيته موطنه مجتمعه كما أن موطن الأسماك الماء، مستقر استقرار مقلة العين فى محجرها، وليس علينا أن نفسر السلوك بأكمله، وفقا للقواعد فى أى من هذه الحالات الثلاث.

هوامش الفصل السادس

(١) N. Chomsky, Reflections on Language (New York: Pantheon, 1975)

J. A. Fodor, The Language of Thought (New York: Crowell, 1975).

(٢) ولمزيد من النقاش انظر : J. A. Fodor, The Language of Thought (New York: Crowell, 1975).

(٣) ولمزيد من النقاش انظر : John R. Searle,The Rediscovery of the Mind, (Cambridge, Mass MIT Press, Cambridge MA and London,1992), الفصل السابع

(٤) John R. Searle, Intentionality: An Essay in the Philosophy of Mind (New York: Cambridge University Press, 1983), والمرجع السابق.

والمرجع السابق.

(٥) الفصل السابع John R. Searle, The Rediscovery of the Mind,

(٦) أعتقد أنّ المثال يعزى في الأصل إلى:

Robyn Carston, "Implicature, Explicature and Truth-Theoretic Semantics", in S. Davis, ed., Pragmatics: A Reader (Oxford: Oxford University Press, 1991), pp. 33-51.

Ludwig Wittgenstein, Philosophical Investigations (Oxford: Basil Blackwell, 1953), part II, sec.xi. (٧)

Ibid., Part I, para. 201. (٨)

Ibid., Part I, para.324ff and passim. (٩)

Daniel Dennett, The Intentional Stance (Cambridge, Mass.: MIT Press, 1987). (١٠)

الفصل السابع

هل لعالم الواقع من وجود؟

أولا : الهجوم على نزعة الواقعية الفلسفية

حاولنا فيما عرضنا حتى الآن أن نحلل طبيعة تلك الوقائع وكيف تتبنى (نسقها أو منظومتها)، بمعنى أننا سعينا إلى شرح الوقائع المعتمدة على الجماعة الإنسانية وقبولها. و قد استلزم التحليل بأكمله أن نميز الوقائع التى يعتمد وجودها علينا، من الوقائع التى لا يعتمد وجودها علينا. و هذا التمييز مصدره فى الأصل الفرق بين الوقائع الاجتماعية والوقائع المرتبطة بالمؤسسة من جانب، والحقائق العارية أو الوقائع الصريحة من جانب آخر. و قد آن أوان الدفاع عن التباين الذى اعتمد عليه التحليل، أى الدفاع عن فكرة وجود واقع يستقل بذاته تماما عن وجودنا و لا يعتمد علينا. علاوة على أننا كنا نستصحب بعامة على مدار صفحات هذا الكتاب مسلمة ذاتية ترى أن عباراتنا عندما تكون صادقة تطابق الوقائع و تناظرها. و قد حان الوقت كذلك للدفاع عن هذه المسلمة. فقد جعلنا المشهد الفلسفى الحالى فى أمس الحاجة لهذه الدفوع ، حيث صار من المألوف إنكار وجود واقع مستقل، بمعزل عن أشكال تعبير الناس عنه و تمثيلهم له، وبالمثل شاع إنكار أن العبارات الصادقة تطابق الوقائع و تناظرها. و هذا الفصل والفصل الذى يليه من الكتاب يدوران على النزعة الواقعية الفلسفية ، و الفصل الأخير عن نظرية اعتماد الصدق على مطابقة الوقائع و مناظرتها له the correspondence theory of truth. إن نقاشا مفصلا لهذه المشاكل قد يحتاج منا على الأقل كتابا آخر، لكن - تحقيقا للغرض من هذا الكتاب - نحن بحاجة على أقل تقدير إلى عرض يوجز افتراضات يستند إليها حسنا السليم بالنظرة العلمية المعاصرة للعالم،لأن بقية الكتاب - بغض النظر عن تلك الرؤية للعالم - تعتمد على هذه الفرضيات. و الفصول الثلاثة الأخيرة هى مجموعة من الجهود التى تحاول التخلص من فوضى البيت الفلسفى، إذا جاز التعبير.

لكى نفهم ما يجرى، نحن بحاجة لأن نطرح بصراحة بعضا من الفرضيات، أوبأسلوب منطقى أن نطرح بعض المقدمات الخاصة برؤيتنا للعالم، لكى يكون بإمكاننا أن نمعن النظر فيها. من السمات الشكلية لرؤيتنا للعالم ذلك التمييز بين الذاتية والموضوعية الذى حاولنا أن نشرحه فى الفصل الأول. بالإضافة للمشاكل المعتادة - غير العويصة - الخاصة بغموض بعض الحالات و هامشيتها ، هذا التمييز بين المعنى الإبستمولوجى والمعنى الأونطولوجى أمر غامض من الناحية النسقية. فى ضوء التمييز بين الموضوعية والذاتية الإبستمولوجية، وبين الموضوعية والذاتية الأونطولوجية، بمقدورنا أن نحدد السمات البنيوية لرؤيتنا للعالم على النحو التالى :

١- يستقل وجود عالم الواقع بنفسه عن الأشكال التى نتصوره عليها أو نمثله بها. هذه الرؤية سوف نطلق عليها "الواقعية الخارجية" وسوف ننقح هذه الصيغة فيما بعد.

٢- للبشر طرق متنوعة تتواشج فيما بينها، يتناولون بها الوجود و يصورون سماته ويتمثلونه بها. منها الإدراك الحسى، والأفكار، و اللغة، و المعتقدات، والرغبات ، وكذلك الصور و الخرائط و الرسومات البيانية. إلخ. نجمعها كلها تحت تعبير عام هو التمثلات أى "أشكال التعبير التى نمثل بها الأشياء و نعبر عنها "representations مما تتسم به تلك الأشكال أنها جميعها على صلة بالقصد العقلى ،سواء أكان هذا التوجه أصليا كما نشهد فى المعتقدات، و الإدراكات الحسية، أم كان له سبل يتوسل بها إليه، كما نشهد مثلا فى الخرائط و العبارات.

٣- توحى بعض أشكال التصور التى نعبر بها عن الوجود و نمثله عليها، كالمعتقدات والعبارات بأنها تمثل الكيفية التى توجد عليها الأشياء فى عالم الواقع . وعلى قدر نجاحها أو إخفاقها يحكم عليها بأنها صادقة أو غير صادقة. فالمعتقدات و العبارات تعد صادقةفحسب لو ماثلت الوقائع .هذه إحدى صيغ نظرية التطابق القائمة بين الصدق والواقع.

٤- تعد أنظمة تمثيل الأشياء و التعبير عنها بعامة من وجهة نظر بعينها من مثل المفردات اللغوية و الرسوم البيانية، ابتكارات إنسانية تبلغ هذا الحد من الجزافية. من الممكن أن يكون لدينا أى عدد من الأنظمة المختلفة التى نتصور بها عالم الواقع و نمثله

او نعبر عنه. و هذه الفرضية نطلق عليها conceptual relativity الانطلاق من تصور أو الارتباط بمفهوم بعينه. سوف ننقح هذه الفكرة كذلك فيما بعد.

٥- تتأثر جهود الإنسان الفعلية لبلوغ أشكال تعبير نتصور بها الواقع ونمثل له بها تمثيلا صادقا بكل أنواع العوامل - الثقافى منها و الاقتصادى و النفسى و غيرها ـ و من العسير، بل قد يستحيل، أحيانا أن توجد موضوعية إبستمولوجية تامة ، لأن البحث الفعلى يتم دائما من وجهة نظر ما، تحركها كل أنواع العوامل الشخصية، وتدفع بها داخل سياق ثقافى تاريخى بعينه.

٦- يتألف امتلاك معرفة ما من امتلاك أشكال تعبير صادقة، نتصور بها الواقع ونمثل بها لما يمكن أن نقدم له أنواعا بعينها من المبررات و الأدلة. المعرفة فى أساسها مسألة موضوعية بالمعنى الإبستمولوجى ، لأن المعايير التى تتطلبها المعرفة ليست معايير جزافية، و لا هى معايير شخصية.

بالإمكان تصنيف المعرفة تصنيفا طبيعيا وفقا للموضوعات، لكن لا يوجد موضوع بعينه نطلق عليه " العلم" أو" المعرفة العلمية ". هناك معرفة فحسب، أما " العلم " فاسم ينطبق على مناطق تصير فيها المعرفة منهجية مطردة متماسكة، كما نشهد فى مجالى الفيزياء و الكيمياء.

فى ضوء الفرق الذى يميز بين المعنى الإبستمولوجى و المعنى الأونطولوجى الخاص بالفرق بين الواقعية الموضوعية و الواقعية الذاتية، يمكن أن نقول :

الفرضية الأولى: (الواقعية الخارجية) شديدة القرب من وجهة النظر التى تؤمن بوجود واقع له أونطولوجيا موضوعية. و لا تتساوى الفرضيتان تماما، لأن الزعم بوجود واقع يستقل عن أشكال التعبير التى تمثله (أى الواقعية الخارجية) لا يتساوى تماما مع الزعم القائل بوجود واقع يستقل تماما عن العقل (أونطولوجيا موضوعية). ويرجع هذا التمييز إلى أن بعض الحالات العقلية، مثل مشاعر الألم، لها أونطولوجيا ذاتية، غير أنها ليست من صنف أشكال التعبير التى نعبر بها عن الأشياء ونمثل لها بها. أو هى مستقلة عن أشكال التعبير لكنها غير مستقلة عن العقل. تنطوى الأونطولوجيا الموضوعية على واقعية خارجية، لأن استقلال العقل ينطوى على استقلال القدرة على التعبير عن الوجود و تمثيله (لأن أشكال وجودها فى غنى عنا كى يكون لوجودها كيفية توجد عليها،كيف توجد أشكالها وكيفياتها، هذا أمر خاص بها وليس بتصوراتنا الذاتية) ،

والعكس غير صحيح، فمشاعر الألم مثلا من الممكن أن تكون مستقلة عن أشكال التعبير التى تمثلها (أى وجودها فى غنى عن تدخلنا)، غير أنها ليست بمعزل عن العقل (أى وجودها موضوعى فى كيفيته و... لكن بإمكاننا أن ندركها).

الفرضية الثانية : تنطوى على أن الأونطولوجيا الذاتية - ما يوجد داخلنا و حسب ونستشعره - تمنحنا فرصة بلوغ معرفة إبستمولوجية، قابلة لتقديم الدليل عليها والحجة أو البرهان الذى يثبت صدقها أو كذبها، نعرف بها كل الواقع الذى توصلنا إليه. سواء أكان ذا أونطولوجيا ذاتية أم كان ذا أونطولوجيا موضوعية، يستوى فى هذا أن تكون المعرفة به (إبستمولوجيا) ذاتية أو موضوعية.

والفرضية الخامسة قول إنه من الصعب دائما أن نبلغ إبستمولوجيا موضوعية (يمكن أن نقيم عليها الدليل و البرهان) لذلك تقول **الفرضية السادسة** لو كان لدينا معرفة فذة فى أساسها لصار بإمكاننا أن نحظى بإبستمولوجيا موضوعية.

لعل القارئ يجد تلك الفرضيات الست من الوضوح بمكان، على النحو الذى يفسر ما أصابه من ملل بهذه الأمور التافهة، لكن علىَّ أن أقول إنه قد أحاط بهذه الفرضيات الكثير من اللبس. فى الفرضيتين ١ و ٣ اللتين تخصان نزعة الواقعية الفلسفية لا سيما نظرية تطابق الصدق و الواقع، كثيرا ما يقع الخلط بينهما، والأسوأ وجود تصور يظن أنه قد تم تفنيدهما. يعتقد بعض الفلاسفة أن الفرضية ٤ عن الانطلاق من تصور والارتباط بمفهوم بعينه توقع النزعة الواقعية فى مشكلة ، إذ يعتقد البعض أنها تؤدى إلى دحض النزعة الواقعية. و يعتقد كثير من الفلاسفة أن الفرضية ٣ الخاصة بنظرية تطابق الصدق و الواقع قد تم تفنيدها على حدة. و يعتقد بعض منظرى الأدب أن الفرضية ٥ تخلق مشكلة لمجرد احتمال وجود معرفة موضوعية من النوع الذى نصت عليه الفرضية ٦ فى ذاتها، بل ربما تفند تلك المعرفة الموضوعية النزعة الواقعية التى نصت عليها الفرضية ١.

أخشى ألا يكون بمقدورنا إلا أن نراجع بعضا من هذه الأمور مراجعة متأنية. دعونا نبدأ بطرح السؤال:

ما الواقعية ؟

ذكرنا فى التمهيد الذى قدمنا به الواقعية أنها فكرة ترى أن العالم يوجد مستقلا، بمعزل عن أشكال تعبيرنا التى نتصور بها الأشياء و نتمثلها بها. و يترتب على ذلك أننا

لو لم نوجد على الإطلاق، و لو لم توجد أية أشكال تعبر عن الوجود و تمثله - من عبارات، أو اعتقادات، أو إدراكات حسية، أو أفكار..إلخ - لظل معظم هذا العالم دون أن يتأثر. إلا فيما عدا هذا الركن الضئيل من العالم الذى انبنى و تأثر بأشكال تعبيرنا التى تمثله و تعبر عنه ، ولظل العالم موجودا، و لظل تماما على النحو الذى هو عليه الآن. و يترتب على هذا كذلك ، أنه عندما نموت كلنا جميعا، و تموت معنا أشكال تعبيرنا عن هذا العالم، أن تظل معظم ملامح هذا العالم دون أن تمس أو تتأثر على الإطلاق، أى تستمر تماما على ما كانت عليه من قبل. لنفرض مثلا أن هناك قمة من قمم الهيمالايا عبرت عنها أو مثلتها لنفسى وللآخرين بوصفه"قمة إفرست"، تلك القمة إنما توجد بغض النظر عما إذا كنت أو كان أى شخص آخر قد مثل لها أو عبر عنها، وبمعزل كذلك عن الكيفية التى صورها بها أو مثل بها أى شىء آخر. يضاف إلى ذلك أن هناك سمات كثيرة من سمات قمة إفرست التى نعبر عنها، ونمثل لها: مثلا حين نقول عبارة : " يعلو قمة إفرست الثلج والجليد"،تظل دون أن تتأثر على الإطلاق لو لم يصورها أحد على الإطلاق أو يعبر عنها بأى شكل من أشكال التعبير، و لن تتأثر تلك السمات بغياب أى شكل من أشكال هذه التمثلات أو بزوالها. قد يوضح هذه الفكرة أن نقول: هناك خصائص لغوية مستقلة، ووقائع ، وأمور وغيرها، و الكثير مما قد أدرجناه بعامة تحت اسم " أشكال التعبير التى نصور بها العالم ونمثل له بها " representations لأننا نريد أن نقول إن العالم يوجد مستقلا بمعزل عن اللغة بل فى غنى كذلك عن الفكر، و الإدراكات الحسية والمعتقدات..إلخ. و غاية ما نرمى إليه أن نقول إن الواقع فى جزء كبير منه، لا يعتمد على القصد العقلى بأى شكل من الأشكال.

اتسع استخدام كلمة "الواقعية" فى تاريخ الفلسفة ليشتمل على مجال واسع من المعانى المتنوعة ، فى العصور الوسطى كانت الواقعية مذهبا يرى أن القضايا الكلية لها وجود حقيقى واقعى real. أما فى عصرنا الحاضر فنسمع عن "الواقعية الوصفية". modal realism و"الواقعية الأخلاقية" ethical realism و"واقعية القصد العقلى" intentional realism و"الواقعية الرياضية"mathematical realism وخلاف ذلك. لتحقق هذه الدراسة أهدافها نتفق على أن نطلق اسم " الواقعية الخارجية" و" الواقعية" على وجهة النظر التى رسمنا إطارها فى الفقرة السابقة. ونحن نستخدم الاستعارة "خارجية" لتمييز وجهة النظر التى تتمسك بوجود واقع خارج أنظمة تعبيرنا و أشكال تمثيلنا إياه.

وقبل أن نختبر الحجج التى تؤيد الواقعية أو تعارضها نحن بحاجة إلى أن نميز الواقعية من وجهات نظر أخرى كثيرا ما تتداخل معها وتشتبك بها. و أول أنواع الخلط أن نفترض أن الواقعية تتطابق أو تنطوى على الأقل على نظرية تطابق الصدق و الواقع. غير أن الواقعية ليست نظرية من نظريات الصدق، و لا تنطوى على أية نظرية فى الصدق. الواقعية بالتحديد تتسق مع أى نظرية من نظريات الصدق لأنها نظرية فى الوجود (الأونطولوجى) و ليست نظرية فى معنى النعت " صادق". إنها ليست نظرية فى الدلالة على الإطلاق. لذلك فمن الممكن أن نتمسك بالواقعية الخارجية، و نتخلى عن نظرية تطابق الصدق و الواقع[١]. بناء على التفسير المعتاد تشتمل نظرية تطابق الصدق والواقع على الواقعية، مادامت تنطوى على وجود واقع تطابقه العبارات اللغوية عندما تكون صادقة ، بيد أن الواقعية لا تشتمل بذاتها على نظرية تطابق الصدق والواقع ، ما دامت لا تنطوى على أن " الصدق " اسم نطلقه على علاقة التطابق بين العبارات اللغوية و الواقع.

كذلك من المفاهيم الخاطئة الأخرى أن نفترض وجود أمر إبستمولوجى خاص بالواقعية. لذلك مثلا قد كتب هيلارى بونتا Hilary Puntam يقول[٢] :

> إن المضمون الكامل للواقعية يكمن فى الزعم بأنها تعطى معنى لأن نرى بنحو أفضل من اللامكان، أو من حيث تشهدنا عين الرب.

غير أن هذا ليس هو المعنى الذى ترجمت إليه الواقعية فى العادة. بل على العكس ففكرة view المشهد أو "النظرة" بأكملها هى بالفعل مسألة إبستمولوجية، أما الواقعية الخارجية فليست مسألة إبستمولوجية. سيكون أكثر اتساقا مع الواقعية أن نفترض أن أى نوع من "النظر" إلى الواقع بوصفه مشهدا هو أمر من المستحيل تماما . من التفسيرات فى الحقيقة ما يدفعنا إلى أن نجد فى مبدأ كانط Kant الذى يعتقد فى الأشياء فى ذاتها، أحد المفاهيم الخاصة بالواقعية التى تستعصى على أن يبلغها شهود أو " نظر" .لقد أدركت أنه منذ القرن السابع عشر كانت البراهين الإبستمولوجية أكثر ما شاع من الحجج ضد الواقعية -" كل ما بوسعنا بالفعل أن نعرفه على الإطلاق هو ما تدركه حواسنا " - لكن أطروحة الواقعية التى تتعرض للهجوم ليست من باب المعرفة

الإبستمولوجية على الإطلاق. و لدىّ الكثير مما أضيفه فيما بعد بشأن الحجج الإبستمولوجية ضد الواقعية.

الخطأ الثالث الذى تعانى منه الواقعية - وهو من الأخطاء الشائعة كذلك - أن نفترض أن الواقعية التزمت بالنظرية التى تؤمن بوجود كلمة تعدها أفضل ما يصف الواقع، لأن الواقع نفسه هو الذى يحدد كيف يجب أن يوصف. لكننا نكرر مرة أخرى القول بأن الواقعية الخارجية - على النحو الذى ذكرناه آنفا - لا توحى بأى شىء من هذا . فالرأى القائل بأن العالم يوجد مستقلا بمعزل عن أشكال تعبيرنا التى تمثله وتعبر عنه لا ينطوى على الإشارة إلى وجود كلمة لها أفضلية التعبير عنه أو وصفه. مما يتسق مع الواقعية الخارجية أن نأخذ بالفرضية الرابعة الخاصة بالانطلاق من تصور والارتباط بمفهوم بعينه. فالكلمات المختلفة بل الكلمات التى لا نبلغها بالقياس يمكن أن تقوم على أسس تعينها على أن تصف مظاهر الواقع المختلفة خدمة لأهدافنا المتنوعة.

وخلاصة هذه الأفكار: أن الواقعية على النحو الذى استُخدم به هذا المصطلح ليست نظرية فى الحقيقة، ولا هى نظرية فى المعرفة، و لا هى نظرية فى اللغة. و لو أصررنا على تصنيفها لأمكننا أن نقول إن الواقعية نظرية أونطولوجية: تقول بوجود واقع مستقل بمعزل عن أشكال تعبيرنا التى نصوره عليها و نمثله بها .

هناك التباس آخر شاع فى الفلسفة التقليدية عن فكرة الواقعية أريد أن أوضحه وأزيله. إن الفلاسفة الذين ناقشوا هذه القضايا تناولوها تماما كما لو كانت تُعنى بالكيفية التى يكون عليها العالم فى الواقع. إنهم يظنون أن القضايا القائمة مثلا بين الواقعية و المثالية إنما تدور على وجود الأشياء أو الموضوعات فى الزمان و المكان. وهذا خطأ بالغ . إن الفهم السليم يجعلنا نقول إن الواقعية ليست أطروحة تدور على كيف يكون العالم حقا؟ قد نكون مخطئين تماما بشأن الكيفية (أو الهيئة) التى تكون عليها كل التفاصيل، و مع ذلك تظل الواقعية صحيحة. الواقعية هى رؤية ترى أن هناك سبيلا توجد بها الأشياء من الناحية المنطقية وجودا مستقلا بمعزل عن كل أشكال التعبير الإنسانية التى يصور بها البشر الوجود و يمثلون له. ولا تتحدث الواقعية عن الكيفية أو الهيئة أو الحال التى تكون عليها الأشياء، و إنما تقول فحسب إنه ثمة سبيل لوجودها. ولا تعنى كلمة "الأشياء" فى الجملتين السابقتين موضوعات مادية و لا حتى مجرد موضوعات، إنها تشبه "ها" فى عبارة "إنها تمطر" ، حيث لا تعود أو تحيل على شىء.

قد يبدو احتراءً منا أن نزعم أن المسائل لا تخص فرضيات بعينها عن وجود الموضوعات المادية فى الزمان و المكان، لو كان هذا ما يظن أطراف الخلاف حقا أنهم يتنازعون حوله. لكننا نرجو أن نوضح أن المسائل قد لا تدور حول مثل هذه المزاعم بعينها. ليس بإمكان الواقعية أن تكون نظرية تجزم بوجود قمة إفرست مثلا، لأنه لو تحتم علينا فى النهاية أن نثبت أن قمة إفرست لا وجود لها على الإطلاق،فإن الواقعية تظل بمنأى عن كل هذا. وما يسرى على قمة إفرست يسرى على الموضوعات المادية بعامة. و لكن ماذا لو كان الأمر يفضى بنا بالضرورة إلى أن الموضوعات المادية - بل الزمان و المكان - كلها أمور لا وجود لها على الإطلاق. حسنا، بمعنى ما يمكن القول إن الأمر قد سار على هذا النحو. لأننا نعتقد الآن أن الموضوعات المادية هى مجموعات من" الجسيمات الدقيقة أو الذرات" التى ليست فى ذاتها أشياء مادية، بل هى على أحسن تقدير مواضع لطاقة هائلة. أما الزمان والمكان المطلقان فيتيحان الفرصة لوجود مجموعات من العلاقات التى تربط بين الأنظمة. و لا يتناقض كل ما ذكرنا مع الواقعية، إنما يفضى كله - كما سأبرهن فيما بعد ذإلى الواقعية. إنه يفترض أنه ثمة سبيل توجد بها الأشياء وجودا يستقل بها عن الطريقة التى نعبر بها عنها و نمثلها بها.

نواصل الحديث مستعينين ببعض من أفكار الخيال العلمى التجريبية. لنفرض أن الأمر لابد بالضرورة أن يئول إلى أن الواقع الفيزيائى الذى تعتمد أسباب وجوده على الوعى يشرف فى نهاية آخر كائن بشرى على نهايته فيما يشبه الانفجار الكونى المدمر Negative Big Bang هل يظل هذا متسقا مع الواقعية الخارجية ؟ أجل سيكون متفقا مع الواقعية الخارجية، لأن التسليم باعتماد الأمر على الوعى هو اعتماد له علة تسببت فيه شأن سواه. عندما تزعم الواقعية أن الواقع يوجد مستقلا بمعزل عن الوعى ، وفى غنى عن أشكال التعبير الأخرى التى تصوره و تمثل له ، فليس هذا مما ينطوى على وجود سبب له أو علة تبرره. بل إن الفرضية المنطقية هى أن الواقع لا ينبنى على تصوراتنا و أشكال تعبيرنا التى تعبر عنه و تمثله، أى إنه لا يعتمد منطقيا عليها.

لكن ماذا لو افترضنا أن الأمر سيفضى إلى أن الأشياء الوحيدة الموجودة أو التى قد وجدت فى وقت ما إنما هى حالات من الوعى غير المتجسد . disconsciousness بالتأكيد لن يتسق هذا مع الواقعية أو يتلاءم معها، و سوف يعد تبرئة للمثالية وإخلاء لساحتها، أو على الأقل سيعد صيغة ما من الصيغ المضادة للواقعية.

لا ليس من الضرورى : لا تقول الواقعية إن العالم يجب أن يفضى إلى أمر واحد دون سواه ، بل تقول بأنه ثمة سبيل وفحسب تفضى إلى وجود العالم وجودا يستقل به عن أشكال التعبير التى نصوره عليها أو نمثله بها. أشكال التمثيل شىء و الواقع الذى تصوره أو نمثل له شىء آخر. و هذا صحيح حتى لو أفضى الأمر إلى أن الواقع الفعلى الوحيد إن هو إلا مجموعة من الحالات الذهنية. و الطريقة الوحيدة لنرى الفرق بين الواقعية و النزعة المضادة للواقعية هى : أنه لو أفضى الأمر- بناء على نظرة الواقعية الخارجية - إلى أن ما يوجد ليس إلا مجموعة من حالات الوعى فحسب، لما وجدت السفن و الأحذية و شمع الأختام الأحمر. غير أن الزعم بأنه لا توجد سفن و لا أحذية ولا شمع الأختام الأحمر، إنما هو زعم يدور على الواقع الخارجى شأن أى زعم آخر.إنه يفترض سلفا وجود الواقعية بقدر ما يفترض الزعم بوجود هذه الأشياء. و من وجهة نظر النزعة المضادة للواقعية من الضرورى لهذه الأشياء إن وجدت أن تنبنى على أساس من تصوراتنا التى تمثل لها و تعبر عنها، فما كان لها أن توجد بمعزل أو فى غنى عن تصوراتنا التى تمثلها و تعبر عنها. فلابد أن تكون السفن و الأحذية و شمع الأختام مثلا - كما يرى باركلى Berkeley - ليست سوى مجموعة من حالات الوعى وتصورات العقل، تعد بالضرورة وجود واقع مستقل بمعزل عن العقل أمرا مستحيلا بالنسبة لأصحاب النزعة المضادة للواقعية. حتى لو لم توجد موضوعات مادية حقيقة، بالنسبة لمن يأخذون بالواقعية، سيظل هناك واقع مستقل عن أشكال تمثلاتنا التى تعبر عنه. لأن عدم وجود موضوعات مادية لن يكون إلا ملمحا واحدا من ملامح ذلك الواقع المستقل بنفسه عن أشكال تمثلنا التى تعبر عنه. قد يكون العالم مختلفا ومتسقا مع الواقعية، غير أنه فى الواقع يئول فى النهاية إلى كونه يشتمل على ظواهر مادية فى الزمان و المكان.

(من الصيغ البديلة يمكن أن نقول : بالنسبة لمن يقول بالواقعية إنه ليس من الممكن أن يئول الأمر إلى وجود موضوعات سوى تصوراتنا وأشكال تمثلنا فحسب، بل هذا ما يصير إليه الأمر حقيقة. أما بالنسبة لأصحاب النزعة المضادة للواقعية فإنه من غير الممكن أن يكون الأمر قد آل إلى وجود موضوعات تستقل بذاتها عن أشكال تمثلنا التى تعبر عن العالم و تصوره)

قد يبدو الأمر غريبا ، فالواقعية كمذهب له من الفلسفة و من غيرها من الأنظمة نحسيب قد تعرضت مؤخرا للهجوم. لقد فسرت مواقف عدة مفكرين- على تنوع مشاربهم - (و لا أظن هذا التفسير قد حالفه دائما الصواب) بوصفهم يمثلون تحديا لافتراضنا الساذج بوجود واقع مستقل بمعزل تماما وعن أشكال تمثلنا التى تصوره وتعبر عنه، من مثل هؤلاء : ميشيل دوميت Michael Dummett، ونيلسون جودمان Nelson Goodman وتوماس كون Thomas Kuhn، وبول فيرابيند Paul Feyerabend وهيلارى بونتام Hilary Putnam، وريتشارد رورتى Richard Rorty ، وجاك دريدا، Jacques Derrida وأمبرتو ماتورانا Humberto Maturana، وفرانشيسكو فاريلا Fran- cesco Varela، وتيرى وينوجراد Terry Winograd، بل لقد زعم بعض العلماء أن الفيزياء الحديثة لا تتسق مع الواقعية، لذلك كتب ج. ر. فيلر J.R.Wheeler:

> فالعالم لا يوجد "خارجنا " بمعزل عنا، لا مفر لنا من أن يكون لنا يد فيما يبدو من أحداث. لسنا مراقبين نلاحظه فحسب، بل نحن نشارك فى صنع الماضى، و الحاضر والمستقبل كذلك(٣).

هناك عدة أمور مؤرِّقة بشأن كل هذه الهجمات على الواقعية. **أولها**: أن الأدلة المناقضة لفكرتنا المألوفة عن وجود واقع مستقل بذاته كانت دائما مبهمة و غامضة. لا نجد أحيانا أدلة واضحة على هذه الآراء المناقضة. **وثانيها** : أن الآراء البديلة التى من المفترض أن تقدم دليلا ضد الواقعية، كانت على نفس القدر من الغموض ولم تستقم بوضوح. بل إن الكثير من المناقشات الدائرة مؤخرا حول الواقعية بين فلاسفة التحليل تدل على عدم الدقة الذى ساد العقدين الأخيرين.

فما هى بالتحديد الفرضيات التى قد أكدها الفلاسفة؟ وما هى بالضبط الفرضيات التى قد أنكروها ؟ وما هى بالضبط الأدلة على كل منهما ، ما يؤكد منها و ما يستبعد؟ ستبحث بلا طائل عن أجوبة لهذه الأسئلة فى معظم المناقشات التى دارت حول هذه الأمور. بل أعتقد أن هذا الإهمال بعامة لم يكن مصادفة . إنه يشبع بنحو ما رغبتنا فى القوة؛ أن نعتقد أننا نصنع العالم، فذلك الواقع نفسه ليس سوى بناء أقامه المجتمع قابل للتغيير وفقا للرغبة، و وفقا لما نراه مناسبا له فى المستقبل. و بالمثل يبدو مهينا لو لزم (وجود واقع مستقل بوقائعه الصريحة الخالصة،غفل أعمى، لا يتأثر على

الإطلاق بما يعنينا. كل هذا كان جزءا من المناخ الفكرى العام الذى جعل الصيغ الفلسفية للنزعة المضادة للواقعية مثل" ما بعد الحداثة "- كما مثلتها التفكيكية - تبدو مقبولة فكريا، بل تبدو مثيرة. غير أنه بمجرد أن تطرح الفرضيات المضادة للواقعية وينص عليها، وتقام عليها الأدلة صريحة عارية غير خافية أو مستترة، نجدها أميل لأن تبدو سخيفة تماما، من هنا كان الغموض المحيط بالكثير من هذه المناقشات.

لهذا تواجهنا مشكلة ، لقد ذكرنا أننا سوف ندافع عن الواقعية ضد الهجمات التى شنت عليها، غير أننا بصراحة لا نجد من الهجمات ما يستحق التصدى له .لقد رفض ماتورانا وجود أى "واقع موضوعى " لصالح الرأى القائل بوجود أنظمة عصبية - على غرار الأنظمة autopoietic التى تعيد بناء نفسها بنفسها و تقيم واقعها بنفسها(٤).

والدليل أنه مادمنا لا نمتلك تصورا للواقع، و لا يتيسر لنا مشارفته إلا من خلال ما يقيمه المجتمع من أبنية متعددة لهذا الواقع تحت مظلة الاتفاق الجماعى و "هيمنة ما ترتضيه الأنظمة التى تبنى نفسها، فلا وجود لواقع مستقل بمعزل عن الأنظمة البيولوجية. و فى مقابل هذه النظرة نود أن نقول : صدورا من أن ما نرسمه من صورة أو تصور للواقع، أو ما لدينا من معرفة بالواقع، قد أقامته العقول البشرية من خلال التفاعل بينها، و هذا لا يستلزم بالضرورة أن يكون هذا الواقع، الذى كونا له صورة نعرفه بها و نتصوره عن طريقها، قد أقامه المخ البشرى عن طريق التفاعل الإنسانى(*)، مما يعد مغالطة جينية، أن نستدل - من الوظائف الجماعية للجهاز العصبى التى تكون علة وسببا فى معرفتنا بالعالم الخارجى - على عدم وجود العالم الخارجى.

ويشير وينو جراد إلى أن جملة "يوجد ماء فى الثلاجة" يمكن لها هى نفسها أن تشكل عبارة كاذبة بالنسبة لمجموعة ما من الاهتمامات التى تشتمل عليها الخلفية.بينماتمثل هذه الجملة عبارة صادقة، بالنسبة لمجموعة أخرى من هذه الاهتمامات(٥). و يستنتج من هذا أن الواقع لا يوجد مستقلا بمعزل عن أشكال تمثلاتنا التى تعبر عنه. و نردد ثانية - ما قلنا بالنسبة لماتورانا - هذا الاستنتاج غير صحيح. فارتباط ما نهتم له أو نعنى به بأشكال تمثلنا و تعبيرنا عن الواقع لا يفيد أن الواقع

(*) علاوة على ذلك هناك مشكلة خاصة بالمخ البشرى نفسه، والتفاعل بين البشر، هل من المفترض أن يوفر التفاعل الإنسانى الأسس والمقومات التى تبنى المخ البشرى؟

الذى نصوره فى أشكال تعبيرنا و نمثل له هو فى حد ذاته مرتبط بهذه الأشياء التى نهتم لها و نعنى بأمرها. و شأن ماتورانا شأن وينو جارد الذى يحاول أن يستخلص نتائج عن الواقع يستمدها مما تتسم به أشكال تمثلنا وتعبيرنا عن هذا الواقع. لقد أثبت عدد من منظرى الأدب المنتمين لاتجاه " ما بعد الحداثة" أن الواقعية عرضة للتهديد لأن المعرفة تقوم على أساس اجتماعى، و تتعرض لكل ما هو جزافى، وللرغبة فى القوة التى تورثها إقامة أى بناء اجتماعى. عن هذا كتب جورج ليفين George Levine قائلا" تعتمد النزعة الفلسفية، بل النزعة الأدبية، المضادة للواقعية، على شعور باستحالة المعرفة المباشرة"(٦). وليس لدى دريدا - قدر ما يسعفنى القول - أى دليل .فهو يعلن ببساطة أنه (لا شىء "خارج النص"). إنه يرد مفندا بعض اعتراضاتى، فيما يكشف عن تراجعه إذ يقول أن كل ما عناه بإعلانه الاستعراضى أنه "لا شىء خارج النص" ، و هى فكرة مستهلكة، ترى إن كل شىء يوجد داخل سياق أو آخر.(٧) بأى شىء نرد على هذا الكلام، أو نأبه لهذه الأدلة الضعيفة، بل لغياب الأدلة أصلا، طبيعى أن تكون النتيجة ساذجة ؟

والاستراتيجية التى سوف أتبعها هى أن أنتقى ما أراه أقوى الحجج ضد الواقعية الخارجية وأتصدى لها بالرد. لنفرض أنى كنت مقتنعا بالنزعة المضادة للواقعية ، فما الذى ربما يكون قد أقنعنى خاصة؟ لنفرض - و إن كان هذا يبدو بعيد الاحتمال - أن مصير البشرية يعتمد على أن أقنع شخصا ما بالنزعة المضادة للواقعية، فما الحجج التى كنت سأقدمها ؟ سأعتمد على ثلاث حجج : ١- الحجة المستمدة من الانطلاق من تصور و الارتباط بمفهوم بعين onceptual relativity. و٢- الحجة الخاصة بإثبات الصحة verification . و٣- الحجة التى سأدعوها Ding an sich برهان الشىء فى حد ذاته.

المحاجة انطلاقا من منظور الخلاف بين الارتباط بتصور بعينه والنزعة المضادة للواقعية:

لقد طرحنا قضية الانطلاق من تصور والارتباط بمفهوم بعينه من قبل فى الفرضية التى ذكرناها أنفا، التى تفند الفرضية ١ الخاصة بالواقعية الخارجية.

إن فكرة الانطلاق من تصور و الارتباط بمفهوم بعينه فكرة قديمة، أعتقد بصحتها. أى نسق من يصنف الموضوعات أو يفردها، و أى مجموعة من المقولات التى يوصف بها العالم،بل أى نظام فى الحقيقة تنتظم فيه أشكال التعبير نتمثل عليها العالم و نعبر بها عنه، إنما هو أمر عرفى تماما ، شديد الجزافية. فالعالم ينقسم إلى ما نقسمه إليه. ولو كنا نميل إلى الاعتقاد بأن طريقتنا الحالية فى تقسيمه هى الطريقة السليمة أو اعتقدنا أنها أمر حتمى،لظل بمقدورنا دائما أن نتخيل أنساق تصنيف بديلة. و لكى نستوضح هذا بقدر أكبر لنأخذ قطعة من الطباشير، ونرسم خطا عبر جزء من الكتاب الذى أمامنا ونمد الخط إلى المنضدة ثم نعود به إلى الكتاب صانعين دائرة، ثم لنمنح هذا الشىء المصنوع من أجزاء من سطح الكتاب و سطح المنضدة كما حددناه بالطباشير اسما. لنسمه كلارج klurge مثلا. ليس لدينا استخدام لهذا المفهوم فى لغتنا. غير أنه ليس من الصعب أن نتخيل ثقافة تحتل فيها الكلارجات أهمية دينية كبرى.حيث لا يمكن أن يصفها بدقة إلا العذارى المقدسات العاملات تحت الماء،و من يطمسها أو يمحُها يستحق الموت. لكن لو كان الكلارج يعبر عن مفهوم أو معنى لم يسمع أحد عن شروط صدقه من قبل، لكان ما يمكن أن نصوغه من المفاهيم أو المعانى الجديدة لا حدود له. لأن أى وصف صادق للوجود سوف يصنع دائمّا من مفردات نظام ما من أنظمة المعنى ويرتبط بمفهوم بعينه، ويترتب على هذا أن أى وصف صادق سيكون انطلاقا من تصور والارتباط بنسق ما من المعانى التى قد وقع عليها اختيارنا جزافا لنصف بها هذا العالم.

بعد أن تميز الارتباط بمعنى بعينه على هذا النحو نجده يبدو صحيحا تماما، بل فى الحقيقة أمرا عاديا مألوفا. و مع ذلك فقد رأى عدد من الفلاسفة أنه يتعارض مع الواقعية الخارجية، و بالتالى فقبولنا فكرة الانطلاق من تصور بعينه يدفعنا إلى أن ننكر الواقعية. لكن لو كان هذا الزعم صحيحا بالفعل لكان لزاما علينا أن نكون قادرين على أن ننص على الفرضيتين بدقة تامة تجعل عدم الملاءمة بين الارتباط بتصور بعينه والواقعية من الأمور الواضحة تماما.

فلنقل إن الواقعية الخارجية هى وجهة النظر التى ترى :

أن الواقع يوجد مستقلا بمعزل عن أشكال تعبيرنا عنه و تمثلنا له.

ولتكن الفرضية الخاصة بالارتباط بمفهوم بعينه هى فرضية ترى :

أن كل الأشكال التى نعبر بها عن الواقع ونمثله بها إنما ترتبط بمجموعة من المفاهيم أو المعانى التى وقع اختيارنا عليها جزافا.

لقد نُص على أن هاتين الرؤيتين لا تتعارضان ولو ظاهريا، فالأولى لا تقول إلا أنه يوجد شىء خارجنا، لا يد لنا فيه، بحاجة إلى أن نصفه. و الثانية تقول إن علينا أن ننتخب مجموعة من التصورات أو المعانى، و الكلمات كى نصفه بها. فلماذا يفترض البعض أن الفرضية الثانية تستلزم رفض الفرضية الأولى ؟ و الإجابة عن هذا أننا لو قبلنا فكرة الانطلاق من تصور و الارتباط بمفهوم بعينه، و حاولنا أن نقرن بينها و بين الواقعية لبدا أننا قد وقعنا فى تضارب.

لنتأمل المثل التالى الذى ضربه بونتام Putnam[٨] لنتخيل وجود جزء من العالم كما يبدو فى الشكل ٧ : ١.

أ

ب ج

(الشكل ٧ : ١)

كم موضوعا من الموضوعات فى هذا الوجود المصغر miniworld حسنا، بناء على نظام كارناب Carnap الخاص بالحساب العددى و بناء على الفهم المشترك، توجد ثلاثة موضوعات، لكن بناء على ليسنيفسكى Lesniewski وغيره من المناطقة البولنديين توجد سبعة موضوعات نُحصيها على النحو التالى:

١ = أ

٢ = ب

٣ = ج

٤ = أ + ب

٥ = أ + ج

٦ = ب + ج

٧ = أ+ ب + ج

ما عدد الموضوعات فى هذا الوجود المتخيل إذن بالفعل ؟ هل هى فعلا ثلاثة أم سبعة؟ لا توجد إجابة مطلقة على هذه الأسئلة. و الإجابات الوحيدة الممكنة هى إجابات ترتبط باختياراتنا الجزافية لخرائط المعنى التى تتوزع عليها المفاهيم conceptual schemes، فجملة " توجد ثلاثة موضوعات فى الوجود " ذاتها على سبيل المثال ستكون صادقة فى شكل أو خريطة ما، و غير صادقة فى شكل أو خريطة أخرى. وخلاصة القول أن الواقعية الخارجية تؤدى إلى الوقوع فى تناقضات لأنها تسمح بتضارب ما يوصف به الواقع المفترض وجوده مستقلا بمعزل عن وجودنا.

يبرهن جودمان على حجته متصورا أننا نصنع الواقع- بنحو مميز- ، أو كما يفضل جودمان أن يقول " نحن نصنع عوالم" بأن نرسم حدودا بعينها نختارها دون سواها. فمثلا نجده يقول:

> لقد صنعنا الآن مجموعات نجمية باختيار نجوم بعينها دون سواها، فجمعنا نجوما برسم حدود بعينها دون سواها، وضممنا بعضها للبعض الآخر. لا شىء يجزم بما إذا كانت السماء سوف تنقسم إلى مجموعات نجمية أو لأمور أخرى، علينا أن نصنع ما نجده سواء أكان "الدب الأكبر" أم" الشعرى اليمانية"، أم طعاما، أم وقودا، أم نظام تكبير الصوت (ستيريو)(٩).

رفض جودمان الواقعية الخارجية و تجنب الوقوع فى التعارض والتناقضات بأن جعل الوقائع الموصوفة ترتبط بعالم نصنعه. يقول بونتام إنه بدلا من الظن بوجود واقع خارجنا، يستقل عن العقل يجب علينا أن نقول " إن العقل و العالم يشتركان معا فى بناء كل من العقل و العالم"(١٠).

لكن هل من المفترض أن يمثل هذا التعارض مشكلة بالفعل ؟ سيقول أحد المؤيدين للنزعة الواقعية - منطلقا من تصور و الارتباط بمفهوم أو معنى بعينه- بوجود ثلاثة موضوعات بناء على التصنيف الذى وضعه معيار الإحصاء فى نسق التصنيف الأول. و هى بالفعل سبعة وفقا لمعيار التصنيف الذى وضعه نسق الإحصاء الثانى. تزيل تلك الإجابة ما يبدو من تناقض لاعن طريق وضع صيغة للواقعية الخارجية، ولا عن طريق التخلى عنها، و إنما بالإشارة ببساطة إلى أن معيار إحصاء الموضوعات قد وضع

بطريقتين مختلفتين. و من هنا فعبارة " توجد موضوعات ثلاثة في الوجود" ذاتها من الممكن أن تستخدم الآن في صنع عبارتين مختلفتين ومستقلتين تماما، إحداهما صادقة، و الأخرى غير صادقة. لكن العالم الحقيقى لا يأبه بالطريقة التى نصفه بها، وسيظل هو ذاته مهما تنوعت الصفات التى نصفه بها.

تبدو بعض الأمثلة التى ضربها الأدب للارتباط بتصور أو بمفهوم بعينه أشد إلغازا وتعقيدا من الأمثلة التى ضربناها، لكن المبدأ الذى تستعين به الأمثلة فى كل الأحوال واحد، ولا نرى أننا نجنى فائدة من وراء التعقيد. فالهدف من كل ما ضرب من أمثلة أن يوضح أن أنظمة المعنى التى تنطلق من تصور بعينه على اختلافها ستفضى إلى وصف "الواقع" نفسه بأوصاف مختلفة ، قد تبدو متعارضة. و لا أعتقد أن فى هذه الأمثلة ما يتعارض مع الواقعية الخارجية .فما يبدو من تعارض هو مجرد وهم خادع. و لو لجأنا إلى تفسير طبيعى لوجهات النظر تلك لوجدنا أنه لا تعارض-أيا كان نوعه - فى قبول أبسط صيغة من صيغ الواقعية الخارجية ، و لا فى قبول أية صيغة على الإطلاق من صيغ الارتباط بمفهوم بعينه(*) .

الأولى: تقول بأن الواقع يوجد مستقلا بمعزل عن أشكال تمثلنا التى تصوره و تعبر عنه.

الثانية: تقول بوجود خريطة واحدة صحيحة لبناء الفهم حين نريد أن نصف الواقع.

أما الأولى فهى ما كنت قد أطلقت عليه" الواقعية الخارجية" ، وأما الثانية فدعونا نطلق عليها نظرية " أميز خرائط الفهم كى نصف العالم وصفا صحيحا "Priviledged" Conceptual Scheme.

حالف بونتام الصواب فى رؤيته أن الانطلاق من تصور والارتباط بمفهوم أو معنى بعينه يدحض القول بوجود خرائط تتميز مما عداها لبناء المعنى نستعين بها كى نصف الواقع وصفا صحيحا. ومادام بمقدورنا دائما أن ندحض رابطة ما بين طرفين برفض طرف ما منهما، (بعبارة أخرى) لو أن الواقعية الميتافيزيقية هى ما يربط بين الواقعية الخارجية وخرائط بناء الفهم كى نصف العالم وصفا صحيحا، لكان فى هذا ما يدحض

(*) ما الخطأ؟ وما ذا جرى؟ إن نظرة متفحصة للنصوص - فى المثل الخاص ببونتام - يرى أنه يجمع على الأقل أطروحتين منطقيتين مستقلتين تحت اسم "الواقعية الميتافيزيقية" Metaphysical Realism

الواقعية الميتافيزيقية . لكننا لا ندحض الطرفين كليهما بدحض طرف واحد منهما لذلك فبالرغم من الخطأ فى الخرائط الأميز لبناء الفهم تلك التى بها نصف العالم وصفا صحيحا تظل الواقعية الخارجية طاهرة الذيل، بريئة لا يمسها السوء. تترك كتابات بونتام انطباعا بأنه يرى أنه بتفنيد فكرة أميز خرائط بناء الفهم لوصف العالم وصفا صحيحا، يتم تفنيد الواقعية الخارجية.إنه لم يقم بذلك، ربما لم يطرأ على باله أن التفنيد يمس الواقعية الخارجية التى كان سيعود بالنفع على قارئه تأكيدها تأكيدا صريحا... لكنه - على العكس من ذلك - يتبنى موقفا متماسكا يأخذ بالرأى الذى أطلق عليه " الواقعية الداخلية" التى تقف ما بين" الواقعية الخارجية" كما قد حددتها من قبل والنزعة المضادة للواقعية" التى زعم بونتام رفضها.

دعونا نفكر فى علاقة الواقعية بالارتباط بمفهوم بعينه على هذا النحو : لنختر ركنا من أركان العالم و لنقل جبال الهيمالايا مثلا، و نتصور أنها سبقت فى الوجود وجود أى مخلوق بشرى. الآن دعونا نتخيل أنه سرعان ما جاء البشر و مثلوا الوقائع و عبروا عنها بطرق متنوعة ومختلفة. فكانت لهم مفردات مختلفة، وأنظمة لصنع الخرائط مختلفة، وطرق للعد مختلفة، على غرار جبل، جبلين، الجبل نفسه...إلخ. ثم دعونا نتخيل أنه فى نهاية الأمر انقطع وجود البشر كلهم ، فماذا حدث الآن لوجود جبال الهيمالايا، ولكل الوقائع الخاصة بالهيمالايا عبر هذه التغيرات؟ لا شىء على الإطلاق. فالكثير مما توصف به الوقائع، والموضوعات و... إلخ تأتى وتروح، ولكن الوقائع، والموضوعات و....إلخ تظل كما هى دون أن تتأثر. (وهل يشك أحد بالفعل فى هذا؟)

لأن بدائل خرائط بناء الفهم تسمح بوصف الواقع الواحد بعدة أوصاف مختلفة، وبسبب عدم وجود وصف للواقع خارج كل خرائط بناء المعنى، فلا علاقة لهذا بأية حال بصحة الفرضية الخاصة بالواقعية الخارجية.

لكن ماذا عما أثاره جودمان عن احتمال تعارض الأوصاف المتصلة بخرائط مختلفة لبناء المعنى؟ لا بديل لأن نتنقل بحرص بين الأمثلة. لذلك دعونا نتأمل حالة من الحالات التى توضح كيف تتعامل الواقعية الخارجية مع المفردات البديلة ؟ دعونا نفترض أنى امرؤ ساذج تماما، يؤمن بالواقعية الخارجية، و يولى اهتمامه مسألة الأوزان، حيث يكون بمقدور الجاذبية الأرضية أن تجتذب الكتل إلى سطح الأرض. أعتقد أنى بالفعل أزن ١٦٠ رطلا، ولا شأن لما يظنه الآخرون بذلك. لكن انتظر! أنا أزن ١٦٠ رطلا لكن (فى

الوقت نفسه) أنا أزن ٧٣ كيلو جراما. فما هو وزنى حقا : ١٦٠ أم ٧٣؟ أرجو أن يكون واضحا أن الإجابتين صحيحتان، الرغم من أن كل إجابة منهما إجابة ناقصة. فما يبدو من تعارض إنما هو فى الظاهر و حسب، لأن زعمى أن وزنى يبلغ ١٦٠ رطلا لا يتعارض مع زعمى أنى أزن ٧٣ كيلوجراما . فالواقعية الخارجية تتيح الفرصة لعدد لا نهائى من الأوصاف الصحيحة التى تصدق على الواقع الواحد، وترتبط بخرائط مختلفة لبناء المعنى. " فما هو هدفى الفلسفى؟" إنما نرمى لأن نعلمك أن تحيل الهراء المستتر إلى هراء واضح(١١). والقول بالانطلاق من تصور و الارتباط بمعنى بعينه ينطوى ضمنا على النزعة" المضادة للواقعية" و هذا من الهراء المستتر. أما الهراء الواضح فمنه أن تقول مثلا، ليس من الممكن أن يكون وزنى ١٦٠ رطلا، و أن أزن فى الوقت نفسه ٧٣ كيلوجراما.

يمكننا أن نضيف أن استخدام فرضية الارتباط بمعنى بعينه دليل يدحض الواقعية، يفترض مسبقا وجود الواقعية، لأنه يقتضى وجود واقع مستقل لا يعتمد على اللغة ينحت و يشكل بطرق مختلفة،عن طريق مفردات مختلفة. تأمل مثلا نموذج التباديل الحسابية alternative arithmetics، يشير باتنام إلى أنه بالإمكان أن نصف الوجود المصغر miniworld بأن نقسمه إلى ثلاثة موضوعات، أو نقسمه من وجهة نظر أخرى إلى سبعة موضوعات. لكن لاحظ أن هذا الزعم بحق يقتضى وجود شىء أولا قبل أن نقوم بوصفه ، و إلا فلا سبيل لنا لفهم المثل الذى ضربناه. و عندما كتب جودمان " نحن نبتكر للنجوم مجموعات بأن نرسم حدودًا بعينها نختارها دون سواها " فلا سبيل لنا لفهم هذه الفرضية دون أن يقتضى هذا سلفا وجود شىء خارجنا يمكننا أن نرسم له حدودا. فإن لم يكن هناك منطقة ما نرسم لها حدودا لما كان بالإمكان أن نرسم تلك الحدود.

لو حاولنا اتخاذ تلك الحجج سبيلا لتفنيد الواقعية الخارجية،لارتكبنا خطأ فادحا ولوقعنا فى مغالطة بالغة؛ إذ لا يترتب على ارتباط وصف ما بمجموعة من التصنيفات اللغوية ،أن توجد الوقائع أو الموضوعات أو الأشياء... إلخ الموصوفة و حسب فى نسبتها إلى مجموعة من التصنيفات .والانطلاق من الارتباط بمفهوم بعينه - لوفهم فهما سليما - إنما يعنى الطريقة التى نرسخ بها استخدامنا بعض التسميات، فما اصطلحنا على أن نسميه "قطة" أو "كيلو جراما" أو "واديا ضيقا" (أو" كلارج") أمره موكول إلينا

نحن لنقرره، أى أن أمره جزافى إلى حد كبير. لكن بمجرد أن نرسخ المعنى الذى نعرّف به ما أطلقناه جزافا من تسميات، يكف الأمر عن التعلق بالارتباط أو الجزافية arbitrariness relativism سواء أنطبقت تلك التعريفات على سمات العالم المستقلة بمعزل عن أشكال تمثيلنا لها و تعبيرنا عنها أم لم توافقها. لأن خصائص العالم التى توافقها تلك التعريفات satisfy أو لا توافقها إنما توجد بمعزل عن تلك التعريفات و عن سواها .فنحن نعرِّف جزافا كلمة " قطة" على هذا النحو أو ذاك ، و بناء على صلتنا بهذا التعريف أو ذاك و حسب يكون بمقدورنا أن نقول "تلك قطة". لكن بمجرد أن نضع التعريفات و بمجرد أن نستخدم المفاهيم أو المعانى التى ترتبط بمنظومة التعريفات، سواء أوافق شىء ما تعريفنا أم لم يوافقه، عندها عنه ما يوافق ذلك الاستعمال وينطبق عليه، هو أمر واقعة (مطلقة، جوهرية، بمعزل عن العقل) تماما. وعلى خلاف ما يراه جودمان، نحن لا يفقد تعريفنا جزافيته والصلة التى تجعله معلقا بمفهوم أو معنى. فاستخدامنا لكلمة قطة بالنحو الذى نفعله راجع إلينا .أما وجود شىء خارجنا بمعزل عن ذلك الاستعمال مستقلا بوجوده، فلا نصنع "عوالم" ، وإنما نبتكر أوصافا قد يتفق معها العالم الفعلى أو لا يتفق. غير أن كل هذا ينطوى على وجود واقع مستقل بمعزل عن منظومة مفاهيمنا، فلابد من وجود شىء نتصوره و نبتكر له المعنى، سواء أكان ما نتصوره ملائما له أم غير ملائم ، بدون وجود مثل هذا الواقع الخارجى لن يعود المعنى على شىء.

لكى يكون لدينا صيغة من صيغ الارتباط بمفهوم بعينه وهى فكرة تتعارض مع الواقعية الخارجية، لابد أن يكون لدينا صيغة تتضمن أن العبارة نفسها (و ليس الجملة النحوية بل العبارة نفسها)، من الممكن أن تكون صادقة بالنسبة إلى منظومة من المفاهيم، و غير صادقة بالنسبة لمنظومة أخرى. لم أجد أى مثل يكاد أن يكون معقولا على هذا. و الأمثلة القياسية تأتى على هذا النحو : لنفرض أن لدينا طرزا مختلفة تمثل مجالا من مجالات الواقع، لنقل الفيزياء الأرسطية فى مقابل فيزياء نيوتن، أو مسقط ماركيتور لسطح الكرة الأرضية فى مقابل المسقط القياسى الذى يمثل سطح الكرة الأرضية. نجد فى مسقط ماركيتور أن جرينلاند تشغل مساحة أكبر من البرازيل، لكن فى المسقط القياسى للكرة الأرضية. نجد جرينلاند تشغل مساحة أصغر من البرازيل. ألا نجد لدينا، نمطين كلاهما صادق التعبير عن الواقع نفسه، و إن كانا فى الحقيقة متعارضين ؟ و الإجابة : لا. فمسقط ماركيتور ليس دقيقا و حسب فيما يخص نسبة

مساحة البرازيل إلى مساحة جرينلاند. من المعروف تماما أن انماطا بعينها من مثل الفيزياء الأرسطية و مسقط ماركيتور، يخطئنان فى تقدير، او يحرفان سمات بعينها من ملامح الوجود.

كل العبارات - صادقة الإخبار- عن العالم من الممكن أن تتأكد معا دون أن تتعارض. و لو لم يكن من الممكن أن تتأكد كلها معا وهى على اتفاق لما أمكن أن تكون كلها صحيحة. بالطبع تواجهنا دائما مشاكل الغموض، و التداخل، و تشابه المجموعات، والنص المفتوح والاعتماد على السياق، و النظريات التى يتعذر إخضاعها للقياس، والالتباس، و الطابع المثالى المرتبط ببناء النظرية، و التفسيرات البديلة، و العجز عن تأييد النظرية بالبراهين، وغير ذلك. غير أن تلك المشاكل من سمات القصور التى تتسم بها أنظمة تمثيلنا، وليست من سمات الواقع المستقل بذاته عن أشكال هذا التمثيل الذى نستعين فيه ببعض من هذه الأنظمة لتعبر عن هذا العالم تعبيرا يتفق معه بنحو ما. كثيرا ما يمكننا أن نستخدم جملة ما لتثبت الصدق داخل إحدى خرائط بناء المعنى، بينما تستخدم نفس الجملة لتثبت عدم الصدق فى خريطة أخرى من خرائط بناء المعنى. لكن هذا كما رأينا المرة تلو المرة،لا يكشف عن تناقض أصيل.

إقامة الحجة

استهوى هاجس اللغة و المعنى فلسفة القرن العشرين، حتى لم يعد بإمكان شىء أن يفلت من قبضتهما. أما القرون الأسبق فقد أصابها هوس الخبرة و المعرفة. لذلك انتهت الفلسفة إلى أنه لا يوجد واقع مستقل بمعزل عن الخبرة و المعرفة. كانت أشهر محاجة أقيمت ضد الواقعية- فى تاريخ الفلسفة الغربية منذ القرن السابع عشر- قد خرجت من تربة الاهتمامات الإبستمولوجية.

أعتقد أن الباعث الفلسفى الأساسى من وراء دليل الإثبات و التحقق the Verificationist Argument إقامة الحجة ضد الواقعية هو محاولة تنحية احتمالات نزعة الشك skepticism عن طريق إزالة الفجوة بين ما يبدو ظاهريا و الواقع، تلك الفجوة التى تفسح المجال لنزعة الشك فى المقام الأول. لو أن الواقع لا يعتمد إلا على خبراتنا، و لو أن خبراتنا تضع له الأساس بنحو ما، لكان مفهوم نزعة الشك - التى ترى أنه ليس

بإمكاننا على الإطلاق التخلص من خبراتنا و تجاوزها إلى الواقع الذى يقف وراءها - صحيحا.

إن السؤال عن وجود واقع مفارق يتجاوز خبراتنا، كان من الأسئلة التى ألحت دائما على الفلاسفة. وما مثالية "كانط" إلا طرح أكثر إحكاما، من طرح باركلى لهذا السؤال، وقد ظل السؤال الملح يطرح نفسه حتى أواخر القرن العشرين، متمثلا فى الجهود المتنوعة لتحليل المعنى باللغة المألوفة، أو حتى تحليله وفقا لوجهة النظر السلوكية. لذلك لن يتبقى فى النفس شىء قد يثير الشك فيما إذا كان المرء قد فهم بالفعل ما قد عناه الآخرون عندما استخدموا تعبيرا ما.

> حتى لو حالفنا التوفيق فى هذا التشخيص، فلن يعطى مع ذلك مصداقية للدليل الفعلى، لذلك سألقى الآن ما أعده أقوى الحجج ضد الواقعية، على النحو التالى :
>
> لتسأل نفسك ماذا تعرف بالفعل؟ أعنى فعلا. حسنا، قد تقول إنك تعرف فعلا أنك تجلس على مقعد، و أن هناك مكتبا أمامك، و أنك تنظر إلى شاشة الكومبيوتر. لكن لو فكرت فى هذا كله، فسوف تجد أن ما تعرفه حقا هو أن لديك خبرات بعينها، لذلك فعندما تلقى هذه المزاعم مفترضا أنك تتحدث عن مقعد، أو مكتب، أو شاشة كومبيوتر، فإما أنك تتحدث عن خبراتك وإما أنك تتحدث عن شىء لا تعرفه بالفعل. بالإضافة إلى أنك لو حاولت أن تتحدث عن شىء آخر سوى خبراتك، فستتحدث عن شىء لا تعرفه. ولو سألت نفسك كيف تعرف ما تعرفه عن العالم، لكان من الضرورى أن تكون الإجابة: أنك تعرف من خبراتك. عندها تجد نفسك تواجه مأزقا، فإما أن زعمك أنك تعرف إنما يصف ببساطة مضمون خبراتك، وإما أنك تتجاوز ذلك المضمون إلى شىء يقع وراءه. فلو كانت الأولى، فلا شىء يُعرَف سوى مضمون خبراتك، و لو كانت الثانية إذن فأنت تزعم عدة مزاعم : من مثل أنه ليس

بإمكانك الإثبات، لأن كل إثبات يتكئ على خبرة، وأنت بمقتضى الفرضية تزعم مزاعم تتجاوز خبرتك الشخصية إلى ما ليس بإمكانك بلوغه.

أنا أزعم مثلا، أنى أعرف أنه يوجد أمامى الآن مكتب فماذا يعنى مثل هذا الزعم ؟ حسنا، كل ما لدى من معرفة مباشرة هو عن تلك الخبرات اللمسية و البصرية، و كل ما يمكن أن يكون لى - أو لأى شخص آخر - من معرفة مباشرة هو قدر أكبر من مثل تلك الخبرات. فما قيمة زعمى الأساسى ؟ إما أنه يعنى و يعادل الزعم بوجود خبرات فعلية و ممكنة (رطانة القرن العشرين عن "معطيات الحس"، و"الانطباعات" على نحو ما عرفها القرن السابع عشر و الثامن عشر) وأما لو كان ثمة مزاعم أكثر فلابد أن يكون منها الزعم بشىء لا يمكن معرفته، و لا يتيسر لنا فحصه بأية وسيلة من الوسائل. وهذا الزعم فارغ من الناحية التجريبية (الإمبيريقية) والنتيجة الواضحة : أن الخبرة توفر للواقع مقوماته.

طرح كثير من المؤلفين هذه القضية، وعبروا عن نتائجهم بأساليب متنوعة ، فباركلى مثلا يقول : ليست الموضوعات إلا مجموعة من الأفكار. و يقول ميل Mill: الموضوعات من إمكانات الحس الدائمة. و تقول ظاهراتية القرن العشرين: من الممكن أن نترجم العبارات الدالة على المعطيات الإمبيريقية دون أن تحمل أثرا لمعطيات الحواس. ويلخص باركلى تلك القضية ببراعة قائلا " لو وجد شىء ما فعلا دون أن نتمكن من معرفته على الإطلاق، ولو لم يوجد أبدا، لما تغير فى الأمر شىء".

يبدو لى أن هذه القضية تتخذ لها أساسيين تعتمد عليهما. الأساس الأول هو : أن كل ما يمكن أن ندركه على الإطلاق إنما يقع فى إطار تجاربنا. لذلك، فلو كان من المفترض أن يوجد واقع يتجاوز حدود تجاربنا لما كان بالإمكان معرفته، و لا كان بمقدورنا أن نسبر غوره على الإطلاق. و الأساس الثانى - وهو امتداد للأول - يرى أن تجاربنا هى الأساس الوحيد لمزاعمنا عن عالم الواقع. لذلك لو تجاوزت مزاعمنا عن

عالم الواقع ما تشتمل عليه تجاربنا، لدفع بنا هذا إلى أن نفترض أمرا ليس له أى أساس إبستمولوجى.

أعتقد أن الأساسين اللذين تعتمد عليهما هذه المحاجة على خطأ. دعونا نتناول كل واحد منهما على حدة . فى الحقيقة كلما أدرك المرء بحواسه شيئا إدراكا واعيا، صار لديه خبرات بعينها. فكل إدراك بصرى مثلا يصنع خبرة بصرية مطابقة له. فى هذا النمط من أشكال الكلام ينطوى الإخبار بأنى"أرى المنضدة" على "أن بمقدورى امتلاك نوع بعينه من الخبرة البصرية". لكنه لا يترتب على أن الخبرة البصرية مكون أساسى من المكونات التى يشتمل عليها الإدراك البصرى، أن تكون هذه الخبرة هى ما قد أدركناه. باختصار، لا يترتب على هذا أن يتعذر على المرء أن يدرك عالم الواقع إدراكا مباشرا عندما يعتمد على وسائل إدراكه. فمثلا، الآن فى هذه اللحظة تماما " أرى مكتبى أمامى " عندها أدرك المكتب ببساطة. و بهذا يصير لدى خبرة إدراك حسى، غير أن تلك الخبرة ليست هى ما قد أدركته، ولا هى الدليل الذى على أساسه أستنتج وجود مكتب هناك ، فنحن لا نستنتج وجود المكتب على أساس من الدليل على وجود مكتب فى المكان ، بل نحن نراه ببساطة. لذلك فالأساس الأول الذى نقيم عليه قضيتنا - أعنى على أساس أن كل ما يتيسر لنا من خبرات الإدراك الحسى هو مضمون الإدراك نفسه - أساس خاطئ(١٢).

وبالمثل نرى الأساس الثانى قد جانبه الصواب . دعونا نسلم- خدمة للقضية التى نثيرها و ما نريد أن نثبته - بأن الأساس الإبستمولوجى للدعوى التى نطرحها حاليا، بوجود مكتب أمامى، هو معطى من معطيات خبراتى الحسية، و لنسلم كذلك بأن الزعم بوجود منضدة فى المكان - لو فهم الفهم المبنى على الحس السليم الواقعى البسيط - فإنه ينص على أكثر من مجرد ملخص الجمل المعبرة عن خبرتى. فماذا يترتب على ذلك؟ هل يفضى هذا إلى أن الزعم بوجود منضدة فى المكان إنما ينص على وجود شىء من المتعذر معرفته؟، شىء يتجاوز أى دليل ممكن و أى أساس إبستمولوجى آخر ؟ لا ليس هذا ما يترتب على هذا الزعم. بناء على أن خبراتى الحالية هى الأساس الإبستمولوجى لمعرفتى، من غير الممكن أن تكون خبراتى هى كل ما يمكن لى أن أعرفه. بل العكس هو الصحيح ، و المثل الذى ضربناه لخبرتنا التى تيسر لنا بلوغ شىء ليس خبرة فى ذاته يشهد على ذلك.

من الأفكار المألوفة فى الفلسفة أن الدعاوى التجريبية (الإمبيريقية) تتجاوز بعامة الأسس الإبستمولوجية التى اعتمدت عليها ، فمثلا، لم يعد لافتراض فرضيات علمية فعالية كبيرة، لو كانت الفرضيات مجرد تلخيص لما تيسر من البراهين المتاحة.

عندئذ سيود من يدافع عن النزعة المضادة للواقعية بالرغم من ذلك أن يقول:

> إن طرح هذا النقاش الذى يرد على ما قد طرحه أصحاب النزعة المضادة للواقعية يفترض سلفا، بشكل ضمنى، أنكم تدركون بالفعل فى عالم الواقع موضوعات مستقلة، توجد بمعزل عن العقل. لكن هذا الافتراض أمر لم تتهيئوا له بالفعل. و خلاصة هذا النقاش برمته هى القول بأنه بإمكانك تماما أن تمتلك هذه الخبرات دون أن يكون هناك أى مكتب. فلو كان الأمر كذلك، فلا يهم ما إذا كنا نعتقد أن خبراتنا تمدنا "بالدليل " على " استنتاجنا " وجود مكتب فى المكان .والقصد من هذا أن الأساس الوحيد الذى تستمد منه ثقتك بوجود مكتب فى المكان هو وجود هذه المعطيات الحسية (التى تقدمها الحواس)، و لو كان من المفترض أن يكون المكتب شيئا يفوق المعطيات الحسية، فلن يكون كافيا أن تفسر تلك الثقة ، لأنه من الممكن أن تمتلك تلك الخبرات و مع ذلك تكون مخطئا تماما. إن التسليم بوجود واقع خارجى هو فى أساسه تسليم بشىء مبهم تماما وغير معروف.

فكيف نرد على هذا القول؟ لا نحاول فى هذه المناقشة أن نرد على نزعة الشك العامة. لأنها تطرح مجموعة من الأسئلة تتجاوز الهدف من هذا الكتاب. لذلك دعونا ننطلق- لصالح هذا النقاش و حسب - من أنى قد أمتلك تماما تلك المعانى أو المضامين التجريبية (الإمبيريقية) ، و أن ما لدىَّ ليس إلا محض هذيان. قد أقع فريسة كل ما لمبحث المعرفة التقليدية من رعب : قد أكون مخا فى بوتقة، و ربما أكون قد استزلنى الشيطان، و قد أكون فى حلم،..إلخ. لكن هذا لا يقتضى أن يكون زعمى بوجود مكتب أمامى، هو ببساطة خلاصة خبرات دفعتنى إلى إلقاء هذا الزعم. لأنه، حتى لو كانت

نزعة الشك على صواب، و كنت قد وقعت فى خطأ منهجى، فما قد أخطأت بشأنه إنما هو سمات عالم الواقع و خصائصه ، و احتمال الوقوع فى خطأ منهجى بشأن تلك السمات أو الخصائص لا يشير إلى أن دعاواى بشأنها ليست إلا خلاصة للجمل التى تعبر عن خبرات حواسى.

تلك هى ساحات المعارك القديمة، و المشهد الذى دمرته الحروب الإبستمولوجية، بيد أنى أرى أن الجغرافيا الأساسية المنطقية لحقل الفلسفة بسيطة، وبمقدورنا أن نتبينها بوضوح تام :

فإقامة الحجة لإثبات صحة النزعة المضادة للواقعية قد اعتمد على الأدلة التالية:

١- إن معنى خبراتنا هو كل ما يتيحه لنا إدراكنا الحسى.

٢- إن الخبرات التى نكتسبها عن طريق ما ندركه بحواسنا هى الأساس الإبستمولوجى الوحيد لمزاعمنا عن العالم الخارجى.

لذلك

٣- فالواقع الوحيد الذى بمقدورنا أن نتحدث عنه حديثا ذا مغزى هو الواقع الخاص بخبرات ما ندركه بحواسنا.

لقد برهنت على أن العبارة رقم ١ عبارة خاطئة، ونحن ندرك الأشياء والموضوعات فى عالم الواقع، إضافة إلى أنى قد أثبت أن العبارة رقم ٢ عبارة صادقة، لا يترتب على هذا بالضرورة أن تكون العبارة ٣ عبارة صادقة كذلك. فمن الخطأ أن نفترض أن المزاعم التجريبية (الإمبيريقية) لا تكون ذات مغزى، بقدر ما نرى فيها خلاصة الأسس و الإثباتات الإبستمولوجية. و فى النهاية، لقد زعمت أن احتمال وقوع خطأ جوهرى - وهو الاحتمال الذى أثارته نزعة الشك - مسألة غير مطروقة. حتى لو وقعنا فى خطأ من الناحية المنهجية - فى أمر نزعة الشك التقليدية - فلا ينسحب هذا الخطأ على العبارة ٣. بل على العكس من ذلك، قد يجانبنا الصواب فى أمر عالم الواقع، لو كانت نزعة الشك على صواب.

إذن هناك صيغ أخرى للحجة التى تقيمها النزعة المضادة للواقعية كى تدعم موقفها (أى أدلة تفنيد لدحض الواقعية الخارجية)، غير أننا نعتقد أن هذه الصيغة التى طرحناها كان أكثرها غلبة على التقليد التجريبى (الإمبيريقى) منذ القرن السابع عشر

إبان ازدهار النزعة الوضعية المنطقية. كذلك نعلم أنه فى هذا التقليد بأكمله كان مبحث المعرفة بعامة، و محاولة الرد على الشك الديكارتى بخاصة، محور المشروع الفلسفى بأكمله. و نحن نعد هذا كله من باب الخطأ، فمبحث المعرفة يشغل موضعا هاما، وإن لم تكن بالتأكيد محور المشروع الفلسفى بأكمله. أما السبب الجوهرى من وراء عجز الاعتبارات الإبستمولوجية - من النوع الذى كنت قد طرحته - عن أن تقدم دليلا معقولا وتقيم الحجة لتثبت النزعة المضادة للواقعية - فيكمن فى أنه لكى نجعل لهذه الاعتبارات قيمتها علينا أن نفترض سلفا وجود الواقعية. وسوف نعود لهذه الفكرة من جديد فى الفصل القادم.

برهان الشىء فى حد ذاته

يوجد برهان آخر ضد الواقعية الخارجية جدير بنا أن نذكره، هو البرهان الخاص بالعناية بالأشياء فى حد ذاتها.

يتعذر علينا أن نجد صيغة صريحة لهذا البرهان فى الفلسفة المعاصرة، لكنه يظل يثار فى التقليد الشفهى. من الأفضل أن نعده مزيجا من دليل الانطلاق من تصور والارتباط بمفهوم بعينه من جانب، ودليل الإثبات من جانب آخر. وصيغة برهان الشىء فى حد ذاته تتشكل على النحو التالى:

> عندما نتوجه إلى العالم بالحس والفكر والتأمل.. إلخ، ننطلق دائما من خريطة تتعلق بمفهوم أو بمعنى ما . فما ندعوه " خبراتنا " ليست مطلقا خبرات مباشرة بالواقع، وإنما هى خبرات تنفذ فيها مفاهيمنا و تصوراتنا، ولا تحيل فى النهاية إلا على خبرات أخرى. ليست هناك نظرة من أعلى من خارج الزمان والمكان (من حيث تشهدنا عين الرب)، يمكن من خلالها أن نستكشف العلاقات بين أشكال تعبيرنا وعالم الواقع الذى تزعم أنها تمثله، كى نرى إذا ما كانت تلائمه بالفعل أم لا .لا سبيل يعيننا على أن نرى تلك العلاقات من الخارج ، إذ نقبع دائما داخل أشكال تعبيرنا التى تتمثل فى - معتقداتنا، وخبراتنا و أقوالنا...إلخ .لأنه لا يوجد موضع خارج أشكال

تعبيرنا يمكننا منه أن نمعن النظر فى عالم الواقع و نتفحصه،لأنه لا توجد نقطة استشراف خارج أشكال تعبيرنا يمكن لنا منها أن نطل إطلالة عامة على العلاقات التى تربط بين أشكال تعبيرنا و عالم الواقع. ولأنه ليس ثمة إمكانية تجزم بملاءمة أشكال تعبيرنا، بناء على قياسها على الأشياء فى حد ذاتها، فالكلام عن واقع (محايث للعقل بمصطلحات كانط) ترانسندنتالى،حسبه أن يخالطه الكثير من الهراء. فكل ما يمكن أن نبلغه من الواقع و قع فى متناولنا بالفعل هو الواقع الذى يقع ضمن منظومة أشكال تعبيرنا التى تمثله. ثمة واقعية ممكنة فى إطار هذه المنظومة،نراها من الداخل (واقعية داخلية) ،لكن فكرة وجود واقع خارجى، هى فكرة خاوية خواء فكرة كانط عن الشىء فى حد ذاته، هذا الواقع ليس بمقدورنا أن نبلغه و لا بإمكان معرفتنا أو لغتنا أو فكرنا أن تدركه. ما تقدمه لنا الواقعية الخارجية هو شىء يتعذر التفكير فيه أو وصفه أو بلوغه، شىء يبدو الحديث عنه بلا معنى على الإطلاق. و المشكلة الحقيقية لهذا النوع من الواقعية لا تكمن فى عدم صحتها ، بل فى عدم القدرة على فهمها (هى مسألة لا تدرك إلا بالعقل).

كيف نرد على هذا البرهان؟ مرة أخرى لو حاولنا أن نتخذه دليلا واضحا تسبقه مجموعة من المقدمات و يفضى إلى نتيجة، لتعذر علينا أن نرى كيف يفترض أن يفضى إلى ما أفضى إليه من نتيجة.

مقدمة: أى حالة من حالات الإدراك العقلى cognitive تحدث بوصفها جزءا من مجموعة من حالات الإدراك العقلى، وتقع داخل نظام من أنظمته.

من المفترض أن تفضى بنا هذه المقدمة إلى:

النتيجة ١: يتعذر علينا أن نقف خارج كل حالات معرفة الإدراك العقلى وأنظمته للكشف عن العلاقات التى تربط بينها وبين الواقع الذى نستعين بها على إدراكه (عقليا).

ومن المفترض أن يفضى هذا بدوره إلى:

النتيجة ٢: من غير الممكن على الإطلاق ان تدرك عقولنا ما يوجد بمعزل عن الإدراك العقلى.

يبدو لى أنه من المفهوم تماما أن النتيجة ١ تترتب بالفعل على مقدمتها. فكل شكل من أشكال التعبير التى نمثل بها الوجود إنما يصدر من داخل مجموعة من أشكال التعبير، و من داخل نظام ما من أنظمته.لذلك فأى شكل يمثل العلاقة بين مجموعة من الحالات الخاصة بأشكال التعبير و أنظمته من جانب و الواقع الذى تمثله وتعبر عنه من جانب آخر، إنما يصدر كذلك عن نظام ما. لكن إلام يقودنا ذلك؟ لا يترتب ببساطة على ان كل إدراك عقلى معرفى إنما يصدر عن نظام إدراك معرفة عقلية ما، إنه لا يمكننا أن ندرك عقليا وجود واقع مستقل بمعزل عن أى إدراك عقلى معرفى مباشر على الإطلاق. أى إن النتيجة ٢ لا تترتب على ما سبقها .يبدو من الخطأ فعلا أن نعدها نتيجة صحيحة و إلا وقعنا فى نفس الخطأ الذى وقعت فيه المثالية قديما.

تشخيص المشكلة

نود أن نقدم الآن تشخيصا يفسر جزءا من السبب الذى جعل الفلاسفة يندفعون- بالرغم من تعارض تقنياتهم - إلى مهاجمة الواقعية، و يلقون فى وجهها بمثل هذه البراهين الواهية.

كان الاعتقاد بنحو أو بآخر بوجوب وجود تطابق تجعل ما ننعته بالصدق مماثلا للواقع من أقدم الأفكار التى ألحت عليها الفلسفة الغربية. و لو وجد فعلا ما ندعوه الواقع والصدق واعتقدنا فيهما ما اعتدنا أن نعتقد، لكان على الصدق أن يكون بمثابة مرآة تطابق الواقع بنحو أو بآخر. ولكان من طبيعة هذا الواقع نفسه أن تطابق بنيته بنية العبارات الصادقة. فى مسائل فتجنشتين الفلسفية Tractatus نجد عبارة كلاسيكية تعبر عن هذا الوضع(١٢) . غير أننا نعتقد أن هذه الفكرة قديمة قدم أفلاطون؛ ذلك أنه عندما ييئس الفيلسوف من بلوغ التطابق الذى يطابق بين بنية الواقع و بنية أشكال التعبير التى تمثله تمثيلا صادقا، يميل إلى أن يعتقد - بنحو أو بآخر - أن أفكارنا البسيطة عن الصدق و الواقع لم تلق الترحيب الكافى، غير أن تصديق هذه الآراء لم يلق إعراضا، ولكن ما قد لقى رفضا هو فهم العلاقة بينهما فهما خاطئا.

هناك سبب جوهرى وكامن فى تسويغ عدم إمكان حدوث مطابقة بين الصدق والواقع ، فكثير من الفلاسفة يرون أن من يؤمن بالواقعية الخارجية بشكل ساذج عليه أن يقول بتطابقهما. ودافعه إلى ذلك أن كل تمثيل صادق يكون فى ظل مظاهر بعينها دون سواها. فخاصية ارتباط الأشكال التى نمثل بها الواقع بمظاهر بعينها مستمدة من أن كل أشكال التعبير إنما تصدر دائما من داخل خريطة لمجموعة مفاهيم بعينها ومن وجهة نظر ما. لذلك، فلو وصفت مادة أمامى بأنها ماء مثلا، فإن نفس هذا الجزء من الواقع يوصف بأنه (يد٢أ). لكنى حين أصفه بالماء أعبر عنه بالطبع بوصفه جزءا من مظاهر تختلف قطعا عن سياق المظاهر الذى أعبر عنه عنه فيه بـ (يد٢أ). قطعا هناك عدد كبير - دونما تحديد - من وجهات النظر المختلفة، و مظاهر السياقات المختلفة،وأنظمة المفاهيم أو المعنى المختلفة، التى يمكن فى إطارها أن نصف أى شىء. لو صح هذا- وبالتأكيد هو صحيح - فسيكون من المحال بلوغ حد تطابق الصدق والواقع الذى كان ينشده كثير من الفلاسفة. فكل تمثيل للواقع يرتبط بمظاهر سياق ما دون سواها، و يختار مظاهر بعينها. باختصار نحن نعبر عن الواقع فقط من وجهة نظر بعينها،غير أن الواقع الموضوعى من الناحية الأونطولوجية ليس له وجهة نظر بعينها.

هوامش الفصل السابع

لمزيد من النقاش التفصيلى انظر:

(١) بيتر ستراوسون من فلاسفة الواقعية الذين رفضوا نظرية التطابق. انظر:

P. Strawson, Proceedings of the Aristotelian Society, supplementary volume 24 (1950)." Truth".

H. Putnam, Realism with a Human Face (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1990), p. 23.

(٢) الاقتباس لـ:

N. Goodman, Of Mind and Other Matters (Cambridge, Mass.: University Press, 1984), p. 36.

(٣) H. R. Maturana, F. J. Varela, Autopoiesis and Cognition, The Re aliz

ation

of the Living (Dordrecht: D. Reidel, 1980).

(٤) Terry Winograd, "Three Responses to Situation Theory", Center

fo the Study of Language and Information, Report No. CSLI-87-106, 1987, و Terry Winograd and Fernando Flores, Understanding Computers and Cognition (Norewood, N.J.: Ablex, 1986),

(٥) G. Levine, "Looking for the Real: Epistemology in Science and Culture, "in G. Levine, ed., Realism and Representation: Essays on the Problem of Realism in Relation to Science, Literature and Culture, (Madison: University of Wisconsin Press, 1993), p. 13.

(٦) J. Derrida, Limited Inc. (Evanston, Ill.: Northwestern University Press, 1988), p. 136.

(٧) Putnam, Realism with a Human Face, p. 96ff. H. Putnam, The Many Faces of Realism (LaSalle, Ill.: Open Court, 1987), p. 18ff.

(٨) N. Goodman, Of Mind and Other Matters, p. 36.

(٩) Putnam, Reason, Truth and History (Cambridge: Cambridge University Press, 1981), p. xi.

وقد تكرّرت العبارة فى:

The Many Faces of Realism, p. 1.

(١٠) Ludwig Wittgenstein, Philosophical Investigations (Oxford: Basil Blackwell, 1953), part. 1, para. 464 .(من ترجمتى)

(١١) أعتذر عن إيجاز هذا النقاش. لقد ناقشت هذه المسائل نفسها بتفصيل أكبر فى الفصل الثانى من القصد العقلى. للاطلاع على أفضل حجّة ضدّ نظرية الإحساس بالزمن. انظر:

J. L. Austin, Sense and Sensibilia (New York: Oxford University Press, 1962).

(١٢) Ludwig Wittgenstein, Tractatus Logico-Philosophicus (London: Routledge and Kegan Paul, 1922).

(١٣) يصف بونتام الواقعية – فى هجومه عليها – بوصفها "وجهة النظر التى ترى أن مفهوم الصدق أساسا غير إبستمولوجى".

Meaning and the Moral Sciences, London: Routledge and Kegan Paul, 1978, p. 125.

بيد أن الواقعية هى الزعم بأن الواقع فى أساسه غير إبيستمولوجى، ولو كان من الضرورى أن يصير مفهوم الصدق فى أساسه غير معرفى، لكان علينا ببساطة أن يكون لدينا تصور (بديل)، لأننا بحاجة إلى اصطلاح غير معرفى نصف به تطابق عباراتنا الصادقة وعالم الواقع غير الإبستمولوجى فى أساسه.

الفصل الثامن

هل لعالم الواقع من وجود؟

ثانيا : هل يمكن أن يوجد دليل يثبت وجود الواقعية الخارجية؟

الواقعية بوصفها شرطا من شروط الخلفية يتيسر فى ظله القدرة على الفهم:

لقد ذكرت أن ثمة براهين مثلى - تعزز وجود واقعية خارجية - قد أخفقت فى مهمتها. فهل من براهين تثبت وجود واقعية خارجية و تعززها؟ هناك أمر محير بالنسبة لالتماس برهان يثبت وجود العالم وجودا مستقلا، يستغنى عن أشكال التعبير التى نتصوره بها و نمثله عن طريقها. أعرف أن كانط عد عدم وجود مثل هذا الدليل فضيحة، واعتقد مور أن بإمكانه أن يمنحنا برهانا بمجرد أن يفتح يديه كما يفعل الساحر .لكننا نستشعر من الطريقة التى طرح بها كانط دعواه أنه لم يتمكن من أن يروى غليله. أما محاولة مور أن يضع يده على هذا الدليل بنحو من الأنحاء فقد جانبها الصواب. غير أننا نشعر فى الوقت نفسه أن سؤال كانط بحاجة إلى إجابة، كما أن مور بنحو ما كان بالتأكيد على حق. فلا شك أن له يدين ، ومن ثم فالعالم الخارجى موجود، أليس كذلك ؟ فما الأمر إذن؟ (ماذا جرى؟) نحن بحاجة إلى أن نفسر الضرورة الملحة لإثبات وجود عالم خارجى، و أن نفسر كذلك ما يثيره أى برهان نطرحه من الأسئلة.

إن البحث عن دليل على وجود عالم خارجى يشبه - إلى حد ما - ما اعتدنا أن نسمعه فى الستينيات عن الحاجة إلى برهان على العقلانية. فقد طرحت أسئلة من قبيل" ما دليلك على العقلانية؟. " هكذا يفترض هذا التحدى - بنحو ما - وجود موضوع يتحداه ؛ فأى محاولة لتقديم حجة أو برهان تحمل فى طياتها سلفا بعضا من الأسس القياسية للعقلانية، لأنه بناءً على هذه المقاييس يتحدد إن كان هذا الشىء يفضى إلى وجود الحجة أو البرهان أو لا. ليس بمقدورنا أن نقدم الدليل الذى يبرهن على وجود العقلانية، لأن أى محاولة لتقديم الأدلة تقتضى سلفا وجود العقلانية، ولأن استخدام هذه الأسس ذاته يقيم الحجة على وجودها. باختصار ليس بالإمكان البرهنة

على العقلانية بالحجة، لأن الحجج تقتضى سلفا وجود العقلانية .ثمة نطاقات ذات أطر عامة، يكون وجود مبرر لها من داخل حدودها دائما لا معنى له .بل يبدو مع ذلك أننا مجبرون عليه بنحو ما ؛ لذلك فبالرغم من أن بإمكان المرء أن يثبت أن دليلا بعينه يعد دليلا عقلانيا أو دليلا مجديا وفقا لمعايير العقلانية ومعايير الصلاحية، فليس بالإمكان أن نبرهن فى إطار هذه المعايير على أن العقلانية عقلانية أو على أن الجدوى مجدية . كذلك بإمكان المرء أن يثبت أن تركيبا بعينه من الكلمات يشكل جملة إنجليزية سليمة أو غير سليمة من الناحية الإعرابية، بيد أنه ليس بإمكان المرء أن يثبت أن اللغة الإنجليزية نفسها سليمة أو غير سليمة إعرابيا، لأن اللغة الإنجليزية هى واضعة قواعد الإعراب المثلى لنحو هذه اللغة. و السعى لإثبات واقعية خارجية عن طريق تقديم" حجة" أو سواها سيكون من هذا القبيل. كما لو كنا نسعى إلى إثبات أن أشكال التعبير تعبر. بإمكان المرء أن يبين إن كانت فرضية ما تتطابق مع أو تخفق فى أن تتطابق مع ما عليه الأشياء بالفعل فى "العالم الخارجى"، غير أنه ليس بالإمكان أن يبين على هذا النحو أن الوجود المفترض لعالم خارجى مستقل يماثل أو يناظر الهيئة أو الكيفية التى يكون عليها الوجود فى العالم الخارجى، لأن أى سؤال عن تحقق التطابق أو التناظر مع العالم الخارجى أو الإخفاق أو عدم تحققه يقتضى سلفا وجود عالم خارجى يتطابق مع ما نزعمه أو غير متطابق ؛ من هنا نجد أن الواقعية الخارجية ليست مقولة و لا هى فرضية ولكنها شرط لوجود أنواع بعينها من المقولات والفرضيات.

بإمكاننا أن ندرك وجود خطأ فى هذا النقاش فى مجمله، لو تأملنا نماذج الأدلة المعاصرة على وجود واقعية خارجية.إن وجود نقاط يلتقى عليها العلم من أمثل الأدلة - بل قد يكون الدليل الأمثل- لإثبات الواقعية الخارجية،ذلك أنه يوفر نوعا من الدليل التجريبى (الإمبيريقى) الدال على الواقعية. لأن بحوثا علمية عدة فى أزمنة و أماكن مختلفة تفضى بنا إلى النتائج نفسها أو تفضى إلى نتائج مشابهة. و أفضل تفسير لذلك هو وجود واقع مستقل يجعل الباحثين يلتقون على الفرضيات و النظريات نفسها. أما صعوبة إقامة هذا الدليل فتكمن فى أننا حين ندرك إمكان وجود مثل هذه الظواهر الخاصة بوجود نقطة التقاء أو عدم وجودها إنما يقتضى هذا منا بالضرورة أن نفترض سلفا وجود الواقعية بالفعل.حتى إننا لكى نطرح السؤال عما إذا كانت الأبحاث العلمية تتقارب على النحو المفترض، يكون علينا أن نقول بوجود واقع يستقل بذاته عن الباحثين المنخرطين فى البحث. و هذه الأبحاث قد تلتقى أو لا تلتقى. و هذا يعنى أن مناقشة

هذا التقارب برمتها تقتضى وجود واقعية، لأن عبارة " تقارب العلوم أو التقاؤها على نقطة ما " - سواء أكانت صادقة أم كاذبة، صحيحة أم خاطئة - إنما تشير إلى واقع مستقل يقف بمعزل عن هذه العبارة أو عن أى عبارة سواها. وبعبارة أخرى، يمدنا إدراكنا فى المجالات التى لا يبلغ العلم فيها نقطة التقاء ما - مثلما نجد فى علم النفس الاجتماعى مثلا - بدليل على وجود الواقعية عندما لا يتحقق ذلك التقارب بالقدر نفسه الذى تمدنا به مجالات الاتفاق نفسها حين يتحقق التقارب، أى إننا بإدراكنا السبب فى حدوث التقاء أو تقارب أو عدم حدوثه إنما نكون قد سلمنا بالفعل بوجود الواقعية.

نحن نعلم أن حجة التقارب أو الالتقاء على نقطة بعينها، كانت تطرح عادة لإثبات وجود أمور و أشياء لا تخضع للملاحظة- افترضتها النظريات العلمية - و ليست دليلا عاما على وجود الواقعية الخارجية. و هنا يواجهنا مأزق : فلو كان دليل التقارب من جانب، هو دليل يثبت وجود هذا النمط أو ذاك من الأشياء أو الأمور التى لا يتيسر ملاحظتها كالأليكترونات مثلا، فإن مسألة التقارب أو الالتقاء لا تضيف شيئا للآراء الخاصة بالدليل ، والإثبات، و الصحة. لأنه لو أن النظرية الذرية التى تسلم بوجود الأليكترونات قد تأكدت فى معملى و فى معاملكم، فهذا برهان إضافى يدعم صحة النظرية. و لو أن النظرية اقتضت وجود الأليكترونات لصار لدينا الدليل على وجود الأليكترونات. و لا شأن للالتقاء بكل هذا، بل يصير لدينا غير قليل من مثل هذه الحكايات عن أنماط مختلفة من الأمور أو الأشياء غير الخاضعة للملاحظة؛ وهذا لا يضيف شيئا، و لا يقدم لنا سوى قائمة من نماذج لما يمكن أن يتأكد لنا علميا أو لا يتأكد. و لكن - من ناحية أخرى- لو أن حجة التقارب كانت أمرا جوهريا لدراسة النظرية فى حد ذاتها metatheory - يفضى إلى الحديث عن سوسيولوجيا البحث العلمى- فإن النظرية فى جوهرها مفادها تقديم واقعة تقييم تجريبية إمبيريقية، يشهد عليها نزوع العلماء فى أزمنة و أماكن مختلفة إلى استخلاص نتائج متقاربة يتفقون عليها من معمل لآخر، و هذا التقارب أو الالتقاء يؤكد صحة الدليل على الواقعية.و هذا الدليل يقع بعد ذلك فى دائرة الاعتراض الذى قدمته سابقا : الذى يرى أنه لكى نطرح الزعم القائل بالتقارب أو الالتقاء فهذا يقتضى منا بالضرورة بداءة أن نسلم بالواقعية.

ولكى نستفيض فى بحث جوانب هذه الفكرة نود أن نسأل: عما يعيب "الدليل" الذى قدمه مور، اعتقد مور أنه بإثبات وجود شيئين أو أكثر كالأيدى، و الأوراق، و الأحذية،

والجوارب...إلخ يكون قد برهن على وجود أشياء لم نصنعها بأيدينا، و لا حيلة لنا فى وجودها، ويكون فى الوقت نفسه قد برهن على وجود " عالم خارجى"؛ لأنه كما يذكر هو " يقتضى هذا وجود أشياء نلتقى بها فى المكان"(*).

تجعلنا وجهة النظر تلك ندرك العلاقة بين ما طرحه من مقدمة و كيف تقتضى مباشرة ما ترتب عليها من نتيجة : فافتراض أن لى يدين يقتضى بالضرورة افتراض أن العالم الخارجى موجود، لأن وجود العالم الخارجى شرط لصحة الفرضية، و يستوى فى هذا أن يكون لى يد واحدة أو يدان اثنتان. فلو أن لى يدين لترتب على هذا على الفور "وجود أشياء تشاركنا الوجود فى المكان" (أى ثمة أشياء سوانا فى الوجود). لقد اثبت فرضيته عن طريق التجربة فقد قام بإصدار إشارة ما فأثبت وجود يديه .بيد أنه ثمة ما يثير الريبة بهذا الصدد. كان بيركلى سيوافق مور على أن له يدين، غير أنه ما كان ليسلم بالضرورة بالفرض المطروح، لذلك فالأمر يبدو كما لو كان مور يسأل:

> أليست الضرورة التى تقتضى تلك النتيجة (وجود الواقع الخارجى) هى نقطة الخلاف ؟

(*) أهم ما يقوله بهذا الصدد ما ورد فى الفقرة التالية:

أى لو أمكننى أن أبرهن فى هذه اللحظة على وجود صفحة من الورق ، و يد بشرية ، أكون قد برهنت على انه توجد فى هذه اللحظة أشياء خارجنا، ولو أمكننى أن أبرهن على أنه يوجد فى هذه اللحظة حذاء و جورب، اكون قد برهنت فى هذه اللحظة على وجود أشياء خارجنا... إلخ ،كذلك أكون قد برهنت على ذلك ، لو أنى برهنت على وجود صفحتين من الورق فى هذه اللحظة أو يدين بشريتين ،أو زوجين من الأحذية، أو زوجين من الجوارب ... إلخ. من الواضح إذن أنه يوجد آلاف من الأشياء المختلفة ، إلى حد أنه لو أمكننى وقتما أشاء أن أبرهن على وجود أى واحدة منها لأمكننى بهذا أن أثبت وجود الأشياء خارجنا . أليس بمقدورى إذن أن أثبت وجود أى من هذه الأشياء ؟

يبدو لى أنه حتى الآن من الصحيح كما يذكر كانط أنه ثمة إمكان واحد فقط لإثبات وجود أشياء خارجنا، أعنى الرأى الذى كان قد طرحه ، وبإمكانى الآن أن أقدم عددا كبيرا من الأدلة المختلفة ، يعد كل منها دليلا قاطعا تماما. و فى أحيان أخرى كثيرة كان بالإمكان تقديم سواها من الأدلة. بإمكانى الآن مثلا أن أثبت وجود يدين بشريتين. كيف؟ بأن أرفع يدىَّ الاثنتين ، وإن أقول و أنا أشير بحركة يدى اليمنى "تلك يد واحدة" وأضيف و أنا أشير بحركة يدى اليسرى "وتلك يد أخرى، ولو كنت بقيامى بهذا قد برهنت بطبيعة الحال على وجود أشياء خارجية فسوف ترون أن بإمكانى فعل هذا فى هذه اللحظة بعدة طرق، ولا حاجة بنا لأن نزيد طرح الأمثلة.

G.E .Moore, Philosophical Papers ,"Proof of an External World" (London :George Allen& Unwin ,1959), pp.145 - 46.

يتوفر فى الدليل الذى قدمه مور خاصيتان على الأقل تثيران القلق: الخاصية **الأولى**: افتراض أن الواقعية الخارجية شرط من شروط صحة الفرضية يستوى بغيره من شروط الصحة . والخاصية **الثانية**: هى الفرضية المتعلقة بأن الواقعية نظرية خاصة بوجود الموضوعات"فى المكان" . ردا على هذه الأفكار أود أن أطرح أفكارا أخرى هى: **أولا** الرغم من أنه ليس ثمة حد فاصل بين الخاصيتين، أجد أننا بحاجة لأن نميز بعامة بين شروط الصدق وشروط تيسر الفهم. فهناك شروط يتيسر بها فهم الخطاب، بل فى الحقيقة هناك شروط لقيام الوعى الموجه بوظيفته بعامة ، ليست على غرار حالات البدائل الممكنة لنموذج واحد من نماذج شروط الصدق. عندما نفهم الخطاب فهما عاديا، نعد تلك الشروط أمرا مسلما به ؛ وإن لم نفعل ذلك فلن يكون بمقدورنا أن نفهم الألفاظ كما نفهمها، و لا أن يتوفر لوعينا الموجه الشروط التى تيسرله بلوغ الحالات التى نبلغها . فى الكتابات المبكرة كنت قد قسمت بعض هذه الشروط إلى حالات تمثل شبكة من المعتقدات، وحالات أخرى من توجه الوعى من جانب، وإلى طاقات وقدرات...إلخ تتعلق بالخلفية، من جانب آخر. وما أزعمه هنا هو أن الواقعية الخارجية تعمل بوصفها جزءا مسلما به من أجزاء الخلفية، وإن لم نتخذ الواقعية الخارجية أمرا مسلما به فلن يتيسر لنا فهم ما ننطق به من عبارات على النحو الذى نفهمه به عادة، علاوة على أنه علينا أن نسلم بالواقعية الخارجية كى نشارك فى أنواع الخطاب و الأفكار التى نعتنقها . إن وجود "الواقعية الخارجية" أمر ضرورى بالنسبة لقدر وافر من اللغة و الفكر. و لا يمكننا أن نتراجع عنها كما قد فعلنا منذ عدة قرون عندما تخلينا مثلا عن ضرورة أن تكون الأرض مسطحة.

والرد **الثانى** على مور هو أنه بمجرد أن نرى أن ما قد عنى " بالواقعية الخارجيةس ليس فرضية تجريبية إمبيريقية بل شرطا من شروط تيسر الفهم ، وطرح أنواع ما من الفرضيات، عندها يمكننا أن ندرك أنه لا توجد صلة خاصة بالنظرية التى تقول "بوجود موضوعات فى المكان" (الوجود) كما قد ذكرت فى بداية الفصل السابع، حتى لو أفضى بنا الأمر إلى ضرورة مراجعة أفكارنا عن "الموضوعات" التى توجد فى" المكان" مراجعة جذرية، على النحو الذى راجعت به النظرية الذرية و نظرية النسبية وجود الموضوعات فى المكان (أو الوجود)، و مع ذلك فقد ظلت الواقعية الخارجية بعيدة بمأمن من ذلك. تحريا للدقة، نقول إن الواقعية الخارجية مقولة ترى أنه ثمة طريقة توجد بها الأشياء وجودا يستقل عن كل الأشكال التى نتمثلها بها و نصورها عليها .

إن مقولة وجود واقع يستقل بذاته عن كل ما نتمثله به و نصوره عليه، لا تحدد ما عليه الأشياء من كيفية فى الحقيقة، بل تحدد فضاء من الممكنات. ولو استعنا بأمثلة على غرار أمثلة فتجنشتين يمكن أن نقول: افرض أنى أقول "لا يوجد بمحفظتى أى نقود على الإطلاق" فى هذه الحال لا ينطوى هذا القول منطقيا على وجود نقود. ولا يمكنك أن تستنتج منه الصيغة الرمزية

آ (XE) ("س" نقود x ، و«س» فى محفظتى x)

(ليس هذا من باب أن هناك بعضًا من س، وأن هذا الـ س نقود، و هذا الـ س موجود فى محفظتى)

لا يمكن أن نستنتج منه أنه :

(x E نقود X) («س» نقود)

(يوجد بعض من «س») و(«س» نقود).

ومع ذلك فاللفظ الأصلى يعنى ما يدل عليه من معنى و حسب، و نحن نفهمه وحسب، كما نفهمه فى مقابل ما يقتضيه من وجود النقود. و هو يكتسب ما له من معنى فى إطار فضاء من احتمالات حيازة النقود، نفهم من هذا أن الواقعية الخارجية تجسد فضاء من الممكنات تتسع لما لا حصر له من التعبيرات.

دليل الواقعية الخارجية الترانسندنتالى:

لو صحت الآراء التى تقول بأن الواقعية الخارجية أمر تستلزمه الخلفية، وتقتضى وجوده سلفا ، وليست الواقعية الخارجية نظرية تجريبية إمبيريقية، و إنما هى مسألة شكلية خالصة، لا تتعلق بمضمون أو معنى بعينه يختص مثلا بوجود موضوعات فى المكان لو كانت تلك الافتراضات صحيحة، فإن الحجة الوحيدة التى يكون بمقدورنا إقامتها لنبرهن على صحة الزعم بوجود الواقعية الخارجية ستكون طرح دليل ترانسندنتالى transcendental بمعنى من المعانى التى أطلق عليها كانط هذا الوصف؛ إذ نفترض وجود شرط ملزم، ثم نعمد إلى بيان ما يستلزمه بالضرورة هذا الشرط ويقتضيه.

رغم هذا الرغم من هذا، لابد لنا من أن نبين بالتحديد ما الذى نقوم بتفنيده. " النزعة المضادة للواقعية" ليست اعتقادا مجردا وحيدا، وإنما تتخذ صيغا مختلفة، أهمها لنقاشنا الحالى صيغتان ؛ **الأولى** : الصيغة التى ترى أن الواقع بأكمله يتألف من مجموعة من الحالات يتجلى فيها على وعينا و شعورنا، و **الثانية** : الصيغة التى ترى الواقع بوصفه بناء يشيده المجتمع، وما نعتقد أنه "الواقع الحقيقى" إنما هو مجرد مجموعة من الأشياء وضعت الجماعة أسسها. ولكى نميز هاتين الصيغتين دعونا نطلق على الصيغة الأولى "المثالية الظاهراتية" phenominalist idealism أى تجلى الواقع فى مرآة الوعى، و نطلق على الصيغة الثانية "صنع بنية اجتماعية" social construc-tionism"

ثمة حجة ترانسندنتالية (محايثة للعقل) بسيطة ضد المثالية الظاهراتية. لقد ذكرت أن الحجة الترانسندنتالية واحدة من الحجج التى تفترض أن شرطا بعينه له الغلبة، ثم تسعى لتوضيح ما يفترضه سلفا ذلك الشرط .و مع ذلك، فهذا "الشرط" فى هذه الحالة يتعلق بممارساتنا، و "ما يفترضه سلفا" هو ما نرى - من وجهة نظر المتكلم - أنه لابد أن نفترضه سلفا عندما ننخرط فى القيام بهذه الممارسات، هذا "الشرط" هو أننا نسعى فى الحقيقة لأن يتواصل بعضنا مع البعض الآخر عن طريق النطق ببعض الأقوال التى تشكل لغة الحياة اليومية التى يشترك فيها جميع الناس ، أما " ما يفترض بالضرورة سلفا" فهو وجود واقعية خارجية. و لكى نفصل هذا بنحو أدق نقول : نحن نفترض وجود طريقة سليمة نفهم بها الألفاظ، و عندما نصوغ أفعال الكلام فى اللغة التى يشترك فيها جميع الناس يحاول المتحدثون أن يبلغوا الفهم السليم normal under-standing المألوف . ما أسعى إلى توضيحه بالتحديد هو أن شرط تيسر الفهم السليم لهذه الأقوال هو وجود أشياء بنحو مستقل عن طرقنا الإنسانية فى التمثيل لها والتعبير عنها. يترتب على هذا أنه عندما نحاول أن نتواصل لنبلغ فهم هذه الأنواع من الأقوال الفهم السليم لابد أن يقتضى هذا منا بالضرورة أن نفترض سلفا وجود واقعية خارجية.

لاحظ أننا لا نحاول أن نبرهن على أن النزعة الفلسفية التى تقول بوجود واقعية خارجية صحيحة . و لا نعتقد أنه من الممكن أن نتملص من السؤال الملح عن وجود دليل يثبت ما تقول به الواقعية الخارجية. بيد أنه بالإمكان أن نوضح أن انخراطنا فى أنواع بعينها من الحديث يفترض سلفا وجود واقعية خارجية.

ولكى نخطو خطوة أبعد فى بسط هذا الدليل أجدنى بحاجة إلى الاستفاضة فى شرح مسألة "الفهم السليم المألوف". لأن معظم أفعال الكلام تتمتع بفهم معنى مشترك commonsense. وعادة ما يتم ذلك عن طريق حذف علامات التنصيص dis- quotation، ففهم عبارة " لى يدان" الفهم السليم المألوف يرى مثلا أنها تؤكد أن المتحدث له يدان. و حيثما لا يقدم الشاهد على ذلك لابد أن يكون هناك دائما وسائل أخرى لوصف الفهم السليم المألوف، عندها مثلا لابد أن يتوفر لنا ما (يوضح) ماهية اليد.

لو تابعنا ما يطرح من وصف الفهم السليم المألوف، سرعان ما ندرك شروطا ليست شروط الصدق (التى نوهنا بها من قبل)، أو على الأقل هى ليست مما يفسر بوصفه شروط صدق عادة. لكى نفهم هذا علينا أن نسأل أنفسنا عن نوع الأشياء التى نسلم بها تلقائيا عندما نفهم زعم مور" لى يدان". للخلفية - كما قد رأينا فى الفصل السادس - كثير من الخصائص لا يكشف عنها المضمون الدلالى للجملة بوضوح، غير أننا نسلم بها تلقائيا . فنحن نسلم تلقائيا بأن يدى مور تتصلان بجسده مثلا. غير أننا كنا سنفهم الجملة فهما مختلفا تماما لو فهمناها بالقياس إلى عبارة " لدى قلادتان ماسيتان أحتفظ بهما فى خزانة بنك فى سويسرا، و لدى يدان أحتفظ بهما فى خزانة البنك نفسها".

لكن أين من الجملة ذلك الجزء الذى يقول ببساطة أو ينطوى على أن يدى مور لا يصح أن يحتفظ بهما فى خزانة بنك، أو أنهما تتصلان بجسده؟ هذا ببساطة من الأشياء التى نعتبرها أمرا مسلما به. ولا حصر لمثل هذه الأشياء التى تحفل بها الخلفية، و لا حصر لما يشكل شبكة من الأمور الافتراضية التى نفترضها سلفا لكى نفهم أبسط الأقوال، على غرار الجملة الخاصة بيدى مور. لذلك لنفرض مثلا أننا نسلم بأنه لو كان لمور يدان لكانتا متصلتين بجسده، لكنهما قد خرجتا من أذنه اليسرى. أو ربما نسلم بأنهما تتصلان بذراعيه، غير أن جسده قد انكمش إلى حجم حبة رمل، و يديه قد امتدتا لتبلغ الواحدة منهما حجم المحيط الأطلنطى. لنفرض مرة أخرى أننا افترضنا أنه لو كان للناس أيد فإنها تومض و تنطفئ مثل شعاع متقطع يلتمع و يغيب ضوءه. وفق هذا التبدل المجنون فى الخلفية سوف نفهم العبارة بطريقة تختلف تماما عن الطريقة التى نفهمها بها الفهم الجارى المعتاد. نقصد أن فهمنا السليم يشتمل على قدر كبير مما

نسلم به . بيد أن الكثير من هذه الشروط التى يتقيد بها فهمنا السليم لا يمكننا أن نعتبرها شروط صدق تتقيد بها الألفاظ أو الأقوال دون أن يصيبها تشويه بالغ. تلك هى أنواع الشروط المفروضة التى تساعدنا على أن نرسخ شروط صدق ألفاظنا وأقوالنا. و هذه الشروط ليست فى ذاتها جزءا من تلك الشروط الخاصة بصحة هذه الألفاظ أو صدقها.

إن الدعوى التى أريد الآن أن أقيم الدليل عليها هى أن الواقعية الخارجية أمر تفترضه الخلفية سلفا و تستلزم وجوده لأننا نفهم عن طريق الواقعية الخارجية طائفة كبيرة من الألفاظ أو الأقوال الفهم السليم. غير أنها تختلف عن الكثير من الأمور الأخرى التى تفترض الخلفية وجودها سلفا ؛ فهى أساسية ومنتشرة ، بمعنى أنها تنطبق على طائفة هائلة من الأقوال، وأساسية بمعنى أنه ليس بإمكاننا أن نفهم هذه الأقوال الفهم السليم بدونها. ولكى ندرك كم هى منتشرة بمقدورنا أن نلاحظ أنها تنطبق على نطاق واسع من أنواع مختلفة تماما من الأقوال من مثل:

١ ـ فوق قمة إفرست جليد و ثلج.

٢ ـ كلبى به براغيث.

٣ - فى كل ذرة هيدروجين يوجد إليكترون واحد.

ولكى نبين أنها أساسية نحن بحاجة لأن نتذكر أن الجمل التى نفحصها جزء من لغة الحياة اليومية التى يشترك فيها جميع الناس، و من المفترض أن يفهمها بالطريقة نفسها أى متكلم أو مستمع قادر على الفهم. يتطلب الفهم السليم أن يماثل فهم المتكلم فهم المستمع، التطابق فى هذه الحالات يستدعى أن يفيد ما تحيل إليه التعبيرات المنطوقة من معنى إلى واقع عام يتيسر لنا فهمه ؛ و هذا الواقع هو واقع موضوعى من الناحية الأونطولوجية. بيد أن شرط أن تكون مثل هذه الظواهر- التى تشتمل عليها هذه الأمثلة - مما يتيسر للناس فهمه، يعنى أن الطريقة التى وجدت بها هذه الأشياء لا تعتمد على طريقتى أو طريقتك فى التعبير عنها و تمثيلها، بإمكانى و بإمكانك أن نفهم الأقوال السابقة عن قمة إفرست، و عن كلبى، وعن ذرات الهيدروجين بالطريقة نفسها؛ لأننا نسلم بأن تلك الأقوال تدل على واقع يتيسر للناس فهمه.

يظل هذا الرأى قائما حتى لو أخفقنا فى بلوغ ما يحيل عليه ؛ لعدم وجود ما نحاول أن نحيل عليه أو نشير إليه من أشياء . حتى لو لم توجد قمة إفرست، ولا ذرات الهيدروجين على الإطلاق، وحتى لو لم يكن لدىّ كلب مطلقًا، لما اختلف الأمر، سوف نظل نفهم تلك الأقوال - بالرغم من ذلك - فهما سليما؛ يعتمد وضوحه على وجود واقعية خارجية. نريد بالتقريب أن نقول إنه" لو لم يكن ثمة جبل إفرست ولا ذرات الهيدروجين و لا كلب سيرل لظلت الواقعية الخارجية على هذا النحو : بلا جبل إفرست و لا ذرات الهيدروجين و لا الكلب "،غير أنه من الخطأ أن نعبر عما نريد أن نقوله بهذه الطريقة، لأنها تجعل الأمر يبدو كما لو كان بداخل كل قول إحالة أو إشارة خفية لكيان خاص يدعى " **الواقعية الخارجية**"، و هذا بالتحديد ما لا نريدأن نقوله. بل ما يجب علينا أن نقوله هو أن وجود لغة عامة يشترك فيها جميع الناس تفترض سلفا وجود عالم مشترك بين الناس public world، يشير إليه الكثير مما ننطق به من أقوال تلك اللغة التى يشترك فيها جميع الناس، ولا تشير كل أقوالنا إلى ظواهر ذات وجود موضوعى من الناحية الأونطولوجية، بحيث تنسب هذه السمات و تلك إلى هذه أو تلك من الظواهر.

بمقدورنا الآن أن نقول إنه لكى نفهم ما ننطق به من الأقوال، بوصف أنها تتوفر لها شروط الصحة أو الصدق المستمد من وجود هذه الظواهر و اتسامها بهذه السمات، يجب علينا أن نسلم بطريقة ما تجعل هذا الوجود وجودا يستقل بذاته عما نمثل له به أو نعبر به عنه. بيد أن هذا المطلب بالتحديد هو الشرط الذى يتطلبه وجود واقعية خارجية. مما يترتب على هذا أن الجهود التى تسعى إلى التواصل عن طريق تبادل لغة يشترك فيها جميع الناس تستدعى منا أن نفترض سلفا وجود عالم يشترك فيه كل الناس. كذلك يستدعى معنى عبارة " كل الناس" التى نرددها أن يكون الواقع الذى يشترك فيه كل الناس مستقلا عن الأشكال التى نعبر بها عنه و نمثله عليها.

لا نرمى إلى أن نقول إنه كى نفهم ما ننطق به من أقوال يجب علينا أن نفترض سلفا وجود أشياء بعينها تحيل إليها هذه الأقوال، من مثل جبل إفرست ، و ذرات الهيدروجين، أو الكلاب .كلا فشروط تيسر الفهم تظل قائمة حتى لو آل الأمر إلى عدم وجود أى من هذه الأشياء ؛ فوجود جبل إفرست هو أحد شروط صدق العبارة؛ غير أن وجود هذه الأشياء على هيئة ما مستقلة بمعزل عن الأشكال التى نمثلها بها أو نعبر بها

عنها، ليس شرط صدق بل شرطا للطريقة التى تتضح بها مثل تلك العبارات و يتيسر لنا بها فهمها.

ما نرمى إليه ليس هدفا إبستمولوجيا ؛ هدفنا هو شروط تيسير الفهم وليس شروط المعرفة، لأن الفكرة التى طرحناها تظل قائمة سواء أكانت عباراتنا معروفة أم غير معروفة، وسواء أكانت صادقة أم غير صادقة، بل سواء أكانت تدل على موضوعات قد وجدت أم تفيد موضوعات غير موجودة. فى اعتقادى ببساطة أنه عندما نفهم قولا ننطق به – من قبيل ما ذكرنا من أنواع – فإننا نفهمه بوصف أنه يفترض سلفا وجود واقع فى متناول جميع الناس.

وهناك طريقة أخرى تفضى بنا شيئا فشيئا للنتيجة نفسها ، فكل ما نزعمه صحيحا يفترض سلفا أن تكون صحته نسبة إلى مضمون ما زعمناه. و هذه الفكرة من الممكن التعبير عنها رياضيا فى صيغة المعادلة الرمزية:

٢+٢= ٤

التى يمكننا أن نعبر عنها فى عبارات تصور تجربة شخصية من مثل عبارة:

أنا متألم

بل نعبر عنها كذلك فى عباراتنا عن الجبال و الكلاب و الإلكترونات. يميز هذا النوع الأخير من العبارات بوجه خاص، أنها تفيد الإحالة إلى ظواهر و موضوعات فيزيائية يتيسر للناس فهمها. غير أننا لا نسلم فى مثل هذه الحالات بوجودها على نحو يستقل بها عن أشكال تعبيرنا عنها و تمثيلنا لها، بل نحن نسلم بوجودها على نحو لا يعجزنا عن بلوغها، أى فى عالم موضوعى من الوجهة الأونطولوجية . لكن أن نفترض سلفا وجود عالم مستقل بذاته، سواء أدركه العقل أم لم يدركه، فهذا يعنى أننا قد افترضنا سلفا بالفعل وجود عالم مستقل بذاته عن أشكال تعبيرنا عنه و تمثيلنا إياه،. و لا يعنى هذا سوى الواقعية الخارجية؛ فالواقعية الخارجية تترجم إلى قيد شكلى خالص .لا تفسر كيف توجد الأشياء، بل تقول إنها موجودة وجودا يستقل بذاته عن أشكال تمثيلنا لها و تعبيرنا عنها. و من هنا يمكننا أن نلخص المسار الذى اتخذته محاجتنا تلك فى سلسلة من الخطوات على النحو التالى :

١ ـ يستدعى فهم ما ننطق به من أقوال في لغة يشترك فى التخاطب بها جميع الناس فهما سليما، أن يستوى جميع من يتحدثون بها أو يستمعون إليها فى طريقة فهمها.

٢ ـ إن طائفة كبيرة مما ننطق به من الكلام تفيد الإحالة إلى ظواهر توجد خارج عالم المتحدث و السامع، مستقلة بذاتها عن أشكال تعبيرهم، بل مستقلة فى الحقيقة فى بعض الحالات عن أى شكل من أشكال التعبير عنها و تمثيلها على الإطلاق.

٣ ـ تستدعى الخاصية ١ و ٢ منا أن نفهم الكثير مما ننطق به من هذه الجمل بوصف أنه يمتلك شروط صدق تستقل بذاتها عن أشكال تعبيرنا عنها و تمثيلنا لها ؛ بأن تحيل إلى ظواهر مشتركة بين الناس، هى ظواهر موضوعية ،لا من الوجهة الأونطولوجية و حسب ، بل من الوجهة الإبستمولوجية كذلك. يفيد هذا أن نسلم بأن صدق العبارات أو عدم صدقها إنما يثبت فى نسبته إلى ما عليه الوجود بذاته؛ مستقلا عن الأسلوب الذى نعبر به عنه أو نمثل له به.

٤ – هذا التسليم يكافئ الزعم بوجود يستقل بنحو ما عن أشكال تعبيرنا عنه وتمثيلنا إياه ، و ما هذا الزعم إلا صيغة من صيغ الواقعية الخارجية.

لفهم هذه الفكرة نلجأ إلى طريقة أخيرة قد تكون أبسط الطرق ، هى استخدام، القوة الصريحة Brute Force. ضع عبارة صريحة تنكر الشروط التى تجعل الخلفية تتحكم فى فعل الكلام نفسه و تأمل ما يحدث. و لننظر مثلا كيف تتعارض مع إنكار مقياس شروط الصدق. فلو قلت:

فوق قمة إفرست يوجد جليد و ثلج، و لا يوجد جليد فوق قمة إفرست.

يكون ما قلته مناقضا لنفسه، لأن الجملة الأولى يترتب عليها نفى الجملة الثانية. لكن لو قلت :

فوق قمة إفرست يوجد جليد و ثلج، ولا توجد واقعية خارجية على الإطلاق .

قد يكون ما أقوله حرفيا أمرا محيرا. لأننا لا نعرف كيف نفهمه على النحو السليم، لأن الجملة الثانية لا تناقض الجملة الأولى و حسب، و إنما تنكر شرطا نسلم به حين نفهم الجملة الأولى الفهم السليم.

عرف بيركلى وغيره من الفلاسفة المثاليين رأيا يشبه هذا الرأى إلى حد كبير، فقد واجه بيركلى مشكلة انه لو أحال كلام كل متحدث إلى أفكاره أو أفكارها وحسب، لثار فى ذهننا السؤال عن الطريقة التى تضمن نجاحه فى التواصل مع الآخرين. و يجيب بيركلى بأن الله كفيل بذلك. وأظن أننى أتفق مع بيركلى فى أن هذا ليس مما قد أطلقت عليه أو عنيت به حالة الفهم السليم. فعندما أقول" الثلج أبيض" أو أقول " إن كلبى به براغيث" فأنا لا أعتمد على الله الاعتماد السليم، ما دام من الممكن حتى للملحد أن يسعى للتواصل عن طريق استخدام لغة يشترك فيها جميع الناس. لقد وجد بيركلى أن التخلى عن فكرة الواقعية الخارجية سيكلفه (فى المقابل) أن يتخلى عن فكرة الفهم السليم، و لم يتردد فى أن يدفع الثمن. إن من الاعتراضات التى واجهها من يتحدَّون الواقعية أنهم يرغبون فى التخلى عن الواقعية دون تحمل تبعات ذلك. وفى مقابل التخلى عن الواقعية عليهم التخلى عن الفهم السليم. فلو أراد شخص ما أن يتخلى عن الفهم السليم لكان عليه أن يوضح لنا نوع الفهم الذى يراه ممكنا.

الفرق الذى يميز الحقيقة العارية أو الوقائع الصريحة من الواقع الذى صنعه المجتمع

لم تكتمل محاجتى بعد؛ فقد رددت حتى الآن- لو كان هذا الرد مجديا - على مثالية الظاهراتيين، و لم ترد بعد على "البنينة أو الصنعة الاجتماعية" -Social con structionsim التى يكون فيها الواقع من صنع المجتمع ؛ وضعت أسسه الجماعة، ووفرت له مقوماته. لقد بين لنا هذا النقاش- حتى الآن- أنه لكى يتيسر لنا فهم طائفة هائلة مما ننطق به من أقوال، بل فهم كل لفظة مفردة، لابد من وجود واقع مشترك بين الناس يتيسر لهم بلوغه . هذا بالإضافة إلى أن هذا الواقع لا يعتمد على أشكال تعبيرنا عنه و تمثيلنا إياه . غير أنه مازال هناك قدر من اللبس، فالحديث عن المال و الحديث عن الزواج هو حديث عن واقع نشترك فيه جميعا، فى متناول يد الناس جميعا. ومثل هذه الظواهر " لا تعتمد على أساليب تعبيرنا عنها و تمثيلنا لها" و هذا يعنى أنه : أن تكون هذه الورقة ورقة مالية من فئة عشرين دولارا، أو أن يتزوج سام وسالى، كلتاهما واقعتان لا تعتمدان على أشكال تعبيرنا عنهما وتمثيلنا لهما. و مع ذلك فإن كل العبارات الخاصة بالنقود تتوفر فيها الشروط التى تجعلها وقائع تستقل بذاتها، دون أن تعتمد على أشكال تعبيرنا عنها وتمثيلنا لها ,أى لا تعتمد على فعل الكلام الذى يجعلها ملائمة

او غير ملائمة كعبارة " أنت مدين لى بخمسة دولارات " مثلا فهى تفترض سلفا وجود واقع مستقل بذاته، بنفس القدر الذى تقتضيه عبارة " فوق قمة إفرست يوجد جليد و ثلج "، غير أن للمال والزواج شأنًا آخر يختلف عن شأن الجبال والذرات ؛ لأن أيا من المال و الزواج لا يوجد مستقلا تماما عن كل الأشكال التى نعبر بها عنها و نمثل لها بها . وهذا الفرق المميز لا يزال بحاجة إلى توضيحه خلال هذا النقاش. قد تكون حجتنا قد اتضحت على نحو يتيح للواقع بأكمله أن يكون بناء شيده المجتمع، كما كانت النقود مثلا من صنع المجتمع.إن الوقائع الخاصة بالأموال مثلا من الممكن أن تكون موضوعية من الناحية الإبستمولوجية حتى لو كان وجودها قد صنعه المجتمع، و بناء على ذلك يكون لها نفس القدر من الذاتية من الناحية الأونطولوجية.

ولكى نكمل نقاشنا نحن بحاجة إلى أن نبين أنه من ضمن أفعال الكلام التى تدل على واقع يجاوزها - أى يقع خارجها، ثمة طائفة فرعية يستدعى فهمها الفهم السليم المألوف وجود واقع يستقل بذاته عن كل الأشكال التى نعبر عنه و نمثل له بها. وأيسر سبيل كى نوضح ذلك، أن نبين أن وجود واقع يصنعه المجتمع و يقيم بناءه يفترض بالضرورة سلفا وجود واقع مستقل، بمعزل عن كل الأبنية الاجتماعية، لأنه لابد أن يوجد شىء يُصنع منه البناء. لكى نصنع للنقود، و الملكية، و اللغة مثلا واقعا و نقيم له هيكلا، لابد أن توجد المادة الخام التى تتألف مثلا من القطع المعدنية، و الأوراق، والأرض، و الأصوات، و العلامات الرمزية أو الماركات. و لا يمكن أن تكون المواد الخام نفسها قد صنعها المجتمع بدون أن يقتضى ذلك سلفا وجود مواد أقرب للطبيعة الخام قد استغلها المجتمع فى صناعته هذه الأشكال أو الأبنية . و هكذا دواليك حتى نبلغ المادة الأولية للظاهرة الفيزيائية الصريحة أو العارية من أية صنعة، التى تستقل بذاتها تماما عن كل الأشكال التى تمثلناها فيها و صورناها عليها. و من هنا نثبت أن الواقع الذى يصنعه المجتمع و يقيم بناءه، والذى يتميز بأونطولوجيا ذاتية، يقتضى بالضرورة من الناحية الأونطولوجية أن يُصنع من واقع موضوعى آخرسابق عليه. من هنا نضيف إلى عرضنا فى القسم السابق الدليل الترانسندنتالى - وهو أن اللغة التى يشترك فيها جميع الناس،تستلزم بالضرورة وجود عالم يشترك فيه جميع الناس كذلك و نضيف فى هذا القسم دليلا ترانسندنتاليا آخر،هو أن أى واقع يصنعه المجتمع و يقيم بناءه، يفترض سلفا وجود واقع لم يصنعه المجتمع و لا يد له فيه.

بعد طرح هذا القدر من النقاش، نرجو أن نكون قد أوضحنا فكرتنا التى يعد عرضها بالتفصيل أحد أهداف هذا الكتاب الرئيسية. ذلك أن الشكل المنطقى لبناء تكوين الواقع الاجتماعى و إقامة بنائه يتألف من تكرار الصيغة الرمزية "س تعد بمثابة ص فى السياق ع " تكرارا متراتبا iteratio , وهذا التكرار المتراتب لهذه الصيغة الرمزية لابد أن يتغلغل فى العنصر س الذى لا يمثل فى ذاته أحد الأبنية المرتبطة بالمؤسسة ، وإلا ظللنا ندور فى دائرة مفرغة. إنه من النتائج المنطقية التى يفضى إليها النقاش الرئيس الذى يدور عليه هذا الكتاب، أنه من غير الممكن أن توجد وقائع مؤسسية دون وجود وقائع صريحة أو حقائق عارية.

نود و نحن نختتم هذه المحاجة التى دار النقاش فيها على الواقعية، أن نكشف كذلك عن وجود تعارض بين الشروط التى تحكم فهم العبارات الخاصة بالوقائع الصريحة أو الحقائق العارية الفهم السليم،و الشروط التى تحكم فهم العبارات الخاصة بالوقائع المرتبطة بالمؤسسة. لكى نوضح وجود طائفة من أفعال الكلام كى يتيسر فهمها لابد من وجود واقع يتجاوز كل الأشكال التى تعبر عنه و تمثله، ويقع خارجها ، نستعين مرة أخرى " بالقوة الصريحة المحضة "، و نلاحظ ما يترتب على طرح الفرضية المضادة، الخاصة برفض شرط القدرة على التمثيل ذاتها. لنتأمل - على سبيل المثال - المزاعم التالية :

١ ـ فوق قمة إفرست جليد و ثلج .

الفرضية التى تنفيها :

٢ - ليس الأمر أن فوق قمة إفرست جليدًا أو ثلجًا.

إن أفعال الكلام التى نضرب لها المثل بالفرضيتين١ و ٢، والتى سنناقشها فيما بعد، تفيد التصريح بوقائع ذات" وجود موضوعى من الوجهة الأونطولوجية " أى تستقل بوجودها عن أشكال تعبيرنا عنها أو تمثيلنا إياها، بالمعنى الذى سعيت جاهدا لتوضيحه.

وهذه الأمثلة تختلف من هذه الناحية عن الزعم المفترض فى العبارة :

٣ ـ أنت مدين لى بخمسة دولارات.

والفرضية التى تزعم ما ينفيها فى العبارة:

٤ . ليس الأمر أنك مدين لى بخمسة دولارات.

بمقدورنا أن ندرك الفرق، لو أن الفرضية المضادة طرحت المزاعم التالية :

أ- فى عالم مماثل لعالمنا ، بيد أنه خال تماما من أى أشكال تمثله و تعبر عنه، (يوجد) فوق قمة إفرست جليد.

و

ب - فى عالم مماثل لعالمنا، غير أنه خال تماما من أى شكل يمثله و يعبر عنه، ليس الأمر أنه فوق قمة إفرست جليد و ثلج.

لاحظ أنه فى النموذج أ و ب - بناء على فهمنا السليم المألوف، البدهى،البسيط - لا تؤثر الفرضية فى العبارة السابقة على فهم العبارة بأكملها، و هذا ما تبيناه كذلك من نفى الفرضية فى العبارة التالية، هذا النفى الذى يترك الوضع كما هو دون مساس به فى هذا النمط من العبارات. يعتمد صدق أو كذب كل من العبارتين أو ب تماما على وجود أوعدم وجود جليد فوق قمة إفرست، و وجود جليد فوق قمة إفرست لا يعتمد بحال من الأحوال على وجود أشكال التعبير الإنسانية أو غيرها.

كن لنضع هذه الحالات فى مقابل الحالات التالية :

جـ - فى عالم يماثل عالمنا ، غير أنه خال على الإطلاق من أى شكل من أشكال تمثيله أو التعبير عنه، أنت مدين لى بخمسة دولارات.

و

د - فى عالم يماثل عالمنا،غير أنه خال على الإطلاق من أى شكل من أشكال تمثيله أو التعبير عنه، ليس الأمر أنك مدين لى بخمسة دولارات.

هناك فرق حاسم بين النموذجين (أ) و (ب) من ناحية، و النموذجين (جـ) و (د) من ناحية أخرى بناء على فهمنا السليم المألوف لا تتأثر أ و ب بالفرضية المضادة ، حيث لا يتأثر فهمنا لهما، و يعتمد صدقهما اعتمادا كليا على وجود جليد فوق قمة إفرست. بيد أن النموذج جـ على هذا النحو نموذج محير، يسقط نفسه بالطريقة نفسها التى يسقط بها النموذج "فوق قمة إفرست جليد، والعالم الخارجى غير موجود بالمرة"، لأن احتمال أن تكون مدينا لى بالمال يشترط وجود قواعد وممارسات و مؤسسات إنسانية بعينها. هذا ما يتبين لنا، فلو أننا نفينا الجزء الخاص بالنتيجة التى يعكسها النموذج (جـ) لحصلنا على (د)، ولو أمكننا أن نفهم ما يترتب على الجزء السابق من

النموذج بحال من الأحوال لكان علينا أن نفهمه بوصفه حقيقة تافهة غير ذات بالك: فليس بإمكان أحد على الإطلاق أن يدين لأحد بشيء فى عالم يخلو من أشكال التعبير التى تمثله و تعبر عنه. أن يقال إنك مدين لى بالمال - فى عالم لم يخطر على بال أحد فيه أبدا فكرة، أو يقول شيئا - يشبه أن يقال إنك حصلت على ضربة البدء نحو المركز الأيسر فى الشوط الثالث من تصفيات العالم، فى عالم لم توجد به لعبة البيسبول على الإطلاق.

خلاصة دعواى : أن أى عبارة هى شكل من أشكال التمثيل ؛ ولذلك لابد لكى نفهم أى عبارة أن نرى فيها - بناء على ذلك - إحدى صور التمثيل. و العبارات فى النماذج ١ و ٢ و ٣، وتشترك كلها فى هذه السمة. غير أنه ثمة فرق بين العبارتين ١ و ٢ من جانب، والعبارتين ٣ و ٤ من جانب آخر ؛ إذ تفيد العبارتان١ و ٢ تصوير سمات للعالم مستقلة لايعتمد وجودها على إدراك العقل لها، و من هنا فلا حاجة لوجودها إلى ما يمثلها ويعبر عنها بوصفه شرطا من شروط إتاحة فهمها الفهم السليم. أما أنموذج العبارتين ٣ و ٤ من جانب آخر فيفيد وجود سمات للعالم تعتمد على الأشكال التى تمثل وجودها وتعبر عنه ، ومن ثم تحتاج إلى أشكال التمثيل تلك بوصفها شرطا من شروط تيسر فهمها الفهم السليم. بمقدورك أن تتبين هذا إذا تأملت فهم الجمل الفهم السليم ؛ فالمعنى الذى تنطوى عليه الجمل ١ و ٢، و٣ و ٤ يعبر عن فرضية مضادة لعدم وجود أى صورة من صور التمثيل أوالتصويرعلى النحو الذى نلفيه فى أ و ب و جـ و د .فمعيار الصدق فى النموذجين ١ و ٢ لم يتأثر، بينما تأثر معيار الصدق الخاص بالنموذجين ٣ و٤ قطعا . هكذا يسقط نموذج الجملة ٣ نفسه بل يكاد يكون مناقضا لنفسه،أما أنموذج الجملة ٤ لو تيسر لنا فهمه بأى حال، فإنه يكون صادقا بلا أى مشقة. لذلك ففهمنا السليم للجمل الخاصة بالنقود أو المال يتطلب وجود صور تمثلها و تعبر عنها بوصفها شرطا من الشروط التى تيسر لنا أن نفهمها الفهم السليم .أما العبارات الخاصة بالجبال فهى فى حِل تماما من أى ضرورة من هذا القبيل.

مربط الفرس أن هناك تعارضا بين دور افتراض وجود واقعية خارجية بالضرورة، وكذلك دور استلزام وجود تصورات إنسانية بالضرورة تمثل للوجود و تعبر عنه، فى إتاحة الفهم السليم. فالفهم السليم عند الحديث عن شئون المال، و كذلك عند الحديث عن الجبال، بحاجة لوجود واقعية خارجية، غير أن الفهم السليم عند الحديث عن المال يقتضى بالضرورة وجود أشكال للتعبير عنه و تمثيله ،على نحو لا يحتاجه الفهم السليم

عند الحديث عن الجبال. فالمال له بنية صنعها المجتمع و اقامها، على خلاف الجبال التى لا نفهمها بوصفها بنية اجتماعية.

مواطن القوة والضعف فى النقاش السابق

كان الهدف من هذا الفصل أن نوضح أن ممارساتنا اللغوية العادية تفترض سلفا وجود واقعية خارجية، تماما كما كان الهدف من الفصل السابع أن نوضح عدم جدوى بعض الحجج التى لا تعترف بهذه الفرضية. و الآن نود فى هذا الجزء أن نذكر " أى الحجج الترانسندنتالية" قد أورد الدليل على الواقعية و أيها لم يورده .

١- لم نقم الدليل على حقيقة وجود واقعية خارجية. و إنما سعينا إلى أن نبين أنها ضرورة يقتضيها استخدام نطاق واسع من اللغة التى يشترك فيها جميع الناس. فلو تواصلت مع الآخرين بالطريقة المعتادة فى أنماط أفعال الكلام التى ضربت لها الأمثلة، لكان هذا يعنى أنك تسلم بوجود واقعية خارجية. و لم نبين أن هناك عالما للواقع (حقيقيا) و إنما بينا أنك تسلم بوجوده عندما تتحدث إلى أو إلى أى شخص آخر.

٢- و البديل دائما هو الأخذ بمبدأ الأنا الفردية solipsism (التى لا تؤمن إلا بالذات الفردية مقياسا للصواب و الخطأ)؛ أى إن حالاتنا العقلية هى الشىء الوحيد فى هذا الوجود ، (أو أنه لا وجود إلا لما يتراءى لنا) . نحن لم نفند هذا ، أى لم نفند أن ذواتنا هى مقياس كل ما فى الوجود. لنتذكر و حسب : أن انفراد ذات الآخر يكاد يدحضه وجودى، و انفراد ذاتى – الذى يفترض وجود الآخر – يكاد يدحضه وجوده.

٣- لم نبين أننا كلنا نسلم بالواقعية. بل على العكس ؛ فالواقعية جزء من الخلفية، عندما تقوم الواقعية بوظيفتها لا يعد هذا من الحالات الواعية المرتبطة بتوجه الوعى على الإطلاق.

فمن المفاتيح التى نستعين بها على فهم الخلفية أن بمقدورنا أن نأخذ بصحة الفرضية حتى فى غياب أية معتقدات أو فرضيات أو أفكار أو غيرها من "المواقف الخاصة بالتصورات ". فأخذ شىء ما أمرا مسلما به هو حالة نفسية، ليست بحاجة لأن نطلق عليها اسما لحالة نفسية . نحن نأخذ الواقعية الخارجية أمرا مسلما به حتى قبل وجود النظرية . لهذا لا نعدها اعتقادا، بل هى سابقة على أى اعتقاد.

٤ هذه البراهين ليست من باب الحجج الإبستمولوجية. و لا أقول إنه لكى نعرف صدق فرضياتنا علينا أن نرى فى وجود الواقعية أمرا لازما. فحجتى لا صلة لها على الإطلاق بالأسئلة الخاصة بالمعرفة أو حتى بالصدق . فى اعتقادى أن غير الحقيقى بحاجة للعالم الواقعى قدر حاجة الحقيقى له، لذلك نردد أن محور فرضيتنا كان الشروط التى تيسر الفهم، لا الشروط الخاصة بالمعرفة.

٥- ما قدمنا من براهين ينطبق و حسب على الألفاظ أوالأقوال التى تنعم بالفهم السليم. من المعروف أن الفهم السليم لا يستوعب الميكانيكا الكمية- مثلا - ولا مجموعة المفارقات النظرية . إن تكبد المشقة من أجل بلوغ تفسير للميكانيكا الكمية هو سعى - ولو فى جزء منه- لفهم هذه الفرضيات فهما سليما. لأنه من غير الممكن أن تفهم كل فرضية نفترضها عن العالم الفهم المألوف.

٦- لا يوجد ضمان ذاتى للفهم السليم المألوف، إذ تدفعنا اكتشافاتنا الحديثة أحيانا إلى مراجعة فهمنا السليم. لقد حدث هذا بالنسبة لنماذج الجمل الخاصة بالألوان .قبل أن توضع النظرية كنا نعتقد أن الألوان خاصية من الخواص الأساسية فى الأشياء ، لكن الفيزياء علمتنا أن ما هو جوهرى بالنسبة للألوان هو أن المرئى يمتص موجات الضوء متنوعة الأطوال و يعكسها بدرجات متفاوتة.هذا التفاعل بين الأشياء و الضوء يتتبُّعه جهازنا العصبى مولدا خبرات نفسرها بالألوان. فى هذه الحال نستبدل بفهم سليم فهما سليما آخر. جدير بنا أن نلاحظ أن إحلال فهم سليم (يفترض صحته) محل فهم سليم آخر(يفترض خطؤه). كلاهما يقتضى وجود واقعية خارجية بالقدر نفسه. ببساطة نقول : إن اكتشاف أن الألوان فى حد ذاتها ليست جزءا من العالم الخارجى، لا يتهدد احتفاظنا بافتراض يستلزم سلفا وجود العالم الخارجى ؛ لأننا لا نزال نعتمد على وجود العالم الخارجى بوصفه يعكس صورة تسجل قيمة أوهامنا الذاتية الخاصة بالألوان. مثل هذه الملاحظات يمكن أن تقال كذلك عن المتانة. يبدو أن احتمالات تفنيد الواقعية الخارجية بالركون إلى تاريخ العلم أمر محكوم عليه بالفشل،لأن حركة التاريخ هى حركة إحلال الاهتمام بظواهر يفترض أن تكون بالفعل موضوعية محل فهم سليم آخر ثبت خطؤه ؛ حيث نكتشف أن ظاهرة ما- من الظواهر التى كانت تبدو لنا فى ظاهرها موضوعية من الوجهة الأونطولوجية - هى بالفعل ظاهرة ذاتية. بناء على أن نضع فى الاعتبار أن الواقع من المفترض أن يتألف من ظواهر موضوعية.

٧ لو كانت حجتنا صحيحة، فسوف نكون قد قطعنا شوطا نحو تفسير حرجنا فى مواجهة كل من الحاجة إلى إثبات وجود عالم الواقع، و عدم توفر الأدلة الكافية. وأكبر الظن أن حجتنا قد سدت هذه الحاجة. فبمجرد أن نشرع فى الحديث إلى محاورينا نكون قد افترضنا سلفا وجود عالم الواقع ، و يصيبنا الحرج لو حاولنا أن نثبت الضرورة الملحة بالفعل للأدلة التى شرعنا فى تقديمها.

نود أن نختتم هذا الفصل بالإجابة عن السؤال التالى: ما قيمة هذا ؟ و ما الذى يضيفه؟ من الممكن برغم ذلك- كما يقول فتجنشتين - أن نعد هذه المناظرات الكبرى بين الواقعية والنزعة المضادة للواقعية، و بين المثالية و المادية أصداء معارك و حسب. إن الواحد ممن يأخذون بالنزعة المضادة للواقعية- بالرغم من ذلك - يذهب بسيارته إلى الميكانيكى لإصلاحها، و يغسل أسنانه، تماما كما لو كان يعتقد أن هذه أمور تنتمى للعالم الخارجى. فماذا يضيف الأمر لو قلنا إن شخصا ما يأخذ بالنزعة الواقعية أو بالنزعة المضادة للواقعية؟

نعتقد أن النظريات الفلسفية تضيف - فى الحقيقة - إضافة هائلة لكل مظهر من مظاهر حياتنا. لقد وجدت أن رفض الواقعية، أى إنكار الموضوعية الأونطولوجية، هو مكون أساسى من مكونات الهجمات على الموضوعية الإبستمولوجية ، و العقلانية، ومفهوم الصدق و الحقيقة فى حياتنا الفكرية المعاصرة و ليس من باب المصادفة أن نظريات مختلفة- من نظريات اللغة، و الأدب، بل التعليم ، تلك التى تسعى لأن تقوض المفاهيم التقليدية الخاصة بالحقيقة، و بالموضوعية الإبستمولوجية ، و بالعقلانية - تعتمد بشدة على الحجج المقامة ضد النزعة الواقعية الخارجية. و الخطوة الأولى للدفاع عن اللاعقلانية - وليست الخطوة الوحيدة - هى تفنيد الحجج المقامة ضد الواقعية الخارجية، و الدفاع عن الواقعية الخارجية بوصفها إحدى الضرورات التى تستلزمها بالضرورة مجالات كثيرة من مجالات الخطاب.

الفصل التاسع

الصدق والتطابق مع الواقع

تصدَّر بحثنا فى طبيعة الواقع الاجتماعى بحث حالة الوقائع التى بفضلها تكون عباراتنا عن الواقع الاجتماعى صادقة. أما هذه الخطوة فهى الخطوة التى نضع بها اللمسات الأخيرة فى هذا المشروع الفلسفى، إذ ندافع فى هذا الفصل عن أن معيار الصدق يعتمد على التطابق مع الوقائع. لقد طرحنا فى الفصول السابقة أسئلة عن طبيعة مثل هذه الوقائع و بنيتها (شكلها و مم تتركب)، من مثل أن هذه عملة ورقية من فئة خمسة دولارات، أو من مثل أنى مواطن من مواطنى الولايات المتحدة الأمريكية. لو كانت حجج الشك skeptical ضد وجود الوقائع، أو ضد التطابق مع الجمل الصادقة للوقائع، لو كانت تلك الحجج ذات جدوى بالفعل لكان هذا الوجه من مشروعنا - على أقل تقدير- بحاجة لأن نعيد صياغته. إن مفهوم الواقع الاجتماعى لدينا ليس بحاجة من الوجهة المنطقية إلى نظرية تطابق الصدق مع الواقع، فبمقدور أى شخص أن يرفض نظرية التطابق،ومع ذلك يظل يأخذ بتحليلنا و يقبله، غير أن الصورة التى نساندها حقيقة فى مجملها تمضى بها الواقعية الخارجية قدما- عن طريق نظرية التطابق - نحو بنية الواقع الاجتماعى.

والآن سنعرض هذه الصورة.

نحن ندرك أن التحليل الكامل "للصدق" و "للوقائع " و "للتطابق " بينهما، أمر يستحق مساحة أكبر مما سوف نخصصه له هنا، غير أننا لا نعتزم هنا أن نقدم تحليلا عاما. و إنما نهدف إلى أن نفسر إحدى صيغ "نظرية التطابق "، بوصفها سبيلا من سبل بحث الوقائع الاجتماعية بحثا منهجيا. و بالرغم من ذلك فعلينا لكى نقوم بذلك أن نقدم ما يمكن أن يدعى- مع بعض التحرزات - نظرية فى الصدق، مما يستدعى منا الرد على بعض النظريات المضادة.

يتألف هذا الفصل من ثلاثة أجزاء ؛ فى **الأول** منه نقدم فكرة مبسطة عن الصدق القائم على التطابق مع الوقائع. و فى الجزء **الثانى** نرد على مجموعة من الاعتراضات التى تواجهها هذه النظرية، من قبل ستراوسون و آخرين. أما فى الجزء **الثالث** فنتناول بعامة الصلات التى تربط بين الصدق، والواقعة، والتطابق وحذف علامات التنصيص، التى نستعين بها بعد ذلك فى الرد على أسلوب اعتراضات ستراوسون. و فى النهاية فى ملحق لهذا الفصل نتصدى بالرد لبرهان" ضربة المقلاع القاضية" الموجهة ضد نظرية التطابق.

الفكرة المبسطة عن تطابق الصدق مع الواقع

العبارات بعامة هى محاولات تصف الموجودات فى عالم يستقل بذاته عن هذه العبارات(١). وتوصف العبارة بالصدق بناء على ما إذا كانت الموجودات فى هذا العالم هى بالفعل على النحو الذى تصورها به العبارات، فالحقيقة أو فلنقل صدق أمر ما إنما هو باختصار مسألة ترتبط بدقة تمثيل نوع بعينه من أشكال التعبير اللغوى هذا العالم. لذلك فالعبارات التى تعبر عن أن ذرات الهيدروجين ذات إليكترون واحد مثلا، وتعبر عن المسافة بين الأرض والشمس بوصفها تبلغ ثلاثة ملايين ميل، و تعبر عن وجود كلبى الآن فى المطبخ، هذه العبارات إنما تكتسب صحتها أو خطأها - صدقها أو كذبها - بناء على ما عليه بالفعل ذرات الهيدروجين، و النظام الشمسى، و شئون الكلاب المنزلية، وكيف تصف العبارات حالة وجودها. هكذا يمكن أن نقول إن للصدق درجات ؛ فالعبارة الخاصة بالشمس مثلا صادقة على وجه التقريب.

يطلق البعض على هذه الفكرة نظرية "تطابق الصدق مع الواقع" the correspondence theory of truth إنها تقدم دائما بوصفها نظرية تقيّم ما هو صادق ولذلك:

تكون العبارة صادقة فقط إذا ماثلت الوقائع.

لكن إذا كان هذا ما نفترض أن تعنيه كلمة" صادق"(أو حقيقى أو صحيح)، فنحن مازلنا بحاجة إلى أن نعرف المزيد عما تعنيه كلمة "تتطابق مع" وكذلك كلمة "واقعة".

نعتقد أن أفضل طريقة للبدء فى فهم هذه الأفكار هى البدء بفكرة طالما عدت مأخذا على نظرية التطابق،؛ فكثيرا ما تردد أنه لابد لأى عبارة تتسم بالصدق أن يتوفر فيها شرط أن ينطبق على (ث) الصيغة الرمزية التالية:

ث تكون صحيحة فحسب لو ب

حيث نرمز بـ (ث) إلى بعض ما يجعل لعبارة ما بعض السمات التى تحددها بخصائص بعينها ؛ كأن نضع علامات تنصيص مثلا تسيج جملة " الثلج أبيض"، و نرمز بـ ب للجملة نفسها، فيكون حاصل ما عندنا هو البديل للصيغة الرمزية السابقة ممثلا فى الشاهد :

"الثلج أبيض"(عبارة) صادقة، فحسب لو أن الثلج أبيض(واقعة) .

نطلق على معيار الصدق هذا أحيانا معيار "حذف علامات التنصيص"(٢)، لأن العبارة الواقعة بين علامات التنصيص على الناحية اليمنى تقع كذلك على الناحية اليسرى بعد إسقاط علامات التنصيص. هذا الإبدال قد أطلق عليه " الجمل ت" .يتطلب معيار "حذف علامات التنصيص" شيئا من الصياغة التى تعيننا على التعامل مع الجمل بين علامات التنصيص من مثل " أنا جائع". كما سيميل من ينزعون إلى تنقية اللغة purists إلى التمييز بعناية بين الجمل ، و العبارات، و أبنية المعنى، تمييزا يضع أيديهم على فروق مميزة غير ظاهرية بالنسبة لمعيار حذف علامات التنصيص على النحو الذى ذكرناه. علاوة على ذلك نحن بحاجة إلى أن نصوغ مفهوم حذف علامات التنصيص بحيث يسمح لمن يتأمل اللغة بأن يجد جملا ينسب فيها الصدق إلى جمل تتحدث فيها لغة عن لغة أخرى object langue مما لا يشتمل عليه البحث المتأمل فى اللغة-meta language من مثل :

الثلج أبيض (بالألمانية) " Schnee ist weiss جملة صادقة لو أن الثلج أبيض.

غير أنه بالإمكان جعل أساليب هذه الصياغة قادرة على معالجة كل هذه المشاكل، أما عن جمل الوصف التى تتميز بوقوعها بين علامات التنصيص indexical من مثل جملة" أنا جائع" مثلا، فيمكن أن نقول :

إن جملة " أنا جائع " التى يقولها المتحدث (ث) فى اللحظة (ز) ، تكون صادقة وحسب لو أن (ث) كان جائعا فى اللحظة (ز).

أما عن الحالات التى لا يشتمل فيها اتخاذ اللغة موضوعا المتأمل على وصف لغة للغة أخرى تتخذها موضوعا لها فبالإمكان أن نتول : إن العبارة على الطرف الأيسر لابد أن تعرب عن نفس الفرضية التى تفترضها الجملة بين علامات التنصيص على الطرف الأيمن. والفروق المميزة بين الجمل و العبارات وأبنية المعنى، من الممكن أن تظل قائمة فى نطاق معيار حذف علامات التنصيص. لذلك فسوف نغضى - لصالح هذا النقاش- عن الجمل بين علامات التنصيص، والفروق المميزة إلا ما كانت الحاجة إليه ماسة، و تعد أمرا جوهريا.

فى المثل الذى ضربناه حددت الجملة بين علامات التنصيص على الطرف الأيمن "الثلج أبيض" نوع الجملة الشاهد، و على الطرف الأيسر طرحت شرطا لابد من توفره كى تكون الجملة صادقة ؛ حيث إنها تشير على وجه التحديد إلى ما بفضله تكون الجملة صادقة- و إلى المحصلة نفسها- أى ما يجعل الجملة صادقة ، إن كانت صادقة، و هى تقوم بذلك ببساطة عن طريق تكرار الجملة ذاتها. قد يجعل هذا حذف علامات التنصيص يبدو أمرا ساذجا، لكننا نهدف من ورائه إلى أمرين هامين على الأقل، يفيدان نقاشنا الحالى، يتصلان بمعيار حذف علامات التنصيص. الأمر الأول أن الجمل تكون صادقة حين يتوفر لها شرط يقع خارجها يجعلها صادقة. والأمر الثانى أن الشرط الذى يجعل الجملة صادقة يتوفر لنطاق واسع من الجمل، عن طريق تكرار الجملة فحسب.

نحن بحاجة إلى اسم أو إلى عبارة اسمية phrase noun لكى نسمى كل هذه الشروط التى تجعل من الجمل جملا صادقة .كل ما يضفى على الجمل صفة الصدق ويكسبها طابع الحقيقة يتعين عن طريق ما بالطرف الأيسر من الجمل المرموز لها بالجمل ت،التى بفضلها تصير الجمل جملا صادقة - لو كانت صادقة - أما كلمة "واقعة" - شأنها شأن بعض"المواقف" أو" الأوضاع" - فقد صارت تسمية عامة، اصطلحنا على أن نطلقها على تلك العوامل التى تضفى على الجمل سمة الصدق. والفعل " تطابق" هو مجرد مصطلح عام أطلقناه على كل الأساليب المتنوعة التى تجعل الجمل صادقة بفضل هذه الوقائع .ويمكن أن نشرح هذا الأمر فنقول إن معيار الصدق المبنى على حذف علامات التنصيص، بالإضافة إلى الفهم الملائم لفكرة " الواقعة" وفكرة "التطابق" ينطويان على نظرية التطابق ؛ لأنه لو كانت الجملة الواقعة بين علامات التنصيص على الجانب الأيمن من الجملة التى رمزنا لها بالرمز ت صادقة

بالفعل ، لكان حتما أن تطابق الواقعة التى ينص عليها ما على الجانب الأيسر. من أهداف هذا الفصل أن نشرح معنى " الفهم الملائم".appropriate understanding

لو أن نظرية ينطبق عليها معيار حذف علامات التنصيص، فمن المفروض أن يكون بإمكاننا أن نعبر بوضوح عما تشير إليه ضمنا. سنقيم الحجة فيما بعد على الخطوات المتنوعة لتطبيق هذا المعيار، بيد أننا نقول تمهيدا لذلك إننا :

١-نفترض جدلا بلا علامات تنصيص أنه:

بالنسبة لأى ث، ث تكون صادقة و حسب بشرط ب

٢- لو استبدلنا برموز الصيغة الرمزية السابقة (ث، و ب) بدائل مناسبة لكان الطرف الأيسر الخاص بالجملة ت يحدد الشرط الذى لو توفر فحسب تكون الجملة على الطرف الأيمن صادقة.

٣- نحن بحاجة إلى اسم عام نطلقه على توفر هذه الشروط، و هذا الاسم الذى وقع عليه الاختيار - من بين سواه - هو "الواقعة".

٤ - نحن بحاجة إلى فعل نطلقه على الأساليب المتنوعة التى عن طريقها ترتبط الجمل- عندما تكون صادقة - بالوقائع ، ارتباطا يجعلها تكتسب صفة الصدق، و هذا الفعل، دون سواه، هو الفعل "تتطابق مع".

٥ - أما وقد تهيأنا بذلك الفهم، فبمقدورنا أن نستعين بمعيار حذف علامات التنصيص على بلوغ صيغة رمزية "لنظرية التطابق" وهى:

بالنسبة لأى ث، تكون ث صادقة وحسب لو أن ث تطابق الواقعة ب

سوف نوضح على الفور أن "نظرية التطابق " ليست محاولة تسعى إلى تعريف ما يعد "صادقا" دون اللجوء إلى الاستعانة بتصورات دلالية semantic notions أخرى. فلو حاولنا أن نتخذ هذا تعريفا للوصف بـ"صادق"، وفقا لمصطلحات غير دلالية، فسندور فى دائرة مفرغة؛ لأن نظرية التطابق تستعين بمثل هذه الأفكار المحملة بالدلالة من مثل "واقعة" و "يتطابق مع".

لعل كل ما قلناه حتى الآن يبدو واضحا، لأننا نعتقد بالفعل أنه واضح. وبالرغم من ذلك، فإن علينا أن نذكر أن تلك التصورات لا تلقى الترحيب مرارا، بل عادة ما تواجه

بالإنكار. و يعتقد كثير من الفلاسفة أن حذف علامات التنصيص يؤثر بنحو ما تأثيرا سلبيا على "نظرية التطابق". فى داخل كل هذا ثمة قضايا فلسفية جوهريةك لأنه ثمة دوافع فلسفية عميقة- سوف نشرحها فيما بعد- تدفع لسوء فهم كل هذه الأفكار. وسنعود لاحقا إلى هذه المسائل.

اعتراضات ستراوسن على نظرية التطابق.

على مدى أربعين سنة مضت جرت مناظرة مشهورة بين أوستين و ستراوسن دارت حول "الصدق" و "الوقائع"(٣). وقد لقى فوز ستراوسن فى هذه المناظرة قبولا عام، كما انصب الكثير من اعتراضات ستراوسن على تفاصيل بعينها من الصيغة التى قدمها أوستن لنظرية "التطابق"، بل إن الاعتراضات التى قدمها هى اعتراضات عامة، من الممكن أن تنطبق على صيغ أخرى من النظرية ؛ و قد خلص إلى القول بأننا "لسنا بحاجة إلى تنقيح نظرية "التطابق"، إنما الأجدر بنا أن نتخلى عنها "تماما(٤). و هو لا يزعم أنه من الخطأ أن نقول إن العبارة الصادقة هى التى تطابق الوقائع ، بل إنه يرى أن نظرية التطابق تفضى إلى رسم صورة مضللة للحكم "بالصدق" و لطبيعة الوقائع... فى هذه الصورة نجد أن الوقائع هى أنواع من الأشياء المركبة، أو الأحداث، أو مجموعة من الأشياء، ونجد أننا نطلق صفة "الصدق" على علاقة بعينها من علاقات التطابق بين العبارات و هذه الموجودات غير اللغوية. يقول ستراوسن "إن المشكلة تكمن فى إساءة وصف التطابق بين العبارة والواقعة، بوصفها تمثل أى نوع من أنواع العلاقات التى يمكن إقامتها بين الأحداث أو الأشياء، أو مجموعة من الأشياء"(٥).

نحن نتفق مع ستراوسن فى كثير من سمات معالجته. فى الحقيقة لقد ظللنا سنوات عدة مقتنعين بأنه يقدم اعتراضات قاطعة على "نظرية التطابق". و سنسعى فيما يلى إلى تلخيص هذا، مضيفين إليه بعض ما يدعمه من الآراء من نفس المضمار. ومع ذلك فسوف نبرهن فى القسم التالى على أن محاجة ستراوسن رغم أن لها ما يدعمها، لا تبرهن على ضرورة التخلى عن "نظرية التطابق".

يبرهن ستراوسن على أن نظرية التطابق تخلف فى نفوسنا بشكل طبيعى صورة خاطئة، لأننا عندما نتحقق من صدق عبارة كعبارة "القطة على العتبة" يكون لدينا العبارة نفسها من جانب، و على الجانب الآخر يكون لدينا شىء مركب أو مجموعة من الأشياء ، تتصل بوجود القطة على العتبة. و لكى نتحقق من صدق العبارة نقارن بين

العبارة و الواقعة، كى نرى ما إذا كانتا متطابقتين بالفعل. بناء على هذا المفهوم نجد أن الوقائع هى أنواع من الموضوعات المركبة أو الأحداث، وأن التطابق يضارع العلاقة التى تربط بين عناصر العبارة و عناصر الواقعة.

ليس من المصادفة أن نظرية تطابق الصدق للواقع قد سارت - تاريخيا - جنبا إلى جنب مع صورة من صور نظرية المعنى. و هى نظرية ترى أن للجمل ما لها من معنى لأنها صور للوقائع اتفق عليها العرف . يذكر فتجنشتين فى كتابه "المسائل الفلسفية" التصور الكلاسيكى لهذا المفهوم(٦). هذا التصور لنظرية التطابق قد أسفر عن مشكلات عويصة من مثل أنه: حتى لو كان من المعقول أن نعتقد أن الواقعة الخاصة بوجود القطة على العتبة مركب يتألف من القطة، و العتبة، و العلاقة بينهما، فماذا عن واقعة عدم وجود القطة على العتبة؟ أو عن واقعة عدم وجود قطط ذات ثلاثة رءوس ؟ أو عن واقعة يشترط فيها أنه لو كانت القطة على العتبة لكان على الكلب أن يكون فى المطبخ ؟ فى رسالة أرسلها الفيلسوف راسل Russell إلى الشاب فتجنشتين يسأل: "هل هناك وقائع سالبة (تفيد النفى)؟" و يرد عليه الأخير بأنه : "بالطبع لا".

من العبث أن نأخذ بتلك الصورة التى تولدت عن نظرية التطابق، الصورة التى ترى أن الوقائع موضوعات مركبة أو أحداث، و أن الصدق يتألف من نوع من التناظر أو المشاكلة isomorphism بين عناصر العبارة و عناصر الواقعة. فبمجرد أن نطابق بين العبارة و الواقعة، لا يتبقى ما نجنيه من وراء مقارنتهما، لأن الطريقة الوحيدة لتعريف واقعة ما هو أن نقيم عبارة صادقة .فبمجرد أن نجيب عن السؤال"أى واقعة؟" نكون بالفعل قد برهنا على "الصدق" لأن العبارة الصادقة والواقعة - بناء على ستراسن - لا يستقل أحدهما بذاته عن الآخر. "فالعبارات عندما تكون صادقة لا(تتحدث) عن واقعة بل تنشئها و تنص عليها(٧). إن الوقائع ليست موجودات فى عالم الواقع مستقلة بذاتها، بمعزل عن اللغة، بل إن كلمة " واقعة" شأنها شأن كلمات من مثل "عبارة" و"صادقة " هى ذاتها تنتمى إلى نمط بعينه من أنماط تركيب الخطاب، يربط بين الكلمات و عالم الواقع. ليست الوقائع باختصار أشياء خارج النظام اللغوى extralinguistics تنضاف إليها بل إن تركيب بنيتها ينطوى بالفعل على فكرتى العبارة و الصدق ؛ لأنه لكى نعيِّن واقعة بالتحديد، علينا أن نقيم عبارة صادقة(٨).

ظن فريجه Frege أن الوقائع هى مجرد فرضيات صحيحة (أى يتسم مضمونها وما لها من معنى بالصدق)[٩]. و أن الرابط المنطقى الذى يجمع بين العبارات الصادقة، أو فلنقل بين الفرضيات الصادقة من جانب و الوقائع من جانب آخر، يجعل لهذا الرأى بالتأكيد وجاهته .و بالرغم من ذلك، فالصلة المنطقية التى تربط بين الفوز و النصر تكشف عن أنهما ليسا نمطين منفصلين من الأحداث، بل إنه أيما امرؤ يفوز، يحقق نصرا، لأن النصر فوز بنحو من الأنحاء. و على غرار هذا (يطرح السؤال) هل بالإمكان أن نقول إن الرابط المنطقى الذى يجمع بين العبارات الصادقة و الوقائع يكشف عن انهما ليسا نمطين من الظواهر، بل إنه أيما امرؤ يصرح صادقا، فإنه يصرح بواقعة،لأن الوقائع ليست سوى عبارات صادقة ؟ غير أن هذا خطأ تجنب ستراوسن الوقوع فيه. فهو يقول " سيكون من الخطأ- لكن ليس للأسباب التى ذكرها أوستن - أن نماثل بين " الواقعة "و" العبارة الصادقة" ؛ لأن هذه التعبيرات لها وظائف مختلفة فى لغتنا[١٠] لم يطور ستراوسن النقاش، لكنه على أية حال قد يجانبنا الصواب لو قلنا إن الوقائع هى مجرد عبارات صادقة، لأن الوقائع مثلا تحركها دوافع تبرر لها و تتسبب فيها بنحو يختلف عن العبارات الصادقة. كأن (تكون واقعة)" فشل نابليون فى أن يدرك أن الخطر الذى تعرض له جناح الجيش الأيمن كان سببا فى هزيمته"[١١] " ذات مغزى، بينما تكون العبارة الصادقة التى تقول بأن نابليون قد فشل فى أن يدرك أن الخطر الذى تعرض له جناح الجيش الأيمن كان سببا فى هزيمته " غير ذات مغزى على الإطلاق، أو تعنى شيئا مختلفا تماما.

لكن ستراوسن يصر على وجود علاقة داخلية تربط بين الوقائع و العبارات الصادقة؛ و يصر على أن هذه العلاقة لا يمكن أن تكون علاقة - حقيقية - تطابق بين كيانين منفصلين. ما نعده نموذجا دالا على وجود عبارة تربطها (بالواقعة) علاقة حقيقية سيكون على غرار :

سياتل تقع شمال بورتلاند.

ولكى يتضح لنا إن كانت هذه العلاقة من العلاقات الشائعة، لابد لنا أولا من أن نحدد موقع سياتل، ثم نحدد موقع بورتلاند، ثم نرى بعد ذلك إن كانت العلاقة فيما بينهما بالفعل تجعل الأولى تقع شمال الثانية. غير أنه ليس بمقدورنا أن نفعل ذلك اعتمادا على العلاقة المفترضة، أى علاقة التطابق بين العبارات و الوقائع، لأنه لكى

نعرّف الواقعة لابد لنا بالفعل من أن نكون قد أقمنا العبارة الصادقة التى تطابقها. فـ"علاقة" واقعة ما بعبارة صادقة هى علاقة داخلية، على غرار العلاقة بين موجودات تحيل إليها أسماء، تلك الأسماء هى مفاعيل لأفعال مطابقة

فعبارة "القطة على العتبة"، التى تطابق واقعة وجود القطة على العتبة،لابد أن تفهم لا فى صلتها الحقيقية بنموذج العلاقة المتمثلة فى الشاهد:

سياتل تقع فى شمال بورتلاند

بل فى صلتها بالنموذج المتمثل فى الجمل التى تشتمل فى داخلها على رابطة خاطئة تتعلق بوجود مفعول داخلها من مثل:

حقق سام النصر.

أو ضربت سالى ضربة.

(فى هذه الجمل) من الوجهة النحوية، نجد أن "الواقعة " هى ما وقع مفعولا لتصريح صادق، تماما مثلما أن "النصر" يقع مفعولا داخل الجملة (للفعل) "حقق"، و"الضربة" تقع مفعولا للفعل"يضرب". لا توجد علاقة حقيقية فى أية حالة من هذه الحالات تربط بين الشيء الذى نطلق عليه فاعل الجملة، و الوجود الكاذب pseudo الذى يحيل إليه المفعول به المباشر.

يمكننا أن نضيف علاوة على ذلك، أنه لو كانت نظرية التطابق صحيحة، لبدا مما يترتب على ذلك أنه: بعد أن حددنا موضع "واقعة" وجود القطة على العتبة، و موضع "الجملة" التى تخبر بوجود القطة على العتبة، سيظل علينا، لكى نثبت أن العبارة صادقة، أن نقارن العبارة بالواقعة، كى نرى إذا ما كانت العبارة فعلا تطابق الواقعة. لكن الفكرة عبثية، فبمجرد أن نعرِّف واقعة ما نكون قد عرَّفنا بالفعل عبارة صادقة. وخلاصة القول، أن ستراوسن لا يخلُص إلى أن عبارة "العبارات الصادقة تطابق الوقائع"، عبارة كاذبة، بل يخلص إلى أن النظرية الفلسفية التى رددت هذا نظرية خاطئة .لأن هذه النظرية على وجه التحديد تزعم كذبا أن الوقائع موجودات غير لغوية، و أن "الصدق" كلمة نطلقها على علاقة التطابق بين طرف لغوى،و طرف غير لغوى.

فى القسم التالى سوف نقيم الحجة على أن ستراوسن كان على صواب حين لفت أنظارنا إلى الصلة التى تربط بين الواقعة و العبارة الصادقة، غير أن هذا لا يعنى بأية حال أن الوقائع موجودات لغوية على الإطلاق، و لا يعنى هذا كذلك عدم وجود علاقة تطابق بين العبارات الصادقة و الوقائع.

نود أن نبدأ بملاحظة سمة غريبة يتسم بها الأدب الحالى: فلم يعد الكثير منه يُعنى بأحكام الصدق والكذب بوصفهما معيارى تقييم يستخدمان لوصف ضروب بعينها من النجاح والإخفاق. إنهما يستخدمان لتقدير مدى نجاح عبارات ما (و معتقدات ما) أو إخفاقها فى تحقيق ما أدعوه اتجاه الكلمات أو العقل نحو ما يتلاءم مع الوجود. لو قرأت الكثير من الأدب، بالرغم من ثرائه الفنى لتولد فى نفسك سؤال " وماذا بعد؟" و"لماذا يجب أن نهتم بالصدق، لو كان هذا هو كل ما يرمى إليه؟". لا تفسر لنا أمثل المعالجات لماذا يعنى الصدق كل هذا بالنسبة لنا ؟ و أود لو أدلى بدلوى فأقدم تفسيرا سوف يوضح السبب فى تلك الأهمية، و لو فى جزء منها على الأقل.

رسمنا فى القسم الأول باختصار خريطة لنظرية التطابق بين الصدق والوقائع، عن طريق توضيح كيف يمكن أن يفضى إليها بنحو طبيعى معيار الصدق الذى يقوم على "حذف علامات التنصيص". بناء على نظرية التطابق تكون عبارة ما(ب) صادقة فحسب لو تطابقت العبارة مع (ب) واقعة ما. وبناء على نظرية حذف علامات التنصيص،نجد أنه بالنسبة لأية جملة، تستخدم ث فى إقامة العبارة ب، و تكون ث صادقة فحسب لو ب. و قد افترضت أن معياريَّ الصدق هذين هما فى صميمهما شىء واحد ، لأنه لو كانت الجملة الواقعة بين علامات التنصيص على يمين الجملة ت صادقة، لكانت صادقة فحسب لأنها تتطابق مع الواقعة التى تقررت على الجانب الأيسر.

غير أن كل الفلاسفة لا يتفقون معنا فى هذا. فبالنسبة للكثيرين منهم يبدو أن هذين المعيارين للصدق لا يؤديان دائما إلى النتائج نفسها. فمعيار حذف علامات التنصيص يجعل الأمر يبدو كما لو كانت كلمة " صادق " لا تضيف بالفعل شيئا للعبارة الأصلية، إذْ يبدو أن قول العبارة " صحيح أن القطة على العتبة " هو طريقة أخرى لقول العبارة "القطة على العتبة "، ومن ثم تبدو كلمة "صحيح - صادق" هنا فضل زيادة. ولهذا فإن معيار حذف علامات التنصيص قد يعد ضربا مما تنطوى عليه نظرية الإسهاب الخاصة بالصدق Truth Theory of Redundancy التى ترى أن قول "عبارة صادقة"، هو ضرب من الإطناب، لا يصف شيئا. لقد أشار عدة فلاسفة ممن قد تأثروا بحجة الإطناب إلى أن الحكم بالصدق ليس إسهابا تماما، لأننا مازلنا بحاجة إليه بوصفه

اختزالا لتبرير مجموعة لا حصر لها مما يحذف منه علامات التنصيص، من مثل أن نقول مثلا " النتائج الصحيحة يصلح أن تستنبط فحسب من المقدمات الصحيحة ". لكنهم بالرغم من ذلك يشايعون تقليص نظرية الصدق أو تحجيمها ؛ تلك النظرية التى تشير إلى عدم وجود شىء أو علاقة نحكم عليها بأنها صادقة. فمضمون نظرية الصدق بأكمله قد عبر عنه" حذف علامات التنصيص"(١٢) والمعيار الأول،معيار التطابق ، يجعل الأمر يبدو كما لو كان ثمة علاقة حقيقية أصلية بين كيانين موجودين قد تعرفنا إلى كل واحد منهما فى وجوده المستقل : "العبارة"، و"الواقعة"، و كلمة "صادقة" تعبر عن هذه العلاقة. يبدو أن حذف علامات التنصيص ينطوى على نظرية الإسهاب redundancy theory، أو على الأقل على نظرية الاختزال deflationary، من المفترض عادة أن تخالف نظرية التطابق نظريات الإسهاب، و نظريات الاختزال. وهكذا نكون قد وضعنا أيدينا - فى نقاشنا آراء ستراوسن - على اعتراضات على نظرية التطابق بالغة الأهمية.

لقد وجد المدافعون عن نظرية التطابق أنفسهم فى مواجهة مجموعتين من الأسئلة : المجموعة **الأولى** من الأسئلة تدور حول إمكان تقديم مفهوم لجوهر نظرية التطابق ، يتفق مع معيار حذف علامات التنصيص، و أعنى بهذا " المفهوم الجوهرى " مفهوما ينبنى عليه بالفعل وجود وقائع غير لغوية و عبارات صادقة، لأنها ترتبط بالفعل بتلك الوقائع. من الممكن أن نصفها على أساس هذا الارتباط بأنها تناسب الوقائع، وتطابقها، و تقررها، أما المجموعة **الثانية** من الأسئلة فتدور حول إمكان الرد على اعتراضات ستراوسن على نظرية التطابق؟

للإجابة عن هذه الأسئلة سوف نطرح بعض الملاحظات العامة عن الاستخدام المألوف لكل من التعبيرين : " صادق " و " واقعة "، و كيف تطور معناهما حتى بلغ ما هو عليه فى الوقت الحالى. هنا ننحو نحو فتجنشتين فى أسلوب إقدامه على الدخول فى ألعاب لغوية؛ فنحن نلعب بهذه الكلمات، بهدف التخلص من الصور الخاطئة التى تتولد عن سوء فهمنا الألعاب اللغوية. نريد فى بضع من الفقرات التالية أن نطرح ملاحظات عن استخدام الكلمات متأملين أصولها اللغوية و تاريخ نشأتها و تطور استخدامها.

تأتى كلمة صادق (فى الإنجليزية) من نفس الجذر اللغوى الذى صدرت منه كلمة ثقة trust، وجدير بالثقة و الاعتماد عليه trustworthy ، وكلها قد أتى من الجذر deru

فى الهنداوربية بمعنى"شجرة"، بما يحيل على الاستقامة (الأخلاقية) uprightness والجدير بالاعتماد عليه بعامة reliability، فلا توجد عبارات صادقة فقط، بل يوجد أصدقاء حقيقيون (صادقون غير مزيفين)، و مشاعر صادقة (يشعر بها المرء بإخلاص دونما زيف أو افتعال)، و ثمة ورثة (حقيقيون مستحقون من الناحية القانونية أو الشرعية)، كذلك يوجد شمال حقيقى، (تمييزا له من الشمال المغناطيسى الذى تشير إليه البوصلة) ويوجد سمك سالمون (حقيقى بحرى؛ فأسماك الغدران الشرقية ليست أسماك سالمون حقيقية، بل هى نوع ما يشبه السالمون البحرى)، و هناك سكاكين (حقيقية) قاطعة، و مؤمنون حقيقيون (مخلصون صادقون).

تلك المجموعة من المعانى المتنوعة لكلمة حقيقى (صادق) ، تكشف عن تشابه بين أفرادها، تشابه أفراد الأسرة الواحدة، فلو كان للصدق ما يربطه عامة بالجدارة والثقة، لدفعنا هذا إلى أن نسأل عن الشروط التى تتيح لنا أن نجد عبارة يوثق بها و يعول عليها. من الواضح أنه عندما تفعل هذه العبارة ما تعنيه، أى عندما تصرح وتنص بدقة على ما عليه الأشياء فى الواقع و تقرره، عندما تقول إن الأشياء على شاكلة أو أخرى، فإنه من الممكن أن يعول عليها وحسب، لو كانت الأشياء بالفعل على هذه الشاكلة أو سواها. هكذا نحصل على معيار الصدق الخاص بحذف علامات التنصيص .إن معيار حذف علامات التنصيص يمنحنا معيارا عاما للصدق يتفق مع استشعارنا أن الصدق ينطوى على معانى الدقة، والجدارة، والثقة، وإمكان الاعتماد على الشىء. لقد عبر أرسطو عن هذا المفهوم عندما قال: أن تقول الحقيقة يعنى أن تقول من أى ضرب يكون هذا الشىء، أو لا يكون. باختصار إن "صدق" العبارات (حدٌ) يطلق على مقدار ما تنطوى عليه العبارات أو يكتنفها من ثقة ، و حذف علامات التنصيص يمنحنا معيارا لمدى جدارتها بهذه الثقة.

والآن – بعد أن ناقشنا مفهوم الصدق – نناقش مفهوم "الواقعة". نحن نعرف بالتأكيد أن هذه الكلمة قد اشتقت من الكلمة اللاتينية factum فى صيغة الماضى المحايد neutral past participle of the verb التصريف الثالث) المحايد "للفعل يفعل" أو"يعمل" (أو يجعل) to do facere to make وبمزج ثلاث لغات يمكن أن نقول إن "الواقعة" باللاتينية تعنى ما قد تم عمله أو تحقق .fait accompli لكن الصلة بين العبارات الصادقة والواقعة لا تزال غير واضحة. سنقوم بتوضيح تلك الصلة، تماما كما

كنا بحاجة عامة لكلمة "صادقة"، نصطلح عليها ونطلقها على سمة الثقة التى تكتنف العبارات. نحن بحاجة كذلك لمصطلح عام نطلقه على ما يجعل العبارات جديرة بالثقة. لو كان صحيحا أن القطة على العتبة، فلابد أن يكون هناك شىء (يصير) بفضله هذا صحيحا. يخبرنا معيار حذف علامات التنصيص عما هو هذا الشىء فى كل حالة من الحالات. هذا الشىء الذى يجعل من وجود القطة على العتبة أمرا حقيقيا،هو كون القطة على العتبة فحسب. و هذا شأن أية عبارة صادقة. مما يجعل من "الحشيش أخضر" عبارة صادقة سوى كون الحشيش أخضر..... وهكذا إلخ. لكننا لا نزال بحاجة إلى مصطلح عام يطلق على هذا و ذاك من الأشياء،فما يجعل منها الحقيقة و يكسبها سمة الصدق، أن يكون الحشيش أخضر، و الثلج أبيض، و ٢+٢=٤...إلخ. لقد حدثت "واقعة" fact يتحقق بها مطلبنا هذا، ثم صارت كلمة "واقعة" fact (بالإنجليزية) تعنى ما بفضله تكون العبارات الصادقة صادقة. لأجل هذا كان ستراوسن على صواب حين رأى أنه لكى نحدد بدقة واقعة ما، و لكى نجيب عن السؤال عن " أية واقعة؟ " علينا أن نقيم عبارة صادقة. و عندما نقوم بتحديد جوهر الوقائع يمكن للوقائع و حسب أن تصير عيانا دون أن نعلنها.

غير أنه لا يترتب على ما سبق أن تكون الوقائع فى أساسها وقائع لغوية بنحو ما، و إنما تنطوى بنية الوقائع إلى حد ما على مفهوم العبارة. و على العكس من ذلك - بناء على المعالجة التى كنا قد قدمناها - نجد أن الوقائع بالتحديد هى مكونات غير لغوية (إلا بالطبع فى تلك الطائفة الضئيلة الهامة التى تمثلها الوقائع اللغوية)، لأن الغرض من مفهوم الواقعة فى مجمله أن يكون لدينا تصور عما يقع خارج العبارة، و إن كان يجعل منها عبارة صادقة، أو فلنقل بفضل من وجوده تكون العبارة عبارة صادقة، إن كانت صادقة. ليست الوقائع بناء على هذه المعالجة موضوعات مركبة، و لا هى تكوينات لغوية، بل هى بالأحرى شروط، شروط فى عالم الواقع ، تتوفر فيها- على وجه التحديد- شروط الصدق (أو الصحة) التى أوضحتها العبارات. و كلمة " شرط" تعانى مما تفضى إليه فى العادة من اللبس، حيث يقع اللبس فى هذه الحالة بين الضرورة والشىء الذى تقتضيه هذه الضرورة .فالعبارة تتطلب بالضرورة وجود شرط أساسى تحدده لصدقها، و إذا توفر هذا الشرط الأساسى سيتوفر فى عالم الواقع هذا الشىء المطلوب الذى تقتضيه الضرورة (١٣). فعبارة " القطة على العتبة" مثلا تعبر عن شرط من الضرورى توفره كى تكون العبارة صادقة. فلو كانت العبارة صادقة لكان من

الضرورى أن يتوفر فى عالم الواقع هذا الشرط المطلوب، وهو واقعة وجود القطة على العتبة. و بناء على هذا فليس لدينا للواقعة، مفهوم ميتافيزيقى مطلق، ولا نحن بحاجة إليه. إنما يكفى لإقامة عبارة صادقة أن توجد واقعة. فعدم وجود قطط بثلاثة رءوس واقعة، شأنها شأن الواقعة الخاصة بوجود القطة على العتبة. لنتأمل مرة أخرى عالم (الواقع) المصغر الذى وصفناه فى الفصل السابع الذى يتكون من عدد من الموضوعات الذائعة. فهل من وقائع هذا العالم عدم وجود قطط؟ بالطبع، من وقائع هذا العالم عدم وجود قطط. هذه طريقة أخرى وحسب كى نقول إن العالم المصغر يتوفر فيه شرط عدم وجود قطط.

لهذا السبب، و بسبب الصلة المحددة التى تربط بين الواقعة والعبارة الصادقة، لا يمكن أن يوجد تضارب بين معيار الصدق المبنى على التطابق ، و معيار حذف علامات التنصيص. فبفضل "الواقعة" وحسب تتحدد العبارات الصادقة، و حذف علامات التنصيص هو الصيغة التى تجعل العبارة الصادقة ببساطة صادقة، وذلك عن طريق تكرارها. فلو كانت العبارة صادقة ، فإن تكرارها يكافئ إعلان الواقعة و التصريح بها أو تقريرها. ويخبرنا معيار حذف علامات التنصيص بأن عبارة " القطة على العتبة" هى عبارة صادقة فحسب إن كانت القطة على العتبة. و يخبرنا معيار التطابق بأن عبارة "القطة على العتبة" عبارة صادقة وحسب إذا كانت تطابق الواقعة.لكن أية واقعة ؟ إن الواقعة الوحيدة التى من الممكن أن تطابق العبارة الصادقة إن كانت صادقة هى واقعة وجود القطة على العتبة. بيد أن هذه بالتحديد هى النتيجة التى أفضى إليها معيار حذف علامات التنصيص، لأن تلك هى الواقعة التى أقر بها و أعلنها الجزء الأيسر من الجملة ت: أى إن" القطة على العتبة" عبارة صادقة وحسب إن كانت القطة على العتبة. و لأجل هذا يكون كل ما علينا أن نفعله إذا أردنا أن نعرف إن كان صحيحا أن القطة على العتبة، أن نثبت أن القطة على العتبة.، فليس علينا بالإضافة إلى ذلك أن نثبت أن عبارة القطة على العتبة تطابق واقعة وجود القطة على العتبة، لأننا قد أثبتنا بالفعل هذا التطابق عندما أثبتنا أن القطة على العتبة.

بعد أن نضع فى الاعتبار تلك التصورات عن مفهوم "الصدق" و"الواقعة "، نلتفت إلى مفهوم "التطابق " . فبأى معنى تطابق العبارات الصادقة الوقائع ؟ حتى لو سلمنا بأن الوقائع - على الرغم من أنه علينا أن نحدد نوع المعنى الذى تخبر به - فإنها تظل

تكوينات غير لغوية. و مع ذلك : فهل لنظرية "التطابق" من معنى ؟ و كيف نرد على اعتراضات ستراوسن بهذا الصدد ؟

نحن بحاجة إلى كلمة عامة تقيِّم مدى النجاح أو الإخفاق فى جعل أشكال التعبير- التى تمثل الوجود و تعبر عنه وتتجه إلى أن تلائم عالم الواقع - ملائمة، وتلك الكلمات التى تتميز بالأهمية من بين سواها من الكلمات، هى صادقة و غير صادقة (أو كاذبة). نحن كذلك بحاجة إلى أن نصطلح عامة على اسم نطلقه على كل هذه الأشياء التى تقع على الطرف الأيسر من الجملة ت خاصة، عندما تكون الجملة التى تقع على الطرف الأيمن خاصة جملة صادقة، وهذه الكلمة هى كلمة "واقعة". غير أننا من الوجهة النحوية بحاجة إلى فعل يصف العلاقات التى تربط بين العبارات و الوقائع عندما تكون العبارات صادقة.

تكون العبارات صادقة و حسب إذا {} الوقائع.

نحن بحاجة إلى كلمة تملأ هذا " الفراغ ". و يجب أن تكون فارغة و مبهمة بالقدر الكافى الذى يسمح لكل السبل المختلفة التى يمكن للعبارات بها أن {} الواقع ، [أى] السبل التى تجعل العبارة صادقة. يوجد فى اللغة الإنجليزية عدد من هذه الأفعال، منها على سبيل المثال أربعة هى: "يوافق" fit ، و"يناظر" "match"، و "يصف" describe ، و"يماثل" correspond ، يشبه حاجتنا إلى مصطلح عام نطلقه على كل سمات عالم الواقع المختلفة التى تجعل من العبارات عبارات صادقة بالتحديد حاجتنا إلى مصطلح عام نطلقه على السبل التى تمثل بها العبارات بدقة ما عليه الأشياء فى عالم الواقع وتعبر عنها. وعبارة "تطابق الوقائع " هى بالتحديد ما يجسد هذه الملامح بعامة. عبارة "يوافق الوقائع" تجمل تماما السبل المتنوعة التى يمكن للعبارات بها أن تصور بدقة ما عليه الأشياء، وهذا التنوع يناظر تنوع العبارات،أو يناظر بالتحديد تنوع أفعال الكلام المؤكدة. علاوة على ذلك ، نحن بحاجة إلى أن نأخذ بعين الاعتبار أن العبارات من الممكن أن تكون صادقة على وجه التقريب؛ فالعبارة التى تقول إن الأرض تبعد عن الشمس بمقدار ثلاثة وتسعين مليون ميل وحسب مثلا، تكاد أن تكون صادقة تقريبا؛ فى هذه الحالة نجد العبارة تتفق تقريبا مع الوقائع أو تطابقها.

نستنتج مما سبق أن نظريتى "التطابق" و "حذف علامات التنصيص" على صواب، ولا تعارض بينهما؛ فنظرية التطابق ببساطة شديدة لا يجانبها الصواب ، لكنها تضللنا،

لأننا نعتقد أن الوقائع لابد أن تتألف من أنواع معقدة من الموضوعات المادية، ولابد أن نطلق كلمة "التطابق" على علاقة من علاقات المشابهة باللغة العمومية ، أو على الأقل نطلقها على المشاكلة بين العبارات والتكوينات المركبة، أى على الوقائع.

أعتقد أن ستراوسن لم يجانبه الصواب حين رأى أن نظرية التطابق ترسم صورة خاطئة، و على الرغم من ذلك فهذه الصورة الخاطئة ليست من النتائج المنطقية المترتبة على نظرية التطابق إذا فهمناها الفهم السليم، لأن هذه الصورة بالأحرى - هى - نموذج كلاسيكى للطريقة التى يخدعنا بها ظاهر التركيب النحوى للكلمات و الجمل، عندما نخفق فى إدراك الاستخدام الفعلى للتعبيرات التى تستعين بها. هذا من النماذج الكلاسيكية لوقوعنا فى الخلط الناتج عن عدم فهمنا كيف تُستخدَم الكلمات، مما يستدعى اللجوء إلى أسلوب معالجات فتجنشتين الفلسفية. نحن نعتقد أنه مادامت كلمة "واقعة " اسما ، ومِا دامت الأسماء تطلق على الموضوعات، فلابد أن تكون الوقائع أنواعا معقدة من الموضوعات، نحن نعتقد أن التطابق لابد أن ينطوى على نوع ما من المشاكلة، لذلك تعترينا الحَيرة بالنسبة للوقائع السالبة (التى تتعلق بالنفى)، والوقائع الافتراضية...إلخ. لكن بمجرد أن نفهم منطق الكلمات المستخدمة ندرك أن الوقائع ليست من الموضوعات المعقدة ، وأنه لا ضرورة للمشاكلة بين التركيب الإعرابى الخاص بالعبارات الصادقة من جانب، وبنية الوقائع من جانب آخر. وعلاوة على ذلك، لا نجد مشكلة بالنسبة للوقائع السالبة والوقائع الافتراضية...إلخ. فالعبارة الصادقة "القطة ليست على الحصيرة "تطابق الواقعة حيث لا توجد القطة على الحصيرة. فماذا يمكن أن نضيف؟. إن ما يسرى على العبارات السالبة يسرى على سواها. فلو صدقت العبارة (أنه لو كانت القطة على الحصيرة لكان على الكلب أن يكون فى المطبخ) لذا فلابد أن تكون حتمية وجود الكلب فى المطبخ لو كانت القطة على الحصيرة كذلك واقعة، ذلك لأن كل عبارة صادقة لها واقعة تطابقها، لأنه على هذا النحو تتحدد الكلمات (كيف نستخدمها وكيف نفهمها).

قد يتعذر علينا - على مدار هذا النقاش - ألا يغيب عن بالنا أننا نتناول مجموعة صغيرة من التكرارات و ما يترتب عليها من نتائج ، إذ نكرر أن نظرية حذف علامات التنصيص ونظرية التطابق ببساطة على صواب، و أى خلاف قد يظهر إنما مصدره إصرارنا على إساءة فهم هاتين النظريتين. كما أن نظرية التطابق قد تفضى إلى رسم

صورة خاطئة، مصدرها أننا لا نفهم الاستخدام الفعلى لهذه الكلمات فهما ملائما، و من ثم يفضى حذف علامات التنصيص إلى رسم صورة خاطئة بدافع من السبب نفسه أى عجزنا عن أن نفهم استخدام الكلمات الفعلى فهما كافيا.

تلك الصورة الخاطئة توحى بأنه لا توجد خاصية يتسم بها الصدق على الإطلاق: فعبارة "الثلج أبيض" تكون صادقة و حسب لو أن الثلج كان أبيض. و عبارة "العشب أخضر" تكون صادقة وحسب لو أن العشب أخضر، و يسرى هذا على كل جملة إشارية indicative sentence. بناء على هذا لا توجد خاصية مشتركة يتسم بها الصدق ؛ فلا شىء مشترك بين هذه النماذج، و ليس ثمة ما يجمع بين عبارة "الثلج أبيض" و عبارة "العشب أخضر" وبفضله تكون العبارتان صادقتين.

نود أن نلفت الانتباه إلى نوع هذه النتيجة المضادة للبداهة و الحدس(التى نشهدها) على نطاق واسع - أى نتيجة هى ! لن يخطر ببال معظم الفلاسفة أن يقولوا عن أنواع أخرى من الأسماء التى تعارف عليها الناس، مما يصف أشكال الكلمات - كالكلمات الخاصة بالأعداد " اثنين" مثلا، و كلمات التقييم ككلمة " طيب" مثلا- سوى أن استخداماتها قد فرض عليه نوع بعينه من القيود الإعرابية. غير أن الكثير من الفلاسفة قد ارتضوا الركون إلى مفاهيم للصدق بعضها أميل للاختزال والآخر أميل للإطناب، زاعمين أنه لا يوجد ما تشترك فيه كل العبارات الصادقة -أيا كانت - عدا أنها يتوفر لها معيار حذف "علامات التنصيص". أما فكرة الصدق فلا معنى لها سوى أنه من الضرورى أن يتوفر معيار حذف علامات التنصيص فى كل ما يتسم بأنه"صادق". و هذا يعنى أنه لكى تكون العبارة صادقة لابد أن تنطبق عليها الصيغة الرمزية "ث تكون صادقة و حسب لو ب" ؛ حيث نختار بدلا من ث جملة بعينها تحل محلها، و نحل محل ب الجملة ذاتها أو نترجمها إلى ما يعبر عنها.

لماذا قد يركن المرء إلى مثل هذه النظرة المضادة للحدس؟ لقد نشأ وهم الإطناب تماما من أن ما على الطرف الأيمن- فى معيار حذف علامات التنصيص - يبدو مماثلا لما على الطرف الأيسر، إلا فيما يخص علامات التنصيص و كلمة " صادق". لذلك يبدو أن القول بأن عبارة "الثلج أبيض" عبارة "صادقة" إنما هو تطويل ممل لقول إن "الثلج أبيض". فإحداهما مجرد تركيب إعرابى،يختلف شكله عن العبارة الأخرى، دون أى تغيير فى المضمون الدلالى. غير أن هذه النتيجة لا تترتب على ما سبقها بالضرورة

، نحن بحاجة إلى كلمات تصف النجاح أو الإخفاق فى إدراك ما يلائم العبارات، تماما كاحتياجنا إلى كلمات تصف النجاح أو الإخفاق فى إدراك ما يلائم أفعال الأمر. هذه الكلمات بالنسبة للعبارات إما "صادقة" وإما "كاذبة"، أما بالنسبة للأمر فهى إما "منصاعة"أو "غير منصاعة". و لابد للعبارة من أن تعين شروط صدقها، تماما مثلما يعين الأمر شروط الإذعان له. غير أنه لكى نعين شروط صدق العبارة، نحن بحاجة إلى أن نكرر العبارة و حسب، بينما لا يتحتم علينا كى نعين شروط الإذعان للأمر أن نكرر الأمر مرة ثانية. مصدر عدم التطابق هذا هو أن ما يوفر شروط الصدق للعبارة هو عبارة، أما ما يوفر شروط الإذعان للأمر فليس أمرا، بل عبارة كذلك. لذلك فقد تولد وهم الإطناب نتيجة اختلاف الشروط التى يتعين بها صدق العبارات عن الشروط التى يتعين ان تتوفر للأنواع الأخرى من أفعال الكلام. سأفصل القول فى هذه الفكرة فى القسم التالى.

كيف نصمم لغة؟

من الممكن أن نطرح هذه الأفكار نفسها بطريقة أخرى، نضعها فيها موضع الفحص، افرض أنك تضع تصميما للغة ما من أجل أناس ليس لديهم لغة بالفعل، فماذا ستضع داخل هذه اللغة؟ أعنى ماذا بعد أن يكون لديك التركيب الإعرابى الذى تنبنى على أساسه الجمل، و التعبيرات الخاصة بالنسب الكمية و بالروابط المنطقية (العطف مثلا، و أدوات الربط النوعية، كالشرط مثلا)، و المفردات من مثل" كلب" و " قطة" و " أحمر" و "أزرق "....إلخ ؟ ما هى الخصائص البنيوية العامة التى ستضيفها من بعد ذلك ؟ ستحتاج كخطوات أولى إلى أن تضيف سبلا لصياغة الأسس التى تتنوع بفضلها أفعال الكلام : كالجمل، و أساليب الاستفهام، والأمر، والوعود. و لكى تقوم بهذا ستكون بحاجة إلى سبل تحدد الفرق الذى يميز المضمون و كل ما يتعلق به من معنى (أو تصور أو موقف أو فكرة) prepositional content من أثر أفعال الكلام speech acts على المتلقى، وسلطتها التى تسوقه illocutionary force إلى الاستجابة لما لها من نفوذ، أى إننا بحاجة لأن نكون قادرين على التمييز بين عبارة "غادرِ الغرفة " بوصفها أمرًا، وعبارة "هل ستغادر الغرفة ؟" بوصفها استفهاما، و عبارة "ستغادر الغرفة" بوصفها إخبارا prediction . هذه أفعال ثلاثة مختلفة من أفعال الكلام لها مرامٍ ذات تأثير

ونفوذ فعال بطرق مختلفة، غير أنها تشترك كلها فيما للمضمون من معنى، أعنى مغادرتك الغرفة.

لأن المرامى المختلفة التى ترمى إليها أفعال الكلام - التى تتمتع بسلطة و نفوذ فعال - تربط ما لمضمون الألفاظ من معنى بعالم الواقع بطرق مختلفة، و بأوجه شتى من الملاءمة والاتفاق، نحن بحاجة لكلمة تحدد مدى النجاح أو الإخفاق فى إدراك مدى الملاءمة والاتفاق بين المضمون وعالم الواقع. أى بحاجة لكلمة تحدد إن كان قد تحقق الإذعان لأفعال الأمر أم لم يتحقق .فالإذعان لأفعال الأمر مثلا يتحقق عندما يذعن من يتوجه إليه الفعل لما تأمر به تلك الأفعال، لأنها تأمر بفعله. فى أفعال الأمر تميل الكلمات نحو ملاءمة عالم الواقع وموافقته، لأن فكرة أفعال الأمر فى جزء منها تنطوى على محاولة جعل عالم الواقع يتغير ليوافق الكلمات. كذلك بالمثل نجد أن "الوعود " يتم الوفاء بها ولا تضيع عندما يقوم من وعد بفعل ما وعد به، لأنه قد وعد به. فى الوعود كذلك يوافق عالم الواقع الكلمات، لأن فكرة الوعد فى جزء منها تنطوى على محاولة جعل العالم يتغير ليوافق الكلمات.

شأن العبارات شأن أفعال الأمر و الوعود ، من حيث نجاحها أو إخفاقها فى تحقيق التطابق بين ما لمضمون الألفاظ من معنى و الواقع. غير أن العبارات لها منحاها الخاص فى تحقيق هذا الاتفاق و الملاءمة، لأن غاية العبارة أن تجعل ما للمضمون من معنى يوافق واقعا مستقلا، و ليس من هدفها أن تغير الواقع كى يوافق ما للمضمون من معنى. ونحن نصف العبارات بأنها صادقة أو غير صادقة، بقدر ما تنجح أو تخفق فى تحقيق هذا التطابق، و أى لغة قد نضع لها تصميما ستكون بحاجة إلى كلمات تحدد هذه الأنماط من النجاح والإخفاق. أى ستكون بحاجة إلى كلمات تعبر عن الصدق والكذب.

يتحدد معيار نجاح فعل الكلام فى تحقيق التطابق بطرق مختلفة؛إذ يتحقق من ناحية بالنسبة للعبارات التى تطابق فيها الكلمات عالم الواقع أكثر مما يتحقق - من ناحية أخرى - بالنسبة للوعود وأفعال الأمر التى يوافق فيها الواقع الكلمات. فالشروط التى تتوفر لعبارة أنك ستغادر الغرفة هى أنك ستغادر الغرفة. أى أن العبارة التى يتوفر بها شروط الصدق هى مجرد تكرار للعبارة ذاتها، أى (بعبارة أخرى) توفر معيار الصدق عن طريق حذف علامات التنصيص. لأننا - كى نحدد توفر شروط الصدق فى أية

عبارة، أو مدى نجاحها أو إخفاقها فى تحقيق التطابق لسنا بحاجة إلا إلى تكرار العبارة ذاتها. لكن العبارة التى تتضمن شروط الإذعان لفعل الأمر" غادر الغرفة " لا تتحقق بحذف علامات التنصيص من الجملة، أى غادر الغرفة، لأن الشروط التى يجب أن تتوفر لجملة الأمر لها وجهة أخرى فى التطابق ؛ إذ تستمد من التطابق مع الفعل نفسه. و لكى تحدد شروط الإذعان لأمر ما عليك أن تصوغ العبارة على النحو التالى

إن الأمر (ر) " غادر الغرفة" الذى يأمر به المتحدث ث
المستمع أو المتلقى (م) فى اللحظة [الزمن] (ز) يتم
الإذعان له و حسب لو أن (م) غادر الغرفة فى اللحظة (ز)
بسبب الأمر (ر).

ومن ثم يبدو أن الحكم " بالصدق " يتحقق بنحو ما عن طريق التكرار، إلا فيما يخص "الانصياع أو الإذعان للأمر" و" الوفاء بالوعد". غير أن فى هذا الأمر مغالطة فـ " صادق " و"كاذب" (صحيح أو غير صحيح) هما الكلمتان اللتان اصطلحنا عليهما لتكونا قاطعتين فى تقدير النجاح فى تحقيق التطابق على النحو الذى يوافق العبارات، تماما كما تقدر كلمتا " أذعن للأمر" و " لم يذعن للأمر" مدى النجاح فى تحقيق التطابق على النحو الملائم لأفعال الأمر.

بالإضافة إلى ما سبق سنكون بحاجة إلى أن نصطلح على إطلاق كلمات تعين ما يقع على الجانب المقابل لهذا الطرف (اللغوى) من التطابق، أى ما يقع على الجانب الخاص بعالم الواقع. و الأمر يسير بالنسبة لأفعال الأمر و الوعود.لأننا بحاجة إلى كلمات نطلقها على القيام بالأفعال المتنوعة التى يتألف منها الإذعان للأوامر، والوفاء بالوعود...إلخ ؛ فالقيام بالأفعال ليس بحاجة إلى وجود أفعال الأمر أو الوعود، أما أفعال الأمر أو الوعود فبحاجة للقيام بأفعال، (كى) يتم الإذعان لأفعال الأمر أويتم الوفاء بالوعود. على خلاف العبارات ؛ فعلى الطرف الآخر من العبارات لن يكفى ذكر كلمة تشير إلى القيام بالفعل، بل إن الكلمات التى تشير إلى "الموضوعات" و"الأحداث" لن تكون كافية. حرى بنا أن نسأل عن السبب ! ذلك لأن معيار حذف علامات التنصيص للتعبير عن مدى النجاح فى تحقيق التطابق يقتضى أن تتحدد الشروط الواقعة على الجانب الخاص بعالم الواقع- بناء على صيغة تطابق فيها الكلمات عالم الواقع – عن طريق استخدام تركيب إعرابى ملائم للتعبير عن كل المعانى المطروحة (على الجانب الأيمن الخاص بالكلمات). باختصار، نحن بحاجة إلى كلمة نطلقها على

"الواقعة"، و كذلك نحن بحاجة إلى كلمة تعبر عن علاقة ترابط غير لغوى يجمع بين العبارة و بين ما تكون بفضله و بسبب منه عبارة صادقة، و لابد أن تقع هذه الكلمة داخل تراكيب إعرابية مكتملة تلائم تطابق العبارات ؛ كأن تكون مثلا على شاكلة "واقعة أنَّ...، لأن ما يعقب "أنَّ " هو مجرد تعبير عما للمضمون من معنى فى العبارة .فالوقائع ليست بحاجة إلى العبارات كى توجد، بينما تحتاج العبارات إلى الوقائع كى تكون صادقة.

هكذا تجد بين يديك – فى اللغة التى اصطنعتها – كلمات تدل على الوصف "صادق" و"عبارات" و "واقعة". و سيروقك أن يكتمل الأمر فتجد "فعلا" عاما يعيننا على أن نصف العلاقات القائمة بينها، فعلا محايدا يوافق كل أنماط العبارات و السبل المتنوعة التى تربطها بالوقائع. و الفعل الذى من الممكن أن يفيد هذا بعمومية و اشتمال فى الإنجليزية هو "يماثل" correspond، من المفيد أن يكون لدينا كلمة تكافئ هذا الفعل (فى هذه اللغة المصطنعة)، ساعتها سيكون بإمكاننا أن نحدد بوضوح العلاقات التى تربط بين هذه الأفكار بأن نقول (ما يكافئ فى هذه اللغة أنَّ):

العبارات تكون صادقة وحسب لو كانت تطابق الوقائع.

أعتقد أن اختبار الفكرة – على الرغم من أنه يستبعد الكثير من التعقيدات – يصور الوضع الفعلى الذى نكون فيه حين نستخدم كلمات "صادق" و "عبارة" و "واقعة".

الملخص والنتائج

الآن نلملم خيوط هذا النقاش المتعددة، و نلخص ما سبق، على نحو يشرح بعض السمات المنهجية الخاصة بالفصول الماضية.

١ ـ "صادق" هى الصفة التى تقدر قيمة العبارات (و كذلك المعتقدات، التى شأنها شأن العبارات من حيث تطابق العقل مع الواقع، أو تطابق الكلمات مع عالم الواقع). يتأكد صدق العبارات عندما تكون جديرة بالثقة، أى عندما تكون الكيفية التى تصور بها الأشياء أو تمثل بها وجودها هى الكيفية التى توجد عليها الأشياء بالفعل.

٢ ـ حذف علامات التنصيص يمنحنا معيار الثقة المبنى على إمكان الاعتماد على (الواقعة) reliability مما يجعل وصف العبارة "صادقة" يبدو كما لو كان تكرارا، بيد أن الأمر على خلاف ذلك، فنحن بحاجة إلى حكم ميتالغوى (ينظر فى أمر اللغة)

ويخبرنا بقدر النجاح فى تحقيق التطابق بين الكلمات و عالم الواقع، وقد اصطلحنا على أن نطلق على هذا الإخبار "صادق".

٣ ـ إسناد الحكم "صادق" إلى العبارات ليس أمرا جزافيا، فالعبارات عامة تكون "صادقة" بفضل توفر شروط فى عالم الواقع ليست جزءا مما تتكون منه العبارة. ما يجعل العبارات صادقة هو ما عليه الأشياء فى عالم الواقع (من حال أو هيئة أو وضع) بمعزل عن العبارة. نحن بحاجة إلى أن نصطلح على أسماء عامة نطلقها على ما نقصده من (ما عليه الأشياء فى عالم الواقع)، و كلمة "واقعة" هى إحدى هذه الكلمات، و من هذه الأسماء كذلك "الوضع" " situation و " الأمور" state of affairs

٤ ـ لأن العبارات تحدد شروط صدقها، و لأن مصطلح "واقعة" يحيل على ما بفضله تصير العبارات صادقة، فإن الطريقة المقبولة التى تتحدد بها الواقعة هى الطريقة نفسها التى تتحدد بها العبارة، أى بإقامتها و تقريرها. هذا التحديد يحتاج منا إلى جملة تفيد معنى تاما ؛ على هذا النحو نجد أن العبارات و الوقائع كلتيهما تتحدد بناء على مضمونه، [مثل] "واقعة أن" و"العبارة التى"، غير أن الوقائع من هذه الناحية ليست ذات طبيعة لغوية.

٥ ـ إن ما يميز أى واقعة مطابقة، إنما يعتمد على سمات بعينها من سمات الوقائع تحددها العبارة المطابقة التى بفضل من هذه السمات يُسنَد إليها الحكم بالصدق، لكنه من الخطأ أن نتصور أن ب [بوصفها واقعة] لابد أن تحتفظ بالتطابق مع الدلالة المنطقية الخاصة بالجمل البديلة المكافئة التى تضارع [العبارة] داخل سياق [الصيغة الرمزية للمعادلة المذكورة]. للمزيد من تفصيل هذه الفكرة انظر ملحق هذا الفصل.

٦ ـ ماذا عن استبدال تعبيرات بتعبيرات أخرى بديلة coreferring ؟ تتعدد فيها الإشارات لكن مدلولاتها لا تتكافأ، [أى لا تفضى إلى أن الإشارة إلى الواقعة نفسها، من هنا نفتقد الفكرة، و تختل قيمة صدقها] .. فى بعض الحالات يمكن أن يحتفظ هذا الاستبدال بالتطابق مع الواقعة. فلأن توللى Tully مطابق لشيشرو Cicero (ماركوس توللیوس شیشرو)؛ فمن البدهى أن كون توللى خطيبا هو الواقعة التى يتطابق فيها مع شيشرون (الذى كان بدوره خطيبا بارزا) لماذا ؟ ذلك لأن الأشياء نفسها فى عالم الواقع هى ما يجعل بالتحديد من كل عبارة عبارة صادقة، و"الواقعة" هى ما يجعل من عبارة ما عبارة صادقة.

غير أن إحلال أوصاف بديلة بعينها [رغم تعدد الإشارات] محل سواها على العموم لا يفضى إلى أن يدل على الواقعة نفسها. فمن البدهى أن الواقعة الخاصة بأن توللى كان خطيبا، تختلف عن الواقعة الخاصة بأن الرجل الذى فضح أمر كاتيلين Catiline (سرجيوس كاتيلين) كان خطيبا، على الرغم من أن توللى هو الرجل الذى فضح أمر كاتيلين. لماذا ؟ لأن الواقعة الأخيرة تقتضى أن يكون هناك من فضح أمر كاتيلين (و قضى عليه أو استأصل شأفته) ووجود الواقعة الأسبق لا يقتضى بالضرورة هذا.

٧- الوقائع ليست متشابهة تشابه العبارات الصادقة، لدينا عدة سبل لنبرهن على ذلك، سنتوقف عند اثنتين منها: **الأولى** أنه قد يكون من المعقول أن نتكلم عن وقائع السبب فى وجودها أن تقوم بوظيفة ما، غير أ نه لا معنى لأن نتكلم عن عبارات صادقة وجدت لتقوم بوظيفة ما. **والثانية** أن العلاقة التى تربط واقعة ما بمجموعة من العبارات هى واحدة من علاقات كثيرة، ما دام من الممكن أن نقرر الواقعة ذاتها عن طريق عبارات مختلفة، فالواقعة نفسها قد قررتها عبارتان من مثل "شيشرون كان خطيبا" وتوللى كان خطيبا".

٨- حيثما يكون بالإمكان أن نحذف علامات التنصيص يكون أمامنا أكثر من طريقة بديلة نصف بها الوقائع ونميزها، لذلك نجد أن العبارة الصادقة "سالى أخت سام" تتطابق مع أن سالى أخت سام فى الواقع، غير أنه بالإمكان أن نضيف أشياء أخرى من مثل أن سالى أنثى، و أن سالى و سام أخوان من نفس الأب ونفس الأم. يدور الكثير من الخلاف الفلسفى حول بنية الوقائع، و هذه القضايا بعامة لا تقتصر على مسألة حذف علامات التنصيص؛ إذ نجد مثلا أن الخلاف الفلسفى حول مسألة الألوان - و نوعيات ثانوية أخرى - يدور حول طبيعة الوقائع التى تطابق هذه المزاعم، من مثل أن هذا الشىء أحمر، وتحليل مثل هذه الوقائع بحاجة إلى أكثر من مجرد حذف علامات التنصيص.

٩- توجد فى الفلسفة طريقة واحدة منهجية (واحدة و حسب)، تصلح لتحليل بنية الوقائع التى تجعل من عباراتنا عبارات صادقة، وقد حاولت فى الفصول السابقة القيام بهذا بالنسبة لأبنية الوقائع الاجتماعية و الوقائع المؤسسية.

ملحق الفصل التاسع

برهان ضربة المقلاع القاضية

هناك برهان آخر ضد الحكم بالصدق الذى يرتبط بنظرية التطابق، لو كان ذا جدوى لكانت الطامة بالنسبة لهذه النظرية. لهذا البرهان إيحاء تقنى، ينسب أصلا إلى فريجه Frege واستخدمه كوين Quine ضد modal logic المنطق الإسنادى الحملى [حيث يثبت المسند خاصية ما للمسند إليه] ثم استخدمه من جديد دونالد ديفيدسون Donald Davidson ضد نظرية التطابق، وقد أطلق عليه "برهان ضربة المقلاع القاضية" (ربما لأن داود – البرهان – الضئيل من الممكن أن يستخدم المقلاع لقتل العملاق جالوت - Goliath [إثبات المسند خاصية ما للمسند إليه فى] المنطق الحملى الإسنادى و نظرية التطابق). من المعتاد أن يقذف هذا البرهان فى لمحة عين[١٤]، لكن إذا أردنا الكشف عن مواطن ضعفه فعلينا أن نتروى حين نناقشه و نتأنى.

إن الهدف من هذا البرهان أن يثبت أنه لو طابقت عبارة صادقة واقعة ما، فإنها تطابق أى واقعة و كل واقعة، ومن ثم تكون نظرية التطابق خاوية تماما، ولا معنى لها على الإطلاق. ولو تطابقت العبارات لطابقت كل العبارات الصادقة الشىء نفسه. يمكن أن نعرض الدليل فى الخطوات التالية (لقد وضعت تعليقاتى على الخطوات بين أقواس).

الخطوة الأولى : مسلمة Assumption تطابق عبارة الثلج أبيض واقعة أن الثلج أبيض.

هذه العبارة نستعيض بها شاهداً على نظرية التطابق، والغرض من هذا البرهان أن يدحض النظرية عن طريق تفنيد العبارة.

الخطوة الثانية : مسلمة، فى السياقات المطابقة للخطوة الأولى، تقع الجمل والاصطلاحات المفردة على إحدى الصيغتين: (أ) تظل العبارة بأكملها صادقة إذا ما

استبدلنا بما تشير إليه الأسماء المفردة فيها بدائل أخرى تضارعها. و (ب) تظل العبارة بأكملها صادقة إذا استبدلنا بها جملا تكافئ بنيتها المنطقية.

(لم يقدم أحد أى برهان على هذا على الإطلاق، بل إن البرهنة على ذلك لتبدو أمرا مستبعدا. سوف نتحدث عن هذا الأمر بالتفصيل فيما بعد).

الخطوة الثالثة : مسلمة الجملة (أ) "الثلج أبيض" تكافئ من الناحية المنطقية الجملة: (ب) جملة س التى تتفرد مثلا بأن (س تطابق دايوجينز) تتطابق مع س التى تتفرد مثلا بأن (س تتطابق مع دايوجينز والثلج أبيض)"

(" المكافئ المنطقى "logical equivalence" هو اصطلاح تقنى. يعنى أن تتكافأ عبارتان منطقيا فحسب لو توفر لكل نموذج منهما نفس القدر من قيمة الصدق. بناء على هذا التعريف يوجد علم semantics للدلالات الخاصة بإثبات المواصفات التى تجعل (أ) و(ب) متكافئتين من الناحية المنطقية).

الخطوة الرابعة : مسلمة تكافئ جملة " العشب أخضر" من الناحية المنطقية جملة "س التى تتفرد مثلا بأنها (تطابق ديوجينز) تتطابق مع س التى تتفرد مثلا بأنها (تتطابق مع ديوجينز و العشب أخضر)".

(شأن هذه المسلمة شأن المسلمة الثالثة تماما، إذ يمكن أن يكون لها نفس القيمة).

الخطوة الخامسة : مسلمة يحيل التعبير "س التى تتفرد مثلا بأنها تتطابق مع ديوجينز والثلج أبيض)" على الشىء نفسه الذى يحيل عليه التعبير"س التى تتفرد مثلا بأنها (س تتطابق مع ديوجينز و العشب أخضر)".

و الآن بعد أن اتخذنا هذه الافتراضات مسلمات ننطلق منها، بمقدورنا أن نستنتج من الخطوة الأولى أن:

الخطوة السادسة: عبارة الثلج أبيض التى تطابق الواقعة الخاصة بأن س التى تتفرد مثلا بأن (س تتطابق مع ديوجينز) تتطابق مع س التى تتفرد مثلا، بأن (س تتطابق مع ديوجينز والثلج أبيض).

(استنتجنا هذا انطلاقا من المبدأ الذى أرسينا دعائمه فى الخطوة الثانية (ب) التى تسمح بإمكان أن نستبدل بجمل جملا مكافئة من الناحية المنطقية،و فى الخطوة الثالثة التى سلمنا فيها بأن الجملتين متكافئتان من الناحية المنطقية).

ونستخلص من الخطوة السادسة انطلاقا من مبدأ إحلال تعبيرات بديلة محل تعبيرات أخرى تشير إلى أشياء مشتركة، كتلك التعبيرات التى ذكرناها فى الخطوة الثانية (أ)، ودلت عليها العبارات التى تتعدد فيها الإشارة إلى مدلول مشترك كما فى الخطوة الخامسة أن:

الخطوة السابعة: عبارة الثلج أبيض التى تطابق الواقعة الخاصة بأن س التى تتفرد مثلا بأنها (تتطابق مع ديوجينز) تتطابق مع س التى تتفرد مثلا بأنها (تتطابق مع ديوجينز و العشب أخضر).

غير أننا نعود الآن فحسب إلى الوراء، فنستعين بإحلال المكافئ المنطقى الذى ذكرناه فى الخطوة الرابعة، و بمجرد أن نستعين من جديد بالمبدأ الذى طرحناه فى الخطوة الثانية، نخلص من هذا إلى أن:

الخطوة الثامنة: تتطابق عبارة الثلج أبيض مع الواقعة الخاصة بأن العشب أخضر.

لكن هذه النتيجة تفضى بنا إلى أنه بالنسبة لأى عبارتين صادقتين تطابق العبارة الأولى الواقعة التى تقررها العبارة الثانية. وأى عبارتين صادقتين يمكن أن تشتبكا بعبارة " الثلج أبيض" و "العشب أخضر" فتفضيان إلى أن أى عبارة صادقة تطابق أية واقعة، بل تطابق كل الوقائع. و بناء على هذا نكتشف أن نظرية التطابق لا أساس لها، و من ثم يتم دحضها.

ماذا سيكون موقفنا إزاء هذا البرهان؟ أظن أنه من المستبعد، و غاية ما يمكن أن تكشف عنه هذه البراهين هو خطأ ما تنطلق منه من فرضيات تعتقد أنها لازمة بالضرورة (١٥). فى هذه الحال يبدو لى أن غاية ما يكشف عنه هذا النقاش هو خطأ المسلمة الثانية (ب) التى ترى أن من الممكن أن نحل جملا محل جمل أخرى تكافئها من الناحية المنطقية، فى سياقات من مثل الخطوة الأولى. بغض النظر تماما عن هذا المثل، يترتب على الخطوة الثانية (ب) عواقب يمكن أن نعاينها [مضادة للحدس]. من مثل أنه، بناءً على الخطوة الثانية (ب)، يترتب على أن عبارة "الثلج أبيض" تطابق الواقعة الخاصة (بأن الثلج أبيض) أن تلك العبارة، عبارة (الثلج أبيض) تطابق الواقعة الخاصة بأن الثلج أبيض وبأن(٢+٢=٤)! بالنسبة لبرهان الضربة القاضية نجد أن أولى الخطوات المستنتجة - وهى الخطوة السادسة - استنتاج خاطئ، مادامت عبارة الثلج أبيض لا تطابق أية واقعة عن ديوجينز. فحيثما ينصب اهتمامنا على الواقعة

الخاصة بأن الثلج أبيض لا نجد لما يخص ديوجينز و هويته أية علاقة بها على الإطلاق. وببساطة يمكن أن نقول: إنه من العبارة الصادقة التى تطابق فيها عبارة الثلج أبيض الواقعة الخاصة بأن الثلج أبيض.

لا يصلح أن يكون بمقدورنا أن نستنتج : الخطوة السادسة عبارة الثلج أبيض التى تطابق واقعة أن س التى تتفرد مثلا بأنها (س تتطابق مع ديوجينز) تتطابق مع س التى تتفرد مثلا بأنها (س تتطابق مع ديوجينز و الثلج أبيض).

غير أن البعض قد يعترض [قائلا] : أليس هذا فحسب مما يلح على طرح السؤال ؟ و مع ذلك يمكن القول بأن المسألة تدور بالتحديد على ما إذا كان يترتب على نظرية التطابق نتائج منطقية غير مرغوبة؟ لذلك فليس بمقدورنا فحسب أن نرفض النتائج المزعومة رفضا باتا. أما الرد على هذه الاعتراضات فقد تقدم من خلال تناولنا مفهوم الوقائع، والحكم بالصدق، و التطابق فى الفصل التاسع، على الرغم من التعميم البالغ فى تناولها، فهى كلمات متواضعة عادية، واستخدامها المعتاد يجب أن يحظى بالاحترام فى أية معالجة فلسفية تعتمد على هذا الاستخدام. لقد أثبتنا أن فحوى فكرة "الواقعة" التى طرحناها فى هذا النقاش برمتها، من الممكن إجمالها فى أن شيئا ما يجعل من العبارة عبارة صادقة، أو بفضله تكون العبارة عبارة صادقة. لو حالفنا الصواب فى هذا الرأى فإن أية مجموعة من القيود المنطقية - كالمسلمة الثانية (ب) التى تفرض على سياقات جامعة كما فى الخطوة الأولى - عليها أن تحترم هذه السمات الخاصة بمعنى الواقعة، كما تحترم كذلك السمات البسيطة الحدسية لكل من الحكم "صادق " والفعل " يطابق ". بناء على ما لدينا من تصور للمفهوم البسيط العادى، فإن ما يجعل عبارة الثلج أبيض عبارة صادقة - هو - الواقعة الخاصة بأن الثلج أبيض. نعتقد أنه من الواضح أن هوية ديوجينز الذاتية (أو واقعة أن ٢+٢=٤) لا شأن لها بأية حال بما يجعل من عبارة الثلج أبيض عبارة صادقة. باختصار يشترط لكى يكون أى تناول للحكم بالصدق و للمطابقة ملائما، لابد أن نحترم الأفكار البسيطة الحدسية الخاصة "بالواقعة" و "الصدق" و "التطابق". إن ضربة المقلاع القاضية بالتحديد تخفق فى تحقيق ذلك، لأنها تقبل المبدأ الثانى (ب) الذى يسرى فى اتجاه معاكس للأفكار البدهية المألوفة.

لقد صار السؤال ملحا و مطروحا، حتى طرحه أبعد الناس عن طرحه [كالسؤال حتى أنت يا بروتس tu quoque]. إنه يلح و يثير أسئلة ضد نظرية التطابق، مفترضا أنها موضوع يخضع لمبادئ تشبه المبدأ الذى طرحته الخطوة الثانية (ب)، عندما لا يوجد ما يبرهن على أن الخطوة الثانية(ب) ملائمة للاستخدام و قابلة للتطبيق. فلماذا يكون علينا أن نفترض إمكان الاستعاضة بجمل مكافئة من الناحية المنطقية تحتفظ بقيمة الصدق، عندما يترتب على مثل هذه الجمل البديلة على الفور نتائج لا يمكن أن نعاينها؟ يقتضى أى مبدأ ينتهك حدوسنا البسيطة أن نقدم برهانا، يدعمه نقاش مفصل يبرر له، و لا يوجد لدينا فى هذا النموذج ما يبرر تلك النتائج غير الحدسية البسيطة.

هناك طريقة أخرى للتعبير عن هذه الفكرة، هى ببساطة أن نشير إلى أن identity كينونة الوقائع، لا تظل خاضعة لإمكان الاستعاضة عنها بجمل مكافئة من الناحية المنطقية ؛ و صيغة الجملة :

" العبارة [التى تقول] إن أ تتطابق مع [الواقعة] ب"

تتيح الفرصة لوجود بديل- يحتفظ بقيمة الصدق - على الطرف الأيسر من المسند إليه "مماثل ل - " "الواقعة ك"، [ويقع هذا] فحسب فى الحالات التى تتطابق فيها الواقعة ب مع الواقعة ك.

غير أن المثل الخاص بديوجينز لم (يلتزم) بهذا الشرط بداهة، فمن البدهى أن واقعة الثلج أبيض ليست هى نفسها واقعة أن س التى تتفرد مثلا بأن (س تتطابق مع ديوجينز) تتطابق مع س التى تتفرد مثلا بأن س (تتطابق مع ديوجينز و الثلج أبيض). و لو كان لدينا أى شك فى حدسنا البدهى، فإن الطبيعة غير الحدسية الواضحة للخطوة السادسة لابد أن تكون كافية لإزالة هذه الشكوك. فمادامت الخطوة الأولى صحيحة، والخطوة السادسة خاطئة فإنه يترتب على ذلك أن الاستدلال باطل ولا أساس له. فالمقدمات الصادقة وحدها تصلح لأن نستنتج منها نتائج صادقة.

من الجدير بالأهمية أن نشير إلى أن المشكلة ليست فيما يبدو ظاهريا قصورا فى اتساع إطار الصيغة الرمزية "س تطابق ص" فهذا الإطار من المرونة بحيث يقبل تماما أن يتسع ليشمل تعبيرات بديلة تشترك معه فى الإشارة إلى"س" و"ص" بحيث يمكن أن نستعيض بها عنهما. وإنما المشكلة تكمن فى قصور التعبير "الواقعة الخاصة بأنه ب".

فهذا التعبير لا يحتفظ بتمام المشابهة بين ما تشير إليه الجمل المتكافئة من الناحية المنطقية . لكن لماذا يتحتم عليه أن يحتفظ بهذه المشابهة؟ لماذا يجب أن تتطابق الوقائع الخاصة بالثلج، أو تتشابه تماما مع الوقائع الخاصة بديوجينز أو أى شخص آخر؟ فحيثما ينصب اهتمامنا على الواقعة الخاصة بأن الثلج أبيض، لايكون لديوجينز أى شأن بذلك، من البدهى أن يبدو من المحال الاعتقاد بأن هاتين الواقعتين متكافئتان بالفعل.

بناء على ذلك أخلص إلى أن برهان ضربة المقلاع القاضية لا يدحض نظرية التطابق.

هوامش الفصل التاسع [والملحق] (*)

(١) على أن أقول "بعامة" لأن بعض الجمل الإخبارية لا تستمد دلالتها من خارجها، بل من مثل عبارة "هذه الجملة باللغة الإنجليزية" مثلا.

(٢) إنها تتصل بـ وليست صنوا لـ Tarski´s Convention انظر:

Alfred Tarski, "Der Wahrheitsbegriff in den formalisierten Sprachen", Studia Philosophica (1935) 261 – 405; translated as "The Concept of Truth in Formalized Languages" in Alfred Tarski, Logic, Semantics, Metamathematics (Oxford: Clarendon Press, 1956).

(٣) J. L. Austin, "Truth", and P. F. Strawson, "Truth", Proceedings of the Aristotelian Society 34 (1950). Reprinted in Pitcher, ed., Truth (Englewood Cliffs: N. J.: Prentice Hall, 1964).

(٤) Strawson, in Pitcher, Truth, p. 32.

(٥) Ibid., p 40,.

(٦) Ludwig Wittgenstein, Tractatus Logico-Philosophicus (London: Routledge and Kegan Paul, 1922).

(*) أظن أنه قد حدث خطأ فى إيراد هذه الهوامش فى الفصل الثامن فى الطبعة الأصلية للكتاب بلغته الإنجليزية، وهى هوامش تخص الإحالات فى الفصل التاسع، كما يتضح من قراءتها وإدراك دلالتها. (المترجمة)

(٧) Strawson, in Pitcher, Truth, p. 38.

(٨) op. cit., p. 41.

(٩) ماذا تعنى الواقعة؟ الواقعة اعتقاد فى أن أمرًا ما صادق.

Gottlob Frege, "The Thought", in P. F. Strawson, ed., Philosophical Logic (Oxford: Oxford University Press, 1967), p. 35.

(١٠) Strawson, in Pitcher, Truth, p. 38.

(١١) لا شك أن مثل هذه العبارات من الممكن أن نعبر عنها بالتقريب بأساليب لا تذكر الوقائع، غير أن هذا خارج الموضوع، فنحن معنيون هنا بأنّ هذه التعبيرات التقريبية تجعل للعبارات معنى – لم يكن لها من قبل – يمنحها سلطة العلل المسبّبة.

(١٢) انظر الأمثلة على هذه الآراء فى:

F. P. Ramsey, "Facts and Propositions", Proceedings of the Aristotelian Society, supp. vol. 7 (1927),

أعيد طبعه فى:

Pitcher, ed., Truth; P. Horwich, Truth (Oxford: Basil Blackwell, 1990), and W.V.O. Quine, Pursuit of Truth, rev. ed. (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1992).

(١٣) للاطلاع على المزيد من هذه الفروق المميزة انظر:

J. R. Searle, Intentionality (Cambridge and New York: Cambridge University Press, 1983), p. 13.

(١٤) هاكم الحجة التى ساقها دفيدسون برمتها:

Davidson: Inquiries into Truth and Interpretation (Oxford: Clarendon Press, 1984), p. 42.

إذ يقول: هذه المبادئ هى:

لو تطابقت العبارة مع الواقعة التى نعبر عنها بصيغة "الواقعة ب" ثم تطابقت هذه العبارة مع الواقعة التى نصفها بصيغة "الواقعة ق"، فإن هذا يفضى إلى أمرين:

١ إما أن الجمل التى تحل محل الرمز "ب" والرمز "ق" تتكافأ من الناحية العقلية المنطقية.

٢ - أو أن الرمز "ب" يختلف عن الرمز "ق" فحسب فى الرمز المفرد الذى حل محله رمز اخر يشغل الحيّز نفسه. والدليل القاطع يمكن التعبير عنه على النحو التالى: لندع الرمز "ث" يختزل عبارة صادقة ما، وهنا سنجد بالتأكيد أن عبارة "ث" تتطابق مع الواقعة "ث" غير أنّنا قد نستبدل "ث" الثانية بما يكافئها من الناحية العقلية المنطقية من مثل أن (الرمز س من حين تتطابق س مع ديوجينز والرمز س) يتطابق مع (الرمز "س" حين تتطابق س مع ديوجينز). وبتطبيق المبدأ الذى يتيح لنا أن نستخدم مصطلحات مفردة بديلة تشغل الحيز نفسه، يصير بإمكاننا أن نستبدل الرمز "ت" بالرمز "ث" فى الجملة الأخيرة بين علامتى التنصيص، وعلى هذا النحو يكون الرمز "ت" صحيحًا. وفى النهاية إذا عكسنا الخطوة الأولى نخلص إلى أن عبارة "ث" تتطابق مع الواقعة "ت" حيث يكون كل من "ث" و"ت" رمزا لأى عبارة صادقة.

(١٥) هناك عدد من الانتقادات التى وجهت إلى برهان ضربة المقلاع القاضية، وأعتقد أن أقربها إلى وجهة نظرى نجده فى:

J. Barwise and J. Perry, Situations and Attitudes (Cambridge Mass.: MIT Press, 198

لم يكن" كانط" ليعير تلك الأمور اهتماما بطبيعة الحال ،لأن الفلاسفة في عصره كانوا منشغلين في المقام الأول بقضية المعرفة . knowledge ثم انشغلوا من بعد ذلك بقضية اللغة، أما الفيلسوف الذي نحن بصدده الآن فإنه منشغل على الأقل ببعض السمات البنيوية العامة في ثقافتنا الإنسانية.

الخاتمة

يكمن الدافع من وراء النقاش الذى أجريته فى هذا الكتاب فى المقابلة التقليدية التى نميل إلى تصورها بين علم البيولوجيا و الثقافة، تلك المقابلة - شأنها شأن المقابلة التقليدية بين الجسم والعقل - قد وجهت وجهة خاطئة . تماما مثلما نجد أن الحالات العقلية هى إحدى خصائص جهازنا العصبى التى تعمل فى مستوى أعلى من المستوى البيولوجى، ومن ثم لا نجد تعارضا بين العقلى والجسدى، فالعقلى ببساطة هو مجموعة من الخصائص الفيزيائية الخاصة بالعقل، حين نصفه من مستوى أعلى من مستوى الخلية العصبية ؛ لذلك فلا تعارض بين الثقافة و البيولوجيا، لأن الثقافة هى الصيغة التى تتخذها البيولوجيا. ومن غير الممكن أن يوجد تعارض بين الثقافة والبيولوجيا، لأنه لو كان ثمة تعارض لفازت البيولوجيا، وما الثقافات المختلفة سوى أشكال مختلفة تتجلى فيها البنية البيولوجية التحتية. لكن لو كان هذا صحيحا لكان لابد من وجود صيغة أو أكثر للانتقال من أونطولوجيا البيولوجى إلى أونطولوجيا تنطوى على أشكال ثقافية و مؤسسية، دون أن يكون من الضرورى أن يحدث أى انقطاع جذرى. لا يدهشنا أن الاصطلاحات التى تربط بين البيولوجى والثقافة هى الوعى القصد العقلى. فتجلى مظاهر القصد العقلى مما يميز الثقافة، خاصة حين تسند الجماعة الوظائف إلى ظواهر لا تتمكن من القيام بها بفضل من خصائصها الفيزيائية المحضة. فمن عملات ورقية فئة الدولار، إلى الكاتدرائيات، و من مباريات كرة القدم إلى الدول، حيث نواجه على الدوام وقائع اجتماعية جديدة تجاوز الخصائص الفيزيائية الكامنة داخل الواقع الاجتماعى.

ومع ذلك ، فعلى الرغم من أن هناك على الدوام قدرًا من كيمياء المواد حاملة نبضات الإشارات العصبية - من مثل السيريتونين seretonin والنوريباينفراين

norepinephrine [نورأدرينالين] تحمل ما تنطوى عليه مثل تلك الحالات الذهنية، كالاعتقاد بأن الروائى بروست Proust افضل من الروائى بلزاك Balzak، فإن الحالات العقلية تتميز من الظواهر الفيزيائية الأخرى ؛ فهى إما أن تكون واعية بالفعل وإما واعية بالقوة [أى أن تكون قادرة على أن تكون واعية]. وحيثما يتعذر الفهم الواعى، على الأقل من حيث المبدأ، يتعذر وجود حالات عقلية. و بالمثل، على الرغم من وجود استمرارية فى السلوك الجماعى بين الأسود التى تهاجم ضبعا، والمحكمة الدستورية العليا التى تصدرالقرارات المؤسسية، فالأبنية المؤسسية تتميز بسمات تخصها، أعنى أنها ذات أشكال رمزية. إن القدرة البيولوجية على أن تجعل شيئا ما يرمز - أو يعنى أو يعبر - عن شىء يجاوزه، هى القدرة الأساسية التى تكمن فى اللغة، بل فى أعماق كل أشكال الواقع المؤسسية الأخرى كذلك. اللغة نفسها بنية مؤسسية لأنها تقتضى فرض نوع بعينه من الوظائف على موجودات فيزيائية صريحة عارية [خام] لا صلة طبيعية تربط بينها وتلك الوظيفة. فأنواع بعينها من الأصوات والعلامات نعدها كلمات وجملا، كما نعد أنواعا بعينها من الأقوال أو الألفاظ أفعال كلام، نفرض عليها أن تعبر و تمثل ذ فى شكل أو سواه من أشكال أفعال الكلام - للأشياء الموجودة فى العالم. إن كُل [من أو ما] يمكنه القيام بهذا بطريقة جماعية يكون بالضرورة لديه سلفا ما يعد أساسا لكل الأبنية المؤسسية الأخرى، كالنقود والممتلكات والزواج والحكومات والجامعات، وكلها توجد عن طريق أشكال الاتفاق الجماعى التى تقتضى فى الأساس امتلاك القدرة على الرمز.

قائمة المصطلحات

قدرات - إمكانات .... abilities

متيسر- فى متناولنا .... accessible

يتعذر بلوغه - إدراكه .... inaccessible

وظائف مسندة/ غير مسندة .... agentive none agentive functions

التباس - غموض .... ambiguity

جزافية .... arbitrariness

الحساب العددى .... arithmetic

من وجهة نظر ما .... aspectual

أسند - فرض .... assigned

مواقف - ميول .... attitudes

يعيد بناء نفسه ، كأنظمة الخلايا العصبية مثلا .... autopoietic

الخلفية .... Background

النزعة السلوكية .... Behaviorism

عمياء - غفل .... Blind

حقائق عارية وقائع صريحة .... brute facts

قوة صريحة محضة .... brute force

قوة مادية صريحة - محضة .... brute physical force

دعائم .... Building blocks

Bureau of Engraving and Printing .... مصلحة سك العملة

capacities .... قدرات - طاقات

dramatic categories .... المقولات الدرامية

causality .... سببية

causal functioning of institutional .... الأسباب الوظيفية الدافعة لإعمال الأبنية

structures .... المرتبطة بالمؤسسة للقيام بوظائفها

central bank .... البنك المركزى

certified .... مصرح به - مرخص - معتمد

circularity .... الوقوع فى دائرة مفرغة

codification .... حصر و تصنيف و تبويب

cognitive science .... مبحث الإدراك المعرفى

common low marriage .... الزواج المدنى

commonsense ideas .... أفكار شائعة - مألوفة

communicable .... من الممكن تناقله و الإبلاغ به

system of concepts .... منظومة مفاهيم

conception .... تصور - رؤية

Conceptual relativity .... الانطلاق من منظور يرتبط بمفهوم بعينه عن

Conceptual schemes .... خرائط للفهم

conditions .... شروط

connectionist model of cognition .... نموذج الإدراك المعرفى الرابط

connection strengths .... قوى شحنات الربط العصبية

connectionism .... نزعة الربط الفلسفية

connectives (logical) .... الروابط المنطقية

conscious agents .... الذوات الفاعلة الواعية

consciousness .... الوعى - الإدراك العقلى

disembodied consciousness .... الوعى غير المتجسد

constitutional .... مقوم أساسى لقيام

constitutive rules .... القواعد التأسيسية

construction .... بناء - إقامة - تشييد

physical construction .... البناء الفيزيائى

Social constructionism .... صنعة اجتماعية - "البنينة" الاجتماعية

contract money .... سند مالى

public convention .... العرف العام

conventional devices .... صيغ تعارفنا عليها وربطناها بالمعنى جزافا دون أن يلزم شىء من بنيتها بهذا الارتباط

coreferential .... تعدد الإشارات لمشار إليه

correspondence theory .... نظرية التطابق - التراسل

corresponding .... مطابق

count as .... يعد - يكون بمثابة

Counterexample .... مثال مضاد - شاهد نفى

counterfactual supposition .... فرضية مضادة

creating .... صنع - إيجاد

Crisscrossing distinctions .... فروق متقاطعة

criteria .... معيار

criteria of assessment .... معيار تقييم

declaration .... التصريح بـ - إعلان

decisive .... حاسم - فاصل - قاطع

definition .... تعريف

deontic .... أخلاقى مرتبط بالواجب وبالظواهر، لا بالوجود الأونطولوجى، ولا بالتحليل والرصد العلميين

deontic status .... المنزلة الأدبية الأخلاقية - المكانة

dependenteat /independent .... غير مستقل - يعتمد على - لا غنى له عن/ مستقل - لا يعتمد على - بمعزل عن

Determinism .... الحتمية

Ding an sich .... الشىء فى حد ذاته - بذاته

disciplines .... المثول للأنظمة

Disqoutation .... حذف علامات التنصيص

divinely authorized .... خولته السماء فى

empirical proof .... برهان - دليل إمبيريقى - يمكن فحصه وتجربته

entries in books .... دفتر الوارد

Eo ipso .... هو فى ذاته

epistemology .... مبحث المعرفة

epistemic-objectivity/subjectivity .... الموضوعية / الذاتية الإبستمولوجية

Essential .... أصلى - جوهرى

ethics .... أخلاقيات سلوكية

Facts .... وقائع - حقائق

Real facts .... وقائع حقيقية

brute facts .... وقائع صريحة - حقائق عارية

institutional facts .... وقائع ترتبط بالمؤسسة

False .... كاذب - زائف - خاطئ

fallacy .... مغالطة - توهم

fields of forces .... مجالات الطاقة - القوى حقول الطاقة

formal structure .... شكل البنية - البنية الصورية

formula .... صيغة رمزية رياضة منطقية - معادلة

proper function .... الوظيفة الأصلية

derived proper function .... وظيفة مستمدة من الوظيفة الأصلية

Game Theory .... نظرية الألعاب

hierarchy .... تدرج هرمى

hierarchial .... متراتب

honorific status .... منزلة شرفية

identical .... مطابق

identify .... يعرِّف

self identification .... يدل على ذاته

idioms .... تعبيرات جارية

inclinations .... إحالات

indicating devices .... صيغ الإشارة

Individualism .... النزعة الفردية

infinite regress .... الدوران فى دائرة مفرغة - عود على بدء

input /output .... البيانات المدخلة/ البيانات المخرجة

institution .... مؤسسة

institutional reality .... الواقع المرتبط بالمؤسسة

instance .... شاهد

intellectual .... فكرى

intelligibility .... إمكان التثبت من

Intensionality .... إعتام الإشارة حيث لا يمكننا أن نقيس المدلول و لا أن نستبدل الدال بمماثل ولا أن نستبدل بالعبارة ما يساويها

intentions .... مقاصد

Intentionality .... القصد العقلى

Collective Intentionality .... القصد العقلى الجماعى

intrinsic .... جوهرى - أصلى

intuitive .... بسيط - حدسى - بداهة

intuitively .... بداهى

ipso facto .... فى حد ذاته

التكرار ومعاودة التراتب	iteration
على المستوى الفردى	microlevel
على المستوى الجماعى	macrolevel
النظام الاستبدادى	Leviathan
المنطوق اللفظى	locutionary
الكلام المؤثر غفى السامع بدفعه للقيام بفعل	illocutionary
الأفعال المتعلقة بتأثر السامع واستجابته	perlocutionary
المنطق المرتبط بالظواهر الاجتماعية والواجب الأخلاقى - على خلاف التحليل والرصد العلمى للظواهر والوجود الأونطولوجى	deontic logic
منطق الاحتمالات والضرورة لا(فى أسلوب الشرط)	alethic modal logic
المنطق الحملى	quantificational logic
علاقات منطقية	logical relations
ضرورة منطقية	logical necessity
المناطقة الوضعيون	logical positivists
هامشى - واقع فى منطقة بينية، تتداخل فيها الحدود	marginal
الثدييات	mammals
الرياضيات الحسابية	mathematical
وسيط للتبادل	medium of exchange
القوة العسكرية	military power

mind independent reality presence .... وجود - واقع بمعزل عن إدراك عقولنا له
أى لا يعتمد على إدراكنا فهو موجود سواء
أدركناه أم لا

Miniworld .... الوجود المصغر

Morals .... مبادئ الأخلاق - أسسها

Negative Big Bang .... الانفجار الكونى المدمر

neuronal net modeling .... نموذج شبكة الخلايا العصبية

node .... نقطة تلتقى فيها الإشارات ثم تتفرع منها
(كما فى الخلايا العصبية)

normal understanding .... الفهم المعتاد - الذى ألفناه

normative/formative .... معيارى ، وصفى

normative components .... مكونات معيارية

noun phrase .... عبارة اسمية

material object .... الموضوع المادى

objective/subjective .... موضوعى/ ذاتى

obligations .... التزامات

observers .... من يلاحظون - من يدركون

observer relative .... لا يوجد إلا على صلة لوعينا به

old federal reserve board .... أوراق عملة الاحتياطى الاتحادى القديمة

ontology .... طبيعة الوجود

operation .... عملية - إجراء

operating through time	متصل- لا ينتطع
ordinary	عادى - جارٍ
ordinary sense	بالمعنى الذى ألفناه - المعتاد
organized	وضع فى منظومة - متسق - منظم
out there	ويوجد) خارجنا ، بغض النظر عن وجودنا - ليس من صنعتنا - ولم ننتجه
paradigm	النموذج الإرشادى
paradigmatic	الوحدة اللغوية فى علاقتها بالوحدات التى كان من الممكن أن تحل محلها فى نفس الوضع (رأسيا)
syntagmatic	الوحدة اللغوية فى علاقتها بالوحدات المجاورة (أفقيا)
perceptions	مدركات حسية
performative utterances	أقوال أدائية -إنجازية يسرى مفعولها بمجرد النطق بها
pervasive	منتشر - غالب
Phenomenology	الفنمنولوجيا - الظاهراتية
phenomenological idealism	الظاهراتية المثالية
internal Phenomenological point of view	من وجهة نظر فنمنولوجية باطنية - حيث يتجلى الظاهر فى مرآة الشعور والحضور الذاتى
political offices	مناصب سياسية

Possibilities .... إمكانات

Postulate .... يسلم بـ – يفترض

power .... قوة – سلطة – نفوذ – قدرة

Predicate .... الخبر النحوى – المسند

practices .... ممارسات

linguistic pragmatics .... تداول الوحدات اللغوية

Pre-linguistic .... مرحلة تسبق اللغة

preliminary .... تمهيدى

presuppose .... يقتضى سلفا – يفترض بداءة

presupposition .... دعوى – مسلمة ذاتية – زعم – فكرة مستصحبة

primacy .... أولوية

primary .... أولىّ

primitive .... بدائى –

Prior .... أسبق – سابق على

priority .... أسبقية – أولية

private and public .... الخاص و العام

procedural .... ذات طابع يتسم بالمرحلية

proceed .... يشرع فى

processes .... عمليات إجرائية، متعاقبة (لها سيرورة)

parallel distributed processing .... نسق عمليات التوزيع المتوازى

symbol-processing steps .... رموز خطوات العمليات التنفيذية

product .... المنتج

proof .... برهان

properties .... ملكية – حيازة

proper name .... اسم العلم

proposition .... فرضية

public language .... اللغة الجارية

Publicly .... على الملأ – علانية

Purists .... أصحاب دعوى النقاء – تنقية اللغة من الدخيل مثلا

purposes .... غايات – أهداف نرمى إليها

qualification .... خاصية نوعية

quantifiers .... النسب الكمية

rational .... عقلانى (ليس حدسيا و لا محسوسا)

real facts .... الوقائع الحقيقية- الفعلية

reality .... عالم الواقع

institutional reality .... الواقع المرتبط بالمؤسسة – الرسمى

realism .... النزعة الواقعية فى الفلسفة

antirealism .... ضد الواقعية لا مضاد للواقعية

ethical realism .... الواقعية الأخلاقية السلوكية

external realism .... الواقعية الخارجية – وجود واقع خارج وعينا به ، يتيسر لنا إدراكه

واقعية القصد العقلي .... intentional realism

الواقعية الوصفية .... modal realism

الواقعية الرياضية .... mathematical realism

عالم الواقع .... real world

سبب جوهرى .... deep reason

يعرف لا يدرك .... recognize

قابل للتطبيق الدائم .... recursive

إطناب .... redundant

تشير إلى .... refer

الشيء المشار إليه الخارجى .... referent

الإحالة عن طريق الدال أو الإشارة .... referentiality

يحيل إلى ذاته لا يستمد معناه من داخل نسقه أو منظومته .... self-referentiality

إعتام الإشارة، أى غموض ما تحيل إليه .... referential opacity

تعدد الإشارات بحيث نخفق فى أن نستبدل بالإشارة إشارة أخرى تعطى مشارا إليه يكافئه، ومن ثم تختل قيمة صدق العبارة. .... co-referential

تعدد الإشارات إلى مدلول - تعبيرات مكافئة .... Co-referring

يفند - يدحض .... refute

متعلقة بسواها - غير مستقلة بذاتها .... relational

repository of value .... الاحتفاظ بالقيمة

representations .... الأشكال التى نمثل بها العالم ونصوره عليها

reproduction .... التكاثر

constitutive rules .... القواعد التأسيسية

regulative rules .... القواعد التنظيمية

satisfying .... يستوفى شروط التعبير عما يرمى إليه الكلام

schematic .... تخطيطى

selectional advantage of cooperative behavior .... مزية الانتقاء فى السلوك المتسم بالتعاون

sentient .... المخلوقات الواعية

sensibility .... الوعى

sensitivity .... الحساسية سرعة التأثر

slava veritate .... لها نفس الحجم أو الامتداد مكافئة

social construction .... صنعة اجتماعية (البنينة الاجتماعية)

social reality .... الواقع الاجتماعى

Solipisism .... من لا شىء موجود سوى "أنا" و كل وجود من خلالنا (الذات)

Speech Acts Theory .... نظرية أفعال الكلام، و هى جزء من الحدث الكلامى

speech event .... الحدث الكلامى

standards	مقاييس
standard of truth	مقياس صدق
Standard Textbook Account of Money	الكتاب المرجعى فى شئون المال
(to) state	ينص على - يصرح ب
state and federal taxes	الضرائب القومية والمحلية
city-state	عاصمة المحافظة (مركز - بندر)
statement	عبارة - مقولة - مقدمة فلسفية
states of affairs	الحالات أو الأوضاع
status	منزلة - مرتبة - مكانة
status function	وظيفة تؤدى بمقتضى منزلة أو مرتبة ما - وضع وظيفى
status indicators	مؤشرات دالة على منزلة - مرتبة
deontic status	المكانة الأدبية - الأخلاقية (داخل منظومة المجتمع فى مقابل الأونطولوجى)
pure status	مجرد منزلة دون أن تفرض القيام بوظيفة (فخرية)
stipulated	استصحب
store of value	سبيل للاحتفاظ - اختزان - بالقيمة
structure	بنية - تركيب - نسق
supply of money	اعتماد مالى
symbolic	رمزى
symbolization	ترميز - صناعة الرمز

synchronically/diachronically .... بنحو متعاقب / متزامن

system .... نظام - نسق

systemic .... خاص بمنظومة -

systematic .... متسق - منهجى

systems of constitutive rules .... أنظمة القواعد التأسيسية

taxonomy .... صنف داخل تصنيف

teleology .... الغائية

tendencies .... مواقف - اتجاهات - ميول

tender .... تعهد (سند)

legal tender for all debts .... تعهد قانونى بسداد الديون

terms .... مصطلحات - تسميات

technical terms .... مصطلحات فنية - تقنية

tectonic .... من سطح التربة

terminology .... الاصطلاح

thesis .... فرضية

سندات ملكية

title deeds .... علامات رمزية بديل، كالماركات

tokens .... البلاستيكية بدلا من النقود

type-tokens .... نمط العلامة الرمزية البديلة

transaction .... إجراء-قيام بـ

transcendental .... متعال - مفارق - ترانسندنتالى

وزارة الخزانة	treasury
صحيح - صادق	true
الحقيقة - الصدق	the truth
شروط الصدق	truth conditions
قيمة الصدق	truth value
النحو الكلى (تشومسكى)	universal grammar
أقوال منطوقة أو منصوص عليها	utterances
ذو جدوى	valid
القيم	values
مبدأ التحقق والإثبات	Verification Principle
قلادة من الصدف يستخدمها الهنود الحمر فى تعاملاتهم المادية	wampum

المؤلف فى سطور

چون ر. سيرل

انشغل سيرل بنظريات المعنى فى مقاربة المعنى الواقع ومفارقته له. لاسيما وقد أرقه توسع اللغويين الحداثيين فى مفهوم العلامة، وتضييق حدود اللغويات، بالاهتمام بالكلام لصالح اللغة، وبالانشغال بالسؤال عن العلة بدلا من الانشغال بالسؤال عن الكيفية. كذلك أرقة تصورات التفكيكيين الخاصة بالدلالة المراوغة، والمعنى المرجأ، والأثر وما تحت الكشطة.

طور سيرل جهود أستاذه "أوستين" - فيلسوف مدرسة أوكسفورد، صاحب كتاب "كيف نفعل الأشياء بالكلمات" مميزًا بين أفعال الكلام الأدئية performative والتقريرية constative.

أسهم سيرل فى مجال فلسفة اللغة بأكثر من مؤلف، أهمها على الإطلاق كتابه فى نظرية أفعال الكلام speech Act Theory. حيث ناقش تصنيف أوستين أفعال الكلام.

المترجمة فى سطور

حسنة عبد السميع محمود

حصلت على الليسانس والماجستير والدكتوراه فى الآداب، من جامعة عين شمس قسم اللغة العربية وآدابها.

أ - عضو هيئة التدريس فيه.

من أهم مؤلفاتها المنشورة:

١ - أحلام الخيال الفنى: مستويات الدلالة فى شعر ذى الرمة، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، سلسلة دراسات أدبية، ١٩٩٨.

٢ - سيميوطيقا اللغة وتحليل الخطاب: الإعلان التليفزيونى، دار عين، القاهرة، ٢٠٠١.

٣ - الترابط النصى فى سورة الكهف، أعمال المؤتمر الدولى الثالث للنقد الأدبى، المنار العربى، القاهرة ٢٠٠٦ وقد قبل للنشر بمجلة الدراسات القرآنية بجامعة لندن، كلية الدراسات الشرقية والإفريقية SOAS بالمجلد العاشر ٢٠٠٨.

ومن أهم ترجماتها

١ - الاسم النعت: لغة الاصطلاح فى تسميات الحيوان ورموزه فى الشعر العربى القديم تأليف ياروسلاف ستيتكفيتش، مجلة فصول، المجلد ١٤، العدد ٢، صيف ١٩٩٥.

٢ - مدخل الألف ليلة وليلة، تأليف ديفيت بينولت، مجلة فصول، المجلد ١٢، العدد ٤ شتاء ١٩٩٤.

٣ - نمط من أنماط الميلاد الجديد، تأليف كارل جوستاف يونج، مجلة الألسن للترجمة، المجلد ٥، يونيو ٢٠٠٤.

المراجع فى سطور

إسحاق عبيد

أستاذ متفرغ لتاريخ العصور الوسطى الأوروبية. فى كلية الآداب جامعة عين شمس

● له العديد من الدراسات والأبحاث فى مجال التخصص الدقيق، وكذلك كثير من الترجمات عن الإنجليزية منشورة ضمن المشروع القومى للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة.

● عضو فى العديد من الجمعيات الألية، ومنها: الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، واتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، وكذلك الجمعية المصرية للدراسات اليونانية والرومانية ولجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة.

التصحيح اللغوى : موسى عجلان
الإشراف الفنى : حسن كامل

أراد سيرل أن يعيد للواقع هيبته مثيرا السؤال حول وجود واقع خارجنا لا يعبأ بوجودنا ولا بلغتنا، غير أنه لا يتعذر علينا أن نقاربه. بعد أن أزعجته مبالغة أصحاب النزعة المثالية، وخفاء اللاوعي مستعصيا على الرصد، وأرّقه التوسع الحداثي في مفهوم العلامة، واستحالة المعرفة، والتلاعب باللغة، والتأرجح بين الإخفاء والبوح، والانتهاك، وخداع الشكل. أرقته نزعات الشك، كما أزعجه تضييق اللغويين حدود اللغويات، مقللين من شأن "الكلام" لحساب "اللغة" ومن قيمة القصد العقلي لحساب الاستجابات الفطرية. وقد دفع بعض أنصار الحداثة أصحاب "نظرية أفعال الكلام" زاعمين أنه لا مساحة للغة الخيال عندهم ولا اعتراف بالمجاز، زاعمين أن مصدر خطأ جون سيرل يكمن في أنه لم يفهم الفرق بين الفلسفة الأنجلوأمريكية وفلسفة القارة الأوربية. مما دفعه لتصور أن اللغة لا تعيش إلا في وضوح، وفي هذا اجتراء على اللغة وتصور إمكان السيطرة عليها. ولا ينطبق هذا بحال على لغة الأدب، لأنها تتوهج في المجاز؛ ويتضاعف معناها بالإزاحة والتكثيف والإعتام. كما أنه لا يتفق مع لغة الفلسفة التي تتناول المجرد، وتخلف وراءها مساحات من الصمت.

تصميم الغلاف : وائل أحمد